لؤي عبد الإله

جاذبية الصفر

WEIGHTLESSNESS

رواية

الأعمال الكاملة 2

ألف ياء
Alf Yaa

جاذبية الصفر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المؤلف: لؤي عبد الإله

الكتاب: جاذبية الصفر (رواية) ـ الأعمال الكاملة 2

صدرت النسخة الرقمية: أيار/ مايو 2025

صدرت الطبعة الأولى عن دار دلمون الجديدة عام 2023

- **الناشر: "ألف ياء AlfYaa"**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net

- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**"ألف ياءAlfYaa"**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
"ألف ياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأعمال الكاملة 2

لؤي عبد الإله

جاذبية الصفر

WEIGHTLESSNESS

رواية

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

«AlfYaa منشورات «ألف ياء

"الآلـهة تـحوك النحس لشعـب ما

كـي تملك الأجيالاللاحقة شيئاً ما تُغنّـي عنـه."

هوميروس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفهرس

تمهيد 0
المظروف الأول: بيولوجيا الهوامش (1) 17
المظروف الثاني: فردوس أرضي (1).. 47
المظروف الثالث: جاذبية الصِّفْر (1) 67
المظروف الرابع: غُثْرات بيضاء 91
المظروف الخامس: بيولوجيا الهوامش (2)..................................... 107
المظروف السادس: بلا عنوان (1)... 135
المظروف السابع: الأخدود 149
المظروف الثامن: هذيان آخِر الليل 167
المظروف التاسع: جاذبية الصِّفْر (2)... 175
المظروف العاشر: متاهة المينوتور (1) 199
المظروف الحادي عشر: "نهاية العالم" 207
المظروف الثاني عشر: متاهة المينوتور (2)................................... 219
المظروف الثالث عشر: بيولوجيا الهوامش (3) 233
المظروف الرابع عشر: بَوصَلة الوهم... 251
المظروف الخامس عشر: شِباك غير مرئية...................................... 267
المظروف السادس عشر: كرة الثلج (1)... 277
المظروف السابع عشر: أشباح الماضي (1) 293
المظروف الثامن عشر: فردوس أرضي (2)...................................... 309
المظروف التاسع عشر: أشباح الماضي (2) 329
المظروف العشرون: مفاجأة غير متوقعة 339
المظروف الواحد والعشرون: بوصلة الوهم (2) 353
المظروف الثاني والعشرون: مدينة مسحورة 379
المظروف الثالث والعشرون: للحياة وقت 407
المظروف الرابع والعشرون: ألعاب ناريّة 427
المظروف الخامس والعشرون: قيامة مصغَّرة 451
المظروف السادس والعشرون: العود الأبديّ.................................... 473
المظروف السابع والعشرون: أضرار جانبية 491
المظروف الأخير: أخبار متأخرة 515

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تمهيد

عند سحبي الحقيبة من جوف الحافلة الجانبي، لم يخامرني أي شك بأنها نفسها التي رافقتني طوال رحلتي القصيرة بين لندن وبرلين، ذهاباً وإياباً، فلونها الأسود وحجمها وعلامتها التجارية لا تشي بأنها حقيبة أخرى، ولم أكتشف الحقيقة إلا بعد وصولي إلى بيتي الواقع في ضاحية منسية على الطريق الرابط بين مطار "سْتانْدْسْتَيد" ومحطة فيكتوريا.

لا بدّ من الإشارة إلى أن مستودع الأمتعة، عند انفتاحه اوتوماتيكياً، كان خالياً من أي حقيبة أخرى لها نفس مواصفات حقيبتي، ولعل ملامح نفاد الصبر على وجه السائق الشاب، جعلتني أتجاهل تلك الفروق الضئيلة بينهما، وأتعجل في سحبها، لكن عينَي زوجتي الحادتين كشفتا الحقيقة حال إلقائها نظرة واحدة عليها ."ماذا جلبتَ معك؟" قالت ضاحكة، لكأنها أرادت تأكيد تفوق احترازها وانتباهها على ما لديّ، ولعل ذلك جعلني مصراً على خطأ حكمها، فأمضي، غير مبالٍ بتعليقاتها الساخرة، في فتح الحقيبة.

أستطيع الآن إدراك الفارق الذي لحَظَته زوجتي فيها: إنه القِدَم: حتى مع احتفاظ الحقائب بصلابتها يغور الزمن في

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عروقها فتبهت ألوانها، حتى لو كانت غامقة السواد، وهذا ما لم أره.

لم تحتوِ الحقيبة على أشياء كثيرة، ومن اللحظة الأولى، أدركتُ أنها ليست لي. كذلك، فإن بطانتها الرمادية الذاوية بفضل تأصل العث فيها كشفت بوضوح عن قِدَمها المفرط. وما عمّق هذا الأحساس فيَّ، التنظيم الدقيق لمحتوياتها، فالكنزة الصوفية والقميص والسروال مصففة بعناية شديدة، وفوقها كانت هناك محفظتا جلد صغيرتان لونهما مائل للأحمر القرمزي، وفي كل منهما سحّاب. كذلك كانت الشبكة الفاصلة ما بين غطاء الحقيبة الصلب وحاويتها محملة بملابس داخلية بيضاء مصففة بنظام صارم.

عند فتحي سحّاب المحفظة الأقرب لي، اتسعت عينا زوجتي، وفيهما قرأتُ دعوة للتوقف عن المضي في العبث بأشياء شخص غريب عني.

قلتُ مخففاً عنها قلق المسؤولية القانونية التي اعتادت التصريح بها كلما اقتربتُ من الخط الفاصل بين الشرعي واللاشرعي: "لا تخافي، هذا مجرد فضول... لن أمسّ أي شيء فيها."

غير أن الفضول تضخم كثيراً في صدري عند اكتشاف عينيَّ رُزَماً متجاورة من المظاريف القديمة، قابعةً في قاع الحقيبة، ومخبأةً تحت ورق بلاستيكي سميك وشفاف، غطى بالضبط طولها وعرضها.

رفعتُ بحذر وتأنٍ قطع الملابس المصففة واحدةً بعد الأخرى، ووضعتها على مائدة الطعام. ها هي يدي تتسلل لتسحب الرزمة الموضوعة بجانب الحافة اليمنى من الحقيبة.

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

أمامي الآن مظاريف خمسة مشدودة معاً بشريط فضي على شكل صليب، وعلى وجه الأول منها نُقِشت كلمات انجليزية غامضة في معناها وطريقة كتابتها. استطعتُ أن أقرأ آنذاك اسم المرسَل اليه فقط، من دون أن يكون هناك أثر لعنوانه: ج.م.

وكأن ذلك الاسم على ظهر المظروف الطيني اللون طلَّسَم فتح لي سر الحقيبة على مصراعيه. أستطيع الآن من وسط فوضى غرفة الطعام في بيتي أن أرى صاحبها الحقيقي يمشي على بعد خطوات أمامي في قاعة مطار "سْتانْدْسْتَيد"، ومعه يتردد صرير عجلات حقيبته المتخلخلة وهي تتقدم على الأرضية الصقيلة.

لعل ذلك الضجيج كان ناجماً عن حركته المتسارعة التي جعلت قدميه تبدوان متحررتين من الجاذبية الأرضية. ولا أستبعد أن انطباعاً قوياً تشكّل في نفسي بأنه مسافر دائم، لا تكاد الطائرة تهبط به في مدينة ما حتى ينتابه الضجر ليدفعه إلى الطيران عشوائياً صوب مدينة أخرى.

بعد وقوفي في طابور طويل، صعدتُ سُلَّمَتَي الحافلة المنشودة، فأغلق السائق بابها على الفور، وعند تقدمي في الممر الفاصل بين صفَّي المقاعد شاهدته جالساً بجانب النافذة وعيناه ساهمتان صوب السماء الملبدة بالغيوم الرمادية، بينما كان المقعد المجاور له فارغاً، فجلست عليه من دون أي تردد.

لم يتطلب الأمر جهداً كبيراً كي نكتشف وجود آصرة تجمعنا: كلانا من أصل عربي. مع ذلك، ظل جاري ميالاً للحديث معي بالإنجليزية كلما وجد نفسه مضطراً إلى الإجابة عن سؤال أو تعليق ما يحضرني، وكأنه بذلك كان يريد قطع إمكانية أي تواصل مستقبلي بيننا.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أتـذكر أننـا تحـدثنا عـن الطقـس البريطـاني، كيـف أن أيـام الصحو تعقبها غالباً عواصف وأعاصير وأمطار، وكأنها الثمن الذي يجب دفعه مقابل الأيام المبهجة القليلة. أمامنا كانت النافذة تكشف طريقاً مضبَّباً قليلاً، مـائلاً لِلَون تبنـي باهت، بينمـا بـدت الشجيرات المزروعة علـى جـانبي الطريـق أشبه بظـلال تماثيل داكنـة، تتفكك بـين لحظـة وأخـرى بفعـل المطـر الخفيـف الـذي ظلـت ماسـحتا الحافلـة العملاقتـان تطردانـه بانتظـام مـن أمـام السـائق. بالمقابـل، كانـت هنـاك شاشـة تليفزيونيـة منصـوبة فـي أعلـى يسـار النافـذة الأماميـة الواسـعة، تنقـل باسـتمرار صـور الشارع المتغيرة، لكنها على الرغم من نقلها نفس الصور كانت تنقلها بشكل آخر. قال جاري من دون الالتفات إلي: "ما نـراه ليس الواقع كما هو بل هو واقع افتراضي."

"كيف؟" سألتُ مستغرباً.

"إذا نظرتَ إلـى الواقـع المعكـوس علـى الشاشـة ستجده أكثر كثافة من الواقع الذي تلتقطه عينـاك إلـى يمينهـا، وأجمل بكثير. صور الكاميرا الذكية اليوم تحاكي الواقع أكثر من أن تنقلـه كمـا هو."

وحين واجه صمتي، تمتم كأنه يحدِّث نفسه: "هـي تسـعى إلـى جعلنا نتخلى عن تواصلنا مع الواقع مباشرة، ونقبل بتأويلهـا لـه كما تشاء."

التفتَ إليّ فجأة، متطلعاً لحظـة فـي وجهـي، ثـم ردد ضـاحكاً: "لن يكون اليوم بعيداً حين تكفّ عن رؤيتـي فـي الواقـع مفضـلاً صـورتي. الكثيـر مـن النـاس أصـبحوا أسـرى صـورهم علـى الشاشة."

غيـر أن وجومـاً غامضـاً عـلا وجهـه، وتعمقـت الغضـون

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المستقيمة الثلاثة على جبهته العريضة، بينما تقلصت حدقتا عينيه، وأصبح الانتفاخ تحت عينيه أكثر وضوحاً،

"حتى الحروب أصبحنا نستمتع بمشاهدتها عبر الشاشة، فهي ما عادت كالسابق بشعة بدماء قتلاها وجثثهم المقطَّعة؛ كل شيء أصبح نظيفاً وأنيقاً، ولا بأس أن نتابعها كما نتابع مباريات كرة القدم."

قلتُ تعبيراً عن عدم موافقتي، على الطريقة الإنجليزية الدبلوماسية، وإنهاءً لخطاب جاري المتشائم: "لا أدري... أنا مجرد مترجم محلَّف، لا أفهم بالتكنولوجيا الحديثة كثيراً."

بعد صمت قصير، التفت إليّ وقد علت وجهه ابتسامة غامضة، ليقول بنبرة حماسية جعلتني أظن، آنذاك، أنه كان يسخر مني: "عظيم."

ساد الصمت بيننا، بعد إخراجي لهاتفي الجوال من حقيبتي اليدوية، وانشغالي بكتابة رسالة نصّية لزوجتي، بينما راح جاري يقرأ في صحيفة. كانت عيناي تتنقلان، من وقت إلى آخر، بين بروفيله الشاحب المتغضن والفضاء الكئيب المتجهم خلف النافذة، حيث بدت الغيوم الداكنة معلقة، بلا حراك، فوق صف الأشجار المتفرقة، في وقت ظلت خطوط المطر المائلة قليلاً تضرب برفق زجاج النوافذ، مكونةً نقراً ناعماً على صفيح هدير محرك الحافلة النائي.

لا أتذكر متى نهض جاري، واستأذنني بإفساح المجال له للخروج. لا بد أنني غفوت قليلاً، تحت رجّات الحافلة الخفيفة، مما جعل الزمن يمر سريعاً، ها أنذا أراه الآن بقامته المديدة يتحدث مع السائق، ثم يبقى واقفاً بجانب الباب. وها هي الحافلة تقف في محطة خاوية من البشر على مشارف لندن، ليهبط

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الغريب فيها. من النافذة الواقعة إلى يساري، كنت أستطيع أن أراه واقفاً بجانب مستودع الأمتعة بانتظار انفتاح بابه، لكنني لم أستطع أن أرى الحقيبة التي سحبها معه.

اتصلتُ في اليوم التالي هاتفياً بمكتب النقل المعنيّ، فشرحتُ لهم ما حدث، لكن الموظف الذي تكلمتُ معه أكد عدم تسلمهم أي حقيبة بالمواصفات التي أعطيتها له. سألته عما يجب أن أفعله، "يمكنك تسليم الحقيبة، إلى فرع شركتنا في منطقتك، وتنتظر،" أجابني، ثم أردف قائلاً: "قد يسلّم الآخر حقيبتك لنا،" قاطعته: "وماذا لو لم يسلّمها؟" أجاب بنبرة مرحة: "اِحتفظ بحقيبته إذا لم يكن هناك أي شيء ثمين فيها".

أعطيته رقم هاتف بيتنا وعنوانه، وانتظرتُ ثلاثة أسابيع، كنت خلالها أمنّي النفس بعودة حقيبتي وما فيها من ملابس وكهربائيات: بدلة جديدة ارتديتها مرة واحدة حين كنت في برلين، وكاميرا نوكيا ثمينة، وكمبيوتر وثلاثة قمصان فاخرة.

لعل عودتي إلى حقيبة الآخر نوع من العزاء، على أخذه حقيبتي. كنت أعلم أن كل ملابسه بالية نوعاً ما، وحتى لو كانت أجدّ، فهي ستكون أكبر حجماً مما ألبسه. مع ذلك، كان هناك شيء واحد فقط يجذبني إليها، وظل ملازماً تيار أفكاري طوال تلك الفترة. إنها حِزَم الرسائل الغريبة.

كانت ليلةً هرب النوم عن عينيّ فيها، فبقيتُ مسمَّراً على السرير، بينما غطَّت زوجتي في نوم عميق، بالرغم من نقرات المطر الدؤوب، من وراء ستارة النافذة السميكة، على زجاجها. في مخيلتي برزت تلك المظاريف الغريبة من قاع الحقيبة، كأنها تناديني لفتحها.

تسللتُ إلى الطابق الأرضي، دون إثارة أي ضجيج قد يوقظ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

زوجتي؛ ها هي أول رزمة منها أمامي على مائدة الطعام، أفتح أول مظاريفها بعناية كبيرة، أسحب منه الأوراق المرزوزة في أعلى حافتها اليسرى، أفرشها أمامي، ينتابني شعور غريب: مزيج من فرح طاغٍ بالدخول إلى مجاهل إنسان آخر دون موافقته، وقلق غير قابلٍ للتفسير؛ لعله قلق اللص حين يتسلل إلى بيت خالٍ من أصحابه ولا يعرف متى سيظهرون أمامه.

قضيتُ الليل غارقاً في قراءة الرسائل الغريبة. كانت مكتوبة بإنجليزية متقنة، تشير إلى أن وراءها عقلاً اعتاد على تأليف البحوث الأكاديمية. مع ذلك، كانت هناك كلمات وعبارات شديدة الغموض بسبب طريقة خطها باليد، وبعضها الآخر بحروف ناقصة؛ إلا أن هذا الاختلال الملموس لم يؤثر على فهمي لمعظم تفاصيلها.

لا أتذكر كم مضى من الوقت، على قراءتي الأولى لها، قبل أن أقرر ترجمتها إلى العربية، ولعل ما دفعني للقيام بتلك المهمة أكثر من أي شيء آخر، هو شعور غامض بقدرية سلسلة الأحداث التي أوصلت هذه الرسائل إلى بيتي، فكأني بهذه الطريقة أمنح لها معنى ما بدلاً من إبقائها كسلسلة مصادفات منفصلة لا رابط يجمعها، أو ربما هو سعي لا إرادي للتعويض عما خسرته في حقيبتي الأصلية. نحن نعيش في عالم سريع التغير، لا يمنح الذاكرة فرصة الإمساك بالمراحل المتعاقبة على عجل، وقد تكون مبادرتي هذه نوعاً من الإبطاء الذاتي لهذه التحولات الجارفة في حياتنا اليومية.

كان عليّ أن أذكر، أني غيَّرتُ كل الأسماء التي تضمنتها رسائل ذلك الغريب العابر، تجنباً لأي ملاحقة قانونية، أو إحراج لتلك الشخصيات التي قد تكون ما زالت على قيد الحياة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كذلك فقد ابتكرتُ بعض العناوين تعويضاً عن تلك التي تعذر عليّ فك شفرتها، مع ملء تلك الكلمات المبتسرة أو العسيرة على القراءة بأخرى تجعل هذه الجملة أو تلك ذات معنى متوافق مع سياق النص.

شيء واحد التزمتُ به دائماً: إبقاء التواريخ التي سجلها المؤلف على بعض مظاريف رسائله، رغم أنها لا تشير، على الأغلب، إلى تواريخ كتابتها بقدر ما هي تواريخ الأحداث نفسها، ووفقاً لتلك التواريخ رتبتُ تسلسل المظاريف نفسها، بينما أدرجتُ بينها تلك الخالية من أي تاريخ بشكل عشوائي.

مع ذلك ظل سؤال يحضرني كلازمة مزعجة، ولم أجد جواباً له حتى الآن: ماذا لو أني التقيتُ يوماً بكاتب هذه الرسائل، وصادف أنه قرأ الترجمة مطبوعة، فتولّد في نفسه غضب من مبادرتي بدلاً من الرضا؟ إدانة بدلاً من إطراء على كل جهودي؟ كيف سيكون عند ذلك رد فعلي على موقفه؟ إذن هل عليّ أن أتلفها أم أنشرها؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الأول

بيولوجيا الهوامش (1)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(1 أيلول 1990)

لا بد أنك ما زلتَ تتذكر جملة ’’أَسعَد‘‘ التي كان يكررها في كل نقاش يدور بيننا: "الشعوب حديثة التكوين هي السعيدة فقط،" وإذا ألححتَ عليه كي يعطيك سبباً فإنه سيكرر هذه الجملة دائماً: "لأنها بلا ذاكرة."

لعلك تذكر ذلك اللقاء الذي جمعنا في بيت الدكتورة ’’عالية‘‘.

كان شهر آب قد غادرنا للتو، وخلاله عاشت لندن أسخن شهر عرفته منذ عقود، ومع الرطوبة العالية الملازمة كنتَ تشعر وكأنك في بغداد. وبالطبع بغداد من دون نخيلها ومن دون أناشيدها الوطنية وقرارات حاكمها المخيفة.

كانت المرة الأولى بالنسبة إليّ أن ألتقي بهذا العدد من أبناء البلد بعد انقطاع طويل عنهم. تستحضر ذاكرتي عينيكَ اللتين كانتا تستكشفان من خلال التحديق في وجهي درجة ارتباكي وأنا أسعى جاهداً لمتابعة خيوط الأحاديث المتقاطعة والمتلاقية هنا وهناك، الأصوات الصاخبة، الضحكات المتفجرة المختلطة بنوبات البكاء القصيرة.

علي أن أعترف الآن بأن الفضل في مكوثي حتى نهاية الأمسية هو ذلك التواصل الذي ظل قائماً بيننا، وكانت تلك الابتسامة التي ترتسم على شفتيكَ من وقت إلى آخر وأنت تبادلني النظرات أفيوناً يبقيني لاصقاً بكرسيي بدلاً من ترديد: "أعتذر، علي أن أذهب الآن." ولا أستبعد أن يتفهم الجميع انسحابي، فبيتي يقع في ضواحي لندن القصية، والقطار الذي أحتاج إليه في رحلة العودة يتوقف عن الخدمة الساعة العاشرة مساءً.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وكم ستتغير مساراتنا الحياتية لو أنني أطعتُ صوتي الداخلي بالمغادرة، أو ربما بشكل أدق ذلك الصوت الذي استولى على الأصوات الأخرى وجعلني أعيش حياتي وكأني أحتسي الشاي بملعقة صغيرة. حياة محكومة بنظام دقيق ما بين الجامعة التي أدرّس فيها والبيت والسفرات العائلية المخطَّط لها مسبقاً، مرة كل سنة، إلى بلد مشمس، ومتابعة تقدم ''سوزان'' و''منى'' في الدراسة. وكم ساعدت ''لورا'' في تحويل حياتي السابقة إلى ساعة مضبوطة، لا مفاجآت فيها أو عوائق أو منغصات، كذلك سمحت خبرتها كمحاسبة محترفة لنا باستثمار قسط من دخلنا الشهري، فتمكنا بفضل مبادرتها تلك من الإيفاء بقرض بيتنا العقاري، وقرض شَقّة صغيرة في وسط لندن، وبالطبع يجب عدم تجاهل ما ورثته ''لورا'' من عمتها المتوفاة، وهذا ما ساعدنا على إرسال ابنتينا إلى مدرسة خاصة لا يدخلها إلا أبناء علية القوم لأجورها الخيالية.

أستطيع الآن وبعد مرور سنوات عديدة على ذلك اللقاء، إدراك مغزاه: حين أغمض عينيّ أراه على هيئة خط فاصل؛ أو بصيغة أدق هوة فاصلة. فكأني عبرتها دون أن أنتبه إليها بفضل الجسر الرابط بين الضفتين، لكني حين أردتُ الرجوع إلى عالمي الأول، اختفى الجسر وبقيت الهوة العميقة.

* * *

أستحضر غرفة الضيوف الواسعة في بيت الدكتورة ''عالية''، ولعلّ أكثر ما علق في ذاكرتي منها بهاؤها الذي عكسته جدرانها المطلية حديثاً باللون التبني، ولا بد أن انفتاح البابين الزجاجيين المجاورين على الحديقة الخلفية سمح لضوء النهار بالتغلغل دون قيود في الغرفة، في وقت منحت أزهار

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأقحوان القرمزية الموزعة على قماش الستارتين الملفوفتين عند حافتي البابين الزجاجيين رونقاً إضافياً، كذلك لعب لون ذلك القماش الأزرق الفاتح دوراً في خلق آصرة بالخارج، فشريط السماء الأزرق (الذي يكون في الغالب رمادياً مائلاً للون البني في لندن) أضفى على المكان ألفة إضافية في نفسي جعلتني أشعر وكأني زرته كثيراً رغم أنها المرة الأولى الذي تطؤه قدماي.

أسرت عينيّ لوحة بورتريه معلقة على الجدار الأيسر الجانبي. كانت أمامي فتاة تكشف ملامحها أنها في العشرين من عمرها أو أكثر قليلاً: وجنتان نافرتان بالغ الرسام في احمرارهما فجعلهما نصفي تفاحة شهيَّين، لكنه في الوقت نفسه، عكس عينين لوزيتين ضاحكتين تحملان في طياتهما عنصرين متعاكسين: دهاء يخاف الرجال منه وجرأة تغريهم إليها، ولعل إمالة الرأس قليلاً إلى اليمين وزوغان العينين قليلا إلى اليسار، صوب الناظر، تهدفان إلى تقليد خفي لحركة رأس "موناليزا" الخالدة. وكأن شعوراً ما مسّ مضيفتي فدفعها لوضع أصابع يدها اليمنى على زندي الأيسر، وحينما التفتُّ إليها كان هناك أسى خفيف تسرب إلى قسمات وجهها فعمّق الأخاديد على جبينها قليلاً: "ليت الشباب يعود يوماً،" قالت الدكتورة ‘‘عالية‘‘ متحسرة قليلاً: "إنها من أيام بغداد قبل الثورة."

كان عليّ أن أضيف عاملاً آخر ساهم في خلق تلك الألفة: وأنا أقرع جرس البيت خامرني شعور بأن ضيفتها الشابة ستفتح الباب. وأنت تعرف من أقصد! أو أحد زوارها، لكني فوجئت بالدكتورة ‘‘عالية‘‘ أمامي. وكم جعلني مظهرها أشك بأن عشرين سنة قد عبرت منذ آخر لقاء جمعنا في مظاهرة ضد الحرب في فيتنام. وكأنها تلمست شعوري بالحرج بسبب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

هذا الانقطاع الطويل غير المبرر له، فبادرت بعد تبادل التحية معي مستفسرة: "أرجو ألا تكون قد أضعتَ طريقك إلى البيت..." لمحتُ عينيها تزوغان إلى كتاب خرائط لندن الشهير، "أيه تو زت" الذي كان بين يديّ، قلت هازئاً: "ما دام هذا الدليل معي فلن أضيع أبداً." ضحكت بطلاقة. أضافت، بنبرة مرحة، وهي تقودني في المدخل المعتم: "وصلتَ على الموعد بالضبط... لا بد أنك أصبحت إنجليزياً قحّاً." وقبل أن تستدير يساراً لتدخل غرفة الجلوس، تداركت جملتها: "ومعك باقة جميلة! أنا أحب أزهار عبّاد الشمس كثيراً..." وصلتني في تلك اللحظة من فوهة الدرج المجاور للمدخل، والموصل إلى الطابق الأعلى سعلات واهية متقطعة، وكدت أسألها عن صحة ’’عمّو‘‘ لكني تراجعت خوفاً من أن تعتبره نوعاً من التطفل، خصوصاً، وأن فجوة زمنية شاسعة تفصلنا عن بعض قبل هذا اللقاء.

قبل الجلوس على الكنبة جاءني سؤالها ليوقظ في نفسي قلقاً بقيتُ حريصاً على تجاهله:

"عندك أخبار جديدة؟" طفح على عينيها خوف وفضول كأنهما كانتا تنتظران مني تطميناً ما.

"’’غورباتشوف‘‘ سيلتقي ’’بوش‘‘ في هلسنكي بعد أسبوع."

"وماذا تظن أنه سيفعل أكثر من البصم عما يريده الأمريكان؟"

"أتمنى أن يعي ’’صدّام‘‘ المخاطر وينسحب."

"لن يقوم بذلك أبداً. لا بد أنه فرحان جداً الآن وهو يشاهد صوره تملأ أبرز صحف الغرب، والكل يتحدث عنه."

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

قلتُ منعاً لتعكير الجو وإبقائه رائقاً: "المشكلة أن المذيعين هنا يبدلون الصاد بحرف السين، ويعجزون عن لفظ الشَّدّة فوق حرف الدال، فيصبح اسمه على ألسنتهم :’’سَدَم‘‘. هم يلفظونه بشكل مشابه تماماً عندما يلفظون كلمة ’’سدوم‘‘، المدينة التي غضب الرب عليها فأحرقها بالكبريت."

لكني حققتُ عكس ما تمنيته، إذ جمدت الابتسامة على عينيها، وانزمّت شفتاها بقوة، بينما تثبَّتَ بصرها صوبي لحظات، وحال انتباهها لما هي فيه هزت رأسها. وكأنها في حركتها كانت تنفي إمكانية تحقق ذلك الكابوس الذي حرّضت كلماتي الخرقاء على تشكله. رددت بصوت خافت مخاطبة نفسها: "الله يستر."

* * *

أصبح تحت يدنا اليوم فيض من أسماء أسطورية تمكننا من إعادة إنتاج ما حدث ثانية لكن بنسخة أخف دماً وقابلة للقص: قد أكتب ’’بوش-1 ‘‘ بدلا من ’’جورج بوش‘‘، جنباً إلى جنب مع مقاتلات "أف-16" وقاذفات "بي " 52 –(التي تصنع بقنابلها سجاداً واسعا من الأرض المحروقة)، وصواريخ "توماهاوك-109"، وهليكوبترات " أباتشي-64 "، وقاذفات "نايتْهاوك-117 " الشبحية. و’’الحُمر‘‘ و’’الخضر‘‘.

هل علي أنّ أكتفي باللقب ’’سَدَم‘‘ أم أمنحه رقماً إضافياً : ’’سَدَم-1‘‘؟

لحسن الحظ، كنتَ أول الواصلين إلى بيت الدكتورة ’’عالية‘‘. كأنك أنقذتنا معاً من حرج انقطاع خيط التواصل بيننا، أذكر أنها سألتني قبل قدومك عن حياتي العائلية: ما عمل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

زوجتي، وما اسمها، وكم طفلاً أنجبتُ، وأين نسكن... وأظنها شعرت في لحظة ما بارتباك لأني لم أقابلها بأسئلة تجعل من حوارنا لعبة شبيهة بكرة الطاولة. أذكر أنك أخبرتني من قبل عن موقعها المهني الرفيع آنذاك: كانت طبيبة استشارية في مستشفى لندني كبير نسيتَ أن تذكر اسمه لي.

وكأن أي جلسة تحتاج، على الأقل، إلى ثلاثة أشخاص لكي يصبح الحديث عاماً، ويتحرر المرء من توجيه كلامه لشخص محدد. الآخران يصبحان جمهوراً: كتلة واحدة، فأنت تكون في هذا الطرف مرة وفي الطرف الثاني مرة أخرى. تارة مستمعاً وتارة متحدثاً، أو قد تكون مستمعاً فقط، وتكتفي بهز رأسك تعبيراً عن موافقة ما يقول الآخر، حتى لو كان ذهنك في مكان ما خارج الغرفة.

وأنتما تتبادلان الحديث تشكل في نفسي انطباع بتقاربكما الفكري. كلاكما عبّر عن أسفه الشديد لانهيار المعسكر الاشتراكي. وكلاكما كان متشائماً من مستقبل الاتحاد السوفيتي. أسمعك تردد بعد إمرار أصابع يدك اليمنى فوق خصلات شعرك المصففة بعناية تجنباً لانكشاف صلعة مخفية تحتها:

"ألمانيا الغربية ستبتلع ألمانيا الديمقراطية في الشهر المقبل."

"هذا ما جلبه "غلازْنوسْت*" ـ ’’غورباتشوف‘‘ سيئ الصيت من خراب."

"يبدو أن جواسيس الرأسمالية وصلوا إلى أعلى مناصب الكرملين."

---

* غلاسْنوسْت: مصطلح استخدم للتعبير عن سياسة الانفتاح والشفافية التي بدأها غورباتشوف في أواسط الثمانينات من القرن الماضي.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"هذه مجرد كبوة. حركة التاريخ لا تسير إلى الوراء، رغم كل شيء."

"كيف صحة ’’عمّو‘‘؟"

"هو مكتئب جداً لما يجري. منذ انهيار جدار برلين وهو يعاني من ارتفاع ضغط الدم."

"’’عمّو‘‘ كرس كل حياته للنضال."

"هو يشعر أن كل الرفاق في العالم مسؤولون عن الهزيمة، وهو أولهم."

"’’عمّو‘‘ قديس من عصر آخر."

قُرع جرس الباب ثلاث مرات بأصابع ملحاحة مرتبكة، فانفرجت أساريركما. كأن قدوم ضيوف آخرين أخرجكما من دوامة لا نهاية لها.

ولم تكن تلك الضربات، كما أتذكر، إلا بفضل أصابع توأمَي ’’أسعَد‘‘ المتنافسَين على مَن هو الأسرع في جعل الباب ينفتح.

* * *

اكتمل الشمل، أو هكذا ظننتُ. ولا بد أنك تتذكر أين توزع الضيوف على مقاعد الغرفة: ’’أَسعَد‘‘ احتل الكرسي ذا الذراعين وإلى يساره جلست زوجته ’’مريم‘‘ على كنبة عريضة محاذية للجدار، تفصلها مسافة واضحة عن ’’ماهر‘‘ الذي ظل طوال الأمسية ملتصقاً بأقصى حافتها، تتكئ ذراعه اليسرى من وقت إلى آخر على ذراع الكنبة، ثم تنتقل لتستقر في حضنه حيث تتشابك أصابع يديه بعضها ببعض. في البدء أضجعت ’’مريم‘‘ ابنتها الصغرى النائمة على الفسحة القائمة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بينها وبين ماهر، لكن الدكتورة ''عالية'' نهضت صوبها حال استقرار الكل على مقاعدهم:"احملي عروسك، ''زينة''، حتى نأخذها إلى غرفة ترتاح فيها، حرام تنام في هذا المكان،" قالت المضيفة بنبرة أمومية حازمة.

على الكنبة المقابلة احتل أبو ''أَسعَد'' أقصى يسار الكنبة الوثيرة، بينما اختارت والدته أقصى يمينها، مفضلةً راحة ذراعها وظهرها وهما يستندان إلى حافة الكنبة الجلدية.

من اللحظة الأولى بدا لي ذلك الجفاء القائم بين ''أَسعَد'' وأبيه، فالأخير كان يتجنب تدوير رأسه قليلا إلى اليسار كي لا تقع عيناه على عيني ابنه، كذلك كان جسده مائلا بزاوية 45 درجة تجنبا لأي تماس ممكن بين جسديهما. ولعل هذا النفور حفز صديقك على الانتقال من كرسيه إلى الكنبة التي تحتلها زوجته و''ماهر'' ليجلس بينهما. مع ذلك ظلت الابتسامة طافحة على وجهه، بينما ظل وجه والده متجهما قليلاً كلما صادف أن وقعت عيناه على عيني ''أَسعَد''، وكأنهما كانا يؤديان تمارين لعرض مسرحي سيقدمانه في تلك الجلسة الفريدة من نوعها.

قال ''أَسعَد'' وهو يتابع انشغال الدكتورة ''عالية'' مع أطفاله الذكور شديدي الحيوية: "أعتذر دكتورة على إزعاجهم."

"لا، أبداً، أنا أستمتع كثيراً بحضور الأطفال،" أجابت المضيفة بنبرة محتفية بالضيوف، "في كوخ الحديقة ألعاب كثيرة ستشغلهم."

"أنتِ تعرفين أن الشعوب المنكوبة بالحروب تنجب أطفالاً كثاراً خلالها،" ردد ''أَسعَد'' بنبرة جادة، فأثارت فينا جميعاً رغبة بالضحك.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

"وأنـتَ مـا علاقتـك بـالحرب؟" قالـت الـدكتورة ’’عاليـة‘‘ ضاحكة، "أنت تسكن على بعد آلاف الأميال عن العراق."

"صحيح، ولكن هذه مسألة غريزية محض دكتورة... هل تعرفين أن بكرنا ’’أمل‘‘ ولِدت قبل الحرب مع إيران بشهرين، وكنا أنا و’’مريم‘‘، عازمَين على إنجاب أخ واحد لها فقط... وأنظري الآن إلى حالتنا."

هل تذكر كيف اصطبغ وجه زوجته بالحمرة؟ وهل انتبهتَ إلى تبادل النظرات بينها وبين ’’ماهر‘‘، كأنها كانت تقول له بعينيها: "انظر كيف يحرجني أمام الآخرين."

لكن ’’أَسعَد‘‘ لم يتوقف عند تلك النقطة وينتقل إلى موضوع آخر، فكأن تلك الفكرة التي حضرت حفزت ذاكرته على استرجاع تفاصيل أخرى.

"أخبرني ’’ماهر‘‘ عن الأرانب، كيف أنها تتكاثر بمعدلات خيالية، كل شهر تستطيع الأنثى أن تنجب ما بين 4 إلى 14 وليداً، والسبب وراء ذلك هو أنها طعام لعدد كبير من الضواري بمن فيهم الانسان والطيور الجارحة، لذلك فهي تتكاثر بشكل كبير إرضاءً لمفترسيها."

التفت ’’أَسعَد‘‘ صوب ’’ماهر‘‘ مستفسراً: "نسيتُ كم يخلِّف زوجان من الأرانب خلال سبع سنوات."

لكن الآخر التزم الصمت قليلاً، وعلى وجهه برز احمرار قليل: "وأنا لا أتذكر أيضاً."

قالت ’’مريم‘‘ غاضبة: "تريد أن تشبِّهني بالأرانب."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

جاء سؤال أبو ’’أَسعَد‘‘ ليغير مجرى الحديث: "أين المحروسة ’’هاجَر‘‘؟"

أجابت الدكتورة ’’عالية‘‘ بعد لحظة صمت: "ذهبت إلى شارع اكسفورد لشراء بعض الهدايا.... أتوقع وصولها في أي لحظة."

تساءلت أم ’’أَسعَد‘‘ بنبرة مستغربة: "يعني هي ما زالت مصممة على السفر معنا غداً؟"

نعم، قالت المضيفة، "أكدت أنها ستسافر معكما، وأمس ثبّتت الحجز على التلفون."

قلتُ وأنا أتطلع في بروفيلَي وجهها ووجه زوجها: "ليش ما تبقون فترة أطول حتى تنجلي الأمور؟ أظن عمي أبو ’’أَسعَد‘‘ متقاعد."

استبقت أم ’’أَسعَد‘‘ زوجها في الكلام: "نعم هو متقاعد، ولكننا اشتقنا لأولادنا وأحفادنا في بغداد..." أضافت بعد لحظات من الصمت: "شهرين في لندن، كافي. تخلصنا من حرّ بغداد، والتقينا بـ’’أَسعَد‘‘ و’’مريم‘‘ والاولاد، الله يحفظهم."

قال أبو ’’أَسعَد‘‘: "لا تخافوا، الحرب لن تحدث أبداً."

قال ’’ماهر‘‘: "عمي، الجسر الجوي بين أمريكا والسعودية ما توقف لحظة من دخول الجيش في الكويت... جنود وطائرات وأسلحة ثقيلة..."

قال أبو ’’أَسعَد‘‘: "الحلم الذي رأيته أقنعني: الحرب لن تقع..."

لا بد أنك تذكر كيف دارت الرؤوس صوب بعضها البعض، وهي تتابع باندهاش سرده لتفاصيل الحلم ثم تأويله ببرود

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

للحاضرين. ولا أستبعد أن يكون السبب وراء لا مبالاة والد ''أَسعَد'' هو انقطاعه الكامل عن الأخبار، فعند قدومه في منتصف تموز كان كل شيء على ما يرام، ولم يكن أي من سكان الأرض يعرف ما سيحدث بعد أسبوعين فقط في الكويت.

سألته الدكتورة ''عالية''، تحت سطوة ذهول أصابها من ثقة ضيفها المطلقة جعل فمها مفتوحاً ويديها تحيطان خدّيها: "ممكن تحكي لنا إياه؟"

* * *

منذ اكتساح الجيش العراقي للكويت لم يحدث شيء أكثر إثارة منه، وكم أصبح ذلك الحدث أهم خبر للصحف ومحطات التلفزيون والراديو. كانت أعيننا تتابع مأخوذةً استعراضات القوة على جبهتين: صفوف الدبابات والصواريخ العراقية تمر من أمام منصة ''سَدَم'' بحركة بطيئة مهيبة تقابلها طائرات النقل العملاقة وهي تهبط في مطار الظهران، محملة بالجنود الأمريكان. كانت ملامحهم توحي بأنهم جاؤوا لقضاء عطلة الصيف في أتون الصحراء، فملابسهم "الكاجوال" وابتساماتهم العريضة واللبان الذي يمضغه بعضهم لا توحي بقدومهم لخوض حرب ما. ولم تبدُ تلك الصناديق المعدنية الهابطة معهم حاوية شيئا أكثر من مواد مكملة للإقامة: مراهم لحماية الوجه من لفح الشمس الحارق، شوكولاتة، علب بيرة، مكيفات هواء، أطعمة، أدوية، ولا أستبعد وجود هراوات وكرات لعبة البيسبول فيها.

لعلك تذكر خطاب ''بوش-1'' القصير على شاشة التلفزيون. أظن أننا شاهدناه معاً على "قناة 4"، بعد أقل من أسبوع على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

احتلال الكويت، وفيه أعلن عن وصول عناصر من "الفرقة المجوقلة 82" ووحدات أساسية من القوة الجوية الأمريكية إلى السعودية.

أسعار النفط تقفز إلى أعلى، مؤشرات البورصة تهبط سريعاً.

سفن حربية تتحرك صوب الخليج.

كانت المشاهد التي تضخها قنوات التلفزيون والراديو دون توقف أشبه بأفيون متسرب في أوردة المتلقي دون هوادة لتجعله في حالة تنويم مغناطيسي مزمن.

تحضرني صور أولئك المدنيين الذين أصبحوا رهائن وضيوفاً معاً في كنف السلطات العراقية. لا بد أنك تذكر ذلك المشهد الهزلي حين زار ''سَدَم'' عدداً منهم، ليطمئنهم بأن هدف احتجازهم هو لدرء الحرب، لا لزرعهم دروعاً واقية للأهداف الحيوية، وأن الإعلام الغربي وقع في خطأ عندما ترجم كلمة "دَرْء" إلى "دِرْع". ولم يفته أن يسأل أحد الرهائن، الطفل المرعوب ستيوارت لوكْوود (رغم تمسيده المتكرر لشعره) إن كان يشرب الحليب بانتظام.

* * *

"شاهدتُ نفسي في حقل مزروع بالشعير،" قال أبو ''أَسعَد'' وهو يتطلع في وجه الدكتورة ''عالية''، "كانت السنابل جافة ومملوءة بالحَبّ، فانحنت سيقانها، والفصل كان صيفاً، لأني كنت أرتدي قميصاً أبيض بنصف كمّ."

مضى يدير الملعقة بتأنٍ في كوب الشاي الأسود، بينما ظلت أعيننا تتقلب ما بين شفتيه الرفيعتين وعينيه المستكينتين. فجأة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

أشرقت ابتسامة خفيفة فعمقت الغضون على جبهته وخديه الضامرين، "لا أتذكر كيف اندلعت النار خلفي. كانت تتقدم نحوي بسرعة عجيبة. ولا بدّ أنني تشاهَدتُ في تلك اللحظة، ورفعت رأسي لرب العباد مستسلماً، فإذا بالسماء تسوَدّ بالغيوم، ثم ترعد وتبرق، ويهبط مطر غزير لم أرَ مثله في حياتي. التفتُّ خلفي، كانت النار منطفئة، والأغرب من كل ذلك، لم يبق أي أثر للحريق في الحقل."

أتذكّر أننا تبادلنا نظرات خاطفة، ونحن نستمع إلى أبو ''أَسعَد''، لكنك كنت حريصاً على إقصاء تلك الابتسامة التي برزت على عينيك، خوفاً من إيلام المتحدث إن حسبها سخرية.

جاء صوت الدكتورة ''عالية'' بنبرة جادة وجافة في آن: "وما هو تفسيرك للحلم؟"

"النار ترمز لما يحدث الآن. لكن المطر جاء وأطفأها. أنا متيقن أن الجيش سينسحب، والمشاكل بين أبناء العم ستتحل بالتفاهم..." ثم أضاف بنبرة واثقة: "منذ وقوع المشكلة، وأنا أصلّي كل ليلة التراويح، وأدعو الله بأن يطفئ هذا الحريق، ويعيد القادة إلى جادة العقل..."

قال ''أَسعَد'' موجهاً بصره صوب المضيفة: "أنا عندي تفسير آخر،" فاستدارت رقابنا صوبه بفضول أكبر؛ "الماء له دلالة مهمة في أي حلم..." وكأن ''ماهر'' تكلم بالنيابة عنا جميعاً: "ما هو؟" أجاب ''أَسعَد'' بعد أن ارتشف جرعة كبيرة من كأس نبيذه: "الحلم باطل..."

انفجر الحضور بالضحك، حتى أصابت الدكتورة ''عالية'' نوبة سعال حادة. أما أبو ''أَسعَد'' فقد علت وجهه حمرة، وطفح ارتباك فوق حدقتيه الصغيرتين. لكنكَ كنتَ الأقل تعبيراً عن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مرحك، بل أن عينيك تسلطتا أكثر صوب أَسعَد، تنتقدانه ضمنياً على سخريته.

تداركت مضيفتنا الموقف، فوجهت حديثها لوالد ’’أَسعَد‘‘: "اعذرنا... نحن ضحكنا لأن التعليق لا علاقة له بالسياق ... ’’أَسعَد‘‘ جوكرنا المفضل، من دونه لا تحلو الجلسات، فهو يستخرج ألطف ما في نفوس الحاضرين."

لكن الابن العاقّ لم يكتف بمناكدة والده بما قال حتى تلك اللحظة، خصوصاً وأنه كان قد أنهى شرب زجاجة النبيذ التي جلبها معه، بينا الآخرون ما زالوا في كأسهم الأول. أذكر أنك نوهتَ لي بإيجاز خالٍ من اللوم الحاد، إهمال ’’أَسعَد‘‘ لوالديه، وكيف أنه ظل كل يوم يجد حجة للتهرب منهما، تاركاً إياهما مع الأطفال، بينما كانت زوجته مريم مواظبة على عملها في دار لكبار السن ولا تعود إلا مساءً.

ارتفع صوت ’’أَسعَد‘‘ طبقة عما كان عليه، وكأن النبيذ بدأ يتسلل إلى روحه: "هل تعرفون أن أبي كتب قصيدة هجاء ضدي؟"

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘، غير مصدقة: "لو كنتُ مكانه لكتبتُ ديوان هجاء ضدك..."

قالت الأم: "كل يوم يرجع بعد منتصف الليل وهو..."

قال الأب: "والأصدقاء، أهمّ طبعاً من أهله... اليوم عندي موعد مع فلان، وغدا مع علان، وبعد غد مع فلتان..." مسح أبو ’’أَسعَد‘‘ باطن يديه أحدهما بالآخر بقسمات مستسلمة للأمر الواقع، بينما ظلت عينا ’’أَسعَد‘‘ تتنقلان في وجوهنا كأنه كان

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يبحث عن صدى كلام والديه ضده. قال ضاحكاً: "تعرفون أن أبي شاعر كلاسيكي؟ هو ما زال في بداياته، ولكن هذه القصيدة التي وجدتُ قصاصتها في المطبخ، تعبِّر عن نقلة في أسلوبه... ويبدو أنه، لحسن الحظ، نساها على طاولة الطعام."

بدا وجه الأب وكأنه طفل أُمسِك لحظة ارتكابه حماقة ما على يد أبيه، لكنه في أعماقه كان، على الأكثر، فرِحاً بعدم ضياع القصيدة، ووقوعها بيد الطرف المعنيّ: ابنه البكر ''أَسعَد''. ازداد وجهه حمرة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واهية.

"ما رأيكَ لو أقرأ القصيدة؟" قال ''أَسعَد'' موجهاً سؤاله إلى والده، وحينما بقي الأخير صامتاً، أكمل جملته: "السكوت من الرضا... هل تحبون الاستماع إليها؟"

قالت الدكتورة ''عالية'' بنبرة من نفد صبره: "كلنا آذان صاغية."

مد صديقك يده في جيب سرواله الأيمن فأخرج، رزمة أوراق مُجعلَكة، لكنه أعادها إلى مكانها. أخرج من الجيب الأيسر مظروفاً أبيض مدعوكاً، بحافة مفتوحة دون انتظام، ولا بد أن والده وجد هذا الظرف المهمل على الطاولة قبل رميه في سلة المهملات فراح يسطِّر غضبه من ابنه عليه.

صاح ''أَسعَد'' وكأنه في ندوة شعرية: "الآن، سيداتي سادتي نستمع إلى قصيدة'' ''الشاعر العراقي الصاعد ''عبد الرحيم الرُّقَيمي'' يلقيها بالنيابة عنه..."

وقبل أن يتفوه ''أَسعَد'' باسمه، قُرع الجرس مرتين بشكل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

متتالٍ إيقاعي. قالت الدكتورة ''عالية''، وكأنها تسرنا بخبر مفرح: "آه، وصلت ''هاجَر''..."

* * *

أذكر أنك حدثتني عن ''هاجَر'' من قبل؛ ربما حين التقينا آخر مرة في بار فندق "مونتاغيو" أو في مقهى "ديلانسي". كان برفقتك ''أَسعَد''، وكم بدوتما لحظة دخولكما الصالة كأنكما "دونكيشوت" ومرافقه "سانشو بانزا"، الأول على فرسه "روسيانتو"، والثاني على حماره. كان "سانشو بانزا" يبذل كل جهوده لبث السرور في نفس "دونكيشوت" بطُرَفِه التي تصب غالباً في دائرة السخرية من نفسه، وكأنما نجح أخيراً، حين انفرجت أسارير "دونكيشوت" للحظة قبل أن تكفهر ملامحه ثانية.

لم تترك ''هاجَر'' في نفسك انطباعاً حسناً، بل ربما سخطاً دفيناً، كشفته توصيفاتك لها. يحضرني الآن بعض منها: "عصابية"، "متهتكة"، "مزاجية"، "مستبدة"، "ناكرة جميل"،"انفعالية"، "شبه أمية"، "جاهلة سياسياً"، و"مشاغبة"... سألتك عما تعنيه بتعبير "ناكرة جميل"، فكان جوابك: "هي لا تظهر أي تقدير لخالتها على كل ما قدمته لها خلال رحلتها، حتى تذكرة السفر اشترتها لها."

"من كلامك أفهم أنها ليست من جماعتكم." قلتُ مستفسراً.

"لا يهمني إن كانت من جماعتنا أو لا... فأنا أكثر أصدقائي من خارج الحزب... أنت على سبيل المثال..."

التفتُّ إلى مرافقك بحثاً عن رأي آخر بها ."أتفق تماماً مع ''جليل''، لكنْ،" قال ''أَسعَد''، وكأنه ابتلع آخر عبارته خوفاً من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

غضبك عليه، لكنه لم يستطع أن يقاومها فأضاف بنبرة خافتة، بينما كانت عيناه تراقبان ردود فعلك: "مع ذلك، فهي آسرة." أظن أنني سألته بعد تقلص ضئيل لعينيك علامةً على عدم القبول: "شكلاً؟" "شكلاً ومضموناً،" همس ''أَسعَد'' بينما تجنب النظر إليك، ولا أستبعد أنه في أعماقه كان فرحاً أن تكون هناك امرأة قد زعزعت هدوءك بشكل ما، وكأنه حدس بوجود عاطفة عاصفة وراء نفورك الظاهري منها.

وكأن تلك النميمة التي تقاسمناها حول ''هاجَر'' قد خلقت لا إرادياً شوقاً للّقاء بها، ليس إلا من باب الفضول. ولعل صوراً عديدة تشكلت في ذهني لها قبل لقائي بها في تلك الأمسية الصاخبة، إحداها صورة امرأة سمراء بشفتين مائلتين إلى السواد، وشعر أسود قصير ورقبة طويلة وأنف روماني مصقول؛ وأخرى لامرأة نحيفة بعينين عسليتين واسعتين، وخدين ضامرين، بملامح ذكورية.

لا أذكر مَن منكما أخبرني عن سفر ''هاجَر'' ووالِدَي ''أَسعَد'' إلى بغداد في اليوم اللاحق لتلك الجلسة الصاخبة. وحين عرضتَ عليّ مشاركتكم، اعتذرتُ أول الأمر، لكنك أكدتَ بأن المضيفة ستهاتفني قريباً إن أحببتُ الحضور، وأنك ستعطيها رقم هاتف بيتي كي تدعوني. كان علي أن أعترف لك بأن شعوراً ملتبساً تنامى في أعماقي لهذه المصادفة: أن أتعرّف اليوم على امرأة "آسرة" كما وصفها أَسعَد، ثم تختفي إلى الأبد عن عينيّ في اليوم اللاحق.

لم تظهر ''هاجَر'' مباشرة في غرفة الاستقبال. قالت الدكتورة ''عالية'' معتذرة:"لا بدّ... راحت لحجرتها حتى تخلّي الهدايا بحقيبتها."

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

قال والد ’’أَسعَد‘‘ مبتسماً: "إذن، هي فعلاً مسافرة معنا."

قالـت أم ’’أَسـعَد‘‘: "رَحْ يكـون عنـدي أنـيس علـى الطريـق، والسفر معها ممتع ’’كُلِّش‘‘."

* * *

لا بد أن ’’أَسعَد‘‘ نسـي مـا كـان موشكاً أن يفعلـه، قبل دخـول ’’هاجَر‘‘ الغرفـة. ولعل جلوسـها أمامـه بين والديـه أربكـه قليلاً. كنتَ جالساً في أقصى يسار الغرفة على كرسي بذراعين، وهذا ما جعلك قادراً علـى رؤيـة بروفيلها، أو أكثر قليلاً. إلـى يمينك كان ’’ماهر‘‘ جالساً، ولم أرك منسـاباً معـه فـي حـديث مـا، فكـأن هناك حـاجزاً غير مرئي بينكما. أمـا أنـا، فلم يكـن موقعي يسمح لي برؤيتها. كانت ’’مريم‘‘ تجلس في موقع شاقولي بالنسبة إلـى نـاظريّ. وكـأن قـدوم ’’هـاجَر‘‘ حـرض فيهـا رغبـة بإظهـار مـا تتميز بـه عنهـا: نهديها المتهورين اللـذين انـدفعا بضـراوة إلـى أمام، مما وسَّع من فتحة الزيق الفاصل بينهما.

"حكى لي المتقاعد ’’جون‘‘ أحد أصدقاء ’’اليَب‘‘ الذي أرتـادُه طُرْفـة،" قـال أَسـعَد، ثـم عـاد فارتشـف جرعـة مـن كأسـه، "فـي وقتهـا لـم أضـحك، لأنـي كنـت أترجمهـا خـلال سـماعي إلـى العربيـة، لكنـي اليـوم حينمـا رددتهـا بالإنجليزيـة مـع نفسـي ضحكتُ من الأعماق عليها."

قال الأب بنبرة ساخرة وصوت منخفض: "هذا كل ما تعلمتـه هنـا مـن الإنجليـز،" لكـن ذلـك لـم يـؤثر علـى انـدفاع أَسـعَد، بـل ارتسمت ابتسامة رضا على وجهه.

"’’اليَب‘‘ هو مثل مقهى المحلـة عنـدنا. هنـاك يقدمون الشـاي وهنا البيرة... وكلاهما يزدهر بفضـل النميمـة... أنـا محظـوظ أن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يكون اسم ‘‘يَب‘‘ المنطقة التي نسكن فيها: البجعة السوداء... سمعتُ أن هذا الاسم أُطلِق عليه قبل اكتشاف البجع الأسود في استراليا..."

وكاد ‘‘أَسعَد‘‘ ينتقل إلى موضوع آخر، لولا ارتفاع صوت ناعم، مبحوح قليلاً، لكنه مرِح وجريء: "احكِ لنا النكتة، شوقتني لسماعها."

استرجعُ الآن، كيف ارتفع رأسك من حالة العزلة العميقة التي تجيد تلبسها، لتصوِّب على صاحبة الصوت المنغَّم، نظرة نارية، وكأنك كنتَ تريد من ‘‘أَسعَد‘‘ تجنب تكرار ما حكاه لك من قبل. أذكر أن عينيه مالتا صوبك كأنهما تستأذناك وترددان بحياء: "فرصة الإفلات فاتت. أنا وقعتُ في المطبّ!"

"ذهب أرنب إلى قصّاب، وقال له: عندك جزر؟ أجابه القصّاب بالنفي. في اليوم الثاني جاءه ثانية: عندك جزر؟ لا، قال القصّاب، وإذا جئتَ مرة أخرى سأدق أذنيك على الجدار بالمسامير. فقال الأرنب: إذن عندك مسامير؟"

ولا أعرف لماذا اعتبرت ‘‘مريم‘‘ أنها المقصودة بالنكتة حين صاحت محتدة بزوجها: "متى تكف عن هذيانك؟" وكأن دمعتين طفحتا على جفني عينيها قبل أن تلمسهما بمنديل ورقي خوفاً من انزياح الكحل الكثيف عنهما، لكن ‘‘أَسعَد‘‘، ومن دون أن يلتفت إليها، ردد بنبرة متخاذلة مرحة: "نحن نعيش في بلد ديمقراطي ليبرالي... وحرية التعبير فيه مقدسة."

تدخلت الدكتورة ‘‘عالية‘‘ ملطفة من المناخ المتوتر، حيث التفتت صوب ‘‘أَسعَد‘‘، فرددت بنبرة مرحة: "إذا ذكرتَ كلمة أرنب مرة أخرى، أدق أذنيك بالمسامير على الجدار."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قال ’’أَسعَد‘‘ مقلداً صوت طفل: "عندكِ مسامير؟"

وأمام صمتنا، تخوفاً من انفجار ’’مريم‘‘ ثانية، جاء صوت ’’هاجَر‘‘ قاطعاً ومملوءاً بالمرح، وكأنها كانت تتحدث مع جمهور خفي: "’’أَسعَد‘‘ أروع وأصدق إنسان التقيتُ به هنا في لندن... وسأفتقدك كثيراً..."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ موجهة حديثها هذه المرة لمريم: "أنا أحبكما كثيراً، أنتما تكملان أحدكما الآخر."

لست متأكداً، إذا كانت هناك نظرة خاطفة تبادلَتْها ’’مريم‘‘ مع ’’ماهر‘‘، قبل أن تسبغ على المضيفة عبارات الشكر والتقدير.

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ لأَسعَد بنبرة تجمع الأمر والترجّي: "حان الآن وقت الاستماع إلى قصيدة أبو ’’أَسعَد‘‘."

* * *

لعلك نسيتَ تماماً ما تركته القصيدة من تأثير في الحاضرين، فباستثنائك، كان الكل مستمتعاً بالمناخ الذي خلقته قراءة الابن العاق لقصيدة أبيه الهجائية ضده، وأحياناً كانت ’’هاجَر‘‘ تطلب إعادة قراءة بيت ما منها تعبيراً عن الإعجاب به. أما ’’أَسعَد‘‘، فبدا وكأنه ليس المعنيّ على الإطلاق برسالة القصيدة، أو أنه (وهذا هو الاحتمال الأقوى) اعتبر ذمّ بعض صفاته مديحاً، ومشاعر خيبة الأب منه إعجاباً خفياً به. بالمقابل، ترك الأخير انطباعاً في نفسي، أنه هو الآخر كان مستعذباً جلسة القراءة، فهو لم يقاطِع ابنه أثناء إلقائه، ومن موقعي كنتُ قادراً فقط على رؤية يديه المتشابكتين فوق حضنه، حيث راح إبهاماهما يدوران حول بعضهما البعض

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بطريقة غريبة.

قال ’’أَسعَد‘‘، وكأنه يجيب عن تساؤل عبّر عنه صمت أبيه: "القصيدة بشكل عام جيدة... أجدتَ استعمال بحر الكامل. لكنك استعرتَ صورة شعرية بالكامل من شاعر كلاسيكي لا أتذكر اسمه."

"ثم ماذا؟" قال والده معترفاً، "كل الشعراء يستعيرون من الشعراء الذين سبقوهم، بمن فيهم المتنبي."

واصل الابن تعليقاته بنبرة تعليمية، زادت من مناخ المرح في الغرفة:

"هناك اختلال واضح في البيت الذي تبدأه بـ: من حانة إلى حانة..."

"اختلال في رأسك،" قال الأب، ففجّر نوبة ضحك عنيفة فينا، بل حتى أنتَ، انسلت إلى شفتيك ابتسامة خجول، تتعارض مع تلك السحنة الجادة الغاضبة على عينيك، "يجب أن تُقرَأ الألف المقصورة كفتحة يا فهيم، كي يستقر الوزن... الكثير من الشعراء القدامى قاموا بذلك في الماضي."

هل تتذكر كيف صفق ’’أَسعَد‘‘، تعبيراً عن إعجابه، وانفرجت أساريره حتى اختفت عيناه؟ وكيف نهض والده من مكانه وخطا صوب ابنه؟ ساد الصمت لحظة تحت وقْع المفاجأة، لكننا جميعاً، تنفسنا الصعداء، حين اكتفى بسحب الورقة من يد ’’أَسعَد‘‘، وعاد إلى مقعده.

ولعلك تذكر، حين أعاد قراءة "القصيدة" تحت تحريض ’’هاجَر‘‘: "قراءة ’’أَسعَد‘‘ كانت متخابثة، نريد أن نسمعها بصوت الشاعر..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كم بدا والد "أَسعَد"، أثناء قراءته، وكأنه تلميذ يُلقي أمام تلامذة المدرسة قصيدة في يوم رفْع العلم الأسبوعي، ولم يبق محفوظاً في ذاكرتي إلاّ هذه الأبيات، أو لعل بعض كلماتها تغيرت فيها مع مرور الوقت:

يا سادراً في الغيّ أكرِمْ من رعاك
جئناك من بغداد نستهدي خطاك
قد قطَّعَ البين اللعين دروبنا
لكنّ قلب الأم لا يُقصي سناك
وأنا اصطبرتُ على الفراق تجمّلاً
متشوقاً في خلوتي كيما أراك
كم دمعةٍ نهنهتها بأناملي
لا صورةً تزدان في رأسي سواك
قد كنتَ بهجة بيتنا ومنارنا
نجماً يضيء ونحن نخطو في هداك
ماذا أصابك يا بنيَّ وأنت ترفل
في النعيم وتزدري خيراً أتاك
من حانة إلى حانة تُمسي وتُصبح
لا أبا لك مَن تكن ماذا دهاك
لكأنني من فرط يأسي لا أعي
إن كنتَ حقا ابنيَ الرابي هناك

* * *

تلاشت الضحكات شيئاً فشيئاً، ليحل محلها صمت بين الحاضرين، وكأنهم استحضروا حقيقة أن تلك الليلة التي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تجمعهم بزوار لندن هي الأخيرة. ومع قعقعة الأسلحة هناك، تنامى شعور مشترك بأن لقاءهم هذا هو الأخير، فكأن النافذة التي فُتحت على العالم الخارجي أخيراً أوشكت على الانغلاق، ها هي الرحلات الجوية بين العراق والعالم الخارجي تنقطع بعد أيام على الغزو، لذلك كان على ’’هاجَر‘‘ ووالدَي ’’أَسعَد‘‘ أن يسافروا إلى عَمّان جواً ومن هناك إلى بغداد بالحافلة. تراءى لي كأنهم يسافرون من كوكب إلى آخر، من الزهرة إلى المريخ. الأول تحكمه ربة الخصب الإغريقية :’’أفروديت‘‘، والثاني إله الحرب :’’أرِس‘‘.

لعلك تذكر، كيف كنا نتطلع إلى ’’أَسعَد‘‘ كي يُخرجنا من ذلك الوجوم الثقيل الذي هبط علينا دون سابق إنذار؛ وكأنه استشعر تخاطرياً حالنا، حاجتنا إلى حكمته وترهاته معاً؛ هزله وجدِّه، طفولته العصية على التلاشي، فراح يردد أغنية بغدادية ظهرت إلى الوجود قبل ولادته بسنوات. أذكر أنه قدم تعريفاً لها قبل أدائه: "هذه أغنية وجودية بكل معنى الكلمة... كأنها جزء من سِفْر ’’الجامعة‘‘."

لم يكتف "أَسعَد" بالغناء الشجي، بل راحت قمتا سبابتيه تقدحان إحداهما بالأخرى فتنطلق منهما طقطقات صاخبة متوافقة مع اللحن، وفي لحظة انتشاء غامر، نهض من الكنبة، ليترك جسده يختض وفق إيقاع الأغنية البطيئة. أذكر أنك و’’ماهر‘‘ والدكتورة ’’عالية‘‘ انغمرتم في ترديد اللازمة وراء ’’أَسعَد‘‘: "حُكْم الغرام ما يظل دوام،" ليرتفع صوته على أثرها: "بعد الصفا لا بدّ جفا... وتصير أيامه ظلام."

لم أكن قادراً من موقعي أن أرى ردود فعل والِدَي ’’أَسعَد‘‘، لكني لمحتُ راحتَي والدته وهما تتلامسان بحركة منتظمة،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لكأنها كانت تنفض لا شعورياً يديها من بكرها المفضَّل، ولا أستبعد أن الأب كان غارقاً في خجل غريزي وهو يراقب ابنه يرقص في حركات خرقاء مضحكة. ولعل ذلك ما دفع ''هاجَر'' الجالسة بجانبه إلى كسر ذلك الشعور العميق بالحرج الذي تلبَّسه، إلى النهوض والانغمار مع ''أَسعَد'' في حركات ايمائية باهرة، دائرةً حوله باستقامة جسدها وعلو رأسها، وحركة ذراعيها الأنيقة، بينما ظلت عالقة على شفتيها ابتسامة ساحرة مسلطة عليه. بالمقابل بدا صديقك بجسده المحنيّ، وطقطقات سبابتيه واهتزاز مؤخرته، وهو يدور مع حركة ''هاجَر''، كأنه ملاكم موشك على السقوط تحت وطأة ضربات خصمه القاصمة.

* * *

لعلك تذكر جيداً تلك اللحظة التي مدت ''هاجَر'' رقبتها قليلاً وصوَّبت عينيها عليّ عبر المسافة الفاصلة بيننا: "هذا مقعد شاغر، لماذا تبقى بعيداً؟" رددتْ بنبرة زاجرة مازحة معاً، "لا تخف، لن أخطفك من زوجتك الشقراء،" ثم أشارت إلى الكرسي ذي الذراعين الذي تركه ''أَسعَد'' قبل ساعتين ولم يعد إليه.

بدت الأمتار الأربعة التي قطعتُها كأنها أميال، ولا بد أن احمراراً طفحَ على وجهي يتوافق مع وجيب قلبي المتصاعد، كأني تلميذ صغير أُمسِكَ وهو يغش في امتحان ما. كان الكل يراقبني بفضول، وعلى أعينهم مزيج من فضول وشيطنة طفولية، وهذا ينطبق على الجميع، حتى على والدة ''أَسعَد'' ووالده، اللذين تبادلا نظرات غامضة، مرحة، فكأنما أدركا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بحدسهما أن لعبة طريفة على وشك أن تبدأ وأن طرفي اللعبة سيكونان قريبين من موقعيهما.

لا بد أن عينيَّ ظلتا تتنقلان بين وجوه الحاضرين متجنبة الثلاثي المغادر غداً مساءً إلى عَمّان، والجالس على بعد ذراع مني، هل تذكر كيف تألقت عيناك، وأنت تخاطبني من دون كلمات: "هل تتفق معي الآن على كل الأوصاف التي نعتُّها بها؟" ولعلك اعتبرتَ هزة رأسي الخفيفة جواباً إيجابياً عن سؤالك.

ظل سؤال يتأرجح في رأسي ذهاباً وإياباً: كيف عرفت ''هاجَر'' بزواجي من امرأة إنجليزية؟ هل كان بفضل الخاتم في بنصري أم أن الدكتورة ''عالية'' أخبرتها عني بعد استفسارها عن الضيوف القادمين لهذه الأمسية؟

عاد ''أَسعَد'' يردد أغنيات مغرقة في القدم. ومع مشاركتكم في إنشاد كلماتها بحمية، كان شعوري بالحرج يتعمق، كلما حاولتُ استرجاع أي جملة منها دون جدوى، ولم تحضرني سوى صورة الراديو الكبير بأضوائه الحمراء والخضراء المنبثة من خلف لوح زجاجي، حيث يعلوه قماش ناعم تبنيّ اللون، في غرفة الجلوس ببيتنا البغدادي الذي بيع منذ سنوات. كانت أصوات ''فرقة الإنشاد'' تصدح بنفس الأغاني التي بقيتم جميعاً تتفننون بترديد لازماتها وراء المغني. أذكر الآن مطلع تلك الأغنية التي ظل ''أَسعَد'' يعيدها: "خدِّري الشاي، خدِّري، فيأتي سؤالكم عالياً: "عيني لمن أخدِّره؟"

وأنتم تنشدون تلك الأغاني الفولكلورية، لا أستبعد إصابتكم بشطح صوفي ما، حتى مع هزال كلماتها التي لو ترجمت إلى أي لغة لأثارت الضحك والاستغراب، لكنني أستطيع القول إن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

درجة ’’الشطح‘‘ مختلفة من واحد إلى آخر: كان ’’ماهر‘‘ حريصاً على عدم فقدان أناقته الرسمية، فربطة عنقه ظلت محافظة على استقامتها جنباً إلى جنب مع سترته الزرقاء المكوية حديثاً، والتي أصر على البقاء مرتدياً إياها؛ وأنتَ كنتَ مندمجاً في الجو تماماً، وتعمقت قسمات الحزن على عينيك، كأنك كنت تستحضر حقيقة البقاء في المنفى طوال الحياة، ولم يبق من ذلك الوطن سوى حفنة أغانٍ وذكريات راحت تتلاشى يوماً بعد يوم؛ أما ’’مريم‘‘ فاغرورقت عيناها بالدمع، مما دفعها إلى الذهاب إلى الحمّام حال انتهاء فاصلة الغناء برفقة حقيبتها الكتفية. لعل الدكتورة ’’عالية‘‘ هي الوحيدة التي انتشت بالغناء من دون انفعال، كانت تنقطع عن الغناء معكم كلما فشلت ذاكرتها في استرجاع الكلمات، فتستعيض عن المساهمة بالتصفيق الخافت المتوافق مع اللحن، بينما كانت عيناها المبتسمتان تدوران على الضيوف للتأكد من استمتاعهم واندماجهم بالجو الحميم.

* * *

على عكسنا، كان الثلاثة القادمون من بغداد، صامتين طوال فاصلة الغناء، حيث ظلت أعينهم تراقب المشهد بفضول محايد، ولعلهم كانوا يتبادلون النظرات من وقت إلى آخر، تعبيراً خفياً عن استغرابهم مما كانوا يشاهدونه من حنين إلى وطن يسكن على كف عفريت. ارتفع صوت ’’هاجَر‘‘ بسخرية مبطنة: "كيف تتذكرون كلمات من العهد العثماني؟" قال ’’ماهر‘‘ ضاحكاً: "’’أَسعَد‘‘ عنده دفتر أحمر مخصص للنكات وكلمات الأغاني." صاح الآخر محتجاً: "برتقالي... أنت تريد تشويه سمعتي." أذكر أنك قرّعتَه فلم تترك كلماتك في نفسه سوى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ضحكة صاخبة:"أنت بدّلتَ جلدك تماماً منذ انهيار جدار برلين... من ستاليني للعظم إلى ريغاني للعظم."

قال ’’أَسعَد‘‘ بعد تلاشي موجات الضحك التي أثارها تدخلك: "أنا انسان براغماتي.. أعطينا ’’لينين‘‘ كل القرن العشرين لاختبار نظريته، لكنها، مع الأسف الشديد، لم تصمد حتى نهايته..." قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ بنبرة ساخرة محتدة: "حتى العام الماضي، كنا لا نتجرأ انتقاد جرائم ’’ستالين‘‘ أمامك، خصوصا بعد شربك ثلاث زجاجات نبيذ... كنتَ دائما متفقاً مع ’’عمّو‘‘ في تقديسه له، وإذا عرف بتحولك الآن سترتفع عنده الكآبة وضغط الدم..."

كسر ’’ماهر‘‘ مناخ الجدية الذي جعل أم ’’أَسعَد‘‘ تتثاءب، وأباه يمعن النظر في ساعته اليدوية: "هل سمعتم بمحاولة ’’أَسعَد‘‘ الاتصال هاتفياً بالرئيس الأمريكي؟"

وكأن ماءً مثلجاً سُكب على رؤوس الحاضرين، أذكر أنك سألتَ مستغرباً بعد سيادة صمت قصير: "متى؟"

قال ’’ماهر‘‘: "قبل أسبوع."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘: "لا بد أنه أراد تهديده من مغبة شن حرب على العراق!"

قالت ’’مريم‘‘: "كان "سكران" تماماً، وفي ساعة متأخرة من الليل."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘: "أخبِرْنا عما دار بينكما من حديث."

قالت ’’مريم‘‘: "على الأكثر هو تكلم مع عاملة البدالة... سمعته يصرخ بها حتى تُحوّلَه إلى الرئيس..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قال ’’ماهر‘‘: "التلفون أُغلِق في وجهه... عاملة البدالة طلبت اسمه وعنوانه."

قالت ’’هاجَر‘‘ ضاحكة: "المهم، ماذا كنت تريد قوله للرئيس الأمريكي؟"

قال ’’أَسعَد‘‘: "لا أتذكر، لا بد أني تجاوزت حدّي قليلاً في الشرب...على الأكثر كنت أريد منه أن يتعجّل الحرب، فصدّام لن ينسحب من الكويت من دون عصا غليظة."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ ساخرة: "سبحان مغير الأحوال: من موسكو إلى واشنطن "على طُول"..."

* * *

قالت ’’هاجَر‘‘ ساخرة بعد انتهائنا من ترديد أغانٍ تراثية أخرى: "كان يجب أن تكونوا معنا خلال سنوات الحرب الثماني*، لتحفظوا الأناشيد العسكرية الجديدة." أضافت بعد كرعها جرعة صغيرة من نبيذ كأسها: "لو سمعكم الناس وأنتم ترددون هذه الأغاني الممسوحة من ذاكرتهم لظنوكم من أهل الكهف... كان عليكم أن تنسوا العراق وتندمجوا في بلدكم الجديد تماما..." أضافت وهي تتطلع في وجهي الذي يكاد يمس حافة شعرها البني المكزبر: "أنت الوحيد الذي خرجتَ من هذه الشرنقة بزواجك من إنجليزية، وابتعادك عن مشاكلنا التي لا تنتهي... أهنئك من قلبي."

قال ’’أَسعَد‘‘ ضاحكا: "الفرق بيني وبين الدكتور ’’يوسف‘‘

---

*خلال سنوات الحرب الثماني.

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

هو أني أعيش الماضي مع زوجتي ولا مكان للحاضر في حياتنا، في حين أنه يعيش الحاضر ولا مكان للماضي في حياته."

قالت ''هاجَر'': "ما جدوى الماضي؟ أنتم بحاجة إلى طبيب نفساني يحرركم منه. الحنين لزمن نسيه أبناؤه الأحياء واختفت آثاره.. الصدمات اليومية حررتهم منه وربما أنتم بحاجة إلى صدمات مشابهة..."

قال ''ماهر'': "تقصدين صدمات كهربائية؟"

قالت ''هاجَر'' بعد دقيقة صمت عميقة ظهر خلالها غضن طويل وسط جبهتها: "لو كنت مكانكم أطلب الصدمات الكهربائية إذا كانت مجدية."

أطلق ''أَسعَد'' نفس حكمته التي كان يرددها كلما جرنا النقاش إلى العراق، وأراد إنهاءه بشكل سلميّ: "الشعوب حديثة التكوين هي السعيدة فقط..."

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

المظروف الثاني

فردوس أرضي (1)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

(1)

بين أحداث الماضي واسترجاعها بالكلمات فجوة غير قابلة للردم، وكلما ابتعدنا عن حاضرنا ازدادت كلماتنا عنها، حتى يأتي اليوم الذي نستيقظ فيه فلا نجد بين أيدينا سوى حكايات لا تمتّ بصلة مباشرة لتلك الأحداث الممحوة من الذاكرة. عند ذلك سنطلق على حكاياتنا المقطوعة عن جذورها تعبيراً لم تكن تحبُّه: "أساطير".

لعل هذه الحكاية حضرت كاملة في مخيلتي، لحظة مصادفتي إياك أول مرة في لندن، لكنها لم تكن أخذت بعد شكلها بالكلمات، كانت شعوراً غامضاً فجَّرته مفاجأة لقائك بعد كل هذه السنين، فلقد بقي اختفاؤك أنت وأفراد أسرتك لغزاً غامضاً، منذ مغادرتكم منطقتنا، ولا بد أن انغماري بالدراسة في الجامعة، وتشكل صداقات جديدة جعلاني شيئاً فشيئاً أنشغل عنكم، وبقيتم تحضرون من وقت إلى آخر، في أحلامي، فيستيقظ الحنين بقسوة لتلك الأوقات التي جمعتني بكم.

كم يبدو وكأننا نسير في طرق دائرية، بداياتها تلتقي بنهاياتها.

(2)

تعود علاقتي بـ ‘‘كاف‘‘ إلى أيام المدرسة الابتدائية. أذكر ذلك اليوم الذي حضر فيه معاون المدير، إلى صفنا برفقة صبي هزيل، لا يكاد يُرى بالعين المجردة، لحظة وقوفه وراء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

الآخر الذي ملأ فراغ الباب، بعد طرْقه برفق ثم فتْحِه بالكامل.

"أستاذ عدنان، هذا هو التلميذ الجديد الذي انتقل إلى مدرستنا،" همس المعاون في أذن معلمنا، لكن الصمت الذي ران علينا تحت وطأة خوفنا منه، جعلنا نلتقط كلماته بسهولة. وحال ذهابه تاركاً خلفه ‘‘كاف‘‘، تنفسنا الصعداء، ثم رحنا نتطلع بفضول في الزميل الجديد، الذي بدا مذعوراً أمام عيوننا المحدقة فيه.

هل كان تغيُّب من يقاسمني المقعد الدراسي وطاولته مجرد صدفة محض، أم قدراً مرسوماً مسبقاً؟

لعل معلم التاريخ والجغرافيا الطيب، قرر أن يُجلِس التلميذ الجديد قريباً منه ليمنحه شعوراً بالأمان من أولئك المتنمرين الجالسين في الصفوف الخلفية، وكان فراغ المقعد المجاور لي أفضل مكان يحقق هذا الشرط، لوقوعه في مقدمة الصف الوسط بين الصفين الآخَرَين.

كم بدا لي ذلك الصبي الطارئ غريباً، لا في مظهره الخارجي فقط بل في تقاطيع وجهه. فبعكس جسده الذي يُشعرك وكأنه منهَك تماماً، كانت عيناه نشطتين في حركتهما، على الرغم من ذلك السواد الخفيف الذي يحيطهما، مما يجعلهما تبدوان أوسع من حقيقتهما، ويجعل ‘‘كاف‘‘ يبدو أكبر سناً من عمره الحقيقي. أثار انتباهي ذانك الخطان الواهيان على جبهته، ولا أستبعد أن عقلي الغض آنذاك تصوره يتيماً من دون أب أو أمّ.

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

(3)

يحضرني من وقت إلى آخر هذا السؤال: لماذا توطدت علاقتي بـ''كاف''؟ وفي كل مرة، تزدحم الإجابات في رأسي.

لا بدّ أن التعارض العميق بين شخصيتينا وراء انجذاب أحدنا للآخر. فأنا كنت طفلاً انبساطياً شديد الانفتاح على العالم الخارجي، بينما كان ''كاف'' انطوائياً منغلقاً على نفسه؛ كنت منجذباً إلى كل الألعاب الرياضية داخل وخارج المدرسة، بينما كان نَفوراً منها جميعاً.

أتذكر أني قضيتُ وقتاً طويلاً معه لتعليمه قواعد كرة القدم، وتدريبه على مهاراتها الأولية: كيف يمكنه إيقاف الكرة تحت قدمه إذا أرسِلت إليه في الهواء، وكيف يصوّبها تجاه المرمى، وحين أدخلته إلى الساحة بعد انتهاء حصص اليوم، ليلعب ضمن فريقي المتكون من ستة لاعبين، بدا ''كاف'' وكأنه روبوت، يراقب من وقت إلى آخر حركة الكرة، وتصادُم اللاعبين بعضهم ببعض، من دون أن يبذل أي جهد لمساعدة فريقه، بل حتى ركضه بدا نشازاً خارجاً عن السياق.

كم أثارت حركات ''كاف'' الخرقاء الضحك والتعليقات الساخرة بين أولئك المشاهدين الواقفين على حافة الساحة، حتى تسرب إلى اللاعبين أنفسهم، فكفوا عن اللعب فجأة، وراح بعضهم يقلده.

أدركتُ، بعد عدة محاولات فاشلة لإشراكه معي في لعبة ما، كنا نمارسها خلال دروس التربية الرياضية، أو بعد انتهاء الدوام، أنّ رفيق المقعد المدرسي له جسد ضعيف خالٍ من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

العضـلات، وأن علـيّ حمايتـه مـن أولئـك الصـبية المتنمـرين إنْ حاولوا ابتزازه أو إذلاله.

لعلـي لا أبـالغ، إذا قلـت إننـا جميعـاً كنـا متنمـرين فـي تلـك المدرسة المحلية، كلاً حسب طريقته، وحال انتقال تلميذ جديد إليها، يبدأ أولئك الأقوى جسداً والأبطأ تعلماً في صفّه بالتحرش به: برمي قطع طباشير صغيرة على ظهره، لحظة التفات المعلم إلـى السبورة، أو السـخرية منـه خـلال فتـرات الاسـتراحة، بينمـا نظل نحن منتظرين بشوق رد فعل الضحية على جلاديه. هل سيشكوهم إلى الإدارة أم يواجههم؟

حسب قواعدنا غير المكتوبـة فـي تلك المدرسـة، كـان إخبـار الكبـار بمـا يلحقنـا مـن أذى علـى أيـدي المتنمـرين محرّمـاً، فهـو دليـل علـى خلـل فـي "رجولتنـا"، ومَـن يبـادر إلـى الشكوى نطـرده مـن سربنا. بالمقابـل، كنـا منقسـمين إلـى عصـابات صـغيرة لكـل منها زعيمها، وغالبا ما تتم تصفية الحسابات بين أفرادها خارج المدرسة بعد انتهاء الدوام، وهـي لا تتجاوز تبادل لكمات قليلـة أو السعي لطرح الخصم أرضاً، وإذا تجاوز أحدهم حدود إيذاء الخصم تدخّل الآخرون لإيقاف "المعركة".

مـا كنـا نريده من "رفيق السـلاح"، لا القوة الجسدية، بـل قـوة الإرادة وتحمـل الألـم ومواجهـة الإسـاءة بالمثـل، لكـن حـال ’’كاف‘‘ كان مختلفاً تماماً، إذ بدا عند انتقاله إلى المدرسة فرخَ طيـر لـم ينمُ ريشـه بعد، وكـان علـيّ أن أضـعه تحـت جنـاحيّ لحمايته.

علـيّ أن أضـيف أن بيـت أسـرته كـان قريبـاً مـن بيتنـا: ربـع ساعة مشياً علـى الأقدام، لكنهـا بالنسبة إلينـا كانـت تعنـي آنذاك انتقالا من بلد إلـى آخـر. رافقتُ ’’كـاف‘‘ إلـى منزلـه يومـاً، تلبيـة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لدعواته المتكررة، ولا أستبعد أنّ أخوتي الكبار استفسروا عن أسرته قبل موافقة أبي على زيارتي لها.

(4)

حتى بعد اختفاء تفاصيل الماضي البعيد عن ذاكرتي، ظل ذلك المشهد يجوس بين أحلامي المتفرقة، ليصبح هو نفسه خيالاً مشكوكاً بحقيقة وقوعه: أدخل وراء ’’كاف‘‘ مَجاز بيته المعتم الطويل، تتقدمنا أخته الصغرى ’’وداد‘‘، بعد فتحها باب البيت، وإلقاء نظرة مرتابة عليّ قبل أن تتحول إلى كركرة ناعمة. يردد رفيق المقعد المدرسي مخففاً من ارتباكي: "بابا يسميها إبليس."

تنفرج العتمة على ضوء النهار في الحوش الصغير، رائحة أرُزّ مطبوخ تملأ الهواء، ممزوجة بعبير زهر الرازقي المزروع في أصيص خزفي كبير مركون بجانب جدار قصير يفصل بين الدرج المؤدي إلى الطابق الأعلى والمطبخ.

تنبهر عيناي بتلك التفاصيل الصغيرة التي تعكس عناية فائقة بالمكان وذائقة متميزة يفتقدها بيتنا؛ على امتداد الجدار المجاور لي تصطف أصص ملونة، ومنها تطل ورود الجوري عليّ بألوان مختلفة زاهية.

يستدير ’’كاف‘‘ يميناً فأتبعه، ويميناً تبرز طارمة واسعة، أرضيتها مرصوفة ببلاطات مزخرفة سطوحها بمنمنمات: غصينات وأزهار ألوانها تتجانس مع لون الطابوق الأصفر الخشن الذي يغطي الحوش بالكامل.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تنقطع أنفاسي أمام مشهد لم يهيئْني ''كاف'' لاستقباله: على الكنبة الأمامية تجلس فتاتان ما زالتا بثياب الزي الموحد الجامعي: تنورة سوداء طويلة وقميص بمربعات رمادية على سطح أبيض، ترتسم على شفاههما ابتسامة مرحِّبة عريضة بقدومي، تجذب أظافرهما انتباهي أولاً، بطلائها القرمزي اللامع، أرفع رأسي قليلاً، فيغمرني شعور غريب لم أعرفه من قبل، لكأني أنتقل إلى كوكب آخر تصفو فيه الأصوات والألوان، إلى حد يصبح الواقع فيه حلماً أكثر من حقيقة، أسمعهما تحدثانني برقة متناهية، فأحاول أن أرد عليهما، لكن الكلمات تجمد في حنجرتي.

"يتحدث أخي عنك دائماً،" تقول إحداهما، فتزيد الأخرى: "هو يحبك كثيراً..."

(5)

لم أخبِر إخوتي عن أسرة صديقي الأثير أي شيء، ولا أستبعد أنهم تهامسوا عن السر وراء انتظام زياراتي لها. قال أخي الأكبر ''عادل'' ذات مرة: **"لِمَ لا تدعو صديقك إلى بيتنا؟"**

غير أن قدوم ''كاف'' إلينا مرتين أو ثلاث لم يقلل من اهتمام إخوتي بأسرته، أو بشكل أدق بأخته البكر ''سعاد''، إذ ظل ''عادل'' يمطرني بأسئلة عنها: في أي كلية تدرس؟ وهل هي مخطوبة؟ وماذا تفعل في أوقات فراغها؟ وهل تتحدث معه دائماً؟ وكيف هو شكلها من دون مَكياج؟

من المرجح أنه رآها في الطريق وهي تنتظر قدوم الحافلة، أو أن أحد أصدقائه أخبره عن بنات الأسرة التي انتقلت قبل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أشهر إلى منطقتنا، وبالأخص عن ''سعاد''، ففتح شهية مخيلته.

عند تعارفنا، أنا و''كاف'' لم أكن قد تجاوزتُ العاشرة بعد. مع ذلك، كان الفارق الحاد بين أسرتينا يستفز عقلي الصغير ويتركني في حيرة غير قابلة للتحديد.

كيف أستطيع تفسير تلك البهجة التي تتركها زيارة بيت صديقي في نفسي؟

هناك، كانت أخواته الأربع وأمه ينشغلن دائماً بتنظيف البيت وتلميعه، بتعليق صور مؤطرة على جدرانه، بسقي نباتاته المزهرة وإزالة الغبار عنها، بينما تتناثر الأشياء في بيتنا دون انتظام، ويعلو التراب ثناياه.

بيت محكوم بأنوثة طاغية، وآخر بذكورة طاغية، تنتشر في حجراته أثقال الحديد وعتلاته لتقوية العضلات.

لعل البيت الأول ترك بصماته على الذكَر الوحيد بين أربع بنات.

قالت والدته ذات مرة لي: "كنا خائفين عليه عندما انتقلنا إلى هذه المنطقة، لأنه بلا أخ يسنده، ولكن الحمد لله أنت عوضته عن ذلك. هو كان يذكرك دائما قبل أن نراك..."

أتذكر، كيف اعتلى الاحمرار وجه صديقي قبل أن يقاطعها بنبرة زاجرة: "ماما، كافي..."

كم كان ''كاف'' مختلفاً في المدرسة مقارنةً ببيته، ففي الأولى كان خجولاً، ومتردداً، وهشاً، بينما هو في الثاني جريئاً، وحاسماً، وصلباً.

وكم كانت أخواته الأكبر منه سناً ينظرنَ إليه بإكبار وإعجاب، ويبالغن في إطراء مواهبه.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لعل أخته الصغرى كانت الاستثناء الوحيد في أسرته الذي يجعله يشك بتميزه. فمقابل تجاهل أفراد أسرتها لها، ومشاعر الخيبة الخفية في أعماق الأم لعدم قدومها ذَكَراً، طورت ''وداد'' أسلوباً خاصاً بها للاحتجاج على أسرتها، يتمثل بمحاكاة ساخرة لصوت أخيها الوحيد، وتشويه ملامحه كلما رسمته، فما كان من الأخير إلا بذْل جهود كبيرة لاسترضائها كي تلتفت إلى غيره.

لا بدّ أن إخوتي الكبار كانوا يغبطونني بعمق وهم يرونني أرفل بنعمة الأنوثة الدافئة التي تجسدها الفتيات الثلاث في بيت ''كاف''، بينما هم أشبه بأربع نخلات ذكرية مقطوعة تماماً عن أناث النخل، فما عليها إلا أن ترمي بحبوب لقاحها طعاماً للجراد، وكم كانوا على خطأ، إذ ماذا كانت تترك أي بنت دخلت طور الطمث في روح صبي بسنِّي أكثر من شعور بالدوار والانبهار؟ ولو أني أخبرتهم بانجذابي لوداد، ابنة الثماني سنوات، لسخروا مني ورددوا عاليا مثلَهَم المفضل: "الله يعطي الجوز، للذي ما عنده أسنان".

لعل انجذابي ذاك كان لأن كلاً منا أصغر إخوته، وكلاً منا قد يشعر بأنه زائد عن الحاجة. فأم ''كاف'' عبّرت صراحة عن أمنيتها قبل ولادة ''وداد'' بأن تكون ذكَراً، وأمي لمّحت ضمناً لو أني وِلِدتُ بنتاً تطريةً لحياة الأسرة اليومية، وربما لكي أكون سنداً لها في الكِبَر، فبعد إنجابها أربعة ذكور أصحاء، جعلت زوجها يرفع رأسه عالياً بين أبناء محلته، وجعلها موضع فخر والِدَيه بها، انقطع الحمل عنها سبع سنوات، وكادت تؤمن بانقطاع النسل عنها أخيراً، قبل انقطاع الطمث عنها فجأة.

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

(6)

لم أرَ ’’كاف‘‘ يرسم أمامي في بيته، ولم يتبادر إلى ذهني أنه كان وراء كل التخطيطات المتقنة المعلقة على الجدران، بل عزوتها إلى أخته البكر التي تتقن الخياطة والحياكة والتطريز. كنتُ أراه أحياناً جالساً بجانب ’’وداد‘‘ المنشغلة دائماً بالرسم، أسمعه وهو يقترح عليها إضافة أو تعديلاً ما لأحد تخطيطاتها الموضوعة أمامها فوق صندوق خشبي ملون، مغطى بمشمع شفاف.

لذلك، لم أبرر تقديس أسرته له إلا لكونه الابن الوحيد بين أربع بنات، لا لأنه شخص موهوب أيضاً.

خلال الأشهر التي سبقت بروز هذه الحقيقة الصاعقة في الصف، ظل ’’كاف‘‘ حريصاً على عدم تجاوز حصته من الطاولة الموضوعة أمامنا، على الرغم من حاجته إلى مساحة إضافية لتدوير دفتره أفقياً كي يتمكن من الكتابة عليها، ولم يكن ذلك يثير في نفسي إلا مزيداً من الشفقة عليه، فإضافة إلى هزال بنيته كان أعسر أيضاً.

لا بد أن معلم الحساب أراد أن يقوّي لدى التلميذ المنكمش ثقته بنفسه، حين دعاه ليرسم على السبورة دائرة، وأمامها بدا صديقي شاحباً، حيث أمسك بيده اليمنى الفرجال الكبير الذي أعطاه المعلم له. وبدلا من استخدامه في الرسم، راح بيده الأخرى يخط على سطح اللوح الصقيل. انفجر الضحك في الصف عالياً، لكنه خفت تدريجياً حتى حل مكانه صمت مطبق. ها نحن نرى جميعاً شيئاً أقرب إلى المعجزة: دائرة كبيرة متقنة شديدة الدقة رسمها إصبعان هزيلان بقطعة طباشير صغيرة، وحين أخذ المعلم الفرجال من يد ’’كاف‘‘، ووضع مسماره في

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

النقطـة التـي اقترحهـا الأخيـر مركـزا للـدائرة، ثـم حـرك الـذراع الآخر، مر الطباشير بكل النقاط المرسومة.

(7)

لم يستغرق انتشار خبر "المعجزة" في المدرسة وقتـا طـويلاً، إذ أرسل معلمنا على الفور تلميذاً إلـى مكتـب المدير داعيـاً إيـاه للقدوم على عجل. ولم يحتج أستاذ ’’هادي‘‘ إلى أكثر من كلمات قليلة يهمس بها في أذن المدير لجعل فكّ الأخير يهبط إلى أسفل وعينيه تتسمران دون إرادتـه علـى الشكل المرسوم، بينمـا ظـل وجه صديقي، الـذي عـاد إلـى مقعده، شـاحباً، حيث ظلـت عينـاه تتبـادلان نظـرات وجلـة معـي. لعلـه كـان خائفـاً مـن عـدم إطاعـة معلم الحساب عندما دعاه لاستخدام الفرجـال فـي رسـمه للـدائرة على السبورة.

حــال انتهــاء الــدرس، حضــر بعــض المعلمــين فــي فتــرة الاستراحة لمشاهدة "الأعجوبـة"، ثـم حضـر تلاميذ آخـرون مـن الصفوف المتقدمة.

قال معلم العلوم الطبيعيـة لــ ’’كـاف‘‘: تقدر ترسم الحيوانـات والطيور؟" فما كان من رفيق مقعدي المدرسـي الـذي بـدأ يـدرك "إلوهيتـه" بفضـل تزايـد الإعجـاب بـه لحظـة بعـد لحظـة، إلاّ أن يـنهض مـن مكانــه ويتجــه إلــى السـبورة، وهنــاك رسـم بجانـب الدائرة صوراً متقنة لقطة وكلب وأرنب خلال دقائق قليلة.

تصاعدت عبـارات الثنـاء عليـه مـن كـل جانـب، وكـم شـعرتُ في تلك اللحظة بالفخر، حيث راحت الكلمـات تغلـي فـي رأسـي،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

هل أقول لهذا الحشد الغاص داخل صفنا، بأني صديقه المقرب، وأني أعرف أفراد أسرته واحداً واحداً، وأني حميته من أذى المتنمرين وإساءاتهم، ولعل هذا الشعور تسرب إلى كل تلاميذ الصف الرابع ج، بمن فيهم متنمروه الكسالى الذين كانوا حتى يوم أمس يهزؤون به. ها أنذا أرى عيونهم مسلطة عليه بوجل كأنهم يخشون انهيار جسده النحيل تحت وطأة ضغط المزدحمين حوله.

(8)

لا أتذكر متى بدأت علاقتنا بالفتور، حتى مع استمرار تقاسمنا نفس المقعد والطاولة.

خلال آخر سنتين لنا في "البصائر" الابتدائية، سطع اسم ’’كاف‘‘ نجماً متفرداً في سماء مدرستنا، فأينما أدرتُ رأسي رأيتُ رسومه الملصقة على جدران صفنا، وأينما تمشيت داخل المدرسة كانت وسائل الإيضاح التي من قلمه أمامي.

وكم كان المعلمون يتنافسون في ما بينهم لكسب وده، فيتصرفون معه وكأنه واحد منهم. لعل الوقار، الذي يعكسه الخطان المنقوشان فوق جبهته والسواد الخفيف المحيط بعينيه، ساهمت في إعلاء شأنه على التلاميذ جميعاً.

لكأن "القداسة" التي يتمتع بها بين أخواته وأمه انتقلت إلى المدرسة بشكل آخر.

في إحدى حصصه الأسبوعية، طلب معلم التربية الفنية من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

’’كـاف‘‘ رسْم حصـان علـى السبورة، وجعَلَنـا نقلد حركـات يـد صديقي البطيئة خطوةً خطوةً، ثم طلب منه مراجعة ما أنجزنـاه على الورق الأبيض السميك.

كأني كنتُ في حلم وأنا أراقبه يتنقل من طاولـة إلـى أخرى، واثقاً من خطواتـه، ببدلتـه الرجاليـة المُنَمنَمـة، التـي تمنح هزال جسده حجماً إضافياً. أسمعه يقول لتلميذ يجلس ورائـي: "أمسِك القلم بهذا الشكل، ولا تضغط بقوة علـى الورقـة." ثم يهمس فـي أذن آخر غير بعيد عني: "اِمسحْ هذا القوس، ودعنـي أخطـه لـك هذه المرة."

كم أتقنّا خلال تلك السنة، بفضل ’’كاف‘‘، رسْم أشكال كثيرة لطيور وحيوانات وبشر، وكم كسبَ هو بالمقابل قوة إرادة فـي التأثير على رفاق صفه، بمن فيهم أولئك المتنمرون العنيدون، فكأن نجاحهم في رسم الأشكال الحيـة وتلوينهـا حيَّدَ فيهم ميلهم للعنف والفوضى.

لا بدّ أن غضباً داخلياً ما استحوذ علـيّ آنذاك، وأنـا أرى من حَمَيتُه شـهوراً يسحب البساط من تحتـي فيصبح الجنرال غير المنـازَع فـي الصـفّ، لكـأن قَسَمات وجهـه القاتمـة، التـي ظلـت موضع محاكاة ساخرة من البعض، تحولت بين عشية وضـحاها إلى مَثَل أعلى يقلده الآخرون.

ها هم أتباعه يراقبون كل نأمـة علـى وجهـه لينفذوا مـا يريده من دون أن ينطق بحرف واحد، كـأنهم يقرؤون رغباتـه عبـر تقاطيع وجهه، وبحضوره يتحولون إلى ملائكة.

ظننتُ في البـدء، عند توقُّفِ ’’كـاف‘‘ عن دعوتـي إلـى بيتـه، انشغال أسرته بحدث عائلي مهم، كخطبة أخته الكبرى ’’سعاد‘‘

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أو تفاقم مرض جدته، وأن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه حالَ عودة الأمور إلى مجاريها الأولى، وكم كنتُ واهماً في ظنوني.

(9)

يحضرني هذا السؤال الآن: كم تغلغلت الأنوثة في روح ’’كاف‘‘ بفضل تفاعله اليومي المكثف معها؟ بالمقابل، كان على عقله وجسده أن يصارعا مدّها الجارف، للتماهي مع صورة "رجل البيت" التي أسقطتها أمه وأخواته عليه.

أتذكر أني رأيت أباه مرتين أو ثلاثاً، وكم بدا للصبي الذي كنتُه، متضائل البنية ومغرِقاً في الكبَر، بينما كانت أمه تشع حيوية وشباباً.

لكأنّ حَدَثَ رسْمِه الدائرة نقطة تحول في حياة ’’كاف‘‘، فهذا الانبهار الذي أصابنا ونحن نشاهد حركة يده السحرية على السبّورة، قلَبَ تماماً موازين القوى: أولئك الحريصون على إيذائه (لولا حمايتي له) أصبحوا من أخلص أتباعه، بينما تلاشى ذعره من الآخرين. كذلك، أصبح عجزه عن اللعب علامة على التميز لا الضعف، أما تقاسيم وجهه المكفهرة فأصبحت دليلاً على الزعامة.

وكأني مع صعوده إلهاً أرضياً داخل مدرستنا، أصبحتُ حجر عثرة أمامه: بدلاً من التخلي عن دوري الأبوي تجاهه تشبثتُ به أكثر فأكثر، وبدلاً من التعبير عن إعجابي برسومه كنتُ أتجاهلها عن عمد، حتى حين أنبهرُ في داخلي بها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كان شعوري بالحنق من إخوتي يتفاقم كلما شاهدتُ رسمة جديدة لـ ’’كاف‘‘، معلقة على جدار ما داخل المدرسة، فهم لم يعلّموني شيئا سوى فنون العراك الجسدي؛ أو بصيغة أخرى دفع الذكورة فيّ إلى أقصى مداها. وها أنذا أجدها مهزومة أمام أنوثة مغلفة بذكورة زائفة أقرأها على وجه شريكي في المقعد والطاولة.

ولعل هذا الشعور يمتد ليشمل أبي الذي كان أقصى ما يطمحه في أبنائه أن يصبحوا مثله تجاراً للملابس الداخلية في "شارع النهر". لا أتذكر أنه اشترى لوحة حقيقية أو مطبوعة وجلبها إلى البيت، ولا أتذكر أنه شجّع أحد أبنائه على إبداع أي شيء عدا تقوية عضلاته، لذلك بقيت جدران غرفنا عارية إلا من صور مقتطعة من مجلات وصحف لبعض أبطال الكمال الجسماني آنذاك.

فاتني أن أذكر خصلة تتصف بها الآلهة الأرضية: التخلص ممن يسعى إلى التنافس معها، فهي حريصة على جذب أتباع لا يكفون عن ترديد الثناء عليها.

لذلك، حين عدنا إلى المدرسة بعد عطلة الصيف الطويلة، عزفَ ’’كاف‘‘ عن الجلوس بجانبي، مفضلاً تلميذاً آخر شديد الطاعة له، ولا يعرف أي شيء عن أسرته.

(10)

قد أبالِغ إذا قلتُ إنّ أخته الكبرى غيّرت، دون إرادتها، مسار حياتي، ولعل ذلك وقع بعد أن أقصاني’’كاف‘‘ تماماً عن بيته. فكأني تحت سطوة اليأس من دخوله مرة أخرى، حولته دون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

إرادتي إلى فردوس أرضي، وكلما اقتربتُ أكثر من سن المراهقة ازداد ذلك الفردوس فرادة وتألقاً في مخيلتي.

كم بدت ذاكرتي غريبة آنذاك: بدلاً من تلاشي ذكرياتي منها عن أخوات ''كاف'' وأمه، راحت تتجذر أكثر فأكثر في روحي، عبر حواسي الخمس. ها هي حاسة بصري تستعيد ألوان الأزهار هناك بشكل أكثر إشراقاً والتماعاً، والأوراق أكثف وأعمق خضرةً، وها هي حاسة الشمّ تلتقط ما لم تشعر به عند حدوثه من روائح أنثوية: روائح الخلق.

تسترجع ذاكرتي البصرية تلك المناسبات القليلة التي جلست ''سعاد'' بيني وبين ''كاف'' لتشرح لنا ضرب الكسور وقسمتها، أو ظواهر الأنابيب المستطرقة والمدّ والجزْر. كانت عيناي تتطلعان بانذهال إلى بروفيل وجهها الحليبي، ولا أستبعد أن شكاً عميقاً راودني في لحظة ما، من أنها تقضي حاجتها كالبشر الآخرين.

غير أن إنشاء الفردوس المفقود في أحلام يقظتي يعود الفضل فيه إلى أنفي، فأمام سلطة النسيان الجارفة، ظلت حاسة شمي صامدة أمامها، فانشغلت بدأب في استكشاف تلك الروائح التي خزنتها الذاكرة من دون تدقيق بها.

يحضرني أريج الأزهار المبثوثة في الحوش، يختلط بشذا العطور النسائية والتوابل الحريفة، لكن الروائح التي ظلت تؤرقني وتبعث الاضطراب في روحي الغضّ، هي تلك المنبعثة من إبط ''سعاد'' حين تلمس شعرها؛ من وجهها حين ينضح عنه العرَق، ومن بشرتها حين تطمث.

كأن روائح جسدها تفاحة أخرى، اقتلعتني، على عجل، من فردوس الطفولة إلى فوضى المراهقة وعذاباتها. أتذكر الآن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كيف أني، تحت نوبة جنون عابرة، طلبتُ من ’’كاف‘‘ إعطائي قميصاً قديماً لا تريده ’’سعاد‘‘، مؤمِّلاً النفسَ بأن يكون متسخاً، فلم يكن رد فعل أخيها سوى غَرْز نظرة احتقار عميقة في عينيَّ، وهزّ رأسه تعبيراً عن استهجانٍ غاضب لوقاحتي.

(11)

إذا كانت الأفكار المتسلطة علامة سن المراهقة المميزة، فإن أحلام اليقظة رديفها، بل ربما نقيضها. لكأن حضور الأخيرة في محطة الحياة الخطيرة تلك نوع من الحماية للذات: إحلال جنون ملهم محل آخر مُظلم لا يؤُول إلاّ إلى عيادات الأمراض العقلية.

أتذكر الآن، كيف كنت أرى نفسي في أحدها، طبيباً اختصاصياً بأمراض القلب، يتردد اسمه في كل أحياء بغداد، وذات يوم تدخل سكرتيرتي فجأة إلى حجرة المعاينة:

"دكتور، هناك امرأة تقول إنها تعرفك."

وحين أطِلُّ برأسي على غرفة الانتظار الغاصة بالمرضى، تلتقي عيناي بها أولاً، ثم بأمّها.

كأن أحلام اليقظة الكثيرة التي كانت تنتهي باقتراني بسعاد، قوة خفية دفعتني للتخلي عن كل تلك الألعاب التي كان يمارسها أولاد الحي في الشارع، ففكرة أن تراني معبودتي أركض وسطهم، وأنا مسربل بالتراب والعرق، كافية لتجعلني أشعر بالدوار.

بدلا عن ذلك، انكببتُ على كتبي المدرسية دون كلل أو ملل،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مسكوناً برغبة طفولية حمقاء: تحقيق تفوّق غير مسبوق لـه فـي الدراسـة، يمـلأ عينـي ''سـعاد'' اللـوزيتين بالانبهـار، وقلبهـا بالإعجاب.

كنت ألتهم الكتب في كل مكان: في غرفة الجلوس، في فراشي، في الشارع، في المكتبة المحلية، وعند حلول عطلة الصيف، اعتدتُ على قراءة كتب السنة الدراسية المقبلة، وإذا صادفني موضوع عسير على الفهم ألجأ إلى أحد إخوتي الكبار فيشرحه لي عن مضض.

وسط أحلام اليقظة تلك، تلاشى فارق السن بيني وبين ''سعاد''، كأنْ ليس هناك عقد من السنين يفصلنا عن بعض، وكأنّ ملامحها تجمدت عند آخر مرة اصطحبني ''كاف'' إلى بيته.

حتى بعد سماعي بخبر زواجها، بقيتْ أحلام يقظتي تراودني بانتظام، لكن بحبكة أخرى: بدلاً من أنْ أكون أخصائياً بارزاً في علاج أمراض القلب، أراني تحولتُ إلى طبيب أطفال، فتحضر ''سعاد'' إلى عيادتي مع صغيرها المريض، ولن يمضي وقت طويل حتى أصبِحَ صديقاً لأسرتها الصغيرة، فأن أتمكن من رؤيتها، من وقت إلى آخر، كافٍ لي، ويمنحني غبطة لا حدود لها.

هل يضايقك حديثي هذا عن ولعي المجنون القديم بأختك الكبرى سعاد؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الثالث

جاذبية الصِّفْر (1)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

(1 أيلول 1990)

لعلك نسيتَ، ’’سارة‘‘، ابنة الدكتورة عالية، التي حضرت لتوديع المسافرين. كان الغروب قد حل للتوّ عند وصولها، ومعها حضر زوجها ’’جوناثان‘‘ وطفلاهما. كان أصغرهما محمولا بين ذراعي الأب والكبير ممسكاً بيد أمه.

أحاول الآن جاهداً استرجاع ذلك الزمن القصير الذي قضياه معنا دون جدوى. وكل ما يحضرني هو لحظة دخول ’’سارة‘‘ غرفة الجلوس، فكأني وأنا أتطلع في وجهها أشاهد فتاة اللوحة تهبط من إطارها، كاملة بكل ملامحها منقوصا منها تلك النظرة الساخرة الجريئة التي تحملها امرأة البورتريه.

قال ’’ماهر‘‘وهو ينقِّل عينيه بحيادية بين ’’هاجَر‘‘ و’’سارة‘‘:"أنتما متشابهتان بشكل عجيب."

قال ’’أَسعَد‘‘: "أنتَ نسيتَ أنهما ابنتا خالة."

قالت أم ’’أَسعَد‘‘: "ما شاء الله على هذا الجمال."

قال أبو ’’أَسعَد‘‘ معقباً: "كم هو ‘محظوظ’ زوجك."

وحينما ترجمت ’’سارة‘‘ الجملة لجوناثان ارتسمت ابتسامة مجاملة على وجهه: "أتفق معك تماماً،" فترجمتها بعربية ثقيلة.

وكأن مرجل الجلسة الذي كان يغلي قد انطفأت النار تحته، بالدخول في دائرة "المجاملات" العابرة للغات. دُهِشتُ وأنا أسمع ’’سارة‘‘ تتحدث بلهجة بغدادية مكسَّرة لا تميز تماماً فيها المذكر عن المؤنث، وأتابع عنايتها بالشكليات، وجديتها العالية. كم كانت مختلفة عن ’’هاجَر‘‘، على الرغم من تشابههما الكبير. لكأنهما ترعرعتا على كوكبين مختلفين. كم نحن محكومون

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بالزمان - المكان باكتساب هويتنا التي تجعل كل واحد منا هو هو بالذات لا غيره. لو تبادلت ابنتا الخالة المواقع في سنوات طفولتهما، فذهبت ''سارة'' إلى بغداد، وجاءت ''هاجَر'' إلى لندن، هل كانتا هما نفسيهما الآن تجلسان على طرفي نقيض، شبه غريبتين عن بعضهما البعض، في هذه الزاوية الهادئة المنسية من ضاحية لندنية؟

يجب تذكيرك بأني حتى تلك اللحظة لم أكن قد تعرفت بوضوح على تقاسيم وجه ''هاجَر''، لكن جلوس ''سارة'' أمامي مكنني من تكوين انطباعات عنها، وأظن أننا تحدثنا بعد ذلك عنها قليلاً. سألتك آنذاك إن كانت ابنة الدكتورة ''عالية'' تشعر بنفور من أصدقاء أمها العراقيين، مغلف بقدر عالٍ من اللطف والتحفظ، لكنك أنكرت بشدة صحة هذا الانطباع، فكيف للرفاق الأمميين الذين يربون أبناءهم على حب البشر جميعاً يفشلون في جعلهم يحبون أبناء جلدتهم بالدرجة الأولى؟ بدلاً من ذلك، بررتَ هذا التكلف لسنوات الطفولة المبكرة، حيث كانت ''سارة'' تقضي معظم ساعات النهار مع مربيتها الإنجليزية أو في دار الحضانة، بينما تقضي أمها معظم وقتها ما بين المستشفى والجامعة ."إنه حاجز اللغة،" كما سميته آنذاك.

بدت الدكتورة ''عالية'' مرتبكة وهي ترى حفيدها الأكبر، ''آدم''، يخطو صوبها فما كان منها إلا أن نهضت وأخذت بيده صوب الحديقة. صاحت ابنتها بنبرة مترجية: "لا داعي أن يخرج ويوسخ ملابسه، نحن ذاهبون بعد قليل".

لعل ظهور ''سارة'' القصير جعلني أدرك الفارق بينها وبين ابنة خالتها (كما كنت أظن آنذاك)، فإذا كانت الأولى بحيرة ساكنة دائماً - لا يصل منها إلى الشاطئ غير ذبذبات ناعمة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

رتيبة، كانت الثانية (على الرغم من أنها غائبة عن ناظري) أشبه ببحر صاخب لا يبعث إلى شاطئه غير ذبذبات تتقلب في كل لحظة بسرعتها، لترمي فوقه برغوة متباينة في كثافتها وكميتها، فتزعزع دون هوادة الخط الفاصل بين البحر والأرض.

قالت ’’سارة‘‘ بعد أن همست في أذن زوجها، الذي حرك رأسه علامة على الموافقة: "علينا أن نذهب". وحين لمستْ استغراباً ما على وجوه الحاضرين لبقائهما القصير، أضافت بنبرة اعتذار: "متأسفة... حان وقت نوم الأطفال".

* * *

عند وداعها لهاجَر، لم تَبدُ ’’سارة‘‘ متأثرة حقاً بهذه المناسبة، حتى ضمن المقاييس الإنجليزية التي تقوم على تجنب المبالغة في التعبير عن المشاعر الداخلية، وأفضل مثال على ذلك، تلكما القبلتان اللتان طبعتهما على خدَّي ’’هاجَر‘‘، فهما بالكاد مسَّتاهما.

ما إن خرج الضيفان مع طفليهما حتى سادت لحظة هدوء مطبق بين الحاضرين، ولا أستبعد أنهم كانوا خلالها يسعون للتحرر من القيود التي فرضوها على أرواحهم كي يضمنوا استيعاب ’’سارة‘‘ و’’جوناثان‘‘ لأقل من ساعة، من خلال الاستغراق بالترجمة بين لغتين، والبحث عن مواضيع للحديث معهما كالطقس في بريطانيا والدوري الإنجليزي وسفرتهما الأخيرة إلى مَلقا.

لعلي أستطيع تسمية ما اختفى خلال زيارتهما من الجلسة بـ"الإيقاع". إنه ذلك المايسترو الشبح الذي يشابك أبناء البلد

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

الواحد عبر لغتهم، فيحول عقولهم إلى آلات موسيقية متناغمة في ما بينها، وبفضله تتلبس مشاعر كالحب والكراهية والغضب شكلا ملموساً. إنهم يعزفون الموسيقى معاً دون أن يدروا عبر حواراتهم.

وكأن ’’هاجَر‘‘ أرادت كسر حالة الجمود التي سادت الجلسة حينما نادت عليَّ فجأة: "هذا مقعد شاغر، لماذا تبقى بعيداً"؟

* * *

ستظل تلك الليلة البيضاء حاضرة دائما في زاوية ما داخل رأسي، حتى لو دخلت كل تفاصيلها، من أحاديث وملامح وجوه وأغانٍ وخلافات، متاهة النسيان، فهي ستظل تعيد تناسلها في الذاكرة بشكل أو بآخر، بعيدة مرة عن شكلها الأصلي وقريبة منه مرة أخرى. لعلك تذكر تلك المرة التي خرجنا فيها إلى الحديقة. كنا أربعة: أنت وأنا و’’أَسعَد‘‘ و’’هاجَر‘‘. تحلقنا حول طاولة معدنية موضوعة على الطارمة المجاورة لحجرة الجلوس. كان رذاذ الأضواء المتسربة منها كافياً كي نشاهد وجوه بعضنا البعض عن قرب، رغم تلك الظلال التي توزعت فوقها فمنحتها قدراً من الغموض. ولعل ذلك ينطبق أكثر على الشخص الذي لم ألتق به من قبل، ها هي تجلس إلى يساري، وراء حافة الطاولة المستطيلة المتعامدة مع حافتي. كنتَ تجلس إلى يميني، أي أمامها، بينما احتل ’’أَسعَد‘‘ المقعد المقابل لي.

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ مازحة ونحن نخرج تباعاً من غرفة الجلوس: "سأسمح لكم بالتدخين في الحديقة رغم تلويثكم للطبيعة!"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غرقنا في صمت كامل، بينما راحت نسمات عذبة قليلة تداعب وجوهنا، كنتُ قادراً على سماع زفير ’’هاجَر‘‘ العميق وهي تطلق نفثات دخانها معه، فيختلط دخاننا مع بعض فوق الطاولة حتى يمس السقف القصير المائل المسنود بعمّودين خشبيين. كانت أصوات الصغار تتصاعد من وقت إلى آخر من أعماق الكوخ المضاء، ولا بد أن بنت ’’أَسعَد‘‘ البكر، ’’أمل‘‘، ظلت تبذل جهوداً جبارة لضبط نشاط إخوتها المفرط.

رغماً عن ذلك، بدت ’’هاجَر‘‘ وكأنها غير منتبهة لوجودي أو لوجودك. كانت تميل بجسدها الأهيف صوب ’’أَسعَد‘‘، ووجهها مصوَّب عليه. قالت بنبرة هامسة لا تكاد أن تُسمع:

"سمعتُ من أمك أن أصدقاءك القدامى الذين كسبتهم للحزب، ما زالوا يسألون عنك."

قال ’’أَسعَد‘‘: "نعم، لكنها قالت إنهم جميعاً تخلوا عن الحزب تجنبا للاعتقال والتعذيب."

قالت ’’هاجَر‘‘: "مع ذلك، فهم في أعماقهم ظلوا مؤمنين بك."

قال ’’أَسعَد‘‘: "تقصدين بأفكاري السابقة؟"

قالت ’’هاجَر‘‘: "بالضبط. كيف سيكون رد فعلهم إذا علموا أنك خذلتهم؟"

قال ’’أَسعَد‘‘: "لم أخذل أحداً... أنا اكتشفت الحقيقة فقط."

قالت ’’هاجَر‘‘: "أي حقيقة؟"

قال ’’أَسعَد‘‘: "حقيقة أنكِ لا تستطيعين أن تُدخلي الناس إلى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

الفـردوس بالعصـا... الفـردوس سيصـبح جحيمـاً بالنسـبة لهـم. غلطتي الوحيدة أنني اكتشفتها بعد فوات الأوان. مع ذلك better late than never* ".

أتـذكر أن احتقانـاً غاضـباً عـلا عينيـك وأنـت تتـابع كلمـات ''أَسـعَد''، لكنـك فضـلتَ تجنـب الـدخول فـي جـدل معـه، فهـذه الصراحة الفجة التي سكنته، ما هي إلا جزء من مسار التحول الذي يطرأ عليه في الجلسات المسائية بعد زجاجة النبيذ الثانيـة: من مهرج خفيف الدم إلى

مفكر مستبد. ولا استبعد أنك في داخلك تمنيت لو أن ''أَسـعَد'' بقي في تلك المرحلة دون الانتقال إلى المرحلة الثالثة الأخطر.

عاد صوته هذه المرة أعمق من قبل: "هل شـاهدتِ الألمـان وهم يحطمـون سـور بـرلين؟ لقد أصـبحت أي قطعـة منـه تحفـة تباع بأسعار خيالية. كيف تفسرين رغبة سكان ألمانيـا الشيوعية بالـذوبان الكامـل فـي ألمانيـا الرأسـمالية؟ نحـن كنـا نعـيش داخـل فقاعة كبيرة حتى انفقعت فينا".

"أنا لا أتدخل بالسياسة". قالت ''هاجَر'' بصوت رخيم مخفِّف لجو النقاش الثقيل: "لا تنس أني انسانة بسيطة علـى قدّ الحـال". لكنها أضافت متهكمة منكما معاً: "ما جدوى أن نكتشف الحقيقـة بعد فوات الأوان؟ من الأفضل أن نبقى في هذه الحالة جَهَلة".

* * *

لـم تتوقـع الـدكتورة ''عاليـة'' ظهـور''عمّـو''، فــي حجـرة

* أن تحدث الأمور متأخرة خير من ألا تحدث أبداً.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الاستقبال، ببيجامته وشعره الأشعث ونعلِيه الجلديين، وهي الشديدة الحرص، كما قلتَ لي، على أناقتها ومكياجها، وعلى ترتيب بيتها وجمالياته، وكم كان ذلك واضحاً لي وأنا أتطلع إلى المزهريات الخزفية الموزعة بدقة في زوايا الحجرة، وامتدادها المفتوح على غرفة الطعام، بمائدتها الخشبية المتسعة وكراسيها الفاخرة.

كنا قد انتهينا للتو من العشاء، وعلى وشك النهوض من مقاعدنا والعودة إلى غرفة الاستقبال، حين برز ’’عمّو‘‘. ولعلك تذكر أنني لم أستطع رؤيته فوراً، لأني كنت جالساً على الحافة الضيقة من المائدة وعند دخوله الحجرة وقف ورائي تماماً. مع ذلك، كانت حشرجات أنفاسه الثقيلة الناجمة عن ربو مزمن وتقدم في العمر كافية لتشعرني بوجوده، عدا عن عيونكم التي ارتفعت صوبه، كأنها تراقب باندهاش ظهور شبح قادم من العالم الآخر.

التفتُّ إليه فصعقتني هيئته، ها أنذا أواجه شخصاً آخر مختلفاً كلياً عمّن كنت أعرف قبل نحو عشرين سنة، أيام الاحتجاجات على حرب فيتنام، فبدلاً من العينين اللامعتين، النافذتين في غور الآخر، استقبلتني عينان جاحظتان منطفئتان غلّفَ شبكيتهما ضباب خفيف. بدا ’’عمّو‘‘ وكأنه يبحث عن شيء نسيه في آخر لحظة فاكتفى بتوجيه سؤال غريب: "مَن هذا؟" ارتفع صوت الدكتورة ’’عالية‘‘ تداركاً للحرج الذي شعرتُ به: "إنه الدكتور ’’يوسف الصباغ‘‘، الا تتذكره؟"، "هل هو من الرفاق؟"، قال ’’عمّو‘‘، بينما زاغت عيناه عني، لتنحرف صوب لوحة غرافيكية لـ’’لينين‘‘ وهو يلقي خطابا أمام أنصاره. "هو نصير لنا... وصديق قريب لـ’’جليل‘‘ و’’أَسعَد‘‘"، قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ مطمْئِنة، فارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وراحت عيناه تدوران ببطء على الجالسين. فجأة توقفتا عند ’’أَسعَد‘‘: "ماذا فعلتَ بالتسجيلات؟ هل أفرغتها؟"، صاح ’’عمّو‘‘ بنبرة مؤنبة مختنقة. قالت ’’هاجَر‘‘ وهي تنهض من كرسيها وتمضي صوبه فتحتضنه: "إنه يتذكر كل شيء حبيبي جدّو".

* * *

أتذكر أنك أخبرتني عن كاسيتات سجّلَ ’’أَسعَد‘‘ فيها مقابلات مع ’’عمّو‘‘. كان ذلك قبل "ارتداده عنكم"، أو على الأقل "ارتداده" عنكم كلما قاده السكر إلى أعمق أعماقه، حيث تستسلم شخصية "القناع" تماماً لشخصية "الظل" المستبدة، فتجعل ’’أَسعَد‘‘ في اليوم اللاحق يعتذر من الجميع عما قد يكون قاله بحقهم، على الرغم من تأكيده بأنه لا يتذكر أي شيء جاء على لسانه في الليلة السابقة.

حين عدنا إلى غرفة الجلوس، ظل ’’أَسعَد‘‘ صامتاً، طوال فترة بقاء ’’عمّو‘‘ معنا، وكأن الأخير نسي التسجيلات وانتقلت ذاكرته المشوشة إلى أمور أخرى. لا بد أنك تذكر كيف اقتادت ’’هاجَر‘‘ ’’عمّو‘‘ محتضنة إياه وهي تتقدم صوب مقعدها، وكنا جميعاً وراءهما نخطو ببطء يتوافق مع حركتهما. لم يبق في ذاكرتي من ذلك المشهد شيء، سوى تلك الحدبة الصغيرة التي احتلت ظهر ’’عمّو‘‘، وكم انتشرت تلك الشائعة التي بررت نموها بتكريسه كل ساعات يقظته بعد انقلاب 8 شباط*، لحفظ القاموس الروسي- العربي، خلال أشهر اختفائه داخل سرداب

* انقلاب 8 شباط العسكري عام 1963 في العراق.

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

فـي أحـد بيـوت بغـداد القديمـة. ذكـرتَ لـي، وأنـت تعبّـر عـن إعجابك الشديد به، أن هدفـه من ذلك كـان قراءة كتـب ''لينين'' بلغته الروسية، خصوصا تلك التي سبقت ثورة أكتوبر.

احتـل ''عمّـو'' مقعـدي. أراه الآن وكفـه الأيمـن بـين راحتَـي ''هـاجَر''، وعينـاه تـدوران بـين الضـيوف، حيـث الأضـواء والأصوات، التـي ابتعـد عنهـا طـويلا، تستفزه وتجعلـه يشـعر بانجذاب ونفور منها معاً. أخبَرْتَني بفقدان ''عمّو'' معظم سمعه بعد تلك الحادثة التي وقعت له في ساحة "الطرف الأغر"، لكنـه كـان مـن دون سمّاعات آنـذاك، ولعل ذلك جعل حـديثنا مجـرد ضجيج بالنسبة إليه، تتوسطه كلمات يلتقطها هنا وهناك.

عدتُ إلى مقعدي القديم، فأصبحتُ أرى بروفيلكَ بوضـوح، وإلى طرفك الأيمن كان ''ماهر'' يقابلني وجهاً لوجه، حيث عـاد إلى مقعده علـى الكنبـة. بجانبـه جلس ''أسعَد'' مستغرقاً بصـمت غريـب وعينـاه تحـدقان دون تركيـز فـي كأسـه الموضـوع علـى طاولتـه الصـغيرة، وعلـى الطـرف الأبعـد مـن الكنبـة، احتلـت ''مريم'' موقعها السابق ضامة ساقيها فوق الكنبة.

على الرغم من تقاربكما الكبير في الجلوس جنبـا إلـى جنـب، كنتُ أستطيع تلمس ذلك النفور المتبـادل بينك وبين ''مـاهر''، كأن كلاً منكما كان يحاول تجنب تماس ملابسه بملابس الآخر؛ هو ببدلته الصيفية الخفيفة، وأنت بقيمصك الرمـادي وسرو الك الأسود.

لا أعرف بالضبط مـا كـان يدور فـي رأسيكما آنذاك، وأنتمـا مجبران، طوال ذلك الوقت، على البقاء في مكانيكما، لا أستبعد أنكمـا فـي أعمق أعماقكمـا كنتمـا مسرورين بالتجـاور، فنحن لا نعرف أنفسنا إلا باستكشاف نقائضها. مع ذلك يجب الاعتـراف،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بأني لم أكن أعرف ’’مـاهر‘‘ حق المعرفـة، حتـى تلك الأمسيـة، فهو بطبيعتـه (كمـا قـال ’’أَسـعَد‘‘) يميـل إلـى تجنـب أبنـاء بلـده الأصلي قدر الإمكان، ويميل إلى الظهور دائما بمظهر رسمي تماماً: شعر مصفوف بعنايـة، وجـه حليق، ربطـة عنق مشدودة بإتقان، وبدلة مكوية على أحسن وجه ممكن.

مع ذلك، فقد نجحتما في تغطية تلك المشاعر المتبادلـة بينكما بشكل لافت، ’’مـاهر‘‘ بـزمِّ شفتيه قليلا، وأنـت بتضييق ضـئيل لبؤبؤي عينيك، مع تجنب الالتفات صوبه قدر ما تستطيع.

هل هو ’’ماهر‘‘ الذي تحدث عن العرّاف ’’نُسْترِاداموس‘‘ أم ’’أَسعَد‘‘؟ كيف أن نبوءاته بقدوم ’’نابليون‘‘ و’’هتلـر‘‘ قد تحققت بعد قرون علـى كتاباتهـا، ذكـر أحدهما أن مذيعاً تحدث أخيـراً، على محطة راديو، عن نبوءة للعراف الفرنسـي، تبشر بظهـور الشرير الثالث في المنطقة العربية، وعبوره إلـى أوروبـا بجيش كبير.

قالت الدكتورة ’’عاليـة‘‘ ضـاحكة: "إذن علينـا أن نـهرب إلـى اليابان..."

فجـأة وسـط تعليقاتنــا السـاخرة وضـحكاتنا الصــاخبة، بـرز صـوت بـدا لــي كأنــه قــادم مـن مكــان آخـر خــارج الحجـرة: "’’نُسْترِاداموس‘‘...’’نُسْترِاداموس‘‘..." لكننـا استمررنا فـي غيّنـا حتى ارتفع صوت ’’هاجَر‘‘ قويـاً هذه المرة: "اسمعوا رجـاءً ... ’’جدّو‘‘ عنده ما يقولـه."

تسلطت أعينكم علـى ’’عمّـو‘‘، ولـم يكـن سـواي عـاجز عـن رؤيـة وجهـه كـاملاً من موقعي الجـانبي، لكن النبـرة الواضـحة التـي تكلـم فيهـا، جعلتنـي مقتنعـاً بأنــه كـان يعيش لحظـة صفاء عقلي نـادرة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"صحيح أن ’’نُسْتراداموس‘‘ عاش في القرن السادس عشر، لكنه لم يتنبأ بالمستقبل، لأن المستقبل لم يأخذ أي شكل بعد..."

تراءى لي كأني أسمع ’’عمّو‘‘ قبل عشرين سنة، بقوة محاججته وإيمانه المطلق بما ينطق به. سألت الدكتورة ’’عالية‘‘ الجالسة بيني وبينك، وهي تمسك بحنكها: "كيف ’’خالو‘‘؟"

قال ’’عمّو‘‘" :’’نُسْتراداموس‘‘ تكلم عن ماضٍ، حضره على هيئة ومضات سمعية - بصرية خاطفة، فكان عليه أن يصفها وفق لغة عصره برباعيات."

"أي ماضٍ هذا؟" سألت مضيفتنا.

"إنه ماضي كَوْن موازٍ لكوننا، جرت فيه كل الأحداث قبل زمن بعيد، أما ما عشناه فهو ليس سوى صورة باهتة لأحداث انتقلت لنا بسرعة الضوء، فهي قد تكون حدثت قبل آلاف السنوات."

أظنه ’’أَسعَد‘‘ الذي سأل ’’عمّو‘‘ بصوت خافت لم يسمعه الأخير لكنه فجّر فينا (باستثنائك) ضحكة سعينا إلى كتمها: "هل يعني أن جلستنا هذه وأحاديثنا مجرد نسخة وهمية باهتة عن أخرى أصلية؟ وكيف سيكون ’’صدّام‘‘ في نسخته الأصلية؟"

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘: "سيكون اسمه مقلوباً كما هي صورتنا على المرآة :’’مادَص‘‘."

* * *

لا بد أنك تذكر ذلك الصمت الذي هبط علينا، حين غادر ’’عمّو‘‘ الغرفة، مصحوباً بهاجَر، ولا أستبعد أن الجميع تنفسوا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الصُّعَداء وهم يتابعون خطواتهما المتأنية صوب الطابق الأعلى.

بدا الوقت الذي قضاه ''عمّو'' معنا أطول بكثير من حقيقته، وخلاله ظل يتنقل في حديثه من موضوع إلى آخر دون خيط رابط يجمعها. من ''نُسْتراداموس'' إلى الربط ما بين الكهرباء والأرواح. إنها في رأيه القاطع جسيمات تتقلب بين الوجود والعدم، مثلما تفعل جسيمات الذرة التي تتقلب في شكلها ما بين الفوتونات والالكترونات. هو في غرفته محاط بهذه الجسيمات الروحية التي يتقمصها والداه وإخوته وأخواته، على الرغم من مغادرتهم هذه الدنيا ."الكهرباء هي المجال المادي للأرواح،" صاح ''عمّو''، "كل شيء مادّي في عالمنا، المرئي وغير المرئي، حتى الأرواح مادة ولها وزن."... لكنه انتقل إلى حقل آخر مناقض لكل ما قاله: "كل هذا الخراب بدأ بعد نجاح الأطباء الخونة في تسميم الرفيق العظيم ''ستالين''..." وحين قابله الجميع بالصمت، بدلاً من هز رؤوسهم تأييداً لرأيه، انتابه شعور وكأننا كنا ضد مثَلِه الأعلى، فراح يبكي بحرقة: "هل نسيتم ما قدمه الرفيق الخالد للبشرية: إنقاذها من وحش النازية... لولاه لكنا جميعا قضينا في معسكراتها..."

تحضرني عيناه الحمراوان، المبللتان، وهما تدوران دون تركيز على وجوهنا، كأننا قضاة عصره: "كيف تفسرون انهيار الحلم لحظة اقترابه من التحقق بالكامل إذا لم تكن هناك مؤامرة دولية كبرى؟ أصارحكم بأني منذ لحظة تسلم ''غورباتشوف'' دفة الحكم عرفتُ أن المؤامرة، التي ظل الرفيق الخالد ''ستالين'' يحذر منها، موشكة على التحقق. هل تسألونني كيف عرفتَ؟ إنها تلك البقعة الحمراء المحفورة منذ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الولادة على جبينه، علامة تحذير لنا من شروره. قد تظنون أنني تخليتُ عن فكري المادي؟ أبداً. الإله الذي أؤمن به ليس كائنا حياً، يفكر ويغضب ويحب مثلنا. إنه طاقة. أشبه بمحطة كهربائية تضخ الالكترونات عبر الأسلاك لكل المدينة. هل تعلمون أن أصل الذرات موجات أطلق عليها العلماء كواركات؟ نحن كلنا مجرد جسيمات تتقلب ما بين المرئي وغير المرئي. زوجتي ''كاثرين'' ما زالت معي، حتى بعد رحيلها، فهي قد عادت بذاكرة متوقدة، بعد أن فقدَتْها بالكامل وهي حية. لكن الزمن الذي تزورني خلاله قصير جداً، ثواني تمر... هو بالنسبة لها زمن يعادل شهوراً..."

لعلك تتذكر أشياء أخرى تحدّث عنها ''عمّو'' في "مرافعته" الطويلة قبل تحول كلامه إلى هذيان محض غير قابل للتأويل.

* * *

لا أظنك ستنكر ما تركه غياب ''هاجَر'' القصير من تأثير على الجلسة، فكأنها بخروجها مع ''عمّو'' سحبت معها طاقة خفية غير قابلة للتعريف، وتركتنا أشبه بأسماك استنفدت كل الأوكسجين في حوض ماء صغير. قالت الدكتورة ''عالية'' بنبرة اعتذار: "خالي أصبح إنساناً آخر منذ تلك الحادثة... اليوم أعطيتُ ''جانيت''، التي تعتني به، إجازة حتى نأخذ راحتنا، ولم أتوقع نزوله..."

طفح الملل على وجوه الجميع، بمن فيهم والدا ''أَسعَد''. أتذكر أن والدته بدأت بالتثاؤب، بينما راحت حبّات المسبحة بيد والده تدور أسرع من قبل. لعل ''مريم'' هي الوحيدة التي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فرحت باختفاء ''هاجَر'' أو ربما بصيغة أدق الوحيدة التي دبت الحيوية فيها فراحت عيناها تتنقلان بيننا واحداً واحداً، وهي تتحدث عن مواهب أطفالها :''أمل'' بعزفها على البيانو، التوأمين ''رعد'' و''آدم'' بتفوقهما في الحساب، والصغير ''سامر'' بذاكرته الخارقة للمألوف في حفظ أناشيد الروضة، فكان هز رأسي هو العلامة الوحيدة عن إعجابي بحديثها كلما التقت عيناها بعينيّ.

كأن ظهور ''هاجَر'' شبيه بظهور مغنية الأوبرا الأولى على المسرح ثانية بعد فترة استراحة طالت أكثر مما ينبغي. ها هي الابتسامة العريضة تعلو وجه أم ''أَسعَد''، وهي تنهض من الأريكة لتحتضنها، وتجلس بجانبها، بعد دفع زوجها الفرِح إلى مكانها.

لا بد أنني في تلك اللحظة غيرتُ رأيي بهاجَر: بدلاً من أن تكون مصدراً لذبذبات تربك الآخرين اعتبرتها مصدراً لزعزعة المشاعر لدى المحيطين بها، أو بصيغة أخرى مصدر جذب مغناطيسي غامض لهم. أستطيع أن أرى عينَي ''ماهر'' تحدقان فيها بين الفينة والأخرى، بانبهار، من تحت نظارتيه الدائريتين الذهبيتين، رغم سعيه لإخفاء نظراته كلما وقعت عينا ''مريم'' عليه، وأنت، دون إرادتك، انطلقتَ في حديث ودي مع والد ''أَسعَد''. أتذكر أنك سألته عن أبنائه الآخرين؛ عن تحصيلهم الدراسي، عملهم، وما إذا كان أي منهم خدم في الجيش خلال الحرب مع إيران. أصارحك القول بأني استغربتُ من أسئلتك تلك آنذاك، فما يجمعك بـ''أَسعَد'' كان كافيا لتعرف منه كل شيء، من قبل، عن عائلته في بغداد. لكني الآن متأكد

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

من أنك (بعد كل ما جرى بيننا لاحقا) كنتَ تريد، دون إرادتك، توجيه عينيك صوب ’’هاجَر‘‘ التي كانت تجلس على نفس الكنبة مع والِدَيه.

* * *

جاء صوت ’’أَسعَد‘‘ أخيراً ليذكِّرنا بأنه ما زال صاحياً، أتذكر أنك ألقيت عليه نظرة مستكشفة مختلطة بقدر من التوجف الذي تجيد إخفاءه ببراعة؛ كأن عينيك تتساءلان إن كان صديقك قد دخل مرحلة الثمالة الأخطر.

"لنشربْ نخب قتلى الحروب القادمة،" قال ’’أَسعَد‘‘ بكلمات متلعثمة وهو يرفع كأسه. قد أكون مبالغاً إذا قلت لك إن كلماته أيقظت في أعماقي ذلك القلق الغامض الذي بقيتُ أتجاهله منذ صدور أول خبر عن غزو الجيش للكويت. كانت حياتي حتى اليوم الثاني من آب، تسير على خط سكة بعيد كل البعد عن سكة الوطن المنسيّ، فكل ما يحيطني في البيت والعمل يمسح دقيقة بعد دقيقة، ساعةً بعد ساعة، يوماً بعد يوم، حفريات الماضي على سطح ذاكرتي. ها هو الوطن يخترق حياتي الوادعة عبر شاشة التليفزيون أولاً: مروحيات تحلق في سماء مدينة الكويت ودبابات تتقدم في شوارعها. فجأة، أصبح العراق، الذي اختفى اسمه من الأخبار منذ انتهاء الحرب مع إيران، حاضراً ليل نهار على قنوات التلفزيون الأربع، حيث تتكرر مشاهد الفظائع، التي تجنَّبَ الإعلام الإشارة إليها عند وقوعها، على شاشاتها: قصف بلدة حلبجة بالاسلحة الكيميائية، قبل أكثر من عامين؛ فيلم تسجيلي قصير لمعدومين معلقين في ساحة التحرير يعود لعام 1969؛ ’’سَدَم‘‘ وهو يطلق النار من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مسدسه، من شرفة تطل على جمهور كبير، يتغنى باسمه... هل أبالغ إذا قلت لك إني شعرتُ لأول مرة بغربة في بيتي أمام زوجتي وابنتيَّ.

قال والد ''أَسعَد'' محتجاً على ما قاله ابنه من دون أن ينظر إليه: "تفاءلوا بالخير تجدوه."

هل ما زلتَ تذكر صوت ''أَسعَد'' المتذبذب (بفضل الكحول) عندما عاد إلينا هذه المرة محمَّلاً بأول هجوم له على مَثَلَيه الأعليين، بعد بلوغه أخطر مراحل سكره، التي قد أستطيع تسميتها: مرحلة قتل الأب.

* * *

"سأكشف لكم سراً،" ردد ''أَسعَد'' وهو يلتفت مبتسماً صوب جاره، "هل تعرفون أن ''ماهر'' يستعير التوأمين منّا صباح كل سبت؟".

وكأن ''مريم'' استشعرت ما يهدف إليه زوجها ضد صديق العائلة الوحيد الذي يعشقه أطفالها: "وماذا في ذلك؟ أنت لم تأخذ الصغار، ولا مرة واحدة، إلى ملعب الأطفال في البارك القريب من بيتنا".

لعلك تتذكر كيف انتهز والد ''أَسعَد'' صمت ابنه القصير ليعاود سخريته به: "هو غير مسؤول عن أطفاله، مسؤوليته محصورة بسكارى ''اليَب''،" وكيف أن أمه عاودت ضرب راحتَي يديها ببعضهما تعبيراً عن جزعها الكامل من ابنها البكر.

غير أن ''أَسعَد''، ظل محافظاً على ابتسامته وعيناه

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مركزتان على ’’ماهر‘‘ الذي ظل هو الآخر محتفظاً بتماسكه، عدا عن تحريك راحتَي يديه لتمسا، مرة أو مرتين، شعره المسبَل الكثيف، مساً رقيقاً.

"أنا بالتأكيد ممتنّ له كثيراً، لإراحتنا من أزعج أطفال في العالم نصف نهار كل سبت..."

قالت أمه ساخرة: "وأنت تكون ’’نائم‘‘ كل الوقت بعد سهرة يوم الجمعة مع أصدقائك الإنكليز..."

لا أتذكر جملة والد ’’أَسعَد‘‘ اللاذعة التي جاءت لتعمق ما قالته زوجته، لكن أكثر ما أدهشني آنذاك، لا مبالاة ابنهما الكاملة بما كان يعتلج في داخلهما من حنق عميق على تصرفه معهما طوال فترة زيارتهما له.

قالت ’’مريم‘‘ محتجة: "أنت تبالغ كثيراً، ’’ماهر‘‘ لا يأخذهما إلا مرة واحدة أو في أقصى الأحوال مرتين في الشهر..."

لا بدّ أنك تتذكر الصمت المطبق الذي ساد الغرفة، بينما ظلت الأبصار تتنقل، بنفاد صبر، ما بين ’’ماهر‘‘ و’’أَسعَد‘‘.

جاء صوت الأخير، كأنه قادم من خارج الغرفة، متزعزعاً، مرتعشاً: "إنه يستعيرهم لـ’’غاية في نفس يعقوب‘‘."

لا أستبعد بروز شحوب طفيف على وجه ’’ماهر‘‘، غطت عليه أضواء الغرفة الخافتة، رغم تلك الابتسامة المتهكمة، اللامبالية، التي علت وجهه.

قال ’’أَسعَد‘‘: "أنتم تعرفون أن الكثير من الأمهات العازبات يأتين كل سبت إلى الملعب مع أطفالهن، فيختلط الحابل بالنابل: الصغار مع الصغار والكبار مع الكبار..."

كأن ذلك الهجوم الكاسح لم يكن كافياً، ليعززه بضحكة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

شيطانية أخرجت ''ماهر'' عن طوره قليلاً، حيث راحت يداه تمران على شعره المشبع بـ "الجَلّ" أكثر فأكثر.

صاحت ''هاجَر'' بـ''أَسعَد'' بنبرة تجمع المرح والصرامة: "كفى، اتركه وشأنه،" ثم التفتت صوب ''ماهر'' مسترضية: "تعال اجلس بجانبي واترك صاحبك الخائن..."

قد تتضايق إذا قلتُ لك إن طبقة أعمق من العبوس برزت على عينيك وأنت ترى ''ماهر'' ينهض من مكانه ويتجه صوب المقعد المجاور لهاجَر. لكن ''أَسعَد'' لم يكفّ عند ذلك الحد فكأنه كان مسكونا بشيطان تدمير الأيقونات التي سيعود غدا لتقديسها حال استرجاع صحوه: "هل تعرفون أن ''جليل'' و''ماهر'' لا يطيق أحدهما الآخر؟"

كأني أراك الآن، وأنت تسفّه كلام ''أَسعَد'' بشدة: "هذه أوهام السكر فقط، نحن دائماً أصدقاء..." ومن مكانه هز ''ماهر'' رأسه تأييداً لقولك، لكن ''أَسعَد'' كان في كوكب آخر خالٍ من أي جاذبية. أنصتُ إليه الآن متحرراً من سلطتكما معاً عليه، قادراً على اختراق الحُجُب ببصيرة أيقظتها ثلاث زجاجات بوردو: "''جليل'' و''ماهر'' ممسوسان بالمرأة: الأول بالنصف الأعلى منها والثاني بالنصف الأسفل منها..." وكعادته أعقب هجومه الجديد بقهقهة صاخبة.

ما أثار استغرابي أكثر من أي شيء آخر، تلك الابتسامة التي ظلت طافحة على وجه المضيفة، مما جعلني مقتنعاً بأنها كانت مسرورة من انطلاق مهرِّجها المفضَّل من عقاله وقلْب المائدة على مَثَلَيه الأعليين، ولم يكن هناك دليل أفضل من زجاجة النبيذ الرابعة المفتوحة للتو أمام ''أَسعَد''. تشكلت لديّ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قناعة بأن ما أراه كان طقساً يتكرر في كل حفلة عشاء تقيمها الدكتور ’’عالية‘‘.

عاد ’’أَسعَد‘‘ يوجّه سهامه عن بعد صوب ’’ماهر‘‘، الذي ظل يتبادل الحديث مع ’’هاجَر‘‘. من موقعي كنت أستطيع رؤيته بوضوح كامل، كانت يداه تمسكان ذراعَي المقعد، ورأسه مائلاً إلى اليمين قليلاً، فيكاد يمس بروفيلها، بالمقابل كان رأسها منحرفاً قليلاً صوبه فبدوَا من زاويتي كأنهما غارقان في قبلة طويلة، سرَّبت في حنجرتي غصة غامضة.

"هل تعرفون شيئا عن نظرية ’’ماهر‘‘:’الأخدود‘؟" قال ’’أَسعَد‘‘. أتذكر أنك كنتَ غارقاً في حديث جانبي مع الدكتورة ’’عالية‘‘، وعلى خلفية أصوات الحاضرين الخافتة كانت موسيقى عود عراقية هادئة تصدح من جهاز ستيريو فخم موضوع بين الغرفتين المتجاورتين.

ارتفع صوت ’’ماهر‘‘ طبقة، بينما التمعت عيناه الحانقتان من تحت نظارتيه صوب ’’أَسعَد‘‘:"إذا نطقتَ حرفاً آخر سأخرج الآن."

وكأن والِدَي ’’أَسعَد‘‘ استشعرا الحرج الذي ألمّ بـ’’ماهر‘‘ فشعرا هما أيضاً بحرج شديد.

قال الأب دون أن يوجه ناظره صوب اِبنه: "هذه آخر ليلة لنا معكم، ’ليش‘ تريد إفسادها؟" ومن جانبها قرّعت الأم ابنها ضمنياً، حين رددت جملة كهذه: ""’’ماهر‘‘ كان أكثر من ابن معنا، الله يوفقه..."

قالت ’’هاجَر‘‘ كاسرةً ذلك التوتر، بمرح ملموس: "احتفظ بالنظرية لنفسك؛ ’’ماهر‘‘ سيكشفها لي وحدي." وحال رفع

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عينيها عن ’’أَسعَد‘‘ التفتت إلى جارها: "ما رأيك؟"

ضحك الجميع على سؤالها عداك، أتذكر كيف استدرتَ نحوي، لتقول لي عبر عينيك: "كم أنا محق في أحكامي السلبية عنها."

أستطيع أن أؤكد لك أنّ قدراً من الاحمرار علا وجهك، إذ لا بد أنّ ’’أَسعَد‘‘ أخبرك بالتفصيل بنظرية ‘الأخدود’، وهذا ما خلق في نفسي فضولاً أقوى لمعرفتها. خمنتُ في تلك اللحظة أنك و’’ماهر‘‘ تعرفان أحدكما الآخر معرفة عميقة، حتى مع غياب التواصل بينكما، وهذا بفضل الصداقة التي تجمعكما بـ’’أَسعَد‘‘، كلاً على حدة، فالأخير كان تحت سيطرتكما في أوقات صحوه القليلة، وكلما التقى بواحد منكما اختفى تماماً نفوذ الآخر عليه، فنقل عنه كل ما في جعبته من أخبار.

* * *

لم تُخبرني بوجود مرحلة أخرى يصلها ’’أَسعَد‘‘، بعد تحطيم أيقوناته، ولم أستطع أن أحدد جوهرها آنذاك. لعلي أقدر الآن على تسميتها بـ"مرحلة المصالحة".

"يجب أن أعترف بأن ’’ماهر‘‘ هو الذي أخرجني من الظلمات إلى النور،" قال ’’أَسعَد‘‘، ثم انصرف إلى كأسه المترع للتو، تاركاً إيانا ننتظر إكمال جملته على أحر من الجمر.

"من أعماق الكآبة القاتلة، وأنا أشاهد الألمان يحطمون جدار برلين، جرني خطوة خطوة من تلك الحفرة المظلمة، كاشفاً لي أن كل أفراحنا وآلامنا قائمة على أفكار، وأن بإمكاننا أن نتحرر من مشاعرنا السلبية، إذا نجحنا في تغيير أفكارنا... بفضل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

’’ماهر‘‘ تخليثُ عن ‘المادية التاريخية‘ بشيء أكثر علميةً : ‘المادية الوراثية...‘"

قال ’’ماهر‘‘ محتجاً: "أنا لم أنطق في حياتي بعبارة كهذه : ‘المادية الوراثية.‘ العلوم الطبيعية تخلت منذ وقت طويل عن سعيها للوصول إلى الحقيقة المطلقة، فكل ما يسعى إليه العلماء هو وضع نظريات تفسر مؤقتاً هذه الظاهرة أو تلك، حتى بروز ما يثبت نقصها أو خطلها، وعند ذلك فإنهم سيتخلون عنها بكل رحابة صدر... ليس هناك حقيقة بحد ذاتها، هناك تصورات مؤقتة لها بانتظار ظهور تصورات أقوى وأوطد لها."

أتذكر بروز ابتسامة ساخرة على وجهك، بينما هزت الدكتورة ’’عالية‘‘ رأسها، أفقياً، تعبيراً عن عدم موافقتها، ثم رحتما تتهامسان بينكما. بدا لي ’’ماهر‘‘ مرتبكاً قليلاً، ولعل ندماً خامره لقول شيء يتعارض وقناعات المضيفة الكريمة، وربما كان على وشك قول شيء ما يعارض ما ذكر للتو، لكن ارتفاع صوت ’’أَسعَد‘‘ قطع الطريق عليه، وكم بدا الأخير وكأنه لم يسمع شيئاً سوى صوته الداخلي.

"المادية الوراثية كما فهمتها من ’’ماهر‘‘، هي أننا أدوات تستخدمها جيناتنا حتى تستمر في البقاء من جيل إلى آخر. ولتحقيق ذلك، تخصصت بعض الجينات في خلق الرغبة للتواصل الجسدي مع الجنس الآخر، ومقابل ذلك تخصصت جينات أخرى في خلق المتعة مكافأةً وتحفيزاً لنا، وبهذه الطريقة يضمن الصندوق المعبأ بجيناتنا البقاء في الجيل اللاحق."

لعلك تذكر كيف شعر ’’ماهر‘‘ بالحرج، حين التفتت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

’’هاجَر‘‘ إليه، معلقةً، بنبرة مرحة: "يبدو أنك فعلاً غسلتَ دماغ صديقك."

"أنا لم أنطق يوماً بهذا الهذيان أمامه،" أجابها وعيناه تتنقلان بين الحضور سعياً لإقناعه بعدم مسؤوليته.

"استمعوا إلى هذه الحكاية التي رواها لي ’’ماهر‘‘ عن حشرة ’فرس النبي‘،" قال ’’أَسعَد‘‘، وهو يتطلع في كأسه، كأنه يسعى إلى استرجاع تفاصيلها، "حين يعتلي الذكر ظهر الانثى، تبدأ شريكته، وتحت وطأة التهيج، بقرض رأس شريكها المسكين، جزءاً جزءاً، مع ذلك فإنه يستمر في رفدها بـ ‘أشنات الخلق’ للتوثق من تحقق التلقيح، وحسبما ذكر لي ’’ماهر‘‘، فإن ‘فرس النبي’ الذكر يزداد جموحه الجنسي حتى مع فقدان رأسه الذي تحول إلى طعام داخل معدة الانثى... مع ذلك لم يتعظ أي من ذكور فرس النبي بهذا المصير الأسود لأنها لم تكن سوى أداة بيد جيناتها التي تضمن بقاءها، بغضّ النظر عن بشاعة الطريقة، وكأنها بهذا الشكل تطبق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة."

انفجرنا جميعا بالضحك، سواك، فأنت حريص جداً في حديثك على تجنب أي إشارة للجنس، ولعل ’’أَسعَد‘‘ لم يخبرك بهذه القصة من قبل.

قالت ’’هاجَر‘‘ ساخرة: "يستحق هذا المصير... المُتع لا تُمنَح مجاناً،" ثم ألقت عليك، لأول مرة، نظرة سريعة محملة بإغراء ما غير قابل للتعريف.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

المظروف الرابع

غُتْرات بيضاء

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

(1)

’’كاف‘‘ والقلم:

أتذكر كيف أطلقت "الثورة" فورة عاصفة من الابتهاج في شراييننا، حيث الشوارع ظلت تزخر بالموسيقى الصاخبة أياماً، والبيوت بالأناشيد الحماسية المبثوثة من أجهزة الراديو على مدار الساعة، قبل أن تقرر ربات القدر الإغريقية إنهاءها على حين غرة.

كم زرع ذانك الضابطان الكهلان :’’الجنرال‘‘ و’’الكولونيل‘‘، وهماً بأن بناء البرج الذي بدأه الأسلاف للوصول إلى السماء سيكتمل على أيديهما.

تحضرني صورتاهما المطبوعتان على ورق رخيص، كلاً على حدة، بملابسهما العسكرية، وعلى وجه كل منهما ابتسامة النصر العريضة.

غير أني لم أستطع، حتى هذا اليوم، حلّ لغز اللون الأزرق الفاتح الذي اكتست به صور زعيمَي الثورة الملصقة على الجدران في كل مكان. لعل ذلك اللون كان علامة ربات القدر الساخرة بكل تلك الأحلام الكبرى التي زرعتها "الثورة" فينا.

لعل الناس آنذاك أسقطوا على البطلين المجهولين شخصيتين أسطوريتين :’’جلجامش‘‘ على الجنرال، الأكبر سناً، و’’أنكيدو‘‘ على الكولونيل، الأصغر سناً.

وإذا كان ’’أنكيدو‘‘ هو الذي قتل حارس الغابة، ’’خُمْبابا‘‘، فإن الآلهة غضبت على ’’جلجامش‘‘ أكثر من ’’أنكيدو‘‘.

ربما لأنه كان المخطط الحقيقي، وصديقه المتهور أداة تنفيذ فقط.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ولم يكن ’’خُمْبابا‘‘ هذه المرة سوى العائلة الملكية بالكامل، والغابة هي الوطن.

بعد أقل من ثلاثة أشهر على "الثورة" حاول الكولونيل’’أنكيدو‘‘ (على عكس ’’أنكيدو‘‘ الأصلي) قتْل صديق عمره ومثَلِه الأعلى، الجنرال ’’جلجامش‘‘، لكن الأخير أوقع أدنى عقاب ممكن بصديق عمره حين حجَرَه في قصر ’’طَرطَروس*‘‘ ثلاث سنوات فقط.

(2)

أيلول يعود، فتفتح المدارس أبوابها مرة أخرى، لكنه في هذه السنة مختلف تماماً عما سبقه: اختفت صورة الملك الشاب المؤطرة من غرفة المدير إلى الأبد، وبدلاً عنها حلت صورة كبيرة للجنرال والكولونيل بملابسهما العسكرية الصيفية، وعلى وجهيهما ارتسمت ابتسامة الانتصار العريضة.

حسب الأسطورة الإغريقية، تقرر ربات القدر الثلاث أعمار البشر، وفي مشغلهنّ بقصر الأوليمبس، تقوم كل منهن بمهمتها على أحسن وجه :’’كلوثو‘‘ تغزل خيط العمر: أحداثه، و’’لاشسيس‘‘ تحدد طوله، و’’أتْروبوس‘‘ تقطعه. وحال إصدار حكم الموت، يصبح على الفانين تنفيذه بالطريقة التي يرتؤنها، من دون أن يعلموا أنهم أدوات بيد قوة خفية أخرى.

---

* المكان الذي حبس ‘‘زيوس” والده ‘‘كرونوس” بعد الانتصار عليه.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(3)

كان مقرراً أن يُسافر الملك الشاب إلى لندن، قبل حلول أجَلِهِ المقرر بخمسة أيام، فسارعت ربات القدر الثلاث إلى قطع الطريق عليه.

ها هو وزير ماليته يحضر على عجل: "نحن بحاجة إلى توقيع جلالتكم على قانون الضريبة الجديد."

"هو معك؟"

"لا، ولكن الخبراء يعملون عليه... بعد غد ينتهي إن شاء الله."

وبعد انقضاء اليومين حضر الوزير نفسه: "نحن بحاجة إلى يوم واحد آخر."

كانت ربات القدر، يتابعن بانتشاء الأحداث: بروز تلك القافلة العسكرية القادمة من الشمال، متجهةً ببطء صوبَ غرب العراق، ومن مشغلهنَّ ظللنَ يُراقبن آمرها الجريء، الكولونيل''أنكيدو''، وهو يتقدم لتنفيذ ما يظن أنه قراره الحرّ.

نحن نمشي في الحاضر معصوبي العيون.

هل كان ''الكولونيل'' الجريء سيخاطر بحياته، فيقتل حارس الغابة المقدسة،''خُمْبابا''، لو كان يعرف ما خططت له ربات القدر؟

في آخر يوم من أيلول، فقدَ الكولونيل ''أنكيدو'' حظوته لدى أخيه الأكبر ومثَلِه الأعلى: الجنرال ''جلجامش''. وفي مدرستنا اختفت صورُه دفعة واحدة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(4)

كم يبدو شيقاً قراءة التاريخ وفق الأساطير، فهو يصبح أشبه بمعادلات رياضية، متغيراتها ’’سين‘‘ و"صاد" و"عين"، قابلة لتمثيل أي شيء حقيقي.

’’الحُمْر‘‘ و’’الخضر‘‘: متغيران يمثلان كتلتين هجينيتين، أطلقتهما ربات القدر، حال نجاح الكولونيل ’’أنكيدو‘‘ بنحْر ’’خُمْبابا‘‘: مجرّتين تصادمت إحداهما بالأخرى على عجل: "درب التبانة" بـ "أندروميدا".

كلتا الكتلتين أرادتا القفز إلى سطح القمر بواسطة الزانة، فتشابكتا بالأذرع على من يبدأ أولاً: ديكتاتورية البروليتاريا أم وحدة العرب الفورية؟

كانت كلتا الكتلتين حالمتين: الأولى بإعادة مجتمع "المشاعية" الخالي من الطبقات، حيث الكل كأسنان المشط؛ والثانية بإعادة عصر الإمبراطورية العربية "الذهبي".

لا أعرف كيف اصطفّ ’’كاف‘‘ مع الحُمْر، فهو حتى وقوع "الثورة" كان، مثل كل الطلاب الآخرين، مستغرقاً في إيقاع الحياة الرتيب، حيث لا مكان فيها للسياسة. أتذكر أنه رسم لوحتين للملك الشاب إحداهما بمناسبة عيد التتويج وأخرى بعيد الجيش.

لا بد من الإشارة إلى أننا كنا نتهامس في المدرسة، من وقت إلى آخر، عن قدوم مختار المنطقة إلى بيت ما، حاملاً معه مذكرة قضائية باعتقال أحد ساكنيه، برفقة شرطيين، وغالباً ما كان المطلوب ينجح في الهروب، قافزاً من فوق جدار سطح

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بيته إلى سطح الجيران. وكم كنا نفرح بالخبر، حتى مع جهلنا أسباب ملاحقة القضاء له.

غير أن الحياة تعود إلى رتابتها، بعد لحظة الإثارة تلك، وقد يتساءل أحدنا هامساً عن سبب مطاردة ذلك الشاب، فيأتيه جواب من آخر: "لأنه وطنيّ"، وهذا يعني أنه في الغالب من ''الحُمْر'' وأحياناً من ''الخضر''

حتى مع جهلنا الكامل بأسباب تمرد أولئك "الأبطال" الأسطوريين، كنا نتعاطف معهم بقوة؛ كأنهم بتمردهم على الدولة يتماثلون مع روح التمرد الذي يغلي في أعماقنا ونحن ندخل سن المراهقة.

لذلك، لم يكن غريباً، حال وقوع "الثورة"، أن ننجرف صوبهم، بأعداد هائلة، رغم جهلنا بمعتقداتهم ومشاريعهم للمستقبل. لكأن قتْل ''خُمْبابا'' على يد الصديقين القديمين، ''الجنرال'' و''الكولونيل'' فتح أمامنا بوابة الغابة الغامضة، والبوصلة الوحيدة التي كانت في أيدينا هو الانضمام إلى أحد القطبين :''الحُمْر'' أو ''الخضر''.

ما سهَّل علينا الاختيار، انحياز ''الحُمْر'' إلى الأكبر سناً، و''الخضر'' إلى أصغرهما.

(5)

ما يميز الأسطورة عن سجلات التاريخ، أنها لا تُخبرنا متى وقعت أحداثها، أو كم استغرقت، وفي ما إذا كانت هناك أي دلائل تشير إليها؛ نحن في حضرتها لا نبالي بتفاصيل من هذا

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

النوع، وكلما زادت غرائبيتها زاد انشدادنا إليها.

الشيء الوحيد الذي نجده فيها هو أن المعاناة البشرية ناجمة عن صراع الآلهة نفسها، مع بعضها البعض، فهي بدلا من التشابك في ما بينها، تستخدم البشر أداة لفرض إرادتها: البشر لعبتها المفضلة، والفوز أو الخسارة لا يؤولان إلى قطيعة بينها، بل إلى فتح صفحة جديدة، والبدء بلعبة أخرى أداتها البشر.

في الحرب الضروس التي خاضها الإغريق ضد الطرواديين، انقسمت الآلهة الإغريقية، حسب ملحمة الإلياذة، إلى جبهتين، إحداهما مع جيش الإغريق الغازي والأخرى مع أبناء طروادة المحاصَرين وراء سور مدينتهم المنيع.

وإذ يأخذنا الشاعر الضرير، ''هوميروس''، إلى أسباب هذه الحرب، التي خلفت وراءها دماراً عارماً للطرفين المتحاربين، نكتشف أن نقطة البدء كانت خلافاً بين الربات الثلاث : ''أفروديت'' و''أثينا'' و''هيرا''، خلقته ربة الفِتَن، ''إيريس''، حينما رمت في عرس سماوي، بتفاحة ذهبية بينهن مكتوب عليها: للأجمل.

ولحلّ الخلاف، اختار كبير الآلهة، ''زيوس''، ''باريس'' ابن ملك طروادة، ''بريام''، حَكَماً.

من بين شقائق النعمان، ظهرت الربات الثلاث أمامه، في ذلك المرج الفسيح. بَدَوْنَ قريبات جداً منه وبعيدات في آنٍ، فكأنهن قطعة من حلم مترف بالألوان المشعشعة الزاهية، بينما تراءى لـ''باريس'' أنه يعيش حلماً داخل حلم، حتى جاءه صوت الربة ''هيرا''، عقيلة كبير الآلهة، ''زيوس''، ناعماً: "إذا منحتني التفاحة، سأمنحك سلطة لا يمكن تخيلها. ستحكم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أراضي واسعة، وبأمان مطلق، من دون أي منافسين لك على العرش."

أما الربة ’’أثينا‘‘، فعرضت عليه سلطة من نوع آخر: "سأجعلك، إذا أعطيتني التفاحة، شخصاً لا يُقهَر، ليس في المواجهات الفردية، بل في إدارة الحروب؛ ستصبح أعظم جنرال يقود جيشاً، حيث يتجمع الآلاف تحت رايتك، ولا أحد يقف ضدك."

أخيراً، برزت ’’أفروديت‘‘، ربة الحب الطبيعي والجمال، لتهمس في أذن الفتى الساذج: "إذا اخترتني، فستفوز بحب أجمل امرأة مرغوبة في العالم."

وإذ ملأ ضوعها أنفه، وانبهرت عيناه بثدييها اللذين كشف ثوبها المهلهل خطوطهما الآسرة، وتكلست الكلمات على لسانه، سمع صوته دون أن يكون موقناً تماماً أنه منبعث من فمه: "مَن هذه المرأة؟"

"إنها ’’هيلين‘‘ ملكة اسبارطة."

"وكيف شكلها؟"

"هي تشبهني تماماً. أنا حوّلت نفسي وفق صورتها."

وكأن ربات القدر كنَّ بانتظار حماقة ’’باريس‘‘ ليبدأن بغزل حياة وموت آلاف المقاتلين بعيداً عن ذلك المرج، حيث أخذت ’’أفروديت‘‘ التفاحة الذهبية من يد ’’باريس‘‘، بينما تدفق الغضب الوابل كالبراكين في أعماق الإلهَتَين الأخريين، فلا بدّ أنهما عزمتا، بعد ذلك التحكيم، على دمار ’’طروادة‘‘، وبالطبع لن يقوم بهذه المهمة سوى البشر الفانين أنفسهم: إنهم الإغريق.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(6)

علـى عكـس كُتـب التـاريخ، التـي تعتبـر وقـوع الحـروب والكوارث الأخرى ناجمة عن أخطاء الزعماء وحماقاتهم، ترى الأسطورة الإغريقية أنهم هم أنفسهم واقعون تحت سطوة إله ما يحركهم عن بُعْد.

كم ينطبق هذا المبدأ على الضابطين اللذين جمعتهما صداقة وطيـدة أمـدها ربـع قـرن: بعـد أقـل مـن شـهرين علـى قتلهمـا ”خُمْبابا“، تدهورت صداقة العمر تلك بينهما، وأصبحا قطبين مغناطيسـيين متنـافرين، أحـدهما جـذَبَ ”الحُمْـر“ إليـه والآخـر ”الخضر“.

عندما فتحت المدارس أبوابها ثانيـة فـي أيلـول، بـدا لـي وكـأن دهراً مضـى، منذ بدء عطلتنـا الصيفية لا مجرد شـهرين فقط، كأن العهد الملكي كان مجرد حلم ليلة صيف؛ كل تلك الأناشيد التي كنا نرددها كل خميس اختفت من الذاكرة، ومعها اختفت، إلـى الأبد، صـور الملك ذي الوجـه الطفولي المحبَّب، بملابسـه المدنيـة، لتحـل محلهـا وجـوه كهـول بملابـس عسـكرية، وعلـى أكتافهم تزدحم النجوم والسيوف الذهبية.

وفي تلك السنة بالذات، ارتفع نجم ”كاف“ عاليا، أعلى بكثير مما كـان؛ فمِن مرسم المدرسـة، راحـت أصـابعه تخط المناجل والمطـارق، ووجـوه العمـال والفلاحـين بقبضـاتهم الصـلبة، الكبيرة، فتنتشـر فـي منطقتنـا كالنـار بين الهشيم، علـى الجدران وفوق المبـاني ووسط السـاحات. وفـي المسيرات الكبيـرة كانت رسـومه منقوشـة علـى اللافتـات والرايـات التـي ترفعهـا آلاف الأذرع.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كأن "الثورة" أخرجتنا من غارٍ مظلم، ووضعتنا فجأة تحت ضياء الشمس الساطع.

ها نحن نخرج من أفلام "الغرب المتوحش"، التي كنا نعيد تمثيلها، خلال سنوات طفولتنا، على إسفلت أزقتنا - حيث المهاجرون البيض والهنود الحمر، في نزاع دموي دائم – لندخل في إحدى الطائفتين المتنازعتَين على أرض الواقع : ’’الحُمْر‘‘ و’’الخضر‘‘؛ مَن هو مع الجنرال ’’جلجامش‘‘، ومَن هو مع الكولونيل ’’أنكيدو‘‘.

غير أن هذا الانشقاق الذي تغلغل في مدرستي بعمق، اتسع خطوة أبعد: في البيت انقسم إخوتي الأربعة بالتساوي بين الفريقين، بينما ظل والدي محايداً بينهما، مانعاً بفضل خوف إخوتي منه، أي تشابك بالأذرع بينهم.

مع ذلك، كان الطرفان في البيت يتهيآن لقيامة أخرى، كلاً حسب طريقته :’’الحُمْر‘‘، بالتركيز على قراءة الكراريس المبشرة باقتراب زوال الطبقات وتحقق العدالة المطلقة؛ و’’الخضر‘‘، بالتركيز على تقوية عضلاتهم والتدرب على الفنون العسكرية.

(7)

في نص الملحمة الأصلي، كان هدف ’’جلجامش‘‘ و’’أنكيدو‘‘ مِن قَتْل ’’خُمْبابا‘‘، تحقيق الخلود لاسميهما عبر الأجيال.

مع ذلك، انتاب ’’أنكيدو‘‘، وهو يحتضر، ندم على ما قام به،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

فهو لم يعلم بأن فِعْله سيُغضِب آلهة ''الأنوناكي'' السومرية، فتُقرِّر موته.

بعد موت ''جلجامش'' و''أنكيدو''، نهَبَ اللصوص غابة الأَرْز المقدسة، التي كان ''خُمْبابا'' حارساً لها: أشجارها الوارفة، الكثيفة، وكنوزها النادرة، التي لا نظير لها.

كم ظل تضرُّع حارس الغابة هذا يتردد عبر الأزمنة، بعد وقوعه تحت رحمة البطلين الأسطوريين. ها هو يخاطب السيد الذي ثلثاه إله وثلثه انسان: "أطلقني يا ''جلجامش'' تكن لي سيداً، وأكن لك خادماً، والأشجار التي رعيتها سأقطعها، وأبني لك بها بيوتاً،" لكن شكوك المنتصِرَين بصدق نوايا ''خُمْبابا''، ونشوة الظفر به، دفعتهما للإجهاز عليه فوراً.

(8)

نحن نسير وسط غابة من الرموز، لكننا لن نتمكن من فك شفراتها إلا حين يصبح الحاضر ماضياً.

ترافقَ صعود نجم ''كاف'' مع صعود ''الحُمْر''. كم كنتُ مسحوراً بإطلالته، وأنا أراقبه عن بُعْد؛ بسترته "الثورية" المستوردة من الصين، ووشاحه القرمزي، وجزمته العسكرية، وكم كنتُ أشعر بالحنق عليه لإقصائي المفاجئ (دون سبب) عنه وعن أسرته. فمِن صداقتنا، لم تبق سوى هزة من رأسه وابتسامة شاحبة على شفتيه، كلما تلاقت عيوننا صدفةً داخل المدرسة.

كان مظهر ''كاف'' يوحي بجهوزيته لثورة عارمة أخرى

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

على الجنرال ’’جلجامش‘‘، فالأخير كشفَ عن مزية لم تكن في الحسبان: تذبذُبُه ما بين الطرفين المتنازعين، على الرغم من إخلاص ’’الحُمْر‘‘ المطلق له وانكشاف نوايا ’’الخضر‘‘ الواضحة للغدر به، حال توفر الفرصة المناسبة لهم.

أسترجعُ صورته الآن وهو يمشي أمامي، مختالاً، بخطىً راسخة، بطيئة، وسط أتباعه، فينتابني أحياناً شك بحقيقة صداقتنا القديمة، وحقيقة ذلك الصبي المرعوب الذي أدخلته تحت جناحَي حمايتي أشهراً.

مع ذلك، ظل هناك أمل في نفسي بعودة صداقتنا إلى ما كانت عليه، ومعاودة زيارة عائلته، حتى وقعت تلك الحادثة.

كان المد "الأحمر" قد بدأ ينحسر عن حياتنا اليومية، فلا مسيرات ضخمة تطوف الشوارع، ولا كرنفالات حافلة بالأناشيد الحماسية التي تبثها مكبرات الصوت في كل مكان، ولا ألعابٌ نارية زاهية بالألوان الصاخبة.

كم بدت لي تلك النشاطات مجرد أضغاث أحلام، حالها حال تلك الأحلام عن عهد ملكي، ولِدتُ وعشتُ طفولتي وصباي فيه، لكنه لم يترك أي أثرٍ وراءه في نفسي. كأني تعرضتُ بعد "الثورة" لمسحٍ كامل لذاكرتي، ولم يبق فيها سوى صور مهشمة عن ذلك الزمن، تعاود ظهورها لي عبر الأحلام من وقت إلى آخر.

بالمقابل، بدأ ’’الخضر‘‘ في منطقتنا بتشكيل خلايا مسلحة تسليحاً خفيفاً، كالمسدسات الصغيرة القابلة للإخفاء في الجوارب، ومطاوي الجيب الحادة وقبضات اليد الحديدية.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ولم يكن الهدف منها إلا ترهيب الرفاق ''الحُمْر'' ودفعهم إلى مغادرة منطقتنا.

من النافذة شاهدتهم ذات مرة؛ كان الوقت متأخراً، والشتاء في أوج برده. لا أتذكر ما جعل النوم يهرب عن عينيّ، لعله شوق جارف سكنني في تلك الليلة لرؤية أخت ''كاف'' الكبرى ''سعاد''، بعد زواجها وانتقالها إلى منطقة أخرى، أو لعله قلق من الفشل في الامتحانات التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

كانت هناك طَرْقات قوية على باب الجيران، دفعتني للنهوض من السرير، ها أنذا أرى أربعة أشخاص يلفون رؤوسهم بغُتْرات بيضاء، ولم يكن الضوء الشاحب القادم من مصابيح الطريق كافياً لرؤيتهم بوضوح، وعلى حافة الطريق توقفت سيارة "شِفْروليت" غامقة الزرقة، ظل محركها يرغي، ومن العتمة التي أنا فيها، رأيتُ ظلال السائق الجالس فيها وهو يدخن سيجارة.

حين فتح صاحب البيت الباب قليلاً، انفجر في الفضاء طَلَق حاد لرصاصة، فظننتُ أنهم أطلقوا النار عليه. لكنني تمكنتُ بعد ركوبهم السيارة وانطلاقها سريعاً، من رؤية جارنا حياً، دون أن يصيبه أي أذى، ها أنذا أشاهده يخطو بحذر متراً واحداً خارج بيته، متدثراً بروبٍ فوق بيجامته، فيلتفت صوب الاتجاه الذي انطلقت السيارة فيه.

ولم تمض سوى أربعة أيام حتى توقفت شاحنة كبيرة نهاراً، أمام ذلك البيت، برفقة حمّالَين انصرفا في نقل الأثاث إليها.

بعد يومين على تلك الحادثة، وقع ما لم يكن في الحسبان: كان ''كاف'' راجعاً إلى بيته ليلاً، وحال هبوطه من الحافلة، أحاط به أربعة رجال ملثمين.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(9)

أعترف لكَ بأن هذه الحكاية، حضرت أمامي، بالكامل، كحلم خاطف، حين رأيتك أول مرة في لندن. كانت اللوحات وراءك تشير بصمت إلى ما أصابك خلال تلك اللحظات القاسية. وكأنك استخدمتَ تلك الغُتَر البيضاء التي أخفى المهاجمون الأربعة وجوههم بها، فحولتها إلى ملاءات مبقعة باللون الأحمر. أتذكر أن سؤالاً تردد على لساني دون أن أجرؤ على توجيهه لك: "هل هي أكفان أم رايات؟ أم هي مجرد مثلثات منقَّطة بالدم؟"

لم يتغير أسلوبك الفني كثيراً عما أَلِفتُه في الثانوية، على الرغم من التحاقك بأكاديمية الفنون الجميلة، ومواصلة دراستك في الخارج. لكأنك بقيتَ مصراً على رفض التأثر بأي مدرسة فنية معاصرة، فعدا عن تحسن استخدامك للألوان الزيتية تحسناً ملموساً لم أر أي ملمس جديد في أعمالك؛ لكأن تلك اللحظة التي رسمتَ فيها دائرتك السحرية أمامنا، حددت مسارك الفني دون رجعة، فقد جعلتك توقن بتفوقك على جميع رسامي العالم، وعدم حاجتك إلى تعلم أي شيء منهم.

مع ذلك، بدت لي أعين زوار المعرض مبهورة بدقة رسومك، التي بدت أقرب إلى الصور الفوتوغرافية. ولعل بعضهم قارنها بأعمال أولئك الفنانين الإيطاليين العظام من عصر النهضة، مع اختلاف واحد عنك، هو أنهم، على العكس منك، تمكنوا من تحييد العنف الذي تعرض المسيح له والألم الذي عاناه على الصليب؛ كأنهم حشروا وسط مشاهد العذاب حضوراً إلهياً خفياً يتخطى الجسد بفضله حدوده المادية، بينما كانت لوحاتك حريصة على جعل آلام "المناضلين"، وهم تحت رحمة جلاديهم، ملموسة إلى أقصى حدودها، لتدفع المُشاهِد

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

إلى الابتعاد سريعاً عنها.

لعل الاستثناء الوحيد بين لوحاتك تلك، الأعمال الثلاثة التي كرستَها للغُتْرات البيضاء، المتطايرة في الهواء، على خلفية حمراء باهتة تنذر بخطر قريب.

علمتُ بعد اختفائك من المدرسة بيومين، بما حدث لك على أيدي ''الخضر''.

وكم تنفستُ الصعداء عندما عرفتُ أنهم اكتفوا بكسر ذراعك الأيمن، عقاباً لك على ما رسَمَته بها، كما ظنوا، لـ''الحُمْر''، مع صفعات ورفسات قليلة كانت كافية لرميك شبه مغمى على الرصيف.

كان عليّ أن أخبِرك عند لقائنا في الغاليري عمَّن حكى لي ما أصابك في تلك الليلة، الباردة، العاصفة. إنه أخي "الأخضر"، وَجْدِي؛ فكأنه تحت وطأة شعور عميق بالذنب، جاء أمام إخوته ليعترف بما اقترفت يداه.

وحين شاهد على عيوننا الغضب والنقمة منه صرخ بنا: "لو لم أكن معهم لقتلوه... أنا، في الحقيقة، مَن أنقذه مِن موت مُحتَّم..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الخامس

بيولوجيا الهوامش (2)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

(3 أيلول 1990)

(1)

كـم نحـن، الرجـالَ، منغلقـون علـى أنفسـنا، وإذا حـدث أن صـارحْنا صـديقاً مـا، فـي لحظـة ضـعف، بسرّ مـا عـن إحـدى حماقاتنـا، فإننـا سـنعدّه فـي اليـوم اللاحـق خصـماً لنـا. هـل هـو الشعور المغروز في الأعماق بأننا أفضل من "مشت بـه قدم" وراء كراهيتنا لمن كان أعز إنسان عندنا حتى أمس، قبل أن نكشف له صدعاً كامناً في أعماقنا؟

لم أحدثك يوماً، حتى ولو مجرد تلميح، عن تلك الليلة التي أعقبت لقاءنا في بيت الدكتورة ’’عالية‘‘. لعلك تتذكر وقت خروجنا منه صباحاً. كان الكل غارقاً في نوم عميق، ففي الطابق الأعلى (كما أخبرني ’’أَسعَد‘‘ لاحقا) مُنِح والداه أوسع غرفة نوم في البيت. بالمقابل، احتلت ’’هاجَر‘‘ وخالتها غرفة واحدة، بينما اضطجعت ’’مريم‘‘ وصغارها في العلية الواسعة المزودة بمرافق صحية وحمام.

في غرفة الضيوف، توزعنا نحن الأربعة ما بين الكنبتين والأرضية: احتل كل من ’’أَسعَد‘‘ و’’ماهر‘‘ كنبة، وأنا وأنت اضطجعنا جنباً إلى جنب على فراش خفيف مددناه على الأرضية الخشبية.

مع ذلك، ظل النوم ممتنعاً عنا نحن الاثنين، بينما جذب إليه الآخرَين بسهولة، فغاصا بعمق بين متاهاته. كان شخير كل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منهما يتناوب مع الآخر في إيقاع منتظم، رتيب، يستفز دون هوادة الدم في عروقي، بينما بقيتَ تتظاهر بالنوم، كي لا تقلقل أياً منا.

كم كانت الساعة حين نهضتَ من فراشك وتسللتَ بحذر شديد صوب الحديقة؟ أراك الآن بعيني الثالثة، وأنت تفتح الستارة أقل ما يمكن كي تصل إلى ذراع الباب الزجاجي.

ولم تمضِ سوى دقائق، حتى وجدتني منجذباً إليك.

(2)

ما زالت جلستنا القصيرة تلك منقوشة في الذاكرة حتى بعد مرور أكثر من عقد عليها، وقد يكون قولي أكثر دقة إذا قلتُ إنها لا تحضرني كشريط سينمائي بل كلوحة صامتة، لطبيعة ساكنة.

فمثل كل صباحات لندن الصاحية (على ندرتها) كانت حرارة الشمس فاترة وأشعة ضوئها باهتة، كأنها مثلنا ما زالت في طور الاستيقاظ، على الرغم من أن الوقت تجاوز الثامنة. ها أنذا أراك جالسا على كرسيك الذي احتللتَه في الليل، وبيدك سيجارة كادت تنطفئ بين إصبعيك، وأنت ساهٍ عنها، وعبر السقيفة البلاستيكية الشفافة كانت الشمس تفرش ضوءها عليك وعلى الطاولة التي جمعتنا قبل ساعات قليلة.

اخترتُ مقعداً يقابلك، قدمتَ لي سيجارة، فمضينا ننفث بصمت دخاننا. كنت أستطيع رؤية الورم الواضح تحت عينيك

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المائلتين للاحمرار، ولا بد أنك كنتَ ترى الشيء نفسه على وجهي، فكلانا لم يغفُ أي دقيقة منذ انفضاض مجلسنا من هذا المكان.

لا بد أن أعيننا تقاطعت أكثر من مرة وهي تزوغ صوب ذلك الكرسي الفارغ، وكم كنتَ حريصاً على التظاهر بعفوية التفاتاتك. ساورني حدس، للحظة، بأننا راغبان معاً في رؤية ''هاجَر'' قبل سفرها، أو بصيغة أدق، متشاركان معا بألم عدم القدرة على تحقيق هذه الرغبة.

دار رأسي، دون إرادتي، إلى أعلى، فراحت عيناك تراقبانني، بحثاً عن سبب حركتي المفاجئة. لا أستبعد أنك كنت لم تزل متشبثاً بأحكامك ضدها، وكونك ذكرتها لي فإن كبرياءك الشامخ منعك من اكتشاف ما كان يخالجك من مشاعر.

أستطيع الآن فقط أن أخبرك عما كان يجول في خاطري: رغبة جارفة في رؤيتها للمرة الأخيرة. وكأن تلك الرغبة وجدت لها طريقا للتحقق عبر الوهم. ها هي ''هاجَر'' تنهض أخيراً من سريرها، فتفتح ستارة غرفتها المطلة على الحديقة، أسمعها وهي تردد تحية الصباح لنا، ثم تأخذ في مناكدتنا: "ما الذي أيقظكما باكراً؟ لا بدّ أنكما شاهدتما كابوساً مشتركاً...." أرفع رأسي لا إرادياً، فتنتصب عيناك محملقتين في وجهي، بينما تشعل يداك سيجارة، حال إطفاء أخرى.

"أنا ذاهب الآن،" يأتيني صوتك خافتاً، ومتماسكاً، فأجيبك بنبرة قاطعة: "وأنا أيضاً."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

(3)

لعلك بعد كل هذه السنين نسيتَ لقاءنا الأول في لندن. ما زلتُ أحتفظ بصورة، تجمعنا معاً عن تلك المناسبة، وأظن أن المصور كان ''أَسعَد''. الآن هي أمامي على الطاولة، وبفضل المكبِّرة التي بين يديّ أستطيع رؤية لوحاتك المعلقة على الجدار وراءنا.

ولم تكن سوى الصدفة التي جعلتني أقرأ خبر معرضك في الصحيفة المحلية، مرفقاً بصورة تجمعك أنت وأحد رسومك. وكم أدهشتني ملامحك التي لم تتغير عما كانت عليه منذ أيام مدرستنا الابتدائية: عينان غائرتان لا تزوغان إلا ما ندر، وشفتان مزمومتان تقترب الابتسامة منهما بحذر، ولعل ذاكرتي تغالي إذا ادّعت وجود خطين مظلَّلَيْن على جبهتك منذ عهد طفولتك، وها أنذا أراهما الآن أعمق مما كانا: غُضنين عريقين يمنحان وجهك جدية وحزناً غامضاً تعشقه النساء.

في القاعة الصغيرة الغاصة بالزوار وقفتُ أمامك وأنت تتحدث مع امرأة شقراء (أو هكذا خُيِّل لي بسبب لون شعرها المائل للصفرة). كنتَ على الأغلب تجيب عن أسئلتها حول لوحة وراءكما، فسمح لي ميلان رقبتك صوبها بأن أمعِن النظر في بروفيلك.

بدت ثواني المراقبة تلك دهراً، ظلت ذاكرتي خلالها تتخبط ما بين زمنين: لحظة الحاضر الغرائبية التي جعلتني أراك بعد ربع قرن من دون مقدمات في لندن، وأخرى تلاشت ذبذباتها حتى أصبح الشك يساورني في حقيقتها، وها أنذا الآن أتلمس حضورها لا كأحداث صغيرة يومية كنا نتقاسمها في المدرسة بل رَجْع دؤوب يدفع قلبي بالنبض أسرع فأسرع؛ فرح لا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

أساس له يغمرني؛ انتشاء عاصف يتغلغل في شراييني.

غير أن الصدمة كانت بانتظاري: ها أنت تلتفت صوبي فتحاول أن ترسم ابتسامة حيرى على شفتيك، كأنك بها تريد أن تسأل شخصا مجهولاً: "هل من خدمة أستطيع تقديمها لك؟"

(4)

بعد مغادرتنا بيت الدكتورة ''عالية'' معاً افترقنا سريعاً. أتذكر كم بدت المدينة غريبة فوق شبكية عينيّ، عند مرور الحافلة بمنطقة الـ "ويست أند"، لكأني أراها، أول مرة، بعد غياب طويل عنها، بدا قرميد بناياتها أكثر حمرة والتماعاً مما كان عليه من قبل، ولعل حرماني من النوم أكثر من أربع وعشرين ساعة جعل حواسي أحدَّ من المألوف بكثير: أصوات الراكبين تتفكك إلى ذبذبات صاخبة خالية من المعنى، ألوان ملابسهم وبشراتهم تتحول إلى بقع ساطعة تطفو في الفراغ دون قيود.

وفي البيت، تعمق لديّ انطباع غريب: كأني غادرته منذ أشهر؛ وكنتُ محظوظاً أن يكون فارغاً آنذاك، فلا أستبعد أن ''لورا''، المزودة بحدس فائق للمألوف، ستلحظ التغيير عليّ، ولن يجديني التعذر بالنعاس الشديد، فهي لن تصدق بقائي ليلة أمس ساهراً معكم، كذلك فإن اللغة الإنجليزية تخلو من مفردة "السهر"، وعليّ أن أقول لها: "بقيت طوال الليل صاحياً."

لا بد أن زوجتي ذهبت، كالعادة، مع ''سوزان'' و''منى'' إلى المقهى المطل على نهر التَّيمز، فيوم الأحد مخصص للقاء العائلة، وهناك كنا نتناول الفطور معاً، ولا أستبعد أنهن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

انتظرن عودتي باكراً لمرافقتهن، وعند تأخري قالت ’’لورا‘‘ وهي تزمّ على شفتها السفلى: "لنذهب، والدكما لن يشاركنا الفطور هذه المرة".

اضطجعتُ بملابسي على الكنبة الكبيرة في غرفة الجلوس، مؤملاً النفس بتأخر عودة الأم والبنتين إلى البيت، فعادةً كنا نمشي والنهرَ ساعتين أو ثلاثاً بعد المقهى، أو نذهب إلى "البارك" القريب من البيت.

مع ذلك، لم يكن نوماً ذلك الذي لفّني على الكنبة الواسعة بقدر ما هو حالة همود غريبة: بين كل لحظة انقطاع للوعي وأخرى، لحظة صحو ثالثة، أو بصيغة أدق، لحظة انفصام عقلي ثالثة، أراني فيها متحرراً من شرنقة الحاضر الناعمة، صوب ماضٍ ظننتُ أنني دفنته منذ زمن بعيد. ها أنذا أسمع دمدمة أصوات مختلطة بعضها ببعض، يتراءى لي كأنها أليفة إلى أذنيّ.

وسط الجلبة، تلتقط أذنايَ شدواً نسائياً خافتاً تتقاطع معه أصوات إخوتي الكبار وأصدقائهم في حجرة الاستقبال. يحضرني اسم المغنية كالبرق، ومعه تحضر المناسبة: إنها ’’أم كلثوم‘‘ في آخر خميس من كل شهر، حيث تسهر الملايين ليلته معها حتى بزوغ الفجر. لعلي سمعت تلك الأغنية التي أبكت إخوتي عندما غنتها ’’أم كلثوم‘‘ أول مرة، وفيها تشتكي من ظلم المحبوب وهجره، وكم أضحكهم سؤالي الغِرّ: "ليش تبكون؟" أظن أن أحدهم أجاب هكذا: "تكبرْ وتعرف"، فحفزني على الإجابة بعبارة تقليدية جعلتهم يضحكون عليّ بشكل أقوى، وأصبحت لازمة يكررها الجميع في البيت من وقت إلى آخر. لعلها من قبيل: "الظالم لازم ينحطّ بالسجن"، أو ما يشابهها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غير أن تلك الأصوات النائية تلاشت شيئاً فشيئاً، تاركة وراءها صمتاً وفراغاً، ملأته أصوات الأمس ووجوهه، ولن أبالغ إذا قلت إنكم جميعاً أصبحتم جزءاً من حلم، حال دخولي البيت، فليس هناك أي خيط فيه يربطني بكم، كأني منذ تعرفي على ''لورا'' قطعتُ أواصري بالعراق. وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، عودة حزب''الخضر'' إلى الحكم بانقلاب عسكري "أبيض" كما تعرف عام 68. هل هو مجرد حدس حضرني دون سابق إنذار، خلال قراءتي خبر وقوعه في اليوم اللاحق، بأن قطار الوطن خرج أخيراً عن سِكّته، وأن لحظة انقلابه المروعة لن تكون إلا مسألة وقت، وها نحن نشهد هذه اللحظة على شاشات التلفزيون وصفحات الجرائد الواسعة.

بعد اقتراني بـ''لورا''، استضافتنا عدة أسر عراقية للعشاء، ومعنا، كان هناك عادةً مدعوون آخرون. أذكر أني تعرفتُ على ''ماهر'' في إحدى تلك الدعوات، وفي أخرى على الدكتورة ''عالية''، لكني لم أتواصل معهما لاحقا. كان ذلك، على الأغلب، في أوائل السبعينيات.

كم كشفت لي تلك اللقاءات عمق الفجوة بين زوجتي والوسط المستضيف لنا، فحال وصولنا إلى بيت أحدهم تنكمش ''لورا'' على نفسها، وتصبح في موقع المراقب لعالم إكزوتيكي غريب الأطوار، لا يكف عن الغناء والضحك والبكاء والرقص الخالي من أي قاعدة. لعل مساهمتها الوحيدة في تلك الأمسيات هو استذواقها للطعام المتعدد الأطباق.

لا أظن أنك ستستغرب إذا قلت لك إن دعوات العراقيين لنا تقلصت تدريجياً حتى توقفت تماماً، فبغياب مقابلتهم بالمثل، يصبح انقطاع التواصل بين الطرفين طبيعياً.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(5)

استيقظتُ فزعاً على كابوس: زورق يقلنا في عرض بحر هائج، ومطر يهطل علينا دون هوادة، من غيوم داكنة كثيفة تكاد هي الأخرى أن تطبق علينا، ها هي موجة عملاقة جارفة تبزغ فجأة أمامنا، فتطوّح بالزورق رأساً على عقب. يملأ فمي طعم الماء الأجاج المتسرب عبر أنفي وشفتيّ، يتدفق بعناد إلى بلعومي، ثم يندفع إلى صدري، قاطعاً عليّ أنفاسي. تلوح لي من قلب العتمة سفينة بيضاء، مشعشعة بالأضواء، يرمي أحد بحارتها لي بحبل نجاة متجاهلاً ''لورا''، أراها الآن وهي تخفق دون جدوى بذراعيها وسط الموج كطائر نُزع الريش عن جناحيه. يجرني البحّار إلى سطح السفينة، ومن هناك أرى آخِر أثر لزوجتي: كفيها اللذين راحا يلوّحان لي قبل اختفائهما تماماً في لجاج البحر.

فتحتُ عينيّ مفزوعاً على ظلمة الليل المطبقة في غرفة نومنا الحميمة، حيث الستائر المخملية الغامقة الزرقة تمنع أي بصيص ضوء من التسرب إلى فضائها. هل سبق لك أن مررتَ بتجربة كهذه: يوقظك وسط الليل طارئ ما فتنسى أين أنتَ؟ لعل شعورا كهذا طبيعي حين تكون في غرفة فندق ما بسبب مرورك العابر إليه، لكن كيف يمكن تفسيره حين تكون في بيتك؟

مددتُ ذراعي اليمنى فمسَّت راحة يدي خاصرتها العارية، لتنزلق حتى تستقر فوق سرتها الضامرة، ثم ما لبثت ان تحركت صوب ثديها الأيسر، المستلقي على الفراش، ملامِسةً في الطريق إليه كل حنايا بطنها. ها أنذا أتحسس أصابع يدي

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المكهرَبة، وهي تنفتح أقصى ما يمكن لتحيط به بحنو وحذر شديدين.

تتشابك أذرعنا وسيقاننا، تتساند أكفنا وأقدامنا، تتعاضد شفاهنا، تتلاشى الفجوات الفاصلة بيننا، تتماهى أنفاسنا، نندمج معاً في عمل الحب وسط العتمة التي لا تسمح لعينيّ برؤية جسدها أكثر من طبقة أقل عتمة من محيطها. أتلمس الخط الكفافيّ الفاصل بين العتمتين بأصابعي المرتعشة للتوثق من حقيقة اللحظة.

ها نحن ننفصل أخيراً، يداً عن يد، ساقاً عن ساق، ذراعاً عن ذراع، فيعود كل منا، كما اعتدنا، إلى كوكبه الخاص به، وبيننا يسكن، كما في كل مرة، صمت غامض. كأن جسدينا ظلا يوهماننا، في كل مرة، بإمكانية تفاعل روحينا مثل تفاعلهما خلال عمل الحب.

لا أبالغ إذا قلت لك إني أعرف كل بقعة في جسد امرأتي؛ كلما أغمض عينيّ يشع في مخيلتي لون بشرتها فأشتهيها أكثر فأكثر. كأني عبر الوهم حولتها إلى كائن فوق-إنساني، غير قابل للمرض أو الشيخوخة.

بين ما يعتمل في نفسي من مشاعر تجاهها وبين التعبير عنها عبر اللغة فجوة كبيرة. أخبرتها ذات صباح ونحن في الفراش:

"على صدرك حمامتان ما زال ريشهما زغباً يمنعهما من الطيران."

"هل تعني أن ثدييَّ هزيلان؟"، قالت مستغربة.

"لا، أبداً، أعني أنهما جميلان جداً."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

"ولماذا لا تقول ذلك ببساطة.... أنت تتكلم وكأنك تقرأ في كتاب."

لا أستغرب الآن حين أخبرتني ‘‘لورا’’ ذات مرة أنها تريد الانفصال. كان قد مضى علينا أكثر من أسبوعين من دون وصال، وخلالها ظلت منغلقة على نفسها، بذرائع مختلفة ما بين إصابتها بالصداع أو بمغص حاد، ثم جاءت الحقيقة فجأة:

"أنا على علاقة برجل".

"هل أعرفه؟"

"لا، إنه المدير الجديد في الشركة."

استدركت ‘‘لورا’’ حين لمحت شحوباً على وجهي: "لم يحدث شيء بيننا. مجرد استلطاف متبادل..." سألتها بصوت متحشرج: "ما الذي شدكِ إليه؟" "إنه يُضحكني... هناك كيمياء بيننا..."

(6)

الحب يتغذى على الوهم؛ الحقائق تقتله.

بدا الضجيج الصادر عن طائرة كأنه طنين تطلقه أذني نفسها، ولا بد أني كنت في أقصى حالات اليقظة كي ألتقط ذلك الصوت الواهن النائي، ولا أستبعد أن يكون الوهم وحده جعلني أوقن أن تكون ‘‘هاجَر’’ على متنها، ها أنذا أراها رغم الظلمة العميقة جالسةً على المقعد الثالث المجاور للممر وسط الطائرة، بجانبها تجلس والدة ‘‘أَسعَد’’، وعلى المقعد المجاور للنافذة يجلس والده.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أمد ذراعي كأني أحاول لمسها، يحتبس الهواء في صدري؛ يتلاشى صوت الطائرة، فيعاود الصفير الناعم المنبعث من أنفاس لورا إيقاعه المنتظم.

لا أستبعد هبوط هذه الفكرة عليّ آنذاك دون مقدمات: للجسد عواطفه الخاصة به، وله وسائله الخاصة في التعبير عنها، فهو على العكس من الروح يستعمل ما في حوزته من أدوات كالهرمونات والمعدة والرئتين لكسب العقل (الآمر الناهي) إلى جانبه.

كم يشبه العقل كسيحاً محمولاً على كتفي أعمى هو الجسد؛ وكم يشبه الروح، توأمُ الجسد السيامي، الأبكمُ، طفلاً طاغية متقلب الأهواء.

كيف أستطيع تفسير قرار ''لورا'' بالانفصال عني إذا لم يكن تلبيةً لرغبة جامحة تأصلت في روحها؟

"الحياة واسعة، عزيزي، وستجد امرأة أفضل مني بكثير،" قالت زوجتي وهي تتطلع في وجهي، ثم أمرّت أصابع يدها على خدّي، كأنها كانت تريد التوثق من حقيقتي المادية، أو لعلها أرادت أن تطرد الشحوب المتغلغل في وجهي، وتُوقِف عضلة فكي الأسفل عن ارتعاشها.

"وماذا عن طفلتينا؟" سألتُها بنبرة متضرعة كأني أحاول عرقلة قرارها ."لا تخف عليهما. ستبقيان معي، وكل عطلة نهاية أسبوع سأجلبهما إليك فتقضيانها معك..." وحينما لحظَتْ ارتباكي، قالت مُطَمْئنةً: "البيت سيبقى باسمَيْنا...هو، في نهاية المطاف، استثمار جيد، وأنت ستبقى فيه."

أغمِضُ عينيّ أكثر فأكثر، أحملِقُ في مجرة تغصّ بنجوم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مندفعة صوب كل الاتجاهات، علامة على وقوع "انفجار عظيم" آخر، لكنه هذه المرة يقع في كون مجهريّ هو رأسي، ها أنذا أرى روحي الثوري، يطارد تلك الطائرة الوهم، يتسرب إلى داخلها، ويحلق فوق ‘‘هاجَر’’، مراقباً إياها بورع وإصرار شديدين، بينما في الطرف الآخر من المجرة يظل جسدي متشبثاً بامرأتي المستسلمة تماماً لسلطان النوم، ها هو يستجمع من ذاكرته كل ما يشده إلى جسدها المسربل بغلالة العتمة: شفتيها المتلبستين شكل بَتْلَتَي وردة وطعمهما، عينيها الخضراوين الآسرتين، ولون بشرتها الزهري.

كأن روحينا في تلك اللحظة تبادلا الأدوار.

هل تتفق معي اذا زعمتُ أن كلمة "روح" مشتقة من كلمة "ريح"؟

بذلت ‘‘لورا’’ جهوداً خرافية للتخفيف عني من آثار قرارها بالانفصال، أو بصيغة أخرى جعله نقلة ناعمة من عربة قطار إلى أخرى.

خلال الأشهر الثلاثة التي أعقبت اعترافها، ظلت مصرة على النوم في غرفة الجلوس. كانت تعود أحياناً إلى البيت بعد منتصف الليل، وأحياناً أخرى لا تعود. مع ذلك، بقيت حريصة على قضائنا يوم الأحد مع طفلتينا خارج البيت.

بدت لي ‘‘لورا’’ خلال تلك الفترة، كأنها فراشة خرجت للتو من شرنقة: حركة جسدها النحيف أخفّ، نظرة عينيها الناعستين أرقّ، وتغريد لسانها أعذب. لكأنها تخلت فجأة عن إنجليزيتها الرسمية، وراحت تستعمل كثيراً من التعابير والأمثال الغريبة على أذني. ولم أجد غضاضة في عدم الفهم أحياناً مقابل ذلك التدفق اللغوي العفوي الذي تقمصها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لا بدّ أني بذلتُ جهودا مضاعفة، مقابل جهودها، خلال سنوات عيشنا معاً، للتواصل معها عبر اللغة، فكل فكرة أو انطباع أو ردّ فعل يبزغ بشكل هلامي من أعماق الروح، يمرّ، قبل وصوله إلى اللسان، عبر مصافي العقل ومختبراته، ليخرج، أخيراً، خالياً من شحناته العاطفية وألوانه الطبيعية. ها أنذا أسمع صوتاً غريباً عني، يتحدث بانجليزية متقنة أكثر مما ينبغي، فلا يثير في نفسي سوى الضجر؛ كأني في قاعة الدرس أشرح لطلابي نظرية ما، حتى لو كنت أحكي لها طرفة عابرة.

(7)

اكتشفتُ بفضل عيشي الطويل مع ''لورا''، لغة تخاطُبٍ محلية أخرى تخلو من الكلمات؛ إنها لغة الإشارات السرية بين الناس: ضغط الشفة السفلى بشفتك العليا يعني أنك تسعى للتحكم بغضبك الداخلي؛ رسم ابتسامة بإظهار صفَّي أسنانك المتطابقين تعبير عن عدم الرضا من تصرف الآخر؛ تدوير بؤبؤي عينيك بسرعة يعني أنك في حيرة من أمر الآخر.... كأن الهدف من هذه اللغة تقليل الكشف عما يعتمل حقاً في أعماقك، وتجنب الوقوع في زلة لسان ما، مهما كانت ضئيلة.

لا أتذكر بالضبط متى دعت زوجتي صديقتها، لأول مرة، إلى بيتنا. ربما بعد شهر على اعترافها أو أكثر قليلاً. كانت المناسبة احتفالنا بعيد ميلاد ابنتنا البكر ''سوزان''، وهذا ما جعلني أظن أن قدوم ''أماندا'' مع ''لورا'' كان مجرد صدفة محض.

بدت الضيفة حريصة على مواصلة الحديث معي، حتى حين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

يسود الجلسة صمت ما، مغلف بتوتر خفي. عرفتُ منها أنها رفيقة ‘‘لورا‘‘ في المدرسة الابتدائية، قبل أن تهاجر أسرتها إلى أستراليا، وأنها عادت إلى لندن بحثاً عن العمل والاستقرار فيها.

أتذكر أن زوجتي ظلت، على غير عادتها، تكيل لي المديح كلما طرحت ‘‘أماندا‘‘ عليّ سؤالاً . "هل تعرفين أنه أكمل الدكتوراه بثلاث سنوات فقط؟" وحين استفسرت الضيفة عن عملي وأجبتها، علقت مضيّفتها بحماس: "تم اختياره من بين تسعة مرشحين للمنصب..."

بعد مغادرة ‘‘أماندا‘‘، سألتني ‘‘لورا‘‘ عن رأيي فيها . "لطيفة،" أجبتها بفتور. قالت بعد صمت طويل: "هل تمانع إذا دعوتها لمرافقتنا هذا الأحد؟"

"أبداً."

أدرك الآن، كم كانت زوجتي حريصة على تعبيد الطريق أمام انفصالنا، وجعله أنعم ما يمكن، تجنباً لأي مطبّ طارئ عليه، لكنني لم أنتبه لمساعيها تلك في إرضائي، بل ربما كان تأثيرها عكسياً آنذاك عليّ: تعمُّق الغيرة من العشيق الآخر، وتنامي الحنق الصامت منها، بينما تشبّثَ ثلاثي الروح والجسد والعقل، أكثر فأكثر بها.

لا بدّ أن هذا التشبث الأعمى بها كان وراء تجاهلي المطلق لنداءات صديقتها الخفية، حتى بعد بقائي وحدي في البيت. ولعلي اعتبرتُ ‘‘أماندا‘‘ متواطئة مع زوجتي لشدي إليها مقابل إقامتها معي، فجعلني أكثر نفوراً منها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(8)

هل وضعت زوجتي رفيقة دراستها السابقة على طريقي لاختبار درجة إخلاصي لها، حتى بعد ارتباطها برجل آخر وخروجها الكامل من حياتي؟ وهل كان "إخلاصي" لها حقيقياً، أم هو مجرد رد فعل طبيعي، لذَكَر جُرح كبرياؤه، إثر اختيار أنثاه ذَكَراً آخر بديلاً عنه؟ لا أعرف.

لم تعطني ''لورا'' فرصة للاحتجاج أو الانفجار وهي تنسحب بنعومة فائقة من جلدها القديم، ولم تكن حالي بعيدة عن "فرس النبي" الذي قضمت أنثاه رأسه دون أن يدري، وما زال متشبثا بها بقوة.

قد لا تصدق إذا قلتُ لك إني كنت أقضي كل أيام الأسبوع منتظراً بلهفة مجنونة تلك الدقائق القليلة التي أراها فيها، حين تجلب الطفلتين إلى بيتنا.

حال سماعي رنين الجرس، ينطلق قلبي في خفقان شديد، وتزول قطع الحديد الثقيلة عن صدري، فيبدأ الهواء بالتسرب إلى رئتيّ، طلقاً، دون عوائق.

كان ذلك مساء كل جمعة.

أستحضرُ تلك الليالي التي يفارق النعاس عينيّ، فأمضي في سياقة سيارتي دون هدف واضح. أحياناً أجدني، دون إرادتي، قريباً من سكنها الجديد، فأقف على مبعدة نصف ميل عنه، خوفاً من قدومها إليه مع حبيبها، وانتباهها إلى وجودي الغريب هناك.

كيف يمكن تفسير هَوَسي ذاك؟ حين يصبح شخص ما حاضراً معك أينما حللتَ، كنغمة موسيقية تلتصق بأذنك،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

فتجبرك على ترديدها دون توقف. هل هناك جحيم أسوأ منه حين تدخل ذاكرتك في دوامة لا تستطيع الخروج منها؟

ظلت ذاكرتي تستخرج بدأب كل لحظة قضيتها مع ’’لورا‘‘ من حاوية النسيان، فتزيل عنها طبقات الغبار، وتلمّعها، ثم تطليها بالذهب.

إنها تملأ ماضيَّ وحاضري.

كم تبدو، الآن، حتى تلك الأوقات الرتيبة معها مفعمة بالسحر والغموض.

تحضرني تلك الرحلات القصيرة التي كنا نقوم بها إلى الريف خلال عطل نهاية الأسبوع، برفقة عدد من معارف ’’لورا‘‘: زملاء يعملون معها أو رفاق دراسة سابقين. وعادة نستأجر بيتاً كبيراً للمنام، بينما نسير على الأقدام كل ساعات النهار في دروب ضيقة مخصصة للمشاة فقط.

كانت تلك الدروب تقودنا أحيانا وسط أجمات كثيفة، ثم ما تلبث أن تنفتح على سفوح وديان مترعة بالخضرة تمضي دُرُجاً في الارتفاع مشكِّلة هضاباً. أحياناً يفاجئنا "بحر الشمال" حين نطل عليه من حافة جرف حاد الزاوية، بلونه الرمادي، وضبابه الشفيف الذي يتكثف أكثر فأكثر، حتى يحجب الأفق عن أعيننا.

كم كان يدهشني ذلك الحضور البشري الخفي الذي دجّن الطبيعة في هذه الجزيرة، جيلاً بعد جيل، وصاغها وفق هواه، فلا أحراش تنمو على هواها، ولا حيوانات برية تتكاثر دون رقيب، أو أشواك تخترق الدروب كما تشاء.

نمشي على الدروب الضيقة اثنين اثنين، نتبادل رفاق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

الطريق من وقت إلى آخر، نتحادث قليلاً، ونصمت أكثر، فما نبغيه من مهمتنا تفريغ الطاقة عن أجسادنا وأرواحنا لا تجميعها. ينتابني أحياناً شعور بأني أسكن فردوساً أرضياً، تمكّنني تلك الرحلات من استكشاف أسراره ومكنوناته، ومقابل تلك النعمة، كان عليّ أن أتخلى عن ذاكرتي.

وماذا يضير في ذلك، إذا كان ذلك يعني تحويلها إلى بُرْكة ماء ساكنة، حيث لا شيء يأتي من الأعماق فيحرك الأمواج على سطحها ويقلقل هدوءها؟

حتى حين تتجمد تلك المناظر الخلابة فوق قرنية عينيّ كأنها قطعة حلم، أجدني عاجزاً عن نقل انطباعاتي لمرافقي، فكلٌّ منا غارق في صمت مختلف تماماً عن صمت الآخر.

غالباً ما كنا نقطع تلك المتاهات الخضراء تحت رحمة مطر دؤوب، تتراوح شدته بين نثيث رومانسي يداعب الوجوه بلطف وبين هطول غزير ينهمر كحصى ناعم فوق رؤوسنا المغطاة بقلنسوات من المشمَّع السميك.

وكأن مكافأة عودتنا إلى المأوى تتناسب طردياً مع درجة قسوة الظروف التي مررنا بها في ذلك اليوم.

هناك، ينزع كل منا عنه طقم ملابسه المطرية السميكة وجزمته الجلدية الثقيلة، ثم ينغمر بعضنا في إعداد العشاء، بينما يجلس آخرون بجوار مدفأة الجمر، ويستلقي غيرهم على أسرّتهم قليلاً.

كانت "لورا" تختفي وتظهر لي من وقت إلى آخر فينزاح ذلك الجدار غير المرئي بيني وبين الآخرين. كأني أكون، عند غيابها، مسمَّراً في فراغ لزج محكوم بمجاملات شكلية لا تلبث

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

أن تستسلم للصمت: متى جئتَ إلى لندن؟ كيف هو الطقس في بغداد؟ ما هي وسيلة النقل الأساسية عندكم؟

لعل ما يميز الشعوب عن بعضها البعض صمتها أكثر من كلامها. أخبرني صديق زار بلداً نسيتُ اسمه، أنه شاهد في مقهى رجلين جالسين، جنباً إلى جنب، ولأكثر من ساعتين، دون أن يتبادلا جملة بينهما.

لا أستبعد أن يكون صمتهما المشترك جسراً يتواصلان عبره، بينما يكون الصمت الذي يحل بيننا، أنا و"لورا"، أحياناً، جدارا فاصلاً، فأجدني أمام باب مُقفَل أضعتُ للتو مفتاحه.

(9)

يحلّ فجر جديد أخيراً، يُسرّني به شحرور عبر شدوٍ، متقطعٍ، يتسلل من حديقة البيت الخلفية، لكأنه بغنائه ذاك كان يسعى إلى إخباري ببلوغ "هاجَر" عمّان، ببلوغ ذلك المدّ العاطفي المفاجئ مداه، وما عليّ الآن إلا التعايش مع آثاره حتى زوالها: توق مجنون للّقاء بها، حتى لو كان ذلك يعني عبور الحدود العراقية، وسوقي إلى الجيش قسراً لأداء خدمة الاحتياط التي تجاهلتُها مراراً؛ انحباس للهواء في الصدر؛ رغبة عميقة بالفناء والعودة إلى عناصر الطبيعة الأولية...

تحضرني أصواتكم واحداً واحداً، كأني في مسرح تنطفئ فجأة مصابيحه، وتشتعل بدلا عنها مصابيح خشبته الخفية. ها أنذا أسمع "أَسعَد" بنبرة صافية لم تزعزع أربع زجاجات نبيذ تماسكها: ""ماهر" و"جليل" تجمعهما صفة مشتركة: كلاهما

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ينتميان إلى مجمع الآلهة الإغريقية فوق جبل الأوليمبس. إنهما ’’أبولو‘‘ و’’ديونسيوس‘‘، هههه."

"ما هي هذه الصفة؟" تقول ’’هاجَر‘‘ بنبرتها المرحة المشاكسة، "أنا لا أعرف أي شيء عن أساطير اليونان، ربما حياتنا هي مجرد واحدة منها."

يكرع ’’أَسعَد‘‘ بتأنٍ من كأسه، ينقّل رأسه بينكما فيثير فينا رغبة بالضحك. كان والداه وزوجته قد غادروا الغرفة قبل قليل للنوم، فمنحه غيابهم قوة إضافية أخرى.

"ما تتميز به الآلهة الأرضية هو أنها لا تبذل جهداً لكسب حب البشر بل على الأخيرين أن يبذلوا المستحيل لكسب رضاها، عبر الصلاة وتقديم الأضاحي وحرق البخور لها. أما نحن المساكين المحكوم علينا بالفناء فعلينا أن نكرس كل طاقاتنا في كل دقيقة لإرضاء أقاربنا وأصدقائنا."

"مثل تكريس وقتك لوالديك في لندن،" تقول ’’هاجَر‘‘ ساخرة، وهي تلقي نظرة استرضاء عليك وعلى ’’ماهر‘‘، بعد ظهور عبوس قليل على وجهيكما.

وكأن ندماً ما يتسرب إلى روح ’’أَسعَد‘‘ على ما قاله، ليعود إلى الدعابة سعياً لكسب رضاكما عليه: "غداً يلزمني أن أمشي على أطرافي الأربعة أمام كل منهما على حدة، طلباً للمغفرة. كم أنا أحمق عند نسياني هذا المبدأ: لا يحق لنا كبشر أن نفهم الآلهة ودوافعهم، أو نقيّم أفعالهم..."

تختفي صوركم واحداً واحداً من ذاكرتي.

ينبثق قمر شبه مكتمل فوق عيني الثالثة، يتفتت نوره في العتمة رذاذاً طبشورياً، يتداخل مع أضواء المصابيح المتسربة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

عبر زجاج غرفة الاستقبال إلى طارمة الحديقة الصغيرة. ها أنذا أجدني واقفا على الدرب الاسمنتي الضيق العابر وسط العشب الناعم، وبجواري تقف ’’هاجَر‘‘، فنتقاسم صمتاً صاخباً.

لكأنها تلمح رأسي مرفوعاً، للحظة، صوب درب التبانة، فيأتي صوتها همساً عذباً:

"تفكر في الصعود؟"

"أتساءل إذا كانت هناك مخلوقات ما ابتكرت الكتابة قبل البشر بمائة ألف سنة، كيف سيكون مستوى تطورهم؟"

"متى تعلَّم جنسنا الكتابة؟"

"الحروف المسمارية ابتكرها العراقيون القدامى قبل 5000 سنة فقط."

"والآن وصلنا إلى الطائرات والتلفزيونات والكمبيوترات."

"تصوري كم سيكونون متقدمين علينا في ذلك الكوكب..."

"أتوقعهم الآن ينظرون إلينا بنواظيرهم المتطورة... تظنهم يستطيعون سماعنا وفهمنا؟"

"المشكلة هي أنهم يستلمون صوراً تعود إلى زمن أقدم، ربما إلى زمن "حمورابي"."

"تَخيَّل أنهم يروننا الآن، كيف نكون في أعينهم؟"

"في أحسن الأحوال سنبدو لهم فصيلة من النمل المقاتل."

"أخَذْتَني بعيداً عن القمر وشاعريته. هذه أول مرة أراه فيها بلندن."

وكأن ’’هاجَر‘‘ وجدت ذريعة لتركي مسمَّراً في مكاني،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أراقبها وهي تنسل بخفة من ظلها، "سأحاول رؤية وجهه الآخر المختفي عنا دائماً،" تهمس ضاحكة. ها هي تتجه صوبك بخطوات جذلى.

من موقعي، أراك جالساً تحت السقيفة، منغلقاً على نفسك، تتحرك ذؤابة سيجارتك، كأنها إشارة قرمزية قلقة، بين أصابع يدك. تجلس ''هاجَر'' على كرسي جانبيّ، فيظهر بروفيلها خاليا من التقاسيم، ومعها تبدوان لعينَيَّ شبحين معلقين على الخط الفاصل ما بين أضواء الغرفة وعتمة الحديقة.

تعتلج رغبة جامحة فيَّ للجلوس قريباً منكما، وتقاسُم الهمس الدائر بينكما، فأقاومها بقوة. ينتابني شعور عميق بأني أعيش حلماً، سبق لي أن شاهدته مراراً، حلماً متحرراً من رتابة واقعي اليومي وضيق أبعاده، يدفعني للتشبث أكثر فأكثر به والاستغراق فيه.

(10)

مثل كل صباح إثنين رنّ منبّه الساعة المنضدية بإلحاح دؤوب، قبل أن تمدّ ''لورا'' ذراعها إلى الكومودينو المجاور لسريرنا وتغلقه. كانت الساعة، كالعادة، السادسة والنصف. وكالعادة، تنهض ''لورا'' بحذر من السرير مخافةَ أن توقظني، فهي تعرف أن محاضراتي ستبدأ بعد شهر، وأني، عمّوماً، لا أدرّس صباح أي إثنين.

لكنني، على غير عادتي، لم أستسلم، هذه المرة، لأصابع الكرى الناعمة، إذ ظلت أذناي تلتقطان الأصوات الخافتة التي تُحْدثها ''لورا'' أثناء تحضير نفسها للذهاب إلى عملها، مع

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بقائي متظاهراً بالنوم، ولعل الأرق، الذي أصابني الليلة الفائتة، جعل تلك الأصوات أكثر حدة. ها أنذا أسمع وشوشة الدُش واضحاً، بعد تسلله عبر عدة أبواب موصدة، يليه ضجيج مُجفِّف الشعر الكهربائي، ثم طقطقة مزلاج الباب متبوعاً بحفيف حافته السفلى وهي تمس سجّاد الحجرة.

كم كنتُ شغوفاً بتلك الطقوس التي تتبعها ''لورا''، حيث ينتهي بها المطاف إلى خزانة الملابس المجاورة لسريرنا، ها هي تخلع أمامي روبها الأزرق المخضل بالماء، فتعلقه بالمشجب المثبت على ظهر الباب، ثم تمضي بارتداء ملابسها قطعة قطعة، وأخيراً تجلس أمام طاولة الزينة ومرآتها.

هل عشتَ يوماً هذا الشرخ العميق بين جسدك وروحك؟

قد لا أبالغ إذا قلتُ لك إني كنت أعيش أكثر من شرخ في ذلك الصباح: شرخٍ في الجسد وآخرَ في الروح، وبينهما يتخبط العقل في متاهته.

فتحتُ عينيّ أقل من لحظة، لاستحضار ذلك المشهد، المتكرر، المنقوش فوق الذاكرة البصرية :''لورا'' أمام المرآة، موليةً ظهرها المديد لي، فيما تنشغل أصابعها الطويلة بين تمشيط شعرها القصير ووضع أصباغ الزينة على وجهها، المنعكس على مرآة بيضوية ذات إطار ذهبيّ فخم.

كم انشغل الفنانون عبر القرون برسم الإلهة ''أفروديت'' جالسةً أمام مرآتها، فكأنهم بتصويرهم نساء الموديل الفانيات مثلهم كانوا يسعون إلى القبض على تلك النار الخالدة التي لا تكف عن أسْر الفَراش حولها حتى احتراقه فيها.

وكأني حتى ذلك الصباح بقيتُ أقلدهم.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غير أنـي، اليومَ، كائنـان مستلقيان جنبـاً إلـى جنـب، أحـدهما مشدود لعالم الحـواس الملمـوس القـابع علـى بعد ذراعَين عنـي، وآخر مشدود لعالم لا مرئي، ناءٍ جداً وشديد الحميمية في آنٍ.

كـأن عـالم ’’لـورا‘‘ هـو الحاضـر الصـلب المتجـذر فـي ذاكـرة الجسد، وعـالم ’’هاجَر‘‘ هـو الماضـي الهـش المغـروز فـي ذاكـرة الروح.

عـالم ’’لـورا‘‘ محكـوم بالمـادة الثابتـة؛ بينمـا عـالم ’’هـاجَر‘‘ محكوم بالصور المتقلبة.

الأول يحفز على الحياة؛ والثاني على الفناء.

(11)

حـال خـروج زوجتـي مـن البيـت، انبثقـت ’’أمانـدا‘‘ مـن بـين طيـات الـذاكرة، نافضـة عـن نفسـها غبـار النسـيان، حتـى مـع عجزي عن استرجاع ملامحها، بعد كل السنين التي مرت علـى زياراتها القليلة لنا.

ولم يكن حضورها صورياً، بقدر ما هو صوتيٌّ محض.

كيف استطاعت نبرتها الاسترالية الغريبـة علـى أذنـي تخطّـي حاجزَي الزمان والمكان السميكين؟

لكـأن العقـل أراد التخفيـف عنـي باستحضـار ’’أمانـدا‘‘ كنغمـة موسـيقية تعلَـق فـي الـذاكرة، فتظـل تتكـرر علـى غيـر هـدى، إضعافاً لتلك النغمة الآسرة التـي ظلـت ’’هـاجَر‘‘ تبثهـا عـن بعـد. وكـأن العقـل أيقـظ شـعوراً ليحـل محـل شـعور آخـر: نـدماً شـديد المرارة علـى اللسـان محـل شـغف مرضـيّ استيقظ متـأخراً بعـد

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

فوات الأوان. خزّني هذا السؤال بعمق: "ما الذي منعك من لقائها خلال فترة انفصالك عن زوجتك؟" ها أنذا أمام عجزي عن الإجابة أستسلم لأحلام اليقظة، فأمضي متخيلاً نفسي مع ’’أماندا‘‘ التي عادت إلى بلدها المتبنى بعد عام واحد على إقامتها في لندن. ها نحن نسافر معاً إلى أماكن اكزوتيكية نائية سبق لها أن ذهبتْ إليها في أستراليا، وحدثتنا عنها مراراً: غابات عامرة بنباتات وحيوانات وطيور برية لم يعرفها العالم القديم من قبل؛ خلجان وجبال وصحارى ما زالت غضة لم تدجنها يد الانسان بعد.

أتوقع تجهم وجهك وتقوس حاجبيك الآن، تعبيراً عن استغرابك العميق من عودة المياه إلى مجاريها مع زوجتي، كأن شيئا لم يحدث؛ كأنها لم تبادر إلى إخراجي من حياتها دون أيّ تقصير من جانبي، ولم تنتقل مباشرة للعيش مع مديرها.

وبالطبع، لن أنزعج من رد فعلك الغاضب، فنحن مجبولان من مادتين مختلفتين: أنا من التراب وأنت من الصخر؛ أنا إنسان فانٍ همه كسب حبّ الآخرين ورضاهم عنه، وأنت، كما نعتك ’’أَسعَد‘‘، إله أرضي، همك كسب نفسك ورضاك عنها، لذلك فعلى الآخرين أن يبذلوا المستحيل للدخول إلى فردوس رضاك عنهم.

(12)

غفوتُ بعمق، حتى أيقظني رنين الهاتف اللجوج.

"نعم، تفضل..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

صمتٌ يستقبلني من الطرف الآخر، يزحف ببطء كمصل تخدير. لا بد أن المتلقي أدرك خطأه لدى سماع نبرتي الأجنبية، فظل محتاراً بين خيارين: إغلاق السماعة الفظ في وجهي أو الاعتذار. حضرني هاجس غريب: أن يكون غريمي السابق وراء الخط، متوقعاً وجود ''لورا'' في البيت وغيابي عنه، فأثار في نفسي حنقاً عميقاً عليها، لكني أقصيتُ هذا الافتراض، لأن الاتصال بها في عملها أسهل. تذكرتُ ما قالته زوجتي من أنه انتقل إلى الكويت بعد انفصالهما ليدير فرعاً مصرفياً جديداً هناك مقابل عقد مغرٍ.

جاءني صوت متردد، خجول، جعل ذاكرتي تشك لحظة بصحة إدعائه: "أنا ''أَسعَد''..."

وكأنه كان يقرأ الدهشة على وجهي، "آسف على الإزعاج... أنا أخذتُ الرقم من دكتورة ''عالية''..."

سألته عن والديه ."كل شيء تمام،" قال ''أَسعَد'' مُطمْئِناً، "هما سيبقيان يومين في عمّان قبل سفرهما إلى بغداد."

حل الصمت بيننا ثانية. شعرتُ كأنه كان ينتظر مني الاستفسار عن رفيقة سفرهما، فلذتُ بالسكوت.

قال ''أَسعَد'' بعد مرور ثوان بدت لي دهراً، بنبرة هازئة جعلتني أوقن أنه تحت سلطة الخمر:

"لم تسألني عن ''هاجَر''."

"آه، صحيح...لا بد أنها بقيت مع الوالدَين في عمان."

"هي هنا..."

"أنت تمزح!"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"لا، أبداً... هي غيّرت رأيها في أثناء الطريق إلى المطار."

"مستحيل."

قال ’’أَسعَد‘‘، هذه المرة، بنبرة مرحة، عابثة: "كلمة مستحيل لا مكان لها عند ’’هاجَر‘‘..."

ومثل صياد حاذق، ظل صديقك ينتظر وقوعي في الفخ المخفي عن عينيّ. وحين توثق من تشبثي بالصمت والتظاهر باللامبالاة، قرر أن يكشف أوراقه:

"’’هاجَر‘‘ طلبت مني ألا أخبر أحداً سواك بتأجيل رحلتها."

"وكم ستبقى في لندن؟"

"لا أحد يعلم... مزاجها سيقرر... ربما أسبوع، وربما إلى الأبد... هههههه."

أضاف ’’أَسعَد‘‘ كأنه كان يهمس بكلماته في أذني: "هي تريد أن تلتقي بك..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف السادس

بلا عنوان (1)

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

نحن لا نستطيع استرجاع الماضي بالكلمات إلا عبر التاريخ أو الأسطورة.

في الحالة الأولى أبطال الماضي هم البشر، أما في الحالة الثانية فهم الآلهة الذين يستخدمون البشر(دون علمهم) أدوات لتنفيذ رغباتهم.

ولعلك ستسخر مني إذا رويتُ لك حكاية ''سَدَم'' باعتبارها أسطورة. فأنت بقيتَ حتى لقائنا الأخير متشبثاً بحتمية لا يستطيع التاريخ أن يفلت منها، حتى لو أريتك ذلك النصل المغروز بعمق في خاصرته، ذلك النصل الذي جاء من خارج صفحات التاريخ، لحظة إغفاءة عابرة لقوانينه، ليحرف مساره ويُخرجه عن جادة العقل والمعنى.

ها أنذا أتابع الفيلم الوثائقي الذي كررته قنوات التلفزيون مراراً، بينما تحوطني ''لورا'' وابنتاي: أمامي يهبط رجل على سلّم طائرة، حاملاً بين ذراعيه طفلاً، وحال وصوله إلى أرضية المطار يتحلق حوله الصحفيون. إنه القس ''جيسي جاكسون*'' والطفل "ستيوارت لوكوود" الذي داعب ''سَدَم'' شعره في بغداد، ووراءهما يتعاقب هبوط النساء والأطفال. تقول ''منى'' غاضبة: "ماذا حدث للآباء؟ هل بقوا رهائن في العراق؟" فتطمْئِنها أمها بنبرة مهدِّئة: "لا تخافي، كلهم سيعودون... الأمور بدأت تتحلحل."

تتعقب الكاميرا بعضاً من مشاهد اللقاء بين القادمين للتو من

---

* جيسي جاكسون: ناشط سياسي أميركي وقس. كان أحد المرشحين للانتخابات الرئاسية في عامي 1984، و1988.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بغداد وأقاربهم في قاعة المطار، فيض من العواطف الجارف، يتمثل بتشابك الأحضان بعضها ببعض، بالبكاء الممزوج بالفرح الطاغي، بعبارات الحب الجارف. أشاهد الدموع تنسكب بصمت من عيون زوجتي وابنتيّ، حين تظهر امرأة تكتسي قسماتها قلقاً وإرهاقاً بارزين لتقول: "عدتُ بسبب ابنتي البالغة عشر سنوات، وإلا فأنا سأبقى مع زوجي هناك..."

* * *

استفاق ''سَدَم'' فزِعاً، من حلم جميل تحول فجأة إلى كابوس لا فكاك منه: ها هو يسبح في نهر واسع، ماؤه شفيف أصفى من البلور، إلى الحد الذي يجعله قادراً على رؤية رمال قاعه العميق وأسماكه الصغيرة الراعشة، تتعاقب كفاه بانتظام في ضرب صفحة الماء واحدة بعد الأخرى، فينساب جسده خفيفاً إلى الأمام. فجأة، يبدأ الماء بالتكثف، فتتثاقل بنفس الإيقاع حركة ذراعيه ورجليه شيئاً فشيئاً. يقرر العودة إلى شاطئ الانطلاق، يلتفت إلى الخلف، فيكتشف أنه وسط النهر، وليس أمامه خيار سوى المضي حتى الضفة الأخرى. يكتسي السائل اللزج لوناً أقرب إلى الخضرة، أو ربما إلى الحمرة، أو ربما بينهما. يتسرب طعمه إلى فمه، فتستيقظ حاسة الذوق على لسانه: إنه العسل الخالص شديد الكثافة. على سطح النهر يشاهد حوله عدداً كبيراً من الذباب الميت الملتصق بالسائل، حيث ترتفع أجنحته جامدة في الهواء. يتملكه رعب غريزي يدفعه إلى الانتفاض من سريره الفخم، فيكاد يسقط منه إلى الأرضية المفروشة بالرخام الأسود.

انبجست على صفحة عينيه المفتوحتين في العتمة، صورة أولئك الغربيين المحشورين أمامه: أطفال ورجال ونساء، بانت

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

على وجوههم بصمات الأرق والخوف والتضرع، بعضهم كان واقفاً وبعضهم جالساً على الكنبات القليلة. كانت الصالة الصغيرة التي التقاهم فيها مناسبة جداً، لتظهر حميمية المشهد، وتؤكد أن رعايا تلك الدول المتآمرة ضده "ضيوف" في بلده؛ لا كما تزعم الصحف والمحطات التلفزيونية الغربية بأنهم "رهائن"، ووجودهم المؤقت هو من أجل "دَرْء" الحرب لا تحويلهم إلى "دِرْع" يمنع الطائرات المعادية من مهاجمة قصوره أو منشآت عسكرية مهمة.

تقلَّب على فراشه الوثير الواسع، بينما ظلت كلمتا "دَرْء" و"دِرْع" تتعاقبان فوق لسانه واحدة بعد الأخرى. هنا من هذا المخدع الذي لا يعرف به سوى شقيقه، يمسك بزمام الوطن، وسواءً كان نائماً أو مستيقظاً، يتناول طعامه أو يقضي حاجته، جالساً مع مساعديه أو وحده، فإن رعاياه يظلون مطبِّقين تعليماته حرفياً: ساعة سويسرية لا تحتاج كي تعمل إلا إلى فتلة زُمْبَرَكها مرة واحدة في اليوم، وما زُمْبَرَك الشعب إلا خطاباته التلفزيونية وصوره وتماثيله المنتشرة في كل مكان.

استرجعت ذاكرته تفاصيل الرؤيا، بينما تسللت إلى عينه الثالثة صور "الضيوف" الغربيين الذين رآهم قبل يومين. كم أعجبه ذلك الطفل الذي وقف جامداً كالتمثال بجانبه، حتى وهو يداعب شعره الناعم؛ كأنه بوجهه العابس وعينيه المثبتتين في الفراغ، يقول له: "اِفعل بي ما شئت لكني لن ابتسم لك أو أجلس في حضنك..."

ماذا سيفعل بالآلاف منهم بعد القبض عليهم واحتجازهم في أرقى الفنادق وأفخم القصور؟ توزيعهم على المعسكرات ومستودعات الأسلحة وقواعد إطلاق الصواريخ؟ وماذا عن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الكاميرات القادرة على رصد أصغر الأشياء من الفضاء؟ تلك الكاميرات التي جعلته هو نفسه مطارَداً يبدل كل يوم مكان إقامته. كأن ''بوش'' حوَّله بين عشية وضحاها، من رئيس دولة ذات دور أساسي في استقرار المنطقة، على حد قوله، إلى رئيس عصابة مارقة تقوم بأكبر عملية اختطاف في التاريخ، وكأن الحلم يقول له: أنت ورَّطتَ نفسك باحتلال الكويت ظناً منك بأن الساكن في البيت الأبيض سيغض الطرف عنك، مثلما قال على لسان سفيرته عندما قابلتَها قبل شهر تقريباً لتقول بكل لطف: "نحن نعرف أنك بحاجة إلى المال. نحن نتفهم ذلك، ورأيُنا هو أنك يجب أن تحصل على فرصة إعادة بناء بلدك..."

خيَّم آنذاك صمت في الصالة ظل خلالها يتأمل وجهها الحاد الخالي من أي مسحة نسائية، عدا عن ابتسامة ظلت عالقة على شفتيها ونظرة حنوناً تبعث على الاطمئنان والثقة برئيسها. فجأة جاء صوتها، قاطعاً كأنها كانت تتحدث عبر جهاز تسجيل، وحين نقل المترجم ما قالته، انحبس الهواء في صدره، فأمر الأخير بإعادة ما قال: "مع ذلك فنحن لا موقف لنا تجاه النزاعات العربية – العربية، مثل خلافكم مع الكويت بشأن الحدود..."

* * *

لم يعرف ''سَدَم'' متى وُلِد، فكان عليه أن يستعير يوم ميلاد صديقه الذي كان يسميه أمام الآخرين بـ "توأمي الذي لم تلده أمي".

يحضر ''كريم'' إليه بوضوح، رغم أن عظامه الآن قد أكلها الدود أيضاً. كم كان رفاقه القدامى معجبين بذاكرته

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفوتوغرافية، فحالما يعرضون أمامه صورة ما لأقل من دقيقة، ويخفونها عنه، حتى يبدأ بإعطائهم تفاصيلها بدقة لا نظير لها، لكنهم لم يكونوا يعرفون أن ذاكرته السمعية هي الأقوى، فلا جملة رددها أحدهم إلا ونُقِشت بعمق على إحدى خلايا دماغه، كما تُنقَش الكلمات على حجر أصمّ، وإذا كانت تلك الجملة تقلل من شأنه أو تهزأ به قيد أنملة فإنها تظل تغلي في أعماقه وتتردد كألم في ضرس منخور، يظهر ويختفي بين لحظة وأخرى، حتى اقتلاعه دون رجعة.

هل ينكر الآن، وهو مختبئ عن العالم، أنه لا يفتقده ؛ يتذكر جملة ''كريم'' الساخرة التي رددها أمام عدد من الرفاق: "إذا وصلنا يوماً إلى الحكم، سأسلمك جهاز الأمن، وعندها سننام آمنين،" وحين قرأ الغضب الصامت على عينيه، بادر بنبرة ملطفة: "أنا أمزح فقط...إنها طريقتي للتعبير عن إعجابي الشديد بذاكرتك العبقرية... أنت بالتأكيد ستكون نائبي الأول."

يستحضر لقاءهما الأول كأنه وقع أمس، يتذكر بوضوح شديد كيف ترك، في البدء، نفوراً عميقاً في نفسه منه، ومن الآخرين، الذين تحلقوا حول طالب الطبّ الحذق اللسان، مسحورين بكلامه وحضوره الجسدي الضخم، وسرعة بديهته ومرحه، ولم يثر أي من تلك الخصال غيظه بقدر ما أثارته تلك القدرة لدى ''كريم'' على خلق شعور عميق بالألفة مع من يلتقي بهم أول مرة، فكأنهم أصدقاء قدامى له.

يتطلع من زاويته في وجوه الحاضرين، كأن عينيه كاميرا تلتقط صوراً لهم فتنطبع في خلايا ذاكرته، يملأ أنفاسه غيظ خانق من تجاهلهم له. كانوا جميعا طلاباً جامعيين أو حمَلة شهادات جامعية بينما هو مجرد طالب ثانوية. كانوا جميعاً من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بغداد يتحدثون لهجة واحدة كأنهم أسرة واحدة، بينما هو يرطن بلهجة قريته الغريبة على آذانهم، تتعثر الكلمات على لسانه، وتزوغ عيناه عن عيون الآخرين كلما تحدث معهم دون إرادته. ظل ذلك الخجل من الآخرين منغرساً في روحه منذ طفولته متواشجاً مع شك عميق بنواياهم تجاهه.

يحضره هذا السؤال فتتصلب عزيمته ويشعر بالتفوق عليهم: هل يستطيع هؤلاء المرفهون الذين لم يعرفوا يوماً معنى الجوع وقسوة الحياة، قتل كلب ضال دون أن تذرف أعينهم الدمع وتخفق قلوبهم ألماً؟

ها هو الضئيل الجسد يوزع الأدوار عليهم، فيدرك أنه المشرف المباشر على العملية. يلتفت صوبه متحاشياً النظر إليه: "أنت تقوم بحماية المنفذين عند انسحابهم،" وحين وقعت عيناه صدفةً على عيني ’’كريم‘‘ رماه الآخر بابتسامة وغمزة تواطؤ، خففت من غليانه الداخلي، كأنه كان يقول له: "لا تهتم بما يقول القَزَم، شارِكْنا في العملية وادخل التاريخ معنا."

* * *

من سريره الوثير يدير الآن دفة الحكم بسلاسة لا نظير لها؛ كل مواطن يحظى بمراقبة مواطنَين له، حيث يقوم كل منهما برفع تقرير أسبوعي عن سيئاته وحسناته؛ وكلا هذين المواطنَين، اللذين لا يعرف أحدهما الآخر، تحت رقابة مواطنَين آخرَين، وهلمّ جرّا؛ كم سمح له زرْع مبدأ التجسس المنهجي حتى داخل الأسرة الواحدة، بأن يرى دون عوائق بَواطن هذا الشعب العصي على الحكم. غير أن هذا المبدأ سيكون باطلاً، إن لم يكتنفه ذعر شديد منه؛ وكم كان لحفلات

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الإعدام المنتظمة المبثوثة عبر شاشات التلفزيون للخونة والجواسيس فعل السحر على أولئك الذين في قلوبهم مرض ليرتدعوا.

تتنقل عيناه بين تلك الفقرات التي أعدها كبير المترجمين له عن صحف بريطانية بعد وصول أول دفعة من النساء والأطفال الغربيين إلى لندن: "ألفان من الغربيين مختبئون في المدينة المحاصرة (مدينة الكويت): سُمح لعدد من الرجال المرضى بالخروج بعد طلب القس ''جيسي جاكسون'' ذلك من ''صدام''... وتتعاون العائلات الكويتية والعربية على إخفاء الغربيين لكن العراقيين ظلوا يتعقبونهم، إذ تمكنوا من سحب أكثر من 32 شخصا كانوا مختبئين في مجمع واحد... هناك ما بين 2000 إلى 3000 شخص ما زالوا مختبئين في مدينة الكويت .''ساندرا'' سكرتيرة بريطانية حاولت الهرب مع عدد من الأصدقاء إلى السعودية لكن قُبض عليها فاحتُجزوا ببيوت في جنوب العراق مع طعام كاف ومعاملة جيدة، لكنهم كانوا مرعوبين..."

تتصلب عيناه على عنوان آخر: "تعديل وزاري مرتقب في بريطانيا: أربعة وزراء ينتظرون الإقالة"، ثم تتوقف عند هذه الفقرة: "تصر مصادر حكومية على أن ''أدوينا كاري''، لن تُعاد في التعديل الوزاري القادم إلى الحكومة، فقد أثار تصريح إذاعي طائش لها مخاوف جديدة من ميلها الشديد لجذب الجمهور إليها، فوزيرة الصحة السابقة صرحت من دون أي سبب لمحطة "أل بي سي" عن شحنة من موانع للحمل وصلت من اليابان، لكنها قررت إعادتها إلى البلد المصدّر لأنها لا تتناسب ومقياس العضو الذكري المتوسط في بريطانيا. وقد صدر احتجاج شديد اللهجة من السفارة اليابانية في بريطانيا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

لاعتبار أن القرار عنصري، ولم يؤد تعليق ’’كاري‘‘ اللاحق في الراديو إلى التخفيف من غضب الدبلوماسيين اليابانيين حين قالت إن اليابانيين يعوضون عن ذلك بمواهبهم في مجال الأعمال... فقد يكون هناك إفراط في التعويض..."

* * *

حتى مع تخلفه عنهم دراسياً واجتماعياً، ترسخت في أعماقه قناعة غامضة بأن هناك قدَراً مغايرا لاقدارهم ينتظره، فوصوله إلى الشَقّة واختلاطه بهم، بحد ذاته، نقلة نوعية في مكانته ودوره في "الحزب"، فهو حتى لحظة دعوته للمشاركة في "العملية" لم يكن عضواً فيه، بل مجرد "نصير" تحت الاختبار، ولم تكن نشاطاته أكثر من أفعال "قذرة" يريد القياديون تحققها من دون أن تتسخ أيديهم أو سُمعتهم بها: مطاردة ’’الحُمْر‘‘ في مناطق سكناهم أو أماكن عملهم، وتكسير عظامهم.

لا بدّ أن مسؤوله الحزبي نقل كل ما قام به من منجزات إلى القيادة المحلية، حتى جاءه ذات يوم فأخبره باختياره (إذا قَبِلَ) بأداء مهمة شديدة الخطورة قد يفقد حياته فيها. عرف لاحقاً سبب انتقائه: اختفاء أحد أفراد فريق الاغتيال المفاجئ.

كان على قيادة "الحزب" أن تقرر بسرعة واحداً من هذين الخيارين: إما إلغاء العملية تماماً أو تنفيذها بأسرع ما يمكن قبل افتضاح المؤامرة. وفي بيت أحد الرفاق، وقف الجميع مع الخيار الثاني. وهنا نطق القدر لصالحه على لسان أحد القياديين: "نحتاج إلى شخص بديل،" ولم يمض غير يوم واحد

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

حتى عثروا على شخص خارج الحزب لكنه يفي بالشروط وأكثر.

وها هو الآن بين نخبة من المثقفين الجامعيين بدلاً من مجموعة "الشقاة" شبه الأميين الذين جمَّعهم لسرقة "الحمر" في منطقته وضربهم وتهجيرهم.

يصيخ السمع إليهم، ينتابه شعور عميق بأنه يخالط أناساً لم يكن يظن يوماً أنهم يعيشون في بلده. هم بالتأكيد لم يناموا ليلة في حياتهم وأمعاؤهم تقرقر من الجوع، ولم يخرجوا يوماً إلى الشارع بأقدام حافية، وكلهم عاشوا، على العكس منه، في بحبوبة تحت حماية آبائهم وحنان أمهاتهم. حضره هذا السؤال: كيف سيكون رد فعلهم إذا عرفوا ماضيه بتفاصيله؟

ينهض معهم لتناول العشاء الأخير، يتطلع في وجوههم التي اعتراها قدر من الشحوب، على الرغم من مساعيهم بالظهور وكأنهم غير مبالين بما يخبئه القدر لهم: ها هم يستحضرون طُرَفاً قديمة وهم يلوكون لقمات الطعام، فتنتابهم نوبات من الضحك الصاخب. وحين يأتي دوره، يصمت قليلاً بينما تظل الأبصار معلقة على وجهه: "لا أتذكر أيّ شيء." كم بدوا له ضئيلين وهو يستمع إلى أحاديثهم الجوفاء عن النساء والسيارات وماركات الويسكي والسجائر.

كيف أصبح هؤلاء قادة بينما ظل هو في الهامش نكرة ينفذ أوامرهم حرفياً؟

حتى مع احتفاظه بروح النكتة، يبدو ''كريم'' الأكثر تماسكاً بين الأربعة الذين سينفذون خطة الاغتيال، ولعل ذلك لأنه قائدهم في العملية. يكتشف خلال وقوفهم حول طاولة الطعام،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أنه الأطول قامة بينهم، فيمنحه شعور بالتفوق عليهم. كأن القدر يهمس في أذنه وهو يراقبهم: مهما تفوقوا عليك في دراستهم، ومهما كانوا أكثر جاذبية منك، فإنك الشخص الذي اخترتُه، وعلامتي على ذلك قامتك المديدة.

فجأة، يحضره سؤال بقوة: "مَن مِنّا سيبقى حياً غداً؟"

رغبة عميقة بالموت تجتاحه، تتجاوز ذلك الغضب الذي ظل يغلي في أعماقه طوال حياته. يتعمق قرار في نفسه لحظة بعد أخرى، بأنه لن يبقى غداً مجرد مراقب "للأبطال" الأربعة الذين سيهاجمون "الزعيم". إنهم من دون شك لم يقتلوا طوال حياتهم أي كلبٍ أو قطٍّ سائب، ولم يفكروا يوماً بتصفية أي من خصومهم "الحمر". أما هو فقد اجتاز هذه المرحلة خطوة بعد أخرى، وها هو أمام اختيارين: تنفيذ أوامر "القزم" بأداء دور الحماية فقط، أو النزول إلى الشارع وإطلاق النار من غدارته على ''الجنرال'': الموت أو المجد، مثلما هي الحال طوال حياته.

* * *

كم تعلّم ''سَدَم'' من ''الجنرال''، رئيس هذه البلاد، دروساً لا تقدمها أي كتب في العالم، وأولها: ليس المهم أن تحبك الرعية بل أن تهابك وتخشاك كثيراً.

حين وصلتهم الإشارة باقتراب سيارته من شقتهم، هبوا فوراً وخرجوا على عجلة يتقدمهم ''كريم'' خطوة أو خطوتين. كانت طبطبة أقدامهم على السلالم الواصلة ما بين الطابق الثاني والأرض، طبلاً تقرعه كفّا قدر مجهول، فترجّعها الجدران أقوى فأقوى، ومعها تتسارع نبضات قلبه وينحبس الهواء في

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

صدره، تفغم أنفه رائحة شواء، كأنها آخر علامة تبعثها الحياة لهم قبل عبورهم خطها الأخير.

ها هم أخيراً على الرصيف، لا بد أن مصابيح الطريق أُشعِلت قبل قليل، فضوء النهار الواهي ما زال معلقاً هناك فوق البنايات في السماء التي اكتست زرقة غامقة، وفي الفراغ القائم ما بين طرفي الشارع. يندفع قلبه بنبض جنوني تحت الغدّارة القصيرة المخفية بين طيات معطفة، بينما تمضي عيناه تتنقلان على عجل بين صف المارة الذين احتشدوا على امتداد الرصيف المسقَّف المقابل له، منتظرين بلهفة مرور سيارة ''الجنرال'' التي اعتادوا على رؤيتها كل يوم.

كانت الخطة تقضي بقدوم سيارة أخرى تتحرك باتجاه معاكس لسيارة ''الجنرال'' فتجبرها على الوقوف، وعند ذلك يبدأ المنفذون الأربعة بتطبيقها. تتسمر عيناه على يسار الشارع بانتظار تلك العربة الصغيرة، بينما يغمره هدير الأصوات المتصاعدة أكثر فأكثر، فيصيبه دوار يجعل الأرض تتحرك تحت قدميه.

يشق طريقاً له بذراعيه بين أكتاف المتجمهرين أمامه، تتلقفه أعين بعضهم بالريبة، لكن خوفاً ما يشلهم على منعه من التقدم حتى حافة الشارع. من اليمين تظهر سيارة ''الجنرال''. ثانية واحدة تفصلهم عنه، وثانيتان أخريان ستبعدانه عن غداراتهم إلى الأبد.

فجأة، تختض الأرض، إثر قرقعة هائلة كهزيم رعد قاصف، يعقبه انتشار دخان كثيف، يجعل العينين تريان أشباحاً تتحرك أمامهما، تنطفئ مصابيح الشارع تحت وقع انفجار القنبلة الدخانية، وكأن الأمر بالتنفيذ صدر للتو. تلتقط أذناه صَلْيات

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الرصاص المتقطع صوب السيارة، مختلطة بصرخات الناس الهلعين الذين راحوا يتراكضون في كل الاتجاهات هرباً من الموت. يسحب غدارته من تحت قميصه، يملأه صوت آمر من أعماقه: "ها هي فرصتك الأخيرة لصعود سلَّم المجد."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف السابع

الأخدود

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

(8 أيلول 1990)

لا أذكر أني أخبرتك عن ذلك اللقاء الذي جمعني بهاجَر.

قال ’’أَسعَد‘‘، قبل إغلاقي سماعة الهاتف: "ما رأيك بالسبت القادم؟"

تلعثمت الكلمات فوق لساني قبل انتقالها إلى أذن محدثي: "مناسب لي..."

حين انقطع الخط بيننا، واسترجع الصمت سطوته المطلقة على البيت، ساورني شعور عميق بأني أعيش حلماً. فمن قاع يأسٍ مطلق من رؤيتها ثانية، تأتيني هذه المكالمة لتقلب المعادلة رأساً على عقب. مددتُ يدي متلمساً حقيقة الأشياء حولي: الهاتف المعدني الصلب، ستائر المخمل الناعمة، نظارتي، منامتي... هل، حقا، تريد ’’هاجَر‘‘ رؤيتي دون غيري أم هو مجرد إغراء كاذب أضافه ’’أَسعَد‘‘ ليجذبني أكثر إلى الفخ؟ تخيلتها جالسة بجانبه وهي تلقنه الكلمات، بينما تتبادل أعينهما الغمزات والضحكات الساخرة.

أذكر أنك حضرتَ بقوة في خاطري، أنت و’’ماهر‘‘، ولعلكما حضرتما، كما وصفكما ’’أَسعَد‘‘، إلهين أعزبين يجذبان كالمغناطيس دون مقاومة نشارة الحديد. فمَن أكون مقارنةً بكما أكثر من زوج وأب ميؤوس منه؟

وكالغمْر لحظةَ مدٍّ طافح، جرَفَ فيض الإثارة شكوكي ومخاوفي، تاركاً عبارة ’’أَسعَد‘‘ في رأسي تترجّع بإصرار عنيد: "هي تريد أن تلتقي بك... هي تريد أن... هي تريد...هي..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يحل أخيراً يوم اللقاء. أنسلّ من الفراش خفيفاً، على الرغم من هروب النوم عن عينيّ طوال ساعات الليل، عدا تلك اللحظات التي ينقطع فيها الخيط الرابط بالواقع، فأجدني خارج إحداثيات الزمان والمكان، وسط نفق لا بداية له ولا نهاية، أو في غابة أشجارها العملاقة مجرد ظلال دهماء يتشابك بعضها ببعض.

ما زالت ''لورا''، كعادتها غارقة في النوم، فقد اعتادت على السهر معي حتى ساعة متأخرة كل ليلة سبت، حيث نقضي الوقت معاً في مشاهدة فيلم فيديو على شاشة التلفزيون أو تعقب البرامج والأفلام على قنواته الأربع.

أزيح حافة الستارة بما يكفي عَيناً واحدة للرؤية، تجنبا لإيقاظ زوجتي، لكن ضوء الشمس الباهر يُغبِّش صور العالم الخارجي فوق شبكيتها، فتبدو كأنها نجوم منفلقة بألوان زاهية براقة.

من تحت النافذة، تبرز، شيئاً فشيئاً، شجرة الزيتون بأوراقها الصغيرة الناتئة، دائمة الخضرة. قالت ''لورا'' أمام إصراري على زرعها حين جلبتُها شتلة متضائلة: "ما جدوى وجودها في الحديقة إذا كانت بلا ثمر؟ لنزرع تفاحة بدلا عنها..." لكنها الآن أصبحت جزءاً من واقع غريب عنها، ترجمة لفكرة أو حنين أو عبث ما.

مر الوقت بطيئاً، ولا بد أن ''لورا'' لاحظت اضطرابي خلال الأيام الأربعة الأخيرة، فعزته إلى ما كان يدور هناك في العراق والكويت.

أتذكر كم أصبحت كلمة "رهائن" قنبلة موقوتة في بيتنا، تنفجر كلما ذُكرت على شاشة التلفزيون، في أحد الريبورتاجات، التي شاهدناها جميعاً قبل يومين أو ثلاثة أيام،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تحدث الصحفي عن وجود أكثر من ألفي غربي في مدينة الكويت مختبئين في بيوت بعض سكانها، وأن الجنود العراقيين تمكنوا أخيراً من القبض على 32 منهم كانوا قد اختبؤوا في مجمَّع واحد. ارتفع صوت ابنتي الصغرى ’’منى‘‘ على غير عادتها: "هل ’’كْريس‘‘ معهم؟" ولم يكن ’’كْريس‘‘ إلا عشيق زوجتي السابق.

راقبتُ باستكانة ذلك الشحوب الذي علا وجوههن. كانت يد ’’لورا‘‘ المرتعشة قليلاً تتحرك من دون انتظام لتصفّ الصحف المنثورة بشكل فوضوي على طاولة القهوة. فجأة انطفأ التلفزيون وانفلت "الريموت كونترول" من أصابع ’’منى‘‘ ليسقط على الأرضية الخشبية، ثم ها هي ابنتي الأكثر شبهاً بي تثب من كرسيها غاضبة، وهي تمسح دون جدوى دموعاً ظلت عيناها تسفحهما دون توقف، لتخرج بخطوات عجلى من حجرة الجلوس، أسمعها تردد شتائم بحق أولئك "الهمج" قبل أن تصفق باب غرفتها وراءها.

قد تستغرب إذا قلت لك إني بقيتُ محافظاً تماماً على هدوئي، وقد تستغرب أكثر إذا أخبرتك بما مرق في خاطري خلال تلك الثواني الحرجة: ماذا لو أن ’’لورا‘‘ وافقت على الذهاب مع ’’كْريس‘‘ إلى الكويت وأخذت ابنتينا معها؟ هل سأكون الآن في مكاني أشاهدهن وهنّ جالسات أمام ’’سَدَم‘‘؟

* * *

نسيتُ أن أخبرك عن تلك المقابلة الصحفية مع وزير الإعلام... هل تتذكر اسمه؟ شاهدتُ مع ’’لورا‘‘ مقاطع مسجَّلة منها على إحدى قنوات التلفزيون الأربع.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كنا جالسَين على الكنبة وأمامنا كوبان مملوءان بالشاي والحليب، بينما أزيحت الستارة السميكة عن النافذة الواسعة الممتدة على طول الجدار، للسماح بالنسمات المنعشة، بالتغلغل إلى حجرة الجلوس، عبر المنافذ الصغيرة القائمة فوقها، ولم يبق ما يفصلنا عن الشارع سوى ستائر الدانتيل التي تحوّل المارة إلى مجرد أشباح عابرة.

كان الوزير العراقي مصراً على الإجابة عن أسئلة الصحفي البريطاني بانجليزية ركيكة، وحين تعصي عليه كلمة انجليزية ما، يلتفت إلى مساعده كي يسعفه بها. سأله الآخَر عن تأثير الحصار الاقتصادي الذي فرضه مجلس الأمن الدولي على شعبه، فما كان منه إلا أن طبطب على فمه وهو ينتظر الكلمة الإنجليزية التي هربت من ذاكرته: " We will shut our... mouths".

ما الذي منع ’’لورا‘‘ من الانفجار بالضحك وهي تتابع عرضاً كوميدياً من دون أن تدفع أي أجر عليه؟ هل كانت تفكر بـ’’كْرِيس‘‘؟ في ما إذا تمكن من الهرب إلى السعودية أم أنه وقع في أسر الجنود العراقيين ثم نُقِل إلى هدف عسكري محتمل؟

أثارتني كثيراً، رغم شعوري بالحرج من زوجتي، عينا وزير الإعلام المسلوتتين أفقياً قليلاً، ولعل زوغان بؤبؤيهما جعلاهما قريبتين إلى عيني ثعلب ضال.

لا أستبعد أن يكون ’’سَدَم‘‘ قد جلس أمام شاشة التلفزيون في قصره المنيف يتابع "رهينته" التي أمرها بارتداء ثياب عسكرية والتحدث بالإنجليزية، وعلى ضوء إجاباتها سيقرر ما سيفعله معها: تقليدها وساماً أم تقطيعها إربا بيده؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

ها أنذا أسمع الوزير المتخبط رعباً من الغد، يؤكد بأن بلده طلب مراراً من البيت الأبيض التفاوض، لكن دون أي استجابة منه. وحين سُئل عن موقف حكومته من الكويت، أجاب بعربية واضحة، خوفا من أن يسيء ''سَدَم'' فهمه فيسلخ جلده في اليوم اللاحق: "الكويت جزء لا يتجزأ من العراق ولن ينفصل عنه أبداً."

* * *

يتلوى الطريق الواصل إلى "ساوْث بانْك" من محطة "واترلو" حتى يتراءى لك بأنك تسير أميالاً، لا بضع مئات من الأقدام. على الجدران المبنية بالطابوق الأحمر تبرز أمامك رسوم الغرافيتي وكلماتها المُلغِزة، ولضمان عدم ضياعك وسط الشوارع الفرعية ثُبّتت لافتات هنا وهناك عليها أسهم تشير إلى موقع ضفة النهر. دمدمة قطار مزعزِعة تصلني من أعلى الجسر لحظة مروري تحته.

مع كل خطوة أرميها تضطرم نبضات القلب أكثر فأكثر. رائحة شواء تنتشر في الهواء قادمة من عربة خشبية، يقف وراءها رجل بدين، بينما تنشغل يده اليمنى بتقليب النقانق وسط مقلاة كبيرة. أشاهد في تلك الفسحة المخصصة للمشاة عدداً من السياح، المنغمرين بالتقاط الصور. أخمن أنهم من اليابان.

هناك في مقهى "رويال هَول" ألمحهما جالسَين حول طاولة مربعة بجانب الجدار الزجاجي العملاق، ولعل ضوء الشمس الخافت المتسرب من الخارج، وعتمة الفراغ فوق رأسي، جعلهما يبدوان لعينيّ ظلين مرسومين على لوح شفاف.

اقتربُ على رؤوس الأصابع نحوهما خوفاً من خلخلة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الصورة التي رسمتها المصادفة لهما، ها هما يلتفتان صوبي دون أي اندهاش، كأنهما كانا يتوقعان حضوري في تلك اللحظة بالضبط، أو لعلي كنت موضوع حديثهما آنذاك.

تنفرج أسارير ''أَسعَد'' لمرآي بينما تغيب الابتسامة عن محيا ''هاجَر''، كأني بها تسألني عبر عينيها المثبتتين على عينيّ: "ماذا تريد؟ مَن طلب منك القدوم؟"

* * *

كيف سيكون رد فعلك لو كنتَ في مكاني؟

ظل ''أَسعَد'' يكسر بانتظام حاجز الصمت الذي قام بيني وبين ''هاجَر''، بطرائف لا أول لها ولا آخر، "هل سمعتما بتهديد وزير الإعلام العراقي للأميركان؟"

هزت ''هاجَر'' رأسها نافية، بينما عكست نظرتها لا مبالاة بالخبر.

سحب صديقك الأقرب حقيبته الجلدية القديمة من تحت قدميه، فأخرج دفتره البرتقالي الشهير، ثم راح يقلّب صفحاته.

"هذه السطور نقلتُها من صحيفة بريطانية موثوق بها لوزيرنا الهمام خلال مقابلة مع صحفي بريطاني." قلتُ مقاطعاً إياه: "لا بد أنها نفس المقابلة التي شاهدتها أمس على التلفزيون... أنا بدّلتُ القناة قبل أن يكمل حديثه."

"إذن استمع إلى ما فاتك دكتور ''يوسف''،" ردد ''أَسعَد''، قبل الانغمار في القراءة: "إذا وقعت الحرب لدينا خمسة ونصف مليون متطوع، ونحن لدينا واحد ونصف مليون عسكري قوي... رجاءً أُنقل هذه الرسالة لبوش: لا تدع جنودك

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يموتـون. إنهـم سـيُدفَنون فـي الرمـال... إذا وقعـت الحـرب فإننـا سنكون سعداء أن نريكم كيف يدافع العرب عن أنفسهم..."

كسرت ’’هاجَر‘‘ أخيرا صمتها: "لا بد أن ’’بوش‘‘ فقد القدرة على النوم منذ سماعه بهذا التهديد..."

حل الصمت بيننـا طـويلاً، تتخللـه دمدمات الجالسِين وراءنـا في تلك القاعة الكبيرة، بينما ظلت عينـاي تتسللان جانبياً، من وقت إلى آخر، إلى وجه ’’هاجَر‘‘، كأني كنت أسعى للتأكد من حقيقة جلوسها إلى جواري، ملأتني رغبة عارمة بمس ذراعها نصف العاري، فانكمشتُ على نفسي أكثر فأكثر، منعا لسبابة يـدي اليسـرى مـن تحقيـق هـذه الرغبـة دون إرادتــي. اكتشـفتُ وجـود خـالٍ صـغير عميـق السـواد علـى حافـة رقبتهـا البـارزة، بجـوار ذلـك الشـريان النـاتئ علـى امتـدادها حتـى اختفائـه فـي الكتف نصف المكشوف.

سـألتُ ’’أَسـعَد‘‘ عـن والديـه ."تمـام،" قـال علـى عجـل، كأنـه يخـاف أن ينسـى أمـراً أكثـر أهميـة، يريـد التحـدث عنـه. أضـاف مخففـاً مـن نبرتـه غيـر المباليـة "لا بـد أنهمـا وصـلا الآن إلـى بغـداد...أنــا لا أسـتطيع التحـدث معهمــا لأن الهواتــف مراقبــة هناك..."

وكأن حضورهما في حديثنا أثار غصـة مـا فـي نفسـه جعلتـه يكرع الجعّة من كأسه الكبير دفعة واحدة.

استعاد صديقنا المشترك خيط الحديث مرة أخرى، مفاجئـاً إيـاي بمطلـب غريـب: ""’’هـاجَر‘‘ تريـد أن تستشـيرك فـي أمـر هام..."

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

هل تتفق معـي أن كـل لقـاء بـامرأة يفتح جرحـاً مـا غيـر قابـل للانـدمال؟ ولعـل السـبب وراء ذلـك هـو قـدرتها الغريزيـة علـى إطلاق روح مجهولـة، كانت حتى تلك اللحظـة، فـي حالـة سبات داخل صدر الرجل الجالس أمامها.

كأننـا فـي لعبـة مرايا داخـل مرايـا، وكأننـا مسكونون بعدد لا يحصى من الأرواح، تطلق كلاً منها امرأةٌ ما.

لعلك ستسخر في أعماقك منّي إذا قرأتَ سطوري هذه، فأنت مقتنع تماماً بعكس هذه الفرضية تماماً: الرجـل هـو الـذي يُطلق روحاً جديدة من صندوق المرأة الخفي حال لقائـه بهـا أول مـرة. إلا أنه لتحقيق ذلك عليه أن يتَّبِع أسلوبك: زرع الشعور العميق في أعماقها بأنها موضع اهتمامه، لكن الطريق إلـى قلبـه يتطلب منها بذل جهود هائلة للتطابق مع الصورة الغائمة للمرأة المثـال السـاكنة فـي أحلامـه، وغالبـاً مـا يكـون الفشـل نصـيبها معـك، لتتركها هناك في زاوية من جحيم الانتظار والشك في النفس.

لا بد أن أذكر لك كيف كان ’’أَسعَد‘‘ خلال لقائنا الثلاثـي ذاك: كم بدا لـي شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي التقيته في بيت الـدكتورة ’’عاليـة‘‘، لكأنـه تخلـى عـن دور الخـادم المطيـع معك أو المريد النجيب مع ’’ماهر‘‘؛ بصيغة أخرى التحرر من سلطتيكما.

وقـد أكـون محقـاً إذا زعمـتُ أنـه، تقمـص إضـافة إلـى دور المهرج الحريص على إضحاك ’’هاجَر‘‘ دائماً، دور المتحـدث الرسمي باسمها ."هـي تريـد البقـاء فـي بريطانيـا،" قـال ’’أَسعَد‘‘ بنبـرة جـادة، بعـد فتـرة صـمت، ظلـت عينـاه خلالهـا زائغتـين صوبها.

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مثل انقشاع الضباب عن غابة أمام عينيك، هكذا هو الحال عند استرجاع لحظة كثيفة من حياتنا بعد أن تصبح ماضياً غير قابل للتغيير. كم تبدو لحظات كهذه واحات صغيرة على طريق صحراوي رتيب.

الآن، وتحت الغطاء الخفيف، يسبح بصري في فراغ الغرفة المظلم، باحثاً دون إرادتي عن وجه "هاجَر" بعد مضي ساعات قليلة على مفارقتي إياه، لكني بدلا من ذلك لا التقط سوى أصداء أصوات نائية، تتداخل مع أنفاس "لورا" المنتظمة.

كم أنت محظوظ بما تملكه من قدرات على استرجاع الصور العابرة التي خزنَتْها ذاكرتك، لكأنك مزوّد بعين ثالثة تسترجع بسهولة ما رأته عيناك من قبل؛ أذكر كيف كان بعض طلاب مدرستنا يختبرون قدراتك على رسم وجوه أولئك المتغيبين عن الدراسة، وكم كنت دقيقاً في استحضار تفاصيل ملامحهم فوق الورق الأبيض.

بين الموهبة وغيابها فجوة غير قابلة للردم؛ ها أنذا أحاول جاهداً استرجاع ملامحها دون جدوى؛ كأنها لم تكن جالسة على بعد قدم عني، وكأني لم أكن قريباً منها إلى هذا الحد.

هل هو مجرد سجن افتراضي أن تجد جسدك في مكان ما بينما روحك في مكان آخر؟ وما هي القوانين الخفية التي تتحكم في انقسام قسري كهذا؟ كأن هذا الانقسام، الذي عاشته "لورا" بين الجسد والروح قبل خمس سنوات تقريباً، قد حل بي أخيراً. غير أن الفارق بين حالتينا كبير: معها كان الجسد تابعاً للروح: حالَ تحسسها بوقوع الصدع ما بينهما، أصبحت الكنبة الضيقة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

في غرفة الجلوس مكان نومها بعيداً عني. وكلما قرأتْ في عيني استفساراً ما قالت متذرعة: "عندي صداع مزمن هذه الأيام..."

بالمقابل، كان جسدي وروحي يخوضان حرباً ضروساً تلك الليلة، وفي كل لحظة منها يفوز أحدهما وينهزم الآخر، فينعكس عليّ بشعورين متعارضين بين لحظة وأخرى: الانجذاب الشديد لِلورا والنفور العميق منها. بانتصار الجسد تستسلم الروح له فيغمرني انخطاف جارف تستيقظ فيه الحواس إلى أقصى مداها: عيناي تستحضران لون بشرتها الوردي، أناملي تستذكر أعطافها المكوَّرة اللدنة، لساني يسترجع طعم العرق على ثدييها وبطنها الضامر؛ لكن اللحظة اللاحقة تحمل النقيض: ها هي الروح تتغلب على الجسد، فتدفعني بعيداً عن جسد ''لورا'' العاري تحت الغطاء الخفيف، أسترجع ذلك الزمن الطويل والعابر في آن، حين تلاشت بقع الضوء عن رؤوس الجدران المنتصبة أمامي عبر زجاج النافذة العملاقة، لتحل محلهما مساحتان بلونين متنافرين يفصلهما خط وهمي بينهما: السماء بزرقة غامقة شديدة الصفاء ونصفا البنايتين العلويين بلونهما الرمادي الداكن. في تلك اللحظة، سكنني هاجس غريب :''هاجَر'' تراقبني عن كثب؛ وحينما التفتُّ صوبها تلاقت أعيننا لحظة واحدة، فأشاحت بناظرها صوب النافذة. كانت حافة حنكها الأسفل متكئة على راحة يدها المفتوحة بينما يستند كوع ذراعها الأيمن على الطاولة.

كم بدا لي وجهها جزءا من لوحة مظلَّلة خلفيتها لونان فقط: أزرق ورمادي، ولا أستبعد أنك حضرتَ إلى ذهني بفضل هذا

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

السؤال: كيف سيرى ’’جليل‘‘ هذا البورتريه الجانبي لو أنه كان جالسا في مكاني؟

* * *

"فعلاً؟ أنتِ جادة؟"

لا بد أنها قرأت الدهشة على عينيّ، وهي تستبطن سؤالي، ثوانيَ بدت لي دهراً. كم نحن الرجالَ قاصرون عن فهم شفرات النساء المخفية بعناية في أعماقهن، وغالباً، ما نتمكن من فكها بعد فوات الأوان.

بادر ’’أَسعَد‘‘ لقطع تلك اللحظة المكهرَبة بيننا: "طبعاً هي جادّة... مَن يعود الآن إلى العراق غير المغفلين..." لا أستبعد أن والدَيه خطرا على باله آنذاك، فجعلاه يضيف بصوت واهٍ: "أو المضطرّين..."

استعادت ’’هاجَر‘‘ نبرة المرح وهي تنقّل بصرها بيننا: "أنا ألغيتُ الحجز لا التذكرة... ربما أسافر الأسبوع القادم... الجو يتحسن عادة في بغداد بعد منتصف أيلول...."

قال ’’أَسعَد‘‘ بعد صمت قصير: "أنتِ على حق... الزمن هنا خالٍ من أي أحداث... ما يدور ببغداد في يوم واحد يزيد عما يجري في حياة الفرد هنا بأكملها... التاريخ مات هنا... لهذا السبب يزدهر التنجيم وأدب الخيال العلمي في الغرب كثيراً..."

"إذن، اِرجعْ معي الأسبوع القادم..." قالت ’’هاجَر‘‘ ضاحكة، وهي ترميني بغمزة، قبل أن تسلط عينيها على ’’أَسعَد‘‘: "في كل الأحوال، سيتعود أصدقاؤك المتقاعدون في بار "البجعة السوداء" على فراقك..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ردد صديقكَ بنبرة مرتبكة خجول بينما زاغت عيناه بعيداً صوب النافذة العملاقة: "بالتأكيد سأعود معكِ، إذا ضمنتِ لي حياتي هناك."

وكأنها أرادت تغيير مسار الحديث، حين صوبت عينيها الشهلاويين على عيني ’’أَسعَد‘‘، قبل أن تطبق راحتَي يديها معاً، تعبيراً عن تضرع مفتعل له: "أخبرنا عن نظرية ’’ماهر‘‘... نسيتُ اسمها..."

* * *

لعل ذلك الحلم الغريب الذي شاهدته بعد لقائي بهما رسالة تحذير لي: كانت ’’هاجَر‘‘ تمشي بجانبي في ساحة صغيرة تغص بالسابلة، اقتربنا من صندوق زجاجي، وسطها، مثبّت بإحكام على صخرة غرانيتية مكعبة الشكل، وفي داخله طفا قرش عملاق وسط سائل شفيف، بعينين جامدتين وشدق مفتوح على صفّي أسنان مدببة كبيرة.

ها أنذا أرى مرافقتي الجريئة تخترق دائرة المتحلقين حول الصندوق لتنتهي عند قاعدته السوداء ."انظروا كيف ستعود الحياة إليه،" تردد ’’هاجَر‘‘، قبل سحب مزلاج بابه الجانبي. تعلو صرخات الهلع من كل جانب،غير أنها لا تأبه بها. يندفع الماء بقوة إلى الساحة ليغمرها بالكامل.

* * *

قلتُ ضاحكاً: "أظنكَ سمَّيْتَها نظرية ’’الأخدود‘‘...."

علقت ’’هاجَر‘‘ بحماس، وهي ترمي لي بابتسامة متواطئة،

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

قبل أن تلتفت صوب ’’أَسعَد‘‘: "هيا أخبرنا بها وأعدك أننا لن نكشفها لأي إنسان آخر."

غير أنه ظل صامتاً، بينما ظلت عيناه ملتصقتين بكأس البيرة الكبير نصف المملوء أمامه، لكأنه بهذه الطريقة كان يقاوم تلك النظرات المحفزة، الشديدة الفضول، التي ظلت ’’هاجَر‘‘ تلقيها عليه.

"هي ليست نظرية... أنا أطلقتُ عليها هذا الاسم من باب المزاح،" همس ’’أَسعَد‘‘، "’’ماهر‘‘ سيغضب كثيراً إذا علم أني أخبرتكما بما قاله لي، ذات مرة، وهو تحت وطأة سكر نادر. هو بالتأكيد نسي حديثه، فما ذكره لا يعدو أن يكون هذيان ما بعد منتصف الليل... كم ضحكتُ آنذاك على الفكرة، لكني الآن أشعر بالخجل لخيانته..."

"الخيانة بين الأصدقاء ضرورية،" قالت ’’هاجَر‘‘ ضاحكة، "هل هي مخجلة لهذا الحد؟ أنت شوقتني أكثر لسماعها..."

"ماذا يعني ’’ماهر‘‘ بكلمة ’’الأخدود‘‘؟" سألتُ متحفزاً وعيناي تلتقيان بعينيها قبل الالتفات إليه.

"إنه... الخط الفاصل بين النهدين..." همس ’’أَسعَد‘‘، بينما ظل بصره مسلَّطاً على الأرضية تجنباً لنظرات ’’هاجَر‘‘ المرحة.

أتذكر أنه شرب جرعة كبيرة من كأسه، ثم مرر أصابع يده اليمنى فوق شاربيه، ليمسح الرغوة الطافحة فوقهما، قبل بزوغ ابتسامة ماكرة على عينيه.

حضرتني تلك الجملة الفرنسية التي كان ’’أَسعَد‘‘ يكررها كلما بلغ الذروة، حين يتحرر من سطوة آلهته الأرضية عليه:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"c'est le momen*t"*، فكأني به يقرأ ما يجول في خاطري: "بين ''جليل'' و''ماهر'' خصومة عميقة بسبب اختلاف نظرتهما للمرأة: الأول يرى وجهها مركز ثقل جاذبيتها، بينما الثاني... النهدين...هههههه..."

ضحكنا جميعاً، قبل ارتفاع صوت ''هاجَر'': "وأنتَ؟"

وكأن ''أَسعَد'' فوجئ بسؤالها الذي سلَّط على شخصه بالذات الضوء من دون مقدمات: "أنا... روحها..."

"عدنا للكليشهات..." قالت ''هاجَر'' بنبرة انفعالية تتعارض تماماً مع المناخ المرح الذي ساد جلستنا حتى تلك اللحظة: "أنا أعني ماذا يعجبك في جسد المرأة؟" أضافت جملتها الأخيرة بنبرة حانية بعد بروز قدر من الهلع في عيني ''أَسعَد''، وانكماش أكثر على نفسه.

جاء صوته بعد صمت طويل متحشرجاً: "لا أدري..."

"وماذا يعجبك فيّ؟" قالت ''هاجَر'' بنبرة مترقرقة، بينما راحت عيناها ترمشان، وأصابع يديها تعدل تسريحة شعرها بطريقة مسرحية مرحة: "لا تقل لي روحكِ...لأنك لو رأيتها لخرجتَ الآن هارباً ورميتَ نفسك في نهر ''التَيمْس''..."

لا بد أن هاجساً غمرني في تلك اللحظة بأن زائرة لندن الماكرة ستلتفت إليّ لتحاصرني بنفس السؤال، فاندفعتُ بتغيير اتجاه الحوار. التفتُّ صوب ''أَسعَد'' مردداً بنبرة قاطعة: "أخبرْنا الآن عن نظرية ''ماهر''..."

---

*هذه هي اللحظة (بالفرنسية).

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"آه... نعم... نسيتُ ماذا قلتُ عنها... ذكِّرْني رجاءً."

* * *

على الرغم من ندرة لقاءاتك بـ''ماهر'' فإني متأكد من معرفتك الكثير عنه، ولعلي لا أجانب الحقيقة إذا زعمتُ أنك حريص على تتبع أخباره من ''أَسعَد''، فكأنك بهذه الطريقة تتمكن من تحديد هويتك النقيض لهويته كل يوم. وقد يكون الأمر مماثلاً بالنسبة إليه، فهو الآخر يستقصي أخبارك من صديقكما المشترك لنفس الهدف: تثبيت هويته والإصرار على الاحتفاظ بها.

كلاكما، رغم النفور المتبادل بينكما، حريص على التواصل مع الآخر، عبر طرف ثالث.

ولن يكون هذا الطرف سوى شخص شديد الإخلاص لكما معاً، لكنه، في الوقت نفسه شديد الخيانة لكما، كلاً على حدة.

لذلك، فليس مستبعداً أن يكون ''أَسعَد'' أخبرك بنظرية الأخدود من قبل - اذا لم يكن هو من ابتكرها أو ساهم في صياغتها مع ''ماهر''- لتغذية الصورة الراسخة في ذهنك عن خصمك الأزلي.

أخبِرني إن كنتُ محقاً في حكمي.

"قمة الأخدود البارز بين النهدين - كما يرى ''ماهر''- أداة فعالة للكشف عن ماهيتهما..." قال ''أَسعَد''، وعيناه نصف مغمضتين، بينما تشبثت أصابع يديه بكأسه الكبيرة شبه الفارغة. أضاف متلكئاً، بعد سيادة صمت ثقيل بيننا، بدا أطول بكثير من حقيقته التي لا تتجاوز عدة ثوانٍ: "من حيث الشكل والحجم والاتجاه..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لا بد أن ضحكة ’’هاجَر‘‘ المجلجلة هي التي أخرجت صديقك الأثير من دوامة الخجل التي جعلت العرق يتصبب غزيراً فوق وجهه الشاحب، قبل أن تضيف بنبرة مرحة: "ما كنت أظن صديقكم ’’ماهر‘‘ يخُفي وراء مظهره الرسمي الرصين هذا القدر من خفة الدم..."

ها أنذا أرى عضلات فكَّي ’’أَسعَد‘‘ وحنكه تسترخي، فتنبسط أساريره وتغور عيناه فرحاً بالمناخ الاحتفالي المفاجئ الذي خلقته كلمات ’’هاجَر‘‘ في نفسه. لكأنه كان يهيئ نفسه لنتائج وخيمة على اعترافه وإذا به يشاهد وقوع العكس.

واصل صديقك شروحه تحت إلحاح ’’هاجَر‘‘: "حسب نظرية ’’ماهر‘‘، عُمق الأخدود وعُرضه يحددان خصائص النهدين...هناك علاقة طردية بين العمق والحجم، وعلاقة طردية أخرى بين عُرض هذا العمق واتجاههما..كلما زاد الأول ارتفع النهدان أكثر إلى أعلى..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الثامن

هذيان آخِر الليل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(1)

ليس لديّ أي شك بأنك سترفض فرضيتي هذه، تحت قناعتك المطلقة بأن التاريخ لا تحكمه المصادفات، بل قوانين صارمة، تشبه قوانين نيوتن.

الحتمية التاريخية: قدرية لا يمكن الفكاك منها.

''سَدَم'' عقوبة أزلية لا بدّ منها: حتى لو أنه فقد تذكرة الحياة باكراً، فإن ''سَدَماً'' آخر بملامح مختلفة سيحل محله.

حين التقى النبي ''موسى'' بذلك الشبح الذي لم يكن أحد غيره يراه، عرفه فوراً. فقبْل ظهوره، جاءت العلامة: ها هي السمكة الميتة منذ ساعات تقفز من السلة التي يحملها خادمه ''يوشع''، ثم تنزلق فوق رمل الشاطئ، صوب النهر بفضل زعانفها المترجرجة؛ وها هي تصر على مرافقته بعد ولوجها الماء. كانت عيناه تتابعان من وقت إلى آخر السمكة التي ظلت تتقافز في الهواء، باتجاه معاكس للتيار.

ها هو يراه ماشياً فوق الماء، فتحضره حكاية ذلك الرجل الذي منحه الرب الخلود ومعرفة المستقبل. هل كان لون بشرته زيتونياً أم هو لون ثوبه الطويل، المترجرج تحت انعكاس أشعة الشمس الصاخبة؟

"ألستَ أنت ''الخضر''؟" يسأله بصوت جففته الرهبة والمفاجأة.

"بلى... أنا هو."

"هل أستطيع مرافقتك لأستمد منك الحكمة؟"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"بشرط واحد: ألّا تسألني حتى ينتهي مشوارنا معاً."

"أعدك بذلك."

بَيْدَ أن ’’موسى‘‘ فشل في لجم لسانه أمام أول فعل قام ’’الخضر‘‘ به: في القرية الواقعة عند منحنى النهر، برز أمامهما خمسة أطفال منشغلين، تحت شمس ظهيرة ساطعة، بلعبة القفز فوق حبل مشدود طرفاه إلى قصبتين مغروزتين في أرض الطريق الترابي، بينما جلس صبي آخر يراقبهم على بعد أمتار وفي يده عصا حديدية ينكش بطرفها السائب التراب. كم بدا منظره باعثاً على الشفقة: دشداشة متهرئة مفتوقة حافتها في أكثر من موضع، بقدمين حافيتين، وعينين ممتلئتين بالغضب والحزن معاً. فجأة، تحرك دليله صوب ذلك الصبي المعزول عن الصبية الآخرين، فظن أنه سيمنحه نقوداً أو طعاماً أو ثوباً جديداً. بدلاً عن ذلك أمسك ’’الخضر‘‘ برأس الآخر الذي كان ساهياً عما حوله، ثم بحركة سريعة أدار رقبته بقوة جعلته يسمع طقطقتها وهي تنكسر، ها هي عيناه تلتقطان مشهد الطفل القتيل ملقى على التراب، بينما عاد ’’الخضر‘‘ بخطى حثيثة صوبه.

انفجر النبي ’’موسى‘‘ بمرافقه القاتل: "كيف تنزع الحياة عن طفل بريء هكذا من دون أي شفقة أو رحمة؟"

"ألم تعدني بالصمت عما أفعله حتى أكشف لك الأسباب بعد انتهاء مشوارنا؟ الآن يذهب كل منا في طريق..."

"أعتذر لك، سيدي، لن أسألك ثانية مهما فعلتَ..."

غير أنه فشل في لجم لسانه مرتين أخريين، فما كان من الكائن الحي الغامض إلا أن يُنهي جولتهما معاً.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

شرح ''الخضر'' لموسى أسباب أفعاله كلها. الطفل الذي قتله هو ابن أسرة تقية، ولو أن طفلهما تُرك حياً فإنه عند كبره سيُلحق أذى كبيراً ليس بوالديه فقط بل بأبناء قريته ووطنه.

"هل هناك تعويض لهذه الأسرة المكلومة بخسارة طفلها الوحيد؟" سأله ''موسى''.

"طبعاً... سيعوضهما الرب بطفل صالح."

(2)

كان عليّ أن أخبرك أنّ ''الخضر''(عليه السلام) أخطأ الهدف، للمرة الأولى في حياته الأزلية، حين قتل ذلك الطفل في القرية الواقعة عند انحناء النهر عن مجراه.

بالطبع، هذا لا يعني أنه أخطأ موقع الهدف، الذي زوده به الملأ الأعلى، فالصبي المعنيّ كان يأتي كل يوم إلى هذا المكان ليراقب الصغار الآخرين عن كثب وهم يلعبون، لكن مرضاً غريباً ألمّ به في ذلك اليوم بالذات، منعه من الخروج بخراف البيت الأربعة إلى الجرود المحيطة بالقرية. كان على أمه حين شاهدت الطفح الأحمر على وجهه وذراعيه، وتلمست بشرته الساخنة، أن تهرع، قبل استيقاظ زوجها السريع الغضب، إلى راعٍ آخر، يسكن قريباً من بيتها، فتتوسل به كي يتكلف بخرافها يوماً واحداً فقط.

أستطيع تصور تلك الابتسامة التي سترتسم على شفتيك وأنت تقرأ حكايتي هذه، فكأنك تريد أن تسألني ساخراً: "هل وضَعَ الربّ قدَرَين افتراضيين لصبيين من تلك القرية على

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وجهي قطعة نقدية، ثم رماهما في الهواء دون أن يقرر النتيجة النهائية بنفسه؟"

"هل هو يلعب الزهْر في تقرير مصير البشر؟"

لا أستبعد أنك ستقدم لي درساً مكثفاً عن حتمية استيلاء ’’سَدَم‘‘ على مقاليد الحكم طالما أن ’’الحُمْر‘‘ لم يستغلوا الفرصة التي منحها لهم التاريخ لقطع الطريق عليه.

أنت تجمع نقيضين معاً في أعماقك دون أن يتصادما لحظة واحدة: الحتمية التاريخية والإرادة الثورية.

(3)

قد تُفاجَأ إذا أخبرتك أن الزَّهْر وقف إلى جانب ’’سَدَم‘‘ حتى حين كان مجرد جنين في بطن أمه. عليك أن تسلّم بأننا نتبنى لغة الأسطورة، وهذا يعني أن الماضي صاغته ربات القدَر دون أي منطق أو تبرير، ومهما حاول البشر الفانون تغيير مساره، فإن الفشل بانتظارهم. خذ مثلاً ’’هكْيوبا‘‘ زوجة ملك طروادة ’’بريام‘‘، كيف أنها شاهدت، قبل ولادة طفلها ’’باريس‘‘، حلماً ينبئها بما سيجلبه المولود الجديد من دمار شامل لمملكتها.

كانت رسالة الحلم واضحة برمزيتها: ها هي تلد شعلة بدلاً من طفل، وها هي الشعلة تتحرك فتزرع النيران في البيوت والحوانيت والحقول حولها. ولم يكن تفسير الرائي ’’أيسكوس‘‘ للحلم إلا في كونه إنذاراً بما سيفعله الوليد ببلده.

ومثلما فعل ’’الخضر‘‘ بقتل ذلك الصبيّ: انقاذ المستقبل من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بـراثن الحاضـر، سلَّم الملـك ''بريـام'' ابنـه للراعـي ''أجليـوس'' لقتلـه. غيـر أن الأخيـر لـم يستطع استخدام السـلاح ضـد الطفـل الوليد، فقرر تركه على جبل إيدا، فريسة سهلة للضواري.

كـذلك هـو الحـال مـع أمّ ''سَـدَم'' حـين اختفـى زوجهـا فجـأة وانقطعت أخباره تماماً.

تقول الأسطورة إنهـا حاولـت الانتحـار خـلال فترة حملها بـه برمي نفسـها أمـام سيارة قادمـة من بغداد، لكن حدسـاً مـا سكن السـائق فجـأة وهـو يشـاهدها علـى الرصيف، بأنهـا تنـوي إنهـاء حياتهـا تحـت عجـلات عربتـه، فضـغط بكـل قـوة علـى دواسـة الكـابح. أطلقت السيارة صـريراً حـاداً قبـل توقفهـا تمامـاً لحظـة مـس دعامتهـا الأماميـة أعلـى فخـذيها مسـاً رقيقـاً. ومـن زجـاج نافذته الامامية شاهد السائق رأس امرأة مغطـى بعصـابة سـوداء وذراعين متينتين ممتدتَين على غطاء المحرك.

لا أستبعد أن ''سَدَم'' سمع هذه الحكاية من أمه (ولعلها كانت من نسج خيالها المحض) بعد أن قفز، كمـا يقفـز لاعـب الزانـة، من القاع إلى أعلـى قمـة فـي الدولـة، فعمَّقت شعوره بأنـه يقف، جنباً إلى جنب، مع شخصيات تاريخيـة كبـرى، اختارتهـا ربـات القدر لتصوغ مسار التاريخ.

إذ كيـف تفسـر إنفاقـه مبـالغ طائلـة علـى إعـادة إعمـار قصـر "نبوخـذ نصـر الثـاني"، والأمـر بحفـر اسـمه علـى كـل طوبـة مفخورة: بُني في عصر ''سَدَم''.

لا بدّ أنه قارن نفسه بـالنبي "محمد" (ص)، فهـو مثلـه يتيم الأب قبل ولادته.

وقـد أبـالغ إذا قلـتُ إنـه تمـاهى كليـاً مـع ''سـرجون الأكـدي''

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الذي لم يعرف هو الآخر أباه. فحسب الأسطورة، أبقت أمه ذات الأصل الوضيع حملها به سراً، وحين ولدته وضعته في سلة مطلية من الداخل بالقار، ثم دفعتها إلى مياه الفرات. وشاءت الأقدار أن يجده بستاني يعمل لدى الملك السومري ’’يورو زبابا‘‘.

ومثل ’’سَدَم‘‘ تولى ’’سرجون‘‘ منصب حامل كأس الملك المماثل اليوم لمنصب "النائب" الذي منحه إياه الرئيس، للقرابة التي تجمعه به.

ومثل ’’سَدَم‘‘ انقلب ’’سرجون‘‘ على ولي نعمته ’’يورو زبابا‘‘ فانتزع التاج منه بالقوة.

هل التاريخ يتحرك في هيئة دائرة مقفلة: عود أبديّ من نوع ما؟ فكيف تفسر عودة ’’سرجون‘‘ المتوفى عام 2279 قبل الميلاد إلى الحياة، في نسخة هزلية أخرى، بعد أكثر من أربعة آلاف سنة وفي بقعة الأرض نفسها؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المظروف التاسع

جاذبية الصِّفْر (2)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(20 أكتوبر 1990)

(1)

مضى الوقت أبطأ مما ينبغي منذ لقائي الأخير بهاجَر و''أَسعَد''، أو بالأحرى أبهت مما ينبغي؛ خريفٌ لندني في أحسن تجلياته: أشجار السنديان العملاقة تنفض أوراقها الصفراء على مهل، بينما تخفف الشمس، يوماً بعد يوم، من كثافة ضوئها، فتتعمق الظلال التي تتلبس المرئيات شيئاً فشيئاً. أتذكر أنك حدثتني ذات مرة عن الرسّام ''تَيرْنَر''، كيف أنه جعل الشمس نقطة الارتكاز لمعظم رسومه، على الرغم من اختبائها معظم أيام السنة وراء حجاب الغيوم الرمادية وطبقات الضباب الكثيف ."بفضل هذا الغياب ابتكر تَيرْنَر فردوسه الشفيف على هذه الجزيرة..." يُخيَّل لي الآن، أني أجبتك هكذا: "نحن جميعاً نفعل مثله، بشكل أو بآخر..."

لعلي كنت خلال الأسابيع، التي أعقبت ذلك اللقاء، أشبه بسجين لا يعرف مدة محكوميته، فتلتصق عيناه بدرفة باب الزنزانة أملاً بقدوم البشارة. ولم تكن هذه الدرفة في بيتي سوى الهاتف الأحمر اللون. اتصلتُ بـ''أَسعَد'' مرتين أو ثلاثاً دون جدوى، فلم يستقبلني سوى جهاز التسجيل، وصوتٍ يدعوني لترك رسالة. تتلكأ الكلمات فوق لساني: "مرحباً... أنا... أرجو أن تكون والعائلة بخير..."

كم بدت ''هاجَر'' قريبة مني بعد خروجنا من المقهى. كان الصمت بيننا شبكةَ تواصلٍ لغتُها الإشاراتُ الغامضة التي تتناقلها عيوننا وأنفاسنا ونبضاتنا وسط ثرثرة ''أَسعَد'' المرحة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

التي أطلقتها خمس كؤوس كبيرة من الجعة الباردة.

على جسر المشاة الرابط بين الضفتين توقفنا أكثر من مرة، لمتابعة ذلك المشهد لحظة التقاء آخر خيط من ضوء النهار بانعكاس أضواء المصابيح الملونة على صفحة نهر التيمس المترجرجة: زرقة داكنة تتدرج في كثافتها من سمت السماء حتى الأفق الذي اكتسى آنذاك رذاذاً أرجوانياً مشعاً. همست ''هاجَر'': "كأني أمشي على جسر الجمهورية فوق دجلة..." غير أنها أضافت بنبرة مرحة، بعد صمتنا الطويل: "طبعاً، مع بعض التحسينات..."

أتذكر، حتى بعد مرور سنين على تلك اللحظات، ذلك التلامس الرقيق لكتفينا، عند اتّكاء أذرعنا على حافة الحاجز المعدني المُشَبَّك، بينما كانت أعيننا تتابع اليُخوت المُشَعشَعة بالأضواء وهي تمخر بتأنٍ مياه النهر.

وفي محطة "إمْبانكْمَنْت" أمسكتْ ''هاجَر'' بيدي، عند الوداع، فترة أطول مما تتطلبه المصافحة، جعلتني أوقن أن لقاء قريباً جداً سيجمعنا من دون وسيط.

وكم كنتُ محقاً في توقعاتي!

(2)

جاءت مكالمتك حبل نجاة، أخرجني من دوامة لا قرار لها. أتذكّر أنها بعد أسبوعين أو ثلاثة على إعلان توحيد ألمانيا. وحين سألتك إنْ كنتَ تابعتَ أخبار هذا الحدث المدوّي اكتفيتَ بكلمة "نعم"، متبوعة بصمت مطبق. كأنك أردتَ بهذه الطريقة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

إغلاق موضوع لا تحب سماع أيّ شيء عنه.

استرجعتَ خيط الحديث معي أخيراً "ما رأيك، نلتقي السبت القادم؟ ’’ماهر‘‘ سيحضر أيضاً..."

لا بد أن أعترف لك الآن بانحباس الهواء في صدري، لحظة ذكرك هذا الاسم، لكني بدلا من إعلان عدم رغبتي في رؤيته، سمعتُ صوتي يردد بحماس: "عظيم... نحن لم نلتقِ منذ سهرتنا في بيت الدكتورة ’’عالية‘‘..."

أستطيع تخيل زوغان عينيك قليلاً وأنت تقرأ سطوري الأخيرة، فأنت اعتدتَ على التعبير الصادق عن مشاعرك: سريرتك تعكسها تقاطيع وجهك. مع ذلك، لو كنتَ في مكاني لتصرفتَ مثلي.

أنا، في الحقيقة، رأيتُ ’’ماهر‘‘ قبل مكالمتك بأيام. ولعل فمك سينفتح، لا إرادياً، تحت وطأة الدهشة، إذا أخبرتك مَن كان برفقته، ولا أستبعد أن ضيقاً ما سيحل بك أيضاً، حتى لو أنكرتَ ذلك.

(3)

أعترف لك بأني بقيتُ، منذ توديعي ’’هاجَر‘‘ في المحطة، مسكوناً بها.

في البدء، وخلال رحلتي إلى البيت بالقطار، بدا لي كأن أصابعها تركت بصماتٍ معروقةً على راحة يدي، وقد أكون مغالياً إذا ادّعيتُ بقاء نبضات عروقها تجسّ بدأب بَشَرة يدي.

مضى الأسبوع الأول على ذلك اللقاء سريعاً، كنتُ خلالها

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ساكناً بين الأرض والسماء؛ فرَحٌ غير قابل للتعريف يعصفني، فيحرضني على الخروج كل يوم صوب النهر، والمشي دون هدف مع مجراه أميالاً.

لا بد أن وهماً تغلغل في خلايا روحي بقدرية نشوء علاقتنا. إذ كيف يمكن تفسير دعوتك الطارئة لي بحضور حفل توديع أشخاص لم أرهم من قبل؟ أو كيف غيّرت ''هاجَر'' رأيها بالسفر إلى بغداد خلال رحلتها إلى مطار هيثرو؟ وها هي الآن تسألني عن إمكانية البقاء في لندن. "لي صديق محامٍ سأستشيره،" قلتُ مُطمْئِنا إياها، "في الظروف الحالية...لا أحد يستطيع إجباركِ على العودة إلى العراق..."

"أقاربكِ من المعارضين البارزين ويقيمون في المنفى ... ''عمّو'' مثلاً..." ردد ''أَسعَد'' بحماس شديد، "وهذا سبب كافٍ لطلب اللجوء، بعد كل ما كشفَتْه محطات التلفزيون والصحف عن النظام..."

التفتت ''هاجَر'' صوبي: "وأين أسكن؟"

قال ''أَسعَد'': "بيت خالتكِ كبير... وهي تحبكِ كثيراً..."

جاء صوت صديقك إنقاذا لي، بعد سيادة الصمت بيننا لحظات قليلة بدت دهراً، كانت عينايَ تراقبان بشغف إبهامها الساكن تحت حنكها الأسفل، بينما راح قلبي ينبض بإيقاع أسرع تحت وطأة المفاجأة. حضرني ما قرأته قبل سنوات عما يعنيه الإبهام حين يكون طويلاً أو قصيراً: في الحالة الأولى يكون صاحبه شخصاً مستبداً، وفي الحالة الثانية مطواعاً جداً للآخرين.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قالت ’’هاجَر‘‘: "صحيح، وأنا أحبها جداً... لكن..."

التفتت صوب النافذة، مثبِّتةً عينيها في المشهد القائم وراء سطح الزجاج العالي. بدت لي كأنها تتابع شيئاً آخر غير مرئي لنا يقبع بعيداً وراء جدران المبنى البارز أمامنا. ولعلي أبالغ إذا قلتُ لك إني لمحتُ دمعتين تستقران فوق حافتي جفنيها السفليين قبل أن تُخرج منديلاً ورقياً من حقيبتها وتمسحهما على عجل.

ها هي تخرج من شرنقة عزلتها، فترسم ابتسامة آسرة تنقّلها بيننا: "يجب أن أذهب الآن... خالة ’’عالية‘‘ ستقلق عليّ إذا تأخرتُ أكثر."

(4)

كل رجل هو ابن أمه عن جدارة، ولهذا السبب ربما، تسمي بعض المجتمعات الوطن بـ "الأرض الأم".

هل يمكن الزعم، في هذه الحال، أنّ كل امرأة هي بنت الطبيعة عن جدارة؟

كان على الأسطورة التوراتية المعنية بآدم وحواء، أن تخلق ’’حواء‘‘ أولاً، ومنها يولد ’’آدم‘‘، فلو أن ’’حواء‘‘ خُلقت من مجرد ضلع أخذه الرب من صدر ’’آدم‘‘ بعد تنويمه، لكانت المرأة أقل تعقيداً مما هي عليه في الواقع، والرجل أكثر تعقيداً.

لم يكتفِ ’’أَسعَد‘‘ في جلستنا بمقهى "الرويال هَول" بإفشاء نظرية "الأخدود" المتهتكة التي زعم أنها من ابتكار ’’ماهر‘‘، بل مضى خطوة أبعد مما تتصور في تهشيم "مثله الأعلى"،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

جعلتني مقتنعاً ببلوغه مرحلة "تكسير الأصنام" حال انتهائه من كأس الجعة الرابعة.

أدار ''أَسعَد'' فجأة عينيه الزائغتين قليلاً صوبي. قال بنبرة هامسة، كأنه لا يريد أن تصل كلماته إلى ''هاجَر'':

"''ماهر'' لا يرى أي معنى لوجوده في المنفى، إلا بإنجاب الأطفال..."

قلتُ مقاطعا إياه: "على حد علمي، هو أعزب وبلا مسؤوليات."

"آه، هو يحب الإنجاب من دون تكلفة... الإنجاب مقابل المتعة،" قال ''أَسعَد'' وهو يكتم ضحكة صاخبة بوضع كفه على فمه، "هل سمعتَ بتعبير ''أشَنات الخلْق''؟ إنه من ابتكاراته الكثيرة..."

أظنّ أنه كشف لك كل أسرار ''ماهر''، فهو يشبه العميل المزدوج الذي يحمل درجة حب واحدة لسيديه المُتنافسَين.

هل أخبرك ''أَسعَد'' أن الآخر كان من الرواد الذين تبرعوا بـ''أشناتهم'' حين تأسست أول مراكز الإخصاب الاصطناعي في بريطانيا، وأنه مُنح شهادات تقدير منها؟

أو هل أخبرك عن غاراته شبه المنتظمة كل يوم سبت على ملعب الأطفال الواقع في البارك المحلي، برفقة واحد أو اثنين من أطفال ''أَسعَد''؟ هناك، تتوافر فرص مفتوحة للآباء لتبادل الحديث عن صغارهم بشكل عفوي، فهم عادة يتحلقون واقفين حول الملعب المزوَّد بالأرجوحات والمُزلِّقات، أو يجلسون على المصاطب العديدة المجاورة له.

كان ''ماهر'' (كما يقول صديقك الحميم) خبيراً في تشخيص

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الأمهات العزباوات، اللواتي حققن نجاحاً كبيراً في عملهن، على حساب تكوين أسرة في سن مبكرة. إنهن الآن تجاوزن منتصف الثلاثينات قليلاً، حرات، مستقلات، ولا شيء يغريهن للتخلي عن عزوبتهن من أجل حياة زوجية يتحكم فيها أشخاص غرباء على خياراتهن اليومية.

مع ذلك، وعلى عكس المتوقع، تنمو نقطة ضعف فيهن شيئاً فشيئاً حتى تصبح هاجساً يعرِّش في أعماقهن، ولا فكاك من سطوته إلاّ بإطاعة تعاليمه حرفياً: إنها الأمومة.

قاطعتْ ’’هاجَر‘‘ صديقك فجأة: "أي نوع من النساء يفضل ’’ماهر‘‘؟"

لا بدّ أني اعتبرتُ ذلك السؤال نوعاً من الازدراء العميق لخصمك اللدود؛ كانت عينايَ تنزاحان، من وقت إلى آخر، عن نقطة إسقاطهما: وجه ’’أَسعَد‘‘، لتلقيا نظرة خاطفة على وجهها، الذي تقلّب لونه ما بين الشحوب والاحمرار.

"’’ماهر‘‘ عنده شرط واحد: أن تكون المرأة ميسورة الحال، وطبعا مقبولة الشكل... أطفالي هم الصنّارة... والآباء يفرحون عادة حين يجد أطفالهم الوحيدون رفاقاً لهم بأعمارهم..."

أتذكر أني سألتُ ’’أَسعَد‘‘: "تريد القول إنه طفيلي؟" ولم تأتني إجابته إلا بعد تكرار سؤالي أكثر من مرة: "لا، أبداً...’’ماهر‘‘ لا يحب تحمُّل أعباء أطفاله الطبيعيين... كثير من الأمهات الوحيدات يكتشفن حاجة أطفالهن الوحيدين إلى من يتواصل دائماً معهم، وليس هناك حل حقيقي للمشكلة إلا بأن يكون لهم أخوة..."

انفجر ’’أَسعَد‘‘ بضحكة صاخبة قبل أن يضيف جملته

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الأخيرة، بينما كان الكأس ساكناً بين راحتي يديه: "وهنا يأتي دور ''ماهر'' البطولي الناكر للذات..."

(5)

ما يجمع الضيق بالحب تجليهما في ظاهرة طبيعية واحدة: انحباس الهواء في الصدر أكثر من المألوف، ثم تحرره بزفير طويل متحشرج عبر الفم. وللتحرر من هذه المتلازمة، نسعى إلى الانفصال السريع عن مصدر ضيقنا، والاتحاد السريع بمصدر حبنا. لعلك تتفق معي أن هذين الشعورين قادران على تبديل لون جلدهما كالحرباء، فيصبح الضيق حباً، والحب ضيقاً، وهناك لحظة بينهما حين يتماهى أحدهما بالآخر، أو بصيغة أدق حين يلغي أحدهما الآخر قبل أن يبرزا ثانية بعد تبادل ثيابهما.

تحت أسْر ذلك الهوس المفاجئ، أدرتُ رقم الدكتورة ''عالية'' على قرص هاتفي. اندفعت نبضات قلبي أقوى فأقوى حين جاءني صوتها بالإنجليزية: "مَن المتكلم؟"

تدافعت الكلمات المتعثرة على لساني بعد أن كررت صديقتك الرؤوم سؤالها ثلاث مرات وربما كانت موشكة على إغلاق ذراع الهاتف حين وصلها صوتي: "أنا... أحببتُ أن أشكركِ على الدعوة... كانت أمسية جميلة..."

وكأنها نسيت لقاءنا الأخير بعد مرور أكثر من أسبوعين عليها: "أي أمسية؟" قبل أن تسعفها ذاكرتها: "آه... أنا يجب أن أشكرك على حضورك... يجب أن تأتي أنت والأسرة في المرة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

القادمة..''سارة'' أحبت أيضاً التعرف على زوجتك..."

حين أغلقتُ الهاتف تنفستُ الصُّعَداء. انغرزت أسئلة كالأسل في رأسي: ماذا لو أني سألتها عن ''هاجَر''؟ أو لو طلبتُ الحديث معها؟ وكيف ستُؤَوِّل ذلك؟

تخيلتها واقفة على بعد مترين من "خالتها" تتنصّت إلى محادثتنا الشكلية، دون أن يراودها شك بحقيقة الدافع وراء مكالمتي الهاتفية، فتكتم ضحكة مخادعة.

ولعلك ستعبِّر عن استغرابك، برفع حاجبيك قليلاً، من كل ما بقيتُ أفعله، لتحرير صدري من الهواء الفاسد.

بعد اختفاء ذلك الانشراح الواهم بقرب لقائنا، أصبحت زيارة مقهى "الرويال هَول" فعلا قسرياً أقوم به كل يوم تقريباً. ولم يخطر ببالي قط أني سأشاهد يوماً ''هاجَر'' هناك تجلس مع آخِر شخص يمكن تخيله بعد كل ما سمِعَتْ عنه من ''أَسعَد''.

في ذلك اليوم المشؤوم، كانت السماء مغطاة بالغيوم الكثيفة الرمادية، ومثل زياراتي السابقة للمقهى، توجهتُ كعادتي إلى الطاولة التي جمعتني بهاجَر و''أَسعَد''. سأشرب قهوتي وأغادر إلى البيت. أتذكر أن الغروب كان على وشك الانطفاء، ومصابيح القاعة الخافتة أضيئت للتو، حين التفتُّ إلى اليمين عفو الخاطر. لا بد أن شكّاً راودني بحقيقة المشهد، وأنني أعيش لحظة حلم عابرة: على بعد أربعة أمتار مني، كانت ''هاجَر'' جالسة بشكل جانبي على طرف الطاولة المستديرة، وأمامها جلس رجل، جعل الدماء تغلي في رأسي، ولا أستبعد أن دواراً أصابني حين بدت أرضية المقهى كأنها في حالة انزلاق بطيء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

لا بد أنهما لمحاني، لكنهما تعمدا تجنب استدارة رقبتيهما صوبي.

هل خمّنتَ مَن يكون ذلك الرجل؟

(6)

لعلنا في اختيار اسم محدَّد وإطلاقه على طفلنا الحديث الولادة، نسعى لا شعورياً إلى تشريع وجوده في عالمنا، بالسماح له باحتلال جزء منه.

عندما هاتفْتَني، كانت عيناىَ تتنقلان بين صور ''سوزان'' و''منى'' المعلقة على الجدار. كم تبدو ملامحهما مختلفة إلى الحد الذي يصعب اعتبارهما أختين من نفس الأب والأم.

قبل ولادة البنت الكبرى ''سوزان''، اتفقنا أنا و''لورا'' على اِسمين في حالة أن يكون الطفل بنتاً :''سوزان'' إذا كانت تشبه أمها، تيمناً باسم جدة الوليدة، و''منى'' إذا كانت تشبهني، تحقيقاً لأمنية أمي بإطلاقه على البنت التي لم تلدها.

وها هما البنتان تجلسان جنباً إلى جنب في صورة التقطتها أمهما قبل سنوات :''سوزان'': شعر أشقر وعينان خضراوان تعلوهما ابتسامة رائقة، بينما بدت عينا أختها، محملتين بغضب غامض، يذكّرني بذلك الغضب الذي يعصف بأبي فيجبر الجميع على الصمت والاختفاء حتى مرور العاصفة. أتطلع، من وقت إلى آخر، في وجه ''منى''، فيبهرني ذلك الشبه الصاعق به: شعر أسود جعد، وبشرة غامقة السمرة وعينان

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

سـوداوان واسـعتان. كـأن أبـي هـاجَر عبـر جسـدي إلــى هـذه الجزيرة النائية.

غير أن قوانين الوراثة لم تتدخل في التجاذب العاطفي الخفي داخـل أسـرتي الصـغيرة، فسـوزان الرقيقـة، الحالمــة، ظلـت مشدودة إلى أبيها، رغم سعيها لإخفاء هذا الشعور، بينما ظلت ’’منى‘‘ الجريئة، المتهورة، مشدودة إلى أمها.

في غرفة الجلوس، كنتَ تستطيع تلمّس هذين المحورين إذا قلّبتَ الصحف المتراكمة على طاولـة القهوة، وتحتها، وبجانب التلفزيـون، ووراء الكنبـة والكراسـي، إذ قـد تـرى خطوطـاً بقلـم الرصاص تحت عناوين متعلقة بالرهائن في العراق:

"السيد ’’هيث‘‘ في العراق، للإفراج عـن 70 رهينـة بريطانيـة في حالة صحية سيئة، و30 شخصـا مسنـاً." أو "طـائرة عراقيـة أخـرى تحـط فـي غاتْوِيك تحمل 400 طفل وامرأة غربيين من العـراق" بيـنهم، كمـا قـرأتُ، 30 بريطانيـاً. أتـذكر ذلـك العنـوان الذي وضعت ’’منى‘‘ أو ’’لورا‘‘ خطاً تحته أيضاً: "العراق يهدد بإعدام الهاربين المختبئين في السفارة الأميركية".

لا بد أن هذا الخبر أقلقهمـا علـى مصـير ’’كـريس‘‘:"إعدامات فـي الكويـت، عـن منظمـة العفـو الدوليـة: قـد يكـون مئـات مـن الكـويتيين ومـن جنسـيات أخـرى بضـمنهم نسـاء وأطفـال فــي مراكز احتجاز أو في السجن."

عند انفصال ’’لورا‘‘ عنـي وانتقالهـا إلـى بيـت حبيبهـا السـابق كانـت ابنتـي الصـغرى فـي سن الرابعـة، ولا بـد أن العيش معـه سنتين متواصلتين عمّق فيهـا شـعورا بأنـه هـو الأب وأنـي لسـت سـوى جليس أطفال تبقى معه عدة ساعات كل أسبوع مـع أختهـا ’’سـوزان‘‘. خـطٌّ غـامق آخـر تحـت هـذا العنـوان:"*تقـارير عـن*

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

وقوع عدد من الإعدامات داخل جامعة الكويت لأشخاص مشتبه بمعارضتهم لاستيلاء العراق للكويت." يحضرني هذا العنوان الذي رُسمت بجانبه علامة استفهام كبيرة بالقلم الأحمر: ""*العراق سيحرم الأجانب من تموينات الطعام*".

في ذلك الخضم من التقارير ومقالات الرأي والإعلانات تجمدت عيناي فوق هذه النبوءة التي ذكّرتني بنظرية ''عمّو'' الفلكية، فقطعتُها من الصفحة الكبيرة. كنت أنوي قراءتها عليكما في لقائنا القادم لكني نسيت القصاصة بجانب الهاتف، ها أنذا أنقلها لك كلمةً كلمةً كما صيغت في الصحيفة البريطانية: "*ستبدأ حرب الخليج في منتصف الشهر القادم وستكون قصيرة لكنها حاسمة ويكون مركزها العراق. العرب سيُهزَمون ثم ينقسمون على أنفسهم. وستُستعمَل أسلحة غير تقليدية... هذه النبوءات صاغها الحاخام الراحل كايم شفيلي من القدس قبل 26 سنة في كتاب بالعبرية عنوانه "احتسابات الخلاص"، ولم يُعلَن عنه إلا مؤخرا من طرف صحيفة دينية أمس... وجاء فيها أن الحاخام شفيلي عاش ما بين عامي 1918 و1973، وكان طالباً للقبالا، الكتاب العرفاني لليهودية، وله سجل متميز في الكرة الزجاجية. وكان قد تنبأ بالغزو الإيطالي لأثيوبيا عام 1935، وبتأسيس إسرائيل عام 1948 وحربي الشرق الأوسط عامي 1967 و...1973 وقال في كتابه الصادر عام 1964 إن الحرب ستشارك بها قوى "إمبريالية"* مدعومة *من دول صغيرة بما فيها بعض العرب والمسلمين. إسرائيل ستتعرض للهجوم لكنها ستتجاوز ذلك وتنتصر. وقال شفيلي إن الحرب ستقع ما بعد الحادي عشر من أكتوبر عام ...1990 الأسلحة: مسحوق مسموم سيُستَخدَم، والمعركة الحاسمة ستكون في البصرة*."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

(7)

في الطريق إلى مكان لقائنا، ظلت عيناي تتابعان قطرات المطر المنزلقة على نافذة القطار المجاورة لي. كان وجهي المنعكس على الزجاج مشوشاً بخطوط الماء المتلوية كأفاعٍ تنزلق عشوائياً.

خلال الأسابيع المنصرمة بقيتُ حريصاً على تأدية أدواري الموزعة بين العمل والعائلة كما ينبغي؛ حضرتُ اجتماعين في الجامعة، وآخر في مدرسة ''سوزان'' و''منى'' مخصصاً لمجلس الآباء؛ بدأتُ بالتدريس والإشراف على طالبَي ماجستير، وماذا أيضاً؟

على عكس اهتمام ''لورا'' و''منى'' بأخبار الرهائن البريطانيين، بقيتُ أتابع، في الصحف وعلى محطات التلفزيون، دراما الإعداد الدؤوب ليوم قيامة حقيقي. العراق و''سَدَم'' يُصبحان ذاتاً شريرة واحدة على يد جيش كبير من الصحفيين والمعلقين والمنظّرين. تحت يدي قصاصات من هذه الأخبار ما زلتُ محتفظاً بها: *"قوات الاحتلال العراقية تقوم بشكل نظامي بنهب مدينة الكويت ومطاردة الجماعات المقاومة... البيوت والمحلات والمستودعات والقصور تم كسرها ونهبها ثم تفجيرها بحثاً عن الأجانب... العراق يهدد بإعدام الهاربين المختبئين في السفارة الأمريكية... العراقيون أضافوا سبعة بريطانيين لدروعهم البشرية حول المنشآت العسكرية من الكويت بعد القبض عليهم هناك."*

صاحت ''منى'' غاضبة في وجهي، وهي تشاهد معنا تقريراً تلفزيونياً عن وصول آخر وجبة رهائن تضم نساء وأطفالاً، ووراءهم تركوا ما يقرب من ألف رجل في يد العراقيين: "متى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

سيفرج هؤلاء الوحوش عن مواطنينا؟"

من جانب آخر، ظلت آلة الإعلام المَهُولة، تضخ أخباراً ملطفة للتخفيف من التوتر عند بلوغه أعلى مداه، كأنها تساهم في كتابة سيناريو فيلم متقن الصنعة:

"الولايات المتحدة تلمِّح بإمكانية تحقق تسوية سلمية في الخليج..."

"باريس تخطط للسلام في الخليج..."

"سيناتور يحث على إعطاء العقوبات الدولية الوقت..."

(8)

أفترضُ أنك لمحتَ احتفاء ''ماهر'' المسرف بي عند وصولي، كأنه أراد تأكيد عدم رؤيته لي حين كان جالساً مع ''هاجَر''، أو هو مجرد شعور بالتفوق ينتاب المنتصر دائماً كلما التقى خصمه المنهزم، ممزوجاً بالشفقة عليه. ولم تكن الطاولة التي اخترتماها بعيدة عن تلك التي جمعتني بهاجَر و''أَسعَد'' آخِر مرة.

أظنك حدستَ، وراء عبارات المجاملة القليلة التي تبادلتُها مع ''ماهر''، ذلك النفور العميق منه، ولا أخفيك بأني ندمتُ، آنذاك، على قبول دعوتك. أتذكر كيف أنه سألني فور جلوسي معكما عما أحب تناوله وحالما نطقتُ: "كأس نبيذ روزي،" انطلق إلى الكاونتر لتلبية رغبتي. كم بدا لي شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي رأيته في بيت الدكتورة ''عالية''؛ كأن روحاً أخرى تلبسته فضخّت فيه المرح والبساطة والتلقائية، جعلته لا يكف

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عن مجاملاته المُبالَغ بها: "كيف حال ''لورا''؟" هكذا، دون رسميات، على الرغم من أنه لم يرها معي سوى مرتين أو ثلاثٍ في مناسبات عامة. وحين سألني عن ''سوزان'' و''منى''، شعرتُ بمرارة تملأ فمي، وسؤال كاد ينفجر في وجهه: "لماذا تسأل عنهما وأنت لم ترهما أبداً؟"

بدلاً عن ذلك أجبتُ باقتضاب وبرود شديدين: "بخير."

جاء صوتك ليُخرجني من ذلك الفخ الذي يجعلك عاجزاً عن الخروج من حفرة طينية لزجة: "''أسعَد'' هاتفني أمس. أكد أنه سيحضر."

أضفتَ بعد صمت قصير، لحظة ارتسام ابتسامة واهية على شفتيك: "إلّا إذا اختطفه منّا متقاعدو حانة 'البجعة السوداء...'"

وكأن ''أَسعَد'' سمِع جملتك الأخيرة، فأراد نفيها، عند بروزه بعد آخر كلمة نطقتَها. قال ''ماهر'' ضاحكاً: "ها هو بطلنا يظهر أخيراً..."

التفتُّ معكما صوبه. كانت برفقته امرأة لم أستطع تمييز ملامحها مباشرة، وأذكر أن دهشة ملأت أعينكما لرؤيتها غير المتوقعة في ذلك المساء الخريفي الذي ينذر بسقوط أمطار غزيرة أخرى خلال ساعات الليل القادمة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(9)

لا بدّ أن الدكتورة ''عالية'' شعرت بحرج ما رغم استقبالنا الحافل لها. قالت قبل جلوسها على الكرسي الذي سحبْتَه لها من طاولة مجاورة، بينما رحنا نردد مراراً عبارات الترحيب بها:

"آسفة على حضوري من دون دعوة."

أضافت وهي تشير بإصبعها إلى ’’أَسعَد‘‘: "هو جاء مع ’’مريم‘‘ والصغار اليوم للغداء... لكن ’’هاجَر‘‘ أصرت على بقائهم هذه الليلة معنا..."

عقّب ’’أَسعَد‘‘: "ألححتُ على الدكتورة كثيراً قبل أن تقبل بمرافقتي..."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ ضاحكة: "لو ما جئتُ معه بسيارتي لوصلكم غداً صباحاً..."

علق ’’ماهر‘‘ ساخراً: "بالطبع، شَرِبَ آخِر قطرة في زجاجته قبل أن يخرج معكِ..."

قال ’’أَسعَد‘‘ محتجاً: "بيت الدكتورة دائماً عامر بأحسن المشروبات..."

وكأن تلك الجملة الأخيرة التي تلفَّظها صديقكما الأثير، أثارت فيكما، أنت و’’ماهر‘‘، خوفاً من بلوغه مرحلة "التمرد" عليكما، إذ راحت أعينكما تتبادل نظرات حذرة.

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘، قاطعةً الصمت الذي حل بيننا:"أنا أدين لأَسعَد بتعرفي على لندن... بفضله بدأت أعرف أماكن أخرى فيها غير المستشفى والبيت..."

قال ’’أَسعَد‘‘ بفخر: "رغم قدومها إلى هذه المدينة قبل ثلاثين سنة... أي قبلي بربع قرن..."

أتذكر أنك قلتَ بنبرة رقيقة مرحة: "هذا شيء طبيعي... الدكتورة كل عمرها تدرس وتعمل... وأنت بلا همّ ولا غمّ."

"كيف؟" صاح صديقك محتجاً،"العناية بخمسة أطفال

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أصعب من رسم الموناليزا..."

"أي عناية هذه؟" قاطعته الدكتورة ’’عالية‘‘، "كل شيء تعده المسكينة ’’مريم‘‘ قبل خروجها للعمل... حتى الرضّاعات... ثم أن الثلاثة المحروسين الكبار يذهبون الآن إلى المدرسة."

صاح ’’ماهر‘‘ وهو يحبس ضحكة بصعوبة: "أنت عملك الحقيقي يبدأ بعد وصول ’’مريم‘‘ إلى البيت... عندما تخرج إلى ’’الپَب‘‘ مساءً."

"تريدني أن أبقى مع الصغار ليلَ نهار؟" قال ’’أَسعَد‘‘ وعيناه ترتفعان إلى أعلى النافذة، كأنهما تتابعان قطرات المطر الهابطة على الزجاج الذي يغطي كل الجدار،"أستغرب تقليل شأن العناية بالأطفال من شخص ما عرف يوماً في حياته مسؤولية الأطفال."

(10)

في طريق العودة إلى البيت بالقطار، راح الضيق يتزايد في أنفاسي كلما اقتربتُ من منطقة سكني محطةً أخرى. ولا أنكركَ أني كنتُ مسعوراً بالحنق على ’’أَسعَد‘‘ ومصمماً على قطع علاقتي به، بعد بروز سريرته الحقيقية في جلستنا تلك. كم نحن مغفلون حين نؤطر الآخرين ضمن مواصفات عامة: هذا "ساذج" وذاك "طيب القلب"؛ أو هذا "أناني" وذاك "إيثاري"...

كلما اكتشفنا طبقة جيولوجية فيهم نكتشف أن هناك طبقة نقيضاً أخرى مخفية تحتها.

لعلك تتذكر كيف بدأ صديقك الأثير هجومه الأول عليّ، من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

دون مراعاة لطراوة العلاقة التي تجمعنا.

"في عالم الحيوان، الذكور هم الذين يغامرون بحياتهم من أجل كسب الأناث..."

أراه الآن بعيني الثالثة وهو يطلق أول سهامه، كاسراً ذلك الصمت الحميم الذي جمعنا في مقهى "رويال هَول"، حيث ظلت أعيننا تتبادل النظرات في ما بينها، أو تلتفت صوب خيوط قطرات المطر فوق الواجهة الزجاجية.

يأتينا صوته ثانية بعد أن نسينا جملته السابقة: "بينما هنّ لا يخاطرن بأي شيء... فلهنّ الصافي..."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ بنبرة حازمة: "احكِ لنا ما يدور في رأسك من دون لفّ أو دوران..."

"لا شيء دكتورة..." قال ’’أَسعَد‘‘ بخجل مصطنع، "أنا تذكرتُ فقط ما حكاه لي ’’ماهر‘‘ عن تلك الوعول المكسورة القرون، بعد خوضها معارك خاسرة مع ذكور منافِسة لها. كيف أن الأناث ينبذن أزواجهن الذكور إذا هُزموا فيرتبطن بالمنتصرين... بصحة الذكور المنبوذة..."

أتذكر أنكم جميعاً ضحكتم، قبل ارتفاع صوت ’’ماهر‘‘ مستنكراً: "أنا لم أقل هذا الهراء لك أبداً... أنت تلفق حكايات وتتهمني بها..."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ ضاحكة: "’’أَسعَد‘‘ ما عنده صاحب أو صديق... احذروه،" ثم التفتت صوبي، لحظة مسّي لصدغي الأيمن، "لا تهتم بكلامه دكتور ’’يوسف‘‘... هو طيب جداً، ويحب فقط بث البهجة بيننا..."

ارتفع صوت ’’أَسعَد‘‘ أقوى هذه المرة مقاطعاً جملة مرافقته:

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"هل سمعتم بما ستجلبه ألمانيا الشرقية بعد أن ابتلعتها ألمانيا الغربية؟"

وقبل أن يجيبه أي منا بادرَنا بِرَدّ مقتضب: "8500 ضابط شرطة سري، ونصف مليون مُخبِر تحت أيديهم، في بلد عدد سكانه ستة عشر مليون نسمة..."

تابعتُ تبادل النظرات بينكَ وبين الدكتورة ''عالية''. بدت لي غضون جبهتك أعمق مما كانت قبل دقائق قليلة، بينما ارتفع حاجباك قليلاً. كم ذكّرتني تقاطيع وجهك بتلك التي كانت تتلبسك أيام المدرسة حين تغضب.

كأن صمتكما شجع ''أَسعَد'' على المضي أكثر مع أفكاره: "أتمنى ألا يعرف ''عمّو'' بأخبار انهيار الاشتراكية ''العلمية''..."

قالت الدكتورة ''عالية'' بحزم: "لا تقلق عليه، نحن أبعدنا عنه كل مصادر الأخبار السيئة منذ وقوع تلك الحادثة..."

(11)

كان البيت غارقاً في الصمت والعتمة عند وصولي إليه. تلمستُ طريقي وأنا أعبر المدخل المُضاء بمصباح صغير، صوب غرفة الجلوس وإشعال مصابيح الثريا فيها. لا بدّ أن ''لورا'' الآن في غرفة نومنا بالطابق الأعلى، ولعلها ما زالت مستيقظة تنتظر عودتي. أدركتُ من الساعة الجدارية أن عقربيها تجاوزا منتصف الليل منذ أكثر من ساعة. ماذا لو أنها سألتني عما دار من أحاديث بيننا في مقهى "قاعة رويال"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وأردتُ ترجمتها لها حرفاً حرفاً، هل ستحمل أي معنى لها بعد انتقالها من مجال مغناطيسي ما إلى آخر تحكمه قوانين مختلفة تماماً؟ أسمع الصوت في رأسي يتحول إلى الإنجليزية. سأنقل لها هذا السؤال الذي رددته الدكتورة ''عالية'' وفي عينيها الواسعتين ذلك الخوف الغامض: "هل تظنون أن أمريكا ستضرب العراق؟"

لا أشك أن ''لورا'' ستتعاطف معها، من منطلق رفضها الغريزي للحروب، ولأن أهل زوجها ما زالوا يقيمون في تلك البقعة الموبوءة، غير أن شعورها هذا سيتغير لو أني وضعتها أمام خيارين: إذا شارك ابن خالتها، ''ستيفن''، الطيار الحربي، في قصف موقع عراقي وكان عليه إما أن يَقتُل عشرات المدنيين أو يُقتَل هو بفعل مدفع مضاد للطائرات منصوب وسط منطقة سكنية. أو لو وضعتُها بين حياة ''كريس'' وحياة عشرات المجهولين الذين قد يبادون في الطريق لإنقاذه.

كأن الأخير نقل حنقي العميق على ''أَسعَد'' إلى زوجتي، وكأني في نهاية المطاف، ذلك الوعل ذو القرن المكسور، الذي أشار إليه صديقك الطيب دون قصد. ها أنذا أقرر النوم هذه الليلة في غرفة الجلوس.

حين أطفأتُ المصابيح، استرجعت ذاكرتي، دون سابق إنذار، مشهد وقوفي أمام العمارة التي كان ''كريس'' يسكن فيها. كانت الساعة في سيارتي تشير إلى الثالثة وخمس دقائق. بعد انفلات النوم عن عيني تماماً، وجدتُني فجأة بمنامتي وروبي أمام مقود السيارة، أدير مفتاح التشغيل بهدوء لصّ محترف سطا للتو على بيت فارغ. تأخذني الطرق الصامتة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

واحـدةً بعـد الأخـرى دون إرادتــي، كـأني تحـت وطـأة مُنَـوِّم مغناطيسي.

أخيراً أتوقف في شارع فرعي. عينـاي ترتفعان عبر زجاج النافـذة الجانبيـة صـوب الطـابق الثالـث حيـث تسـكن ’’لـورا‘‘ وطفلتيّ في شَقّة حبيبها. تنبعج أنفاسي في صدري وأنا أشاهد وسط ظلام واجهة العمارة نافذة مضاءة واحدة في ذلك الطابق: لا بد أن ’’لورا‘‘ و’’كريس‘‘ ما زالا صاحيين.

ذات مـرة، كنـتُ فــي نفـس المكـان، وأمــام نفـس النافـذة المضــاءة، بينمـا كـان الـوفر يتسـاقط ناعمـاً صــامتاً، فيغطــي الأرصفة والشارع والسيارات ببياض غامض مهيب. هبطتُ دون إرادتي من السيارة تحت وطأة شعور غريب بأني أقيم في كوكب ناءٍ، منبوذ، تمنعني جاذبيته المطلقة من رفع قدمي شبراً واحداً عن سطحه.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف العاشر

متاهة المينوتور (1)

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قضى ''سَدَم'' ذلك النهار في قبو يقع وسط العاصمة، على عمق أربعين متراً تحت سطح البحر. فمنذ أسفر ''بوش'' عن وجهه الحقيقي، وهو يتنقل من مكان إلى آخر في متاهته البغدادية: شبكة من الأقبية العميقة والقصور الفارهة أمر ببنائها خلال الحرب الأخيرة للتمويه على خصومه الكثار، ها هو يتناول غداءه البسيط في حجرة متواضعة، بينما تقام المآدب الفخمة في كل أماكن إقامته الأخرى، وكأنه حاضر فيها جميعاً.

كأنه بهذه الطريقة ينصب أفخاخاً للمتآمرين كي يكشفوا عن نواياهم فيقعوا فيها.

قرأ قبل أشهر قليلة عن معرض خاص بالأفخاخ أقيم في نيويورك. الصيادون الذين يستخدمونها ينتمون إلى قبائل بدائية. مع ذلك، ساعد العيش الطويل قريباً من طرائدهم معرفة خصائص كل منها، وعلى ضوء ذلك تم صنع كل فخّ بطريقة تستغل نقطة القوة الأهم لدى هذا الحيوان للإيقاع بحبائله، فالفأر الذي يمتاز بفضول شديد لاكتشاف ما وراء الثقوب يوضع أمامه ما يشتهي: أنبوب ضيق ينغلق لحظة دخوله فيه، وفرس النهر الفخور بضخامة رأسه وصلابته، تُعلَّق حربة مغروزة بصخرة على غصن شجرة، وحالما يمس طرفاه الأماميان حبلاً موصولاً بالحربة تهبط الأخيرة بقوة عارمة لتخترق رأسه دون رحمة.

يستطيع أن يتخيل الفخّ واقفاً في صمت وسط الغابة، منتظراً طريدة محددة، فهو مصنوع لغاية محددة كأنه أداة لتنفيذ قدر إلهي ما ينتظر شخصاً محدداً، وحال وقوعه فيه، لن تكون أمامه أي فرصة للنجاة.

كم تبدو أفخاخه التي نصبها لمنافسيه شبيهة بأفخاخ ذلك

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المعرض، وها هم جميعاً انتقلوا بفضلها إلى جوار ربهم.

كأن الشيء بالشيء يُذكر، تحضره صورة تلك المرأة المسترجلة مرة أخرى :''أبريل غلاسبي''. هل كانت هي الفخ الذي نصبه ''بوش'' له حين أكدت له وعلى شفتيها ابتسامة عريضة مطمْئِنة: "نحن ليس لنا رأي حول الخلافات العربية ـ العربية مثل خلافكم على الحدود مع الكويت...؟" وحال انتهاء مترجمه من نقل آخر كلمة لها، انطلقت ثانية بحماسة غريبة لتعمق من إقناعه ببراءة الفخ: "أنا أقدّر جهودكم الرائعة لإعادة بناء بلدكم... أنا أعرف أنكم بحاجة إلى المال. ونحن نفهم ذلك، ووجهة نظرنا هي أنكم يجب أن تتاح لكم الفرصة لإعادة بناء بلدكم..."

غير أن الشك راوده بصدق كلماتها، حتى جاءه النبأ اليقين بعد أربعة أيام فقط، حين أكملت قواته عملية التحشيد على الحدود.

أمام الكونغرس سأل أحد أعضائه ''جون كيلي''، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط: "هل هناك التزام من الولايات المتحدة بالدفاع عن الكويت؟"

كان جواب الأخير صاعقاً، دفعه لجلب ثلاثة مترجمين آخرين، كلاً على انفراد للتوثق من دقته، فأخبروه جميعاً أن كبيرهم نقل له حرفياً ما قيل هناك قبل ساعات قليلة: "نحن ليس لدينا اتفاقية دفاع مع أي من بلدان الخليج..."

* * *

"نحن ليس لدينا اتفاقية دفاع..."

أتخيل ''سَدَم'' الآن، وهو يردد كلمات ''كيلي''، بينما

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

انحشرت غُصّة في حنجرته.

كم كان مغفلاً حين افترض صفاء سريرة ’’بوش‘‘. إذ هل يحتاج السيد المطلق لهذا الكوكب إلى استدراجه أولا لفعلٍ ما، ثم كشف اللثام لاحقاً عن وجهه الحقيقي؟ ألم يكن حرياً به أن يردعه عبر ’’أبريل‘‘ أو ’’كيلي‘‘، أو ببرقية شخصية له تحتوي على كلمة واحدة: اِحذر.

أعاد الضغط على جهاز التسجيل فجاءته الأصوات واضحة تماماً. يتوقف عند جملته المهددة هذه، يعيدها ثلاث مرات: "نحن نعرف أن الولايات المتحدة تمتلك أسلحة نووية لكننا مصممون على العيش بكرامة، أو جميعنا نموت... نحن لا نستطيع أن نصلكم بجيشنا، لكن العرب الأفراد قد يصلونكم..." تسترجع ذاكرته صورة ’’غلاسبي‘‘ الجالسة أمامه كتلميذ مطيع، يكتب بسرعة ما يسمعه في دفتره الموضوع على حجره، بينما ظل فمها مفتوحاً قليلاً عن ابتسامة معلقة في الهواء.

كم يتمنى الآن لو أنه لم ينطق بالجملة الأخيرة تلك.

تصوغ مخيلته صورة القرد الذي أعِدّ له فخ خاص: ذراعاه اللتان هما مصدر قوته، ستكونان سبب مصرعه، إذ لا شيء يمر أمامه دون استكشافه بأصابع يديه: ها هو خيط مشدود لمصيدة مخبأة بإتقان، مصيدة مصنوعة لكائن واحد ذي ذراعين كذراعي انسان ويدين كيَدَي إنسان، وحال سحبه الخيط قليلاً تتضح الحقيقة له بعد فوات الأوان.

لا بد أن ’’بوش‘‘ اكتشف السر وراء نجاحه الصاروخي في الوصول إلى الحكم: عشر سنوات فقط للانتقال من غرفة حقيرة إلى القصر الجمهوري؛ من طالب ثانوية فاشل إلى نائب

«AlfYaa «منشورات «الف ياء

للرئيس، ثم قفزة أخرى للرئاسة، بعد طرد الرئيس الذي احتمى به عشر سنوات من الضباع، حتى نضجت أعثاق التمر تماماً وراحت تتوسل به لجنيها.

الضعف في القوة، أم القوة في الضعف؟

الإجهاز الخاطف على الفريسة علامته التجارية المميزة، مثلما هو الحال مع الأفخاخ الأفريقية؛ حالما تنطلق في العمل تفقد ضحيتها، مرة وإلى الابد، أي فرصة للإفلات من قبضتها، بينما يجلس الصياد بعيداً عنها، غافلاً أو مستغفلاً ما كانت تفعله آلته الجهنمية.

كأن هناك زمنين متجاورين: زمن الصياد الفردوسي، وزمن الفريسة الجهنمي: الاستمتاع بلحظات العيش أقصى ما يمكن، مقابل تذوق العذاب، في الطرف الآخر، أقصى ما يمكن.

"بوش" يلعب الغولف الآن متلذذاً بقوته، بينما هو يتنقل كالخلد من حفرة إلى أخرى.

كأن الآخر اكتشف طريقة صنعه للأفخاخ فقلده.

* * *

حتى من دون القدرة على رؤية السماء، يستطيع تخيل الشوارع الآن عامرة بالسيارات والمشاة. عالم محكوم بالنظام مثل حركة الساعة، لكنه بدلا من نوابضها المسيِّرة وراء مينا أرقامها وعقربيها، ينتظم ايقاعه بفضل الخوف الشديد منه، وبفضل صوره وتماثيله المنتشرة في كل مكان. إنه موجود في الفضاء كالهواء، ومجساته منتشرة في كل بيت ومكتب ومقهى وبار.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كم تحسنت حياة مواطنيه منذ أن أصبحت القوانين جرة قلم من يده اليمنى، وكم عبّروا عن عرفانهم بالجميل له، عبر آلاف القصائد واللوحات والشعارات التي تتغنى به، وكم أغدق على مبدعيها بالهدايا حتى حين تكون مواهبهم هزيلة.

مع ذلك، لم تفارقه الريبة منهم، أليسوا هم أنفسهم أو آباؤهم من صفَّق بحرارة للملك، حين افتتح ثلاثة جسور في يوم واحد، وهم أنفسهم من احتفل بمقتله بعد عام واحد فقط؟

تسترجع ذاكرته صورة ذلك الأسد الصامت المنطلق بسرعة جنونية، وعلى ظهره كان يجلس شبه عارٍ، بينما تتشبث قبضتاه بلبدته، خوفاً من السقوط على الأرض: ماذا سيفعل هذا الحيوان الضاري به إذا رآه تحته؟ وكأن هذا الهاجس حوّل حلمه، الذي رآه أمس، إلى كابوس، فاستفاق منه فزعاً، ليكتشف أنه على حافة سريره، على وشك أن يهوى منه.

خطا ببطء وسط غرفته الفسيحة، ذهاباً وإياباً. بينما ظلت كفّاه مشدودتين قفاً على وجه وراء ظهره. كانت المصابيح المخفية ببراعة وراء الجدران تمنحه شعوراً بأنه يسير في أحد شوارع العاصمة الراقية وقت الظهيرة، مع ذلك ذكّره ذلك الضجيج الخفيف القادم من مضخات الهواء بأنه يقيم هنا عميقاً تحت ملعب رياضي كبير.

كم زاره سياسيون بارزون من شتى أنحاء العالم، خلال الشهرين الأخيرين، لنصحه بالانسحاب من الكويت، وكم كان عليه تغيير دفة الحديث معهم.

كيف يمكنه الحديث عما سيفعله ذلك الأسد الصامت به، إذا رآه، لأول مرة، جاثماً بين أطرافه الأربعة؟ أليس الحلم تحذيراً رمزياً له من عواقب الانسحاب وذيله ما بين ساقيه؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وحتى إذا نجح في ترويض ذلك الأسد الهصور، هل سيقف ’’بوش‘‘ دون المطالبة بمحاكمته عن أضرار مغامرته الطائشة؟

يتذكر ما طالب به سياسي بريطاني بارز قبل أسابيع قليلة: أن يمنح ’’بوش‘‘ ’’سَدَم‘‘ مخرجاً، بدلاً من تمريغ أنفه في التراب، وكان يكفي أن يكون هذا المَخرج مجرد وعدٍ بإزالة أسباب النزاع.

بدلاً من ذلك، راحت القطعات العسكرية والدبابات تأتي من شتى أنحاء العالم إلى نقطة التحشيد، تلبيةً لنداء ’’بوش‘‘.

المصيدة انطلقت في عملها ولا شيء قادر على إعادتها إلى نقطة الصفر.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الحادي عشر

"نهاية العالم"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

(3 ديسمبر 1990)

(1)

لشهر نوفمبر طعم خاص في لندن، السماء الرمادية فيه تكاد تطبق على الأرض، والأوراق تمضي في الإفلات من أشجارها العملاقة، كأنها فراشات ملونة، تتساقط على مهل فوق الأرصفة والطرقات.

بين اللوحات التي تركْتَها معي، يشدني دائماً ذلك الإطار الذي رسمتَ فيه سنديانة عارية تماماً من أوراقها، وعلى جذعها المتين حُفِرت حروف وكلمات ووجوه تشبه كثيراً رسوم الأطفال. ما يميز شجرتك تلك هو أنها غارقة في عالم فارغ موحش يصوغه اللونان الرمادي والبني بينما يزدهر الورق المنثور تحتها بألوان صفراء وحمراء وأرجوانية.

أتذكر ما قلته للدكتورة ''عالية'' حين سألَتْك في لقائنا الأخير بمقهى "الرويال هول" عما ترسمه.

"لا شيء،" ثم غرقتَ في صمت طويل.

"إذن ارسمني، إذا وجدْتَني مناسِبة..."

"بالتأكيد... هذا شرف لي..."

قلتُ بحماس: "موهبة ''جليل'' في الرسم خارقة منذ طفولته..."

أتذكر أنك ألقيتَ عليَّ نظرة امتنان طويلة قبل أن تلتفت صوب النافذة الفسيحة. كان المطر قد توقف آنذاك، لكن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قطرات الماء ظلت تنزلق دون انتظام على الزجاج الشفاف: "الموهبة أصبحت اليوم عبئاً على الفنان، فبراعته في نقل الواقع بدقة أصبحت عاهة،" قلتَ بنبرة واهية كأنك تُحدّث نفسك، "عليه أن يشوه الأشياء التي يراها ويجعلها غير قابلة للصنع أو الاستعمال على سطح لوحته، وإذا لم يستطع، فيكفيه تلطيخ قماشته بأربعة أو خمسة ألوان..."

قال ''ماهر'': "لكن هناك ملايين الأشخاص يقومون بتلطيخ لوحاتهم، ومع ذلك لا أحد ينتبه إليهم..."

جاء صوتك بعد فترة صمت ظلت عينا الدكتورة ''عالية'' خلالها تراقبك بحنو: "عليك أن تكون مشهوراً أولاً قبل عرض أعمالك... ولتحقيق ذلك اِعمل أولاً فضيحة كبيرة تثير ضجة في الإعلام..."

لا بدّ أن ''أَسعَد'' بلغ مرحلة "التمرد"، آنذاك، حين ارتفع صوته: "ربما صور الأشياء المشوهة هي حقيقتها التي لا يستطيع البصر وحده اكتشافها... لو رسمتَني كما أنا هل سأختلف عمّن هم حولنا؟ عينين واذنين وحاجبين..."

قالت الدكتورة ''عالية'' بنبرة مرحة: "بالتأكيد ''جليل'' سيرسمك الآن بعد انحرافك الفكري مشتتاً، عين في أعلى اللوحة وأخرى في أسفلها، وبينهما صورة العم ''سام''..."

أضافت "رفيقة دربك" وسط نوبة الضحك التي أصابتنا: "السبت القادم مدعوون كلكم عندي للغداء..." التفتت صوبك لحظة نهوضنا للمغادرة: "ولا تنسَ أن تجلب عُدّة الرسم معك... أستطيع أن أساعدك في نقلها إلى بيتي إذا شئت..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(2)

لـم أخبـرك أنــي كنــت واثقـاً مـن عـدم تلبيتـك لتلـك الـدعوة المفاجئة، فأنتَ، قبل كل شـيء، شخص متكتم، شديد الحـرص علــى خصوصـيتك. ولا أسـتبعد أن جملــة الـدكتورة ''عاليــة'' الأخيـرة أثـارت نـاقوس الخطـر فـي نفسـك، فإلـه أرضـي مثلـك حـريص علــى إقصــاء فكـرة الشـيخوخة والمـوت عنــه دائمــاً باستقطاب نساء أصغر منـه بعقدين علـى الأقل. فمثلما يبحث الفَراش عن المصباح الساخن ليحترق فيه، كذلك هو الحـال مع محظياتك، فهن فـي الغالب شخصيات مضطربة قلقـة، يتطلعن إلـى نقطـة ارتكـاز ليـدرن حولـه بانتظـام. كـأن جمـالهن الخـارق جعلهن موضع استقطاب الرجال: ملكات نحل يطـاردهن ذكـور منزوعو الإرادة، غير أنهن بـدلاً من اختيـار رجـال يعبـدونهن، يتحـركن باتجـاه معـاكس، بحثـاً عمّـن يتجـاهلهن، عـن شـخص بأوصـافك، فيبذلن جهوداً خارقـة لكسب اهتمامـك بهن. أسـتطيع تخيلهن مـن مكـاني الآن بجلابيب بيضـاء، يـدرن حـول تمثالـك، كـأنهن كاهنـات الإلــه ''أبولـو'' فـي معبـده الشـهير بـدلفي، ومـن أيديهن القابضـة على مباخر فضية يرتفع الدخان فيمنعنـي رؤيـة وجوههن.

لعـل هنــاك سـبباً آخـر وراء تعللـك بـالانفلونزا قبـل حلـول الموعـد بثلاثــة أيـام: أن تتجنـب الظهـور أمـام الآخـرين وأنـت ترسـم. أتـذكر كـم كنـتَ تضـطرب حـين يطلـب أحـد معلمـي مدرستنا الابتدائية منك خطّ شكل مـا علـى السبورة. أستطيع أن أجزم الآن أن سبب فشلك في إتقان كرة القدم معي هو رفضـك العميق التنافس مع كائنات فانية: علـى الإله الأرضـي أن يختلـف عمن حولـه، وألاّ يستعرض قدراته أمامهم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

غير أنـي توصلت لاحقاً إلـى قناعـة أخـرى: سبب اعتـذارك الحقيقي كان ’’هاجَر‘‘.

خلطـة مـن حـب ومقـت عميقـين تجعلـك شـديد النفـور منهـا وشـديد الانجـذاب إليهـا معـاً. وأن ترسـم بحضـورها هـو أقسـى عقوبة تتلقاها: التخلي عن إلوهيتك الأرضية بالكامل.

بعـد تأجيـل الـدعوة أسـبوعاً، جـاء سـفر الـدكتورة ’’عاليـة‘‘ لحضـور مـؤتمر طبـي فـي نيويـورك سبباً آخَـر لدفعـه أسـبوعاً آخَر.

ها نحن موشكون على طـيّ نـوفمبر، وقبل مغادرتـه بيومين فقط نجح ’’بوش‘‘ أخيراً بفرض إرادتـه: مجلس الأمن يُصدر قـراراً بتحديـد موعـد "الضـربة": أمـام ’’سَـدَم‘‘ سـبعة وأربعـون يوماً فقط للانسحاب من الكويت عارياً من دون أي ورقـة تـوت يغطي بها عورته.

أسـتطيع تخيـل كـل تلـك الأقمـار الصـناعية وهـي تسـلط كاميراتهـا علـى مشـهد انسـحابه المتعثـر، وعلـى آثـار التخريـب التي تركها رجاله وراءهم.

كـأني أشـاهد آخـر جولـة ملاكمـة حـين يبـدأ أحـد الملاكمَـين بـالتطوّح يمينـاً ويسـاراً، تحـت وطـأة لكمـات خصـمه، عنـد ذلـك يهيج المتفرجـون، فيمضـون بالصـراخ، مشـجعين الأخيـر علـى توجيه ضربة قاضية، تُسقط الملاكم المهزوم أرضاً.

(3)

لعلك تتذكر بـأني كنت المبـادر هذه المرة في الاتصـال بـك

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هاتفياً والاقتراح باللقاء. وعلى عكس المرات السابقة، اخترنا حانة صغيرة بعيدة عن قاعة "الرويال هول" الفسيحة: "نهاية العالم". أتذكر أننا كنا بالكاد نلتقط أصوات بعضنا البعض، وسط ضجيج روادها، ووسط أغاني "أعياد الميلاد" المنبعثة من مكبر الصوت المنصوب في أعلى الجدار وراءنا. كان دخان السجائر يكلكل فوق رؤوسنا فيحيل أشرطة الأضواء حولنا إلى فقاعات ملونة تسبح تحت سقف الحانة، ومن النافذة المجاورة لطاولتنا كان بإمكاننا مشاهدة أسلاك المصابيح معلقة فوق الشارع المزدحم تنعكس منها أضواء ذهبية وفضية براقة وأخرى زرقاء بينما تومض بانتظام نقاط مضيئة ملونة على واجهات المحلات المقابلة لنا.

قال ''أَسعَد'': "الناس حريصون على الاحتفال هنا بأعياد الميلاد رغم الاستعدادات للحرب."

قال ''ماهر'': "هم سيكونون بعيدين عنها بآلاف الأميال."

أتذكر أنك قاطعتَه معترضاً: "مع ذلك، الحكومة بدأت تحضّر مستودعات لاستقبال أكياس القتلى، لاستحالة دفنهم في السعودية..."

"لن تكون هناك أي حرب،" قال ''أَسعَد''، "كل ما نشاهده هو نوع من الترهيب لـ''صدّام'' حتى ينسحب..."

قال ''ماهر'': "هو يعرف أن ''بوش'' لن يتركه حتى لو انسحب... سيكون في وضع مخزٍ داخل العراق وخارجه..."

قلتَ متسائلاً: "ما الحل إذن؟"

"الحل هو أن يدخل الحرب،" ردد ''ماهر''، "فيكون بذلك أول رئيس عربي يحارب أمريكا وحلفاءها: العراق ضد 40

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

دولة... مفخرة تاريخية كبرى... هزيمة بطعم الانتصار..."

قلتُ محاولا تغيير دفة النقاش: "الصحفيون بدأوا يكتبون عن شحة المواد الغذائية ووقوف الناس بطوابير طويلة في بغداد..."

قال ''ماهر'': "هم يستعدون للضربة..."

"حتى لو وقعت الحرب،" قال ''أَسعَد'' مقاطعاً، "الأمريكان لن يحتاجوا إلى ضرب بغداد... هناك نصف مليون جندي عراقي في الكويت، وهم سيكونون المستهدَفين..."

ارتسمت ابتسامة على وجهك، وأنت تلتفت إلى ''أَسعَد'': "لو كنتَ في بغداد، ماذا ستخزّن للحرب إذا وقعت؟"

طفت حمرة خفيفة على وجه صديقنا، فراح يكمل آخر جرعة من الجعة في كأسه هرباً من أنظارنا المسلطة عليه: "أنت تعرف الجواب..." قال ''أَسعَد''، بينما التصقت عيناه في كأسه الفارغ المحمول بين يديه. بادر ''ماهر'' ضاحكاً: "سيكون الآن اشترى عَرَق السوق بالكامل وخزَنه تحت الأسرّة بعيداً عن عيون ''مريم'' والأطفال..."

(4)

كشف شهر نوفمبر كذلك، كيف أصبح العالم تحت قبضة إله أرضي واحد، على الرغم من كل مظاهر "العظمة" المنفوشة التي ظل ''غورباتشوف'' حريصا على إبرازها كلما خرج من اجتماع مع ''بوش''. أمام عينيه تتفكك امبراطوريته، مثل تفكك كتل الجليد القطبية وذوبانها، فيغض بصره عنها. ها هو يطلب من خصمه الأزلي العون لإيقاف سيلها الجارف، بينما يتلذذ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الآخر بما يراه من خوَر يدب في مفاصل "امبراطورية الشر" كما سماها سلفه: طوابير المتسوقين تزداد طولاً على الخبز؛ الجريمة المنظمة تتفشى في مدنها؛ والأطراف تعصي أوامر المركز.

أسترجعُ الآن ذلك الشعور الذي ظل ملازماً لي بعد خروجنا من حانة "نهاية العالم"، أو لعله مزيج من مشاعر، يجعلني عاجزاً عن تشخيصها بالكلمات: وراء كل مظاهر الزينة التي تلبستها لندن هناك في زاوية مجهولة منها تُشحذ السكاكين الطويلة. كم بدت لي المدينة غريبة آنذاك كأني لم أعش فيها يوماً.

في البيت بقيتُ مستيقظاً حتى ساعة متأخرة. كانت يدي تمتد، من وقت إلى آخر، إلى قصاصات قطعتها من صحف شهر نوفمبر. اكتشفتُ بين سطورها ما تعنيه تلك اللحظة التي انتصر بها الإله الإغريقي ''زيوس'' على منافسه ''كرونوس''، وكيف حبَسَه في تلك الزنزانة النائية تحت الأرض : ''طَرطَروس''.

حتى لقب إله فقده ''كرونوس'' إلى الأبد وأصبح مجرد عفريت أدرد محشور داخل قارورة ممهورة.

في شهر نوفمبر أزيحت الأقنعة، فاحتدت نبرة التهديد: وزير الخارجية البريطاني يؤكد أن الخيار العسكري ارتفع أكثر ضمن مقياس الاحتمالات، والعقوبات الاقتصادية وقطع العلاقات الدبلوماسية ليست كما كان يشتهي بلده؛ ومن الخليج تحدث وزير الدفاع البريطاني صاحب العينين اللَّيزَريَّتَين كعيني ''ميدوزا'': "نحن لا نمزح... إذا لم يخرج ''صدّام'' من الكويت فإنه سيواجه الحرب قطعاً..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بالمقابل، أصبحت أية مبادرة للتفاوض، موضع توبيخ قاسٍ. فحال إعلان المستشار الألماني السابق "براندت" عن عزمه على السفر إلى العراق ارتفعت ردود فعل غاضبة من أمريكا وبريطانيا ضده؛ وزارة الخارجية البريطانية استنكرت الرحلة معتبرة إياها مخزية.

توقفت عيناي على عنوان آخر: "*حرب الخليج ستكون كارثة عالمية"، وآخر: "صدّام يعرض إطلاق سراح كل الرهائن الألمان"* .

حتى في بيتي لم تتغير طقوس "كريسماس" قيد أنملة. كانت شجرة "الميلاد" منصوبة في غرفة الجلوس بكامل زينتها قبل لقائنا الأخير بيومين أو ثلاثة، ومن الفجوة الضئيلة بين الستارتين أومضت يراعات اصطناعية معلقة في هيئة قوس على نافذة البيت المقابل لنا. سحبتُ قصاصة أخرى: "*العراق يقرر إطلاق سراح 2000 رهينة ببرنامج ينتهي بتاريخ 25 مارس 1991 إلا إذا حصل أمر يعرقل تنفيذه... طائرة عراقية تحمل129 أجنبيا أكثرهم من النساء...*"

قصاصة أخرى: "*مباراة كرة القدم في ملعب الشعب ببغداد بين بطل الدوري، "الطيران"، وفريق "الصليخ"، الثالث في أسفل القائمة.*"

وأخرى: *مقابلة مع آمر القوة الجوية في المنطقة: "حين يعيد العدو التموضع،" يقول الجنرال الأميركي هورنر متلذذاً، "أستطيع أن أصل إليه، لأنه آنذاك سيكون في أرض مكشوفة..."*

حضرتني، صورة تلك الحِدْآن المحلقة عالياً في سماء بغداد، منتظرةً ظهور الفريسة في أرض مكشوفة...

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

(5)

كم كنتُ مشدوداً لحديث ‘‘ماهر‘‘ في حانة "نهاية العالم" عن الفريسة والمفترس. كيف أن جينات الأولى تطور قدراتها على الهرب، بإطالة أطرافها وتصليب أظلافها، بينما تطور جينات الثاني قدراته على القتل، بشحذ أنيابه ومخالبه، وفتل عضلات جسمه أقصى ما يمكن. وفق هذه اللعبة الوراثية الغامضة، على الكائن الحي أن يعرف موقعه أمام الآخر: هل سيكون فريسة أم مفترساً؟

أتذكر أننا قضينا معظم الوقت، هناك، صامتين، حول طاولة مستطيلة. بجانبي جلس أَسعَد، وأمامي كنتَ جالساً. تراءى لي، في تلك اللحظة، أنّنا كنا جميعاً رهائن بشكل ما: رهائن امرأة هبطت من خارج متاهاتنا، لتسحبنا إليها بعيداً عن مشاغلنا: أنتَ عن ملهماتك الفاتنات؛ ‘‘ماهر‘‘ عن الأمهات العزباوات؛ ‘‘أَسعَد‘‘ عن متقاعدي "البجعة السوداء"؛ وأنا عن الفراغ الهلامي.

أستطيع الآن، بعد كل السنوات التي مضت، تخمين ما استحثّته ‘‘هاجَر‘‘ في أرواحنا:

أَسعَد: صورة الأم الحامية التي تغذي ابنها بالقوة والثقة المطلقة بالنفس.

‘‘ماهر‘‘: صورة القديسة المومس في معبد بابلي؛ إنه الملك الذي يتقمص الإله تموز، المنبعث تواً للحياة، في اتحاده براهبة المعبد الكبرى بعد تقمصها دور إلهة الخصب ‘‘إنانا‘‘.

أنتَ: صورة الأنثى- الذكر المُزلزِلة لعرشك الساكن في أعالي السحاب، فماذا تعني بعد اليوم كل تراتيل المديح الانثوية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

التـــي تتلقاهـــا مـــن نســـائك أمـــام عينـــي ‘‘هـــاجَر’’ العصـــيتين والساخرتين معاً.

وأنـا: صـورة وهميـة لفـردوس مفقـود اسـمه الماضـي. كـأن ظهورها أيقظ إنساناً آخر ظل سابتاً في أعماقي سنوات. أتذكّر أنـك سـألتَ ‘‘مـاهر’’: "كيـف اسـتطاعت الفـرائس البقـاء حتـى الآن؟"

"حـين تشـح الفـرائس، يبـدأ المفترسـون باصـطياد بعضـهم الـبعض،" قـال طالـب الطـب السـابق، "لكـن ذلـك فـي الغالـب، يـؤدي إلـى إصـابة كـلا المتقـاتلَين بجـروح، تـؤول لاحقـاً إلـى موتهمـا... وهـذا يـؤدي إلـى انخفـاض كبيـر فـي عـدد الحيوانـات المفترسـة، فتبـدأ الفـرائس بالازديـاد... الطبيعـة حريصـة علـى التوازن..."

لا بد أن ‘‘أَسـعَد’’ سمع كل هذه الأحاديث من قبـل، إذ كيـف تفسـر انطلاقـه فـي الشـرح كأنـه صـدى لمـاهر: "عنـد مهاجمـة المفتِـرس للفريسـة هـو واثـق مائـة فـي المائـة مـن نجاحـه فـي الافتراس من دون أن يصيبه أي أذى..."

كأن خيطاً من غيرة تسرب إليك، وأنت تجد صـديقك القـديم يتمـاهى مـع الآخـر، إذ ارتفـع حاجبـك الأيمـن قلـيلاً، وارتسـمت ابتسامة ساخرة للحظة على شفتيك، ومن موقعي اكتشفتُ كيـف أن شخصـيتك لـم تتغيـر إلا قليلاً منـذ أيـام دراسـتنا المغرقـة فـي القدم.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الثاني عشر

متاهة المينوتور (2)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(1)

وفق ذلك المعرض، حتى الزرافة لها فخها الخاص بها.

وفي الحياة هناك أفخاخ غير مرئية، حال الدخول في واحد منها نتيجة قرار خاطئ، يجد المرء نفسه مجبراً على ارتكاب خطأ آخر وآخر، فيغوص أكثر فأكثر في حبائله.

كأني الآن أرى ''سَدَم'' يتقلب على سريره ندماً.

إنها المرة الأولى التي يجد نفسه فيها فريسة عاجزة عن الفعل، بل حتى أفعاله تشد من وثاق الانشوطة حول رقبته. ماذا فعل اختطاف ألفي غربي أكثر من تشويه صورته إلى أقصى درجة؟ لا بد أن الناس هناك يقارنونه بـ ''دون كورليون'' أكثر من ''ستالين'' أو ''كاسترو'' أو ''هوشي منه'': رئيس مافيا أكثر منه وريثاً لملك العالم القديم ''آشور بانيبال''.

ظل طوال حياته يدفع خصومه للوقوع في سلسلة أخطاء توصلهم إلى فخه، فيتخلص منهم دون أي مقاومة.

كأن ''بوش'' تعلم منه ثم فاقه في نصب الأفخاخ.

تعود ذاكرته به للمرة الألف إلى ذلك اللقاء بالسفيرة الأميركية، فتسترجع كلماتها التي ظل مترجمه يعيدها عليه: "أعرف أنكم بحاجة إلى المال. نحن نتفهم ذلك ووجهة نظرنا هي أنكم يجب أن تحصلوا على فرصة لإعادة بناء الوطن."

يتراءى له سماع حفيف مكيفة الهواء، فيغمره للحظة شعور بالقشعريرة على الرغم من العرق الناضح داخل قميصه العسكري.

"كيف تفسرين هذه الحملة الظالمة ضدنا في إعلامكم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الرسمي؟"

يسود الصمت بينهما ثوانيَ بدت له أطول كثيراً من حقيقتها، يلمح على وجه ضيفته الضيّق احمراراً طفيفاً، يتعمق أكثر فأكثر فوق قمة أنفها الحاد: "أنت تعني المقالة التي نُشرت في وكالة الإعلام الأميركية؟" جاء صوتها مرتعشاً: "إنه أمر محزن، وقد قُدِّم اعتذار رسمي لكم... علي أن أؤكد أن الرئيس ’’بوش‘‘ لا يريد فقط علاقات أفضل وأعمق مع العراق..." ترتسم ابتسامة واسعة فوق عينيها، بينما يبقى فمها مفتوحاً وهي تتطلع إليه بإعجاب، "بل هو يريد أيضاً مساهمة عراقية في تحقيق السلم والرفاهية بالشرق الأوسط..."

(2)

لا بد أن شعوراً راوده بانتهاء لقائهما، بعد تبادل الأمنيات بنجاح الوساطات، وبعد إعلان السفيرة عن نيتها السفر لقضاء إجازتها السنوية في أميركا حين جاءت ملاحظتها مفاجأةً له: "يمكننا أن نرى أنكم نشرتم أعداداً ضخمة من القوات في الجنوب..." بدت له وكأن شحوباً ما تسرب إلى وجهها، فغاص في صمت منتظراً ما سيأتي من تهديد. كانت عينا ’’أبريل‘‘ منكبتين على دفترها المفتوح، فأعطته انطباعاً بأنها تقرأ تعليمات وصلتها للتو. هل هي تحمل جهازاً لاسلكياً سرياً معها يحول الإشارات إلى كلمات أمامها؟

عاد صوتها مرتعشاً: "بالطبع، هذا أمر لا يخصنا، لكن حين يحدث هذا الأمر ضمن سياق تهديداتكم ضد الكويت، فإنه من البديهي أن نكون قلقين..." مرت ثوانٍ بدت دهراً له، وهو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ينتظر جملتها الأخيرة. هو يعلم أنها تعلم لماذا دفع بكل هذه الحشود إلى الحدود، فليس هناك أسرار أمام أقمارهم الصناعية التي ترصد حركة أي فراشة ترفرف تحت سماء أرضه.

"لهذا السبب، تسلمتُ تعليماً كي أسألكم، بروح الصداقة – لا المواجهة- عن نواياكم: لماذا تجمعت قواتكم بهذه الكثافة القريبة جدا من حدود الكويت؟"

لا بد أنها قرأت خوفاً ما على عينيه الواسعتين الناريتين، فجعلها ترقق نبرتها أقصى ما تستطيعه: "نحن ليس لنا موقف تجاه النزاعات العربية- العربية، مثل خلافكم مع الكويت،" توقفت لحظة وهي تقلب صفحة أخرى في دفترها، ها هي تتطلع فيها قليلاً، قبل أن ترفع رأسها صوبه: "وزير الخارجية بيكر أعطاني تعليماً كي أشدد ثانية على التوجيه الذي أُعطي عن العراق في الستينيات، من أن قضية الكويت لا تخص أميركا."

يتنفس الصعداء؛ يبتلع الطُعْم؛ خطوة أخرى ويصبح داخل الفخ اللعين.

(3)

أشك أن يكون ''سَدَم'' قرأ يوماً الأساطير. مع ذلك، فقد قلد إحدى حكاياتها تقليداً أعمى.

حول قصوره، أمرَ ببناء شبكة طرق وأنفاق وجسور تشبه كثيراً تلك المتاهة التي بناها المهندس ''ديدالوس''، وحال دخول الغريب فيها خطأً، يصبح هدفاً لرصاص حراسه.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

هل يعني أنه قاسي القلب كما يزعم خصومه؟ أبداً.

أمام مكائد المتآمرين المتواصلة ليس أمامه سوى خيار واحد: قتلُ بريء من باب الاحتياط أفضل من الإبقاء على حياة مذنب؛ قنبلةً موقوتةً تنفجر في أي وقت تحت قدميه.

لم يكن ظهور المينوتور في حياة الملك ''مينوس''، إلا عقاب الإله ''بوسيدون'' له. فالأخير، مثل كل الآلهة الإغريقية، يطالب عبادَه بتقديم أفضل الأضاحي له.

كم أغضب ملك كريت إله البحار حين احتفظ لنفسه بالثور الأبيض الذي أهداه ''بوسيدون'' تعبيراً عن دعمه، ومن ثم تقديمه قرباناً له، غير أن ''مينوس'' احتفظ بهدية الإله الناري المزاج لنفسه، وضحى بثور عادي، ظناً منه أن الأخير لن يبالي.

بتسليط رغبة جارفة في نفس الملكة ''باسيفاي'' صوب الثور الأبيض، انتقم إله البحار من ''مينوس'' شر انتقام.

وكان المينوتور ثمرة هذا العشق: وحشٌ برأس ثور وجسد انسان عملاق.

وبفضل المتاهة التي بناها المهندس الأسطوري ''ديدالوس'' بيتاً له، أصبح قادراً على اصطياد فرائسه بسهولة، فحال إصابتها بالحيرة والارتباك داخل شعابها، ينقض عليها دون أن يعطيها لحظة للدفاع عن نفسها.

ولم تكن تلك الفرائس سوى رهائن بشرية ترسلها مدينة أثينا كل سبع سنوات إلى كريت تجنباً لغضب الملك ''مينوس'' على سكانها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

(4)

حتى من دون أقمار صناعية تحلّق فوق رأسه، ظل ''سَدَم'' حريصاً على التخفي، مدفوعاً بهاجس غريب: هاجس مؤامرة تحاك ضده في مكان ما على يد أقرب مساعديه. إنهم الآن يتّبعون تعليماته الصارمة: أن يذهبوا إلى القصر الجمهوري كل يوم عند السابعة صباحاً، ومن هناك يُنقَلون إلى أحد قصوره فيجلسون، في غرفة، متحلقين حول طاولة مستطيلة طويلة، بانتظار قدومه.

أحياناً، كانوا يقضون النهار بأكمله متسمرين فوق مقاعدهم، ثم يأتي أحد الحراس ليخبرهم بتأجيل الاجتماع الوزاري إلى الغد.

من موقعه، كان يراقب كل شيء عبر كاميرا تلفزيونية مغلقة: صورهم وهم عراة تحت الأشعة السينية خلال عبورهم نقطة التفتيش، تقاطيع وجوههم خلال ساعات "عملهم" تلك: هل هناك تذمر ما يكشف عن رائحة مؤامرة ما فوق عينَي أحدهم؟

قد لا تكفي كل هذه الإجراءات من ردع النفس الأمّارة بالسوء، على الرغم من أنهم ينتمون إلى القلة القليلة في الحزب التي آمنت به عند بروزه إيماناً مطلقاً، بأنه القائد الضرورة الذي ظلت أجيال وأجيال تنتظر قدومه. لذلك، بنى لهم قصوراً فخمة على أرض قريبة من قصر الرئاسة الرسمي، ثم أحاطها بسور عالٍ، وبهذه الطريقة ضمن مراقبة أي نأمة تصدر عنهم، وحين يسافر أحدهم إلى الخارج في مهمة رسمية، فإنه يذهب وحده من دون أسرته.

مع ذلك، كانوا يحضرون أحياناً إلى مكمن نومه المتبدل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

دائماً، عبر أحلامه. يراهم حول سريره، بملابسهم العسكرية الخالية من النجوم والنياشين، يحمل كل منهم رشاشاً قصيراً، شبيهاً بذلك الذي أعطاه خاله ذات يوم، فيسلطونها فوق رأسه. يستيقظ فزعاً لتستقبل عيناه العتمة، وأذناه دبيب جهاز التكييف الهوائي، وأنفه رائحة عطر الليمون الخفيفة، فيسترد الشعور بالأمن.

ها هو يشاهد للمرة الثالثة فيديو الاجتماع الأخير بهم، من وراء مكتبه الواسع. انتابه شعور غامض بالضيق، وهو يراقب أجساد وزرائه المترهلة، لحظة نهوضهم له عند دخوله الصالة. كم بدوا له أشبه بعجول أسرفت في طعامها، فتكالبت الشحوم على بطونها ورقابها.

كيف سيستقبل أعلاميو العالم الغربي وسياسيوه هذا الفيديو؟

في اليوم اللاحق أصدر قراره التاريخي: على جميع أعوانه الكبار فقدان 20 كيلوغراما خلال شهرين فقط.

وبعد يومين، نُصِب ميزان كهربائي في قاعة الاستقبال بقصر الرئاسة، وعند قدومهم راحوا يصعدون فوقه واحداً واحداً وعلى وجه كل منهم ابتسامة خجول على ما اقترفوه من خطأ في الإسراف بالأكل.

كم ذكّره مشهدهم بالخراف الأربعة التي ظل يرعاها في طفولته الشقية، تحت قرّ شتاء قارس أو هجيرة صيف حارق.

(5)

لا بدّ أن هذا الخوف الذي يتسلل إليه كلما أخذته غفوة،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

راجع إلى تلك الضربات التي كانت تتسلط على قفاه وساقيه، خلال ساعات نومه. فجأة ينغرز ألم خفيف في جسده كأنه لسع نحلة ضالة، ثم يتزايد بسرعة مخترقا بإصرار عظامه الهشة، وحين يفتح عينيه يراه مالئاً الفراغ القائم بين الأرض وسقف الحجرة، فيسحب غريزياً البطانية البالية مغطياً وجهه، بينما يمضي زوج أمه في رفع عصاه الغليظة أعلى رأسه ثم دفعها بأقصى قوة صوبه، حتى يسمع بكاءه وتوسله: "آخ، آخ، عمّو، دخيلَك..."

أحياناً، يحلم بأنه تحت رحمة عصاه فيستيقظ فزعاً، وسط ظلمة حالكة، يقطعها من وقت إلى آخر، نباح كلاب ضالة، وشخير الزوجين النائمين بجانب الجدار الطيني الأبعد عنه، وأحياناً يستيقظ على حشرجتهما وخشخشة فراشهما فيتراءى له أن الغريب، المتجهم دائماً، موشك على خنق أمه، لكن الخوف الشديد منه، يجمّد الدم في عروقه فيمنعه عن التحرك قيد شعرة. أذناه وحدهما مفتوحتان أقصى ما يمكن على الأصوات الغامضة، حتى توقّفها تماماً، يسمع همس أمه فيطمئن بأنها ما زالت حية، وأنه لن يكون في عصمة زوجها من دون حمايتها.

حتى سن السادسة لم يكن ''سَدَم'' يعرف أيّ شيء عن منشئه: أين ولِد؟ وأين أبوه؟ أينَ خاله وأسرته؟ وأين جده؟

وفي لحظات الصفاء وغياب زوجها المتقلب المزاج، تحكي له الأم عن أشهُر حملها به. كم قاست خلالها، وكم مرة فكرت في الانتحار، لولا ذلك الطبيب الطيّب الذي كانت تعمل خادمة في بيته. كيف أنه وزوجته احتضناها، عند وقوع مصيبتين على رأسها واحدة بعد الأخرى: اختفاء الزوج الفجائي، واختفاء أي أثر له، ثم مرضِ ابنها البكر: أملها الوحيد الذي كانت تعول

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عليه كثيرا في إسنادها.

قال الطبيب لها وهو يربت على كتفها: "السرطان نادر في سنه؛ لا بد أن المرحوم ’’دحام‘‘ ورثه من أسلافه."

(6)

"وجه النحس!"

يسمع صوت أمه، عابراً حواجز الزمان والمكان، كلما أغضبها بفعل سيئ كأنْ يضرب صبياً ضرباً مبرحاً، فتأتي أمه إليها متشكية، أو "يصطاد" دجاجة ضالة لكسب رضا أسرته الصغيرة، فيظهر أصحابها الناقمون وراء الباب، تبلغ أذنيه أصواتهم العالية، تقاطعها تمتمات ’’عمه‘‘:"سامحونا... وسامحوه... أنتم تعرفون..." تبادر أمه بإخراج دجاجة سمينة من قن البيت الصغير، فتقدمها لهم تعويضاً عما فقدوه.

تحضره صورة العصا الغليظة المُزفَّتة الرأس بالقير، فترتعش ساقاه. إنها هناك، معلقة على الجدار في حجرة البيت الوحيدة، ولا أحد في هذا العالم سينقذه من ضرباتها هذا المساء غير ’’نجمة‘‘.

يلتصق ’’سَدَم‘‘ أكثر بالفرس التي بدت له وكأنها فهمت محنته فراحت تمسح غرتها بكتفه، بينما راحت ذراعاه تتشبثان أكثر فأكثر بها. كم مرة هرب من غضب زوج الأم الجارف، واندس وراءها، فيكتفي الآخر، بدعوته للخروج من الحظيرة، واعداً إياه بمسامحته هذه المرة، لكن التجارب السابقة علمته أن وعود ’’عمه‘‘ تلك كانت كاذبة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

هل كان أهالي القرية على خطأ حين أطلقوا عليه لقب "الكذّاب"؟

من موقعه يستطيع رؤية حجرة البيت الوحيدة على طرف الفناء الترابي الآخر. لا بد أن عمه أشعل الفانوس فيها قبل حلول الظلام ليتسنى له الاستمتاع باختيار مواقع هبوط العصا على جسده، تجنباً لإلحاق كسر في ساقه أو ذراعه تمنعه من الخروج فجراً بخراف الأسرة.

يدمدم الآخر وسط الشتائم المقذعة بتهديده المتكرر كلما احتمى بـ ''نجمة'': "إذا لم تخرج الآن، غداً أبيعها..."

كم مرة انصاع ''سَدَم'' لزوج الأم خوفاً من فقدان الفرس فيستسلم له راضخاً.

كم تبدو له المسافة القصيرة الفاصلة بين الحظيرة والغرفة نفقاً لا نهاية له، حيث تشد ذراع عمه القوية على أذنه، بينما تمضي قدمه اليمنى في رفسه بانتظام على مؤخرته. وحال إدخاله الحجرة ينغلق بابها وراءه بالمزلاج العالي الذي لا تصله يده.

تصرخ أمه حين يجتاحها يأس مطبق لا تجد أحداً تصب وابله عليه سواه: "وجه النحس..."

قبل ولادته اختفى أبوه ثم مات أخوه الأكبر، وبعدها مات راعيها الوحيد: جده.

كأنها تتهمه بكل هذه المصائب، بما في ذلك زواجها من رجل معطوب الهمة والدراية.

يتشكل في رأسه قرار قاطع: لن يترك، هذه المرة، الحظيرة مهما حدث لنجمة، على الرغم من تعلقه المطلق بها. بجانبها

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كان يبكي ويضحك ويتحدث بطلاقة؛ يغمره شعور عميق بأنها كانت تصغي إليه بعينين مفتوحتين، أحيانا كانت تبادله الشكوى عن حالها، حين يُكريها ''عمه'' للآخرين، فيقسو بعضهم عليها. يتلمس بحنو حزوزَ السياط والعصي على بطنها، يعدها بأنه سينتقم يوما لها من ظلّامها، فتمرر رأسها على كتفه عرفاناً بالجميل.

(7)

لعلك تتفق معي أن المتاهات الحقيقية تصنعها الطبيعة عشوائياً، ومن دون أي هدف.

إذا تلفتَّ حولك ستكتشف أن كل البحار والصحارى والغابات متاهات، بالنسبة إلى الداخل فيها، ما لم يكن مزوداً باسطرلاب يوجهه نحو غايته.

في الأسطورة الإغريقية، كانت نجاة ''ثيسيوس'' من بطش المينوتور، بفضل رأس الخيط الذي منحته إياه ابنة ملك كريت، ''آريادن''، بينما أمسكت هي بطرفه الآخر، وهذا ما أفقد متاهة ''ديدالوس'' خاصيتها الأساس: فقدان الشعور بالاتجاهات داخلها، ومكّن البطل الإغريقي من قتل الوحش المختبئ بدلا من أن يكون طعاما له.

خيط ''آريادن'' هو الاسطرلاب الذي يحمله البحارة في رحلاتهم.

هل هناك متاهة تتجاوز المكان لتتشكل في الزمان؛ أو بصيغة أدق في الزمكان؟ أرى ابتسامة ساخرة تطفو فوق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شفتيك، بينما يرتفع كالعادة حاجباك قليلاً، تعبيراً عن عدم اقتناعك.

ألا تجد أن سنوات ''سَدَم'' العشر الأولى من حياته متاهة من هذا النوع؟

فمثلما هو الحال مع المينوتور، كانت ولادته حدثاً غير مرغوب به تماماً لمن حوله، ومثل ذلك الوحش الأسطوري كان على الأم المفجوعة أن تتركه بعيداً عنها في متاهة، هي بيت أخيها الضابط.

هل كان تخليها عن ''سَدَم'' وهو يحبو، شرط قريبها الذي طلب يدها، أم لموت أبيها المفاجئ؟ أم ربما نوع من التطير بأن وليدها لا يحمل في طالعه سوى قتل أحبائها.

لا أستبعد أن هاجساً راودها بوقوع مكروه لأخيها بسببه، غير أنها تُركت بلا خيارات أخرى.

مع ذلك، كانت مطمئنة على ''سَدَم''، قبل انتقالها إلى بيت الزوجية الجديد، فقد رضع منها بما يكفي: تسعة أشهر. كذلك فهي ستواصل زيارته مرة واحدة في الأسبوع، بينما ستُبقي أختها الساكنة، على بعد مائة متر من بيت أخيها، عينيها عليه.

(8)

على عكس كل الطيور التي تترعرع في عش واحد، تنقّل ''سَدَم'' خلال أول خمس سنوات من حياته بين ثلاثة أعشاش: بيت الجدّ الذي مات وهو ما زال يحبو، فبيت الخال الذي سُجِن وهو في الخامسة، ثم كوخ زوج الأم المتداعي، في قرية لم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يرها طوال حياته.

كأن غياب الأب والأم طوال تلك السنوات الخمس من حياته جعله يُسقط صورتيهما على من يحيطه: زوجة الخال، أو الخالة، أو الخال، أو أي قريب يلاعبه، غير أن قِصَر المدة التي يقضونها معه، عززت شعوره بالتماهي مع الحشرات والحيوانات الصغيرة التي يراها سواءً في بيت خاله أو خارجه: ها هو يتابع خطوط النمل العائدة إلى بيتها، وحال خروج واحدة منها عن الطريق يلتقطها بأصابعه فيعيدها إلى أمها.

لعله عرف أنه جاء من رحم أنثى، بعد مشاهدة نعجة تلد حملاً، ولعلّ تصوراً حضره بأنه هو الآخر مولود من نعجة.

عند انتقاله إلى بيت ’’عمه‘‘ المبني من الطين، لم تكلف الأم وزوجها عناء شرح ما حدث لخاله. كانت الحقائق مختلطة في رأسه الصغير بالأوهام.

كل ما يتذكره الآن أن الثياب التي انتقلت معه من بيت خاله، صغُرت عليه خلال عام واحد فباعتها أمه مع حذائه بثمن بخس، لبائع متجول متخصص بشراء الأشياء المستعملة.

بالمقابل، لم يحصل على أية ملابس بديلة، عدا عن "دشداشة" مقلّمة تمس حافتها الأرض. قالت أمه ضاحكة: "هذي تبقى معك حتى تصير ’’رجل‘‘!"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الثالث عشر

بيولوجيا الهوامش (3)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

(51 ديسمبر 1990)

لا بدّ أنك تذكر تلك الأيام التي سبقت "كريسماس": شجرة عيد الميلاد العملاقة تتوسط ساحة "الطرف الأغرّ"، وعلى النافورة القريبة منها تتكسر أنوار المصابيح البيضاء المنبثة بين أغصانها المستدقة أعلى فأعلى، مشكّلةً هرماً أخضر متقن الصنع.

قال ''أَسعَد'' عبر الهاتف: "ما رأيك، نلتقي غداً؟"

"غداً أنا مشغول، ممكن بعد الغد؟" أجبته عن مضض.

"الأيام لا تَفْرق بالنسبة لي، أنا دائما على استعداد للّقاء بك... عندي..."

انقطع صوته ثوانيَ بدت لي دهراً: "عندي مفاجأة لك... طبعاً مفاجأة سارّة،" أضاف جملته الأخيرة بنبرة بدت لي جذلة ماكرة.

لا بدّ أنك تذكر أيضاً، تلك الآمال التي تغلغلت في نفوسنا باقتراب انفراج "أزمة الخليج" كما كان الإعلام البريطاني يسميها.

أتذكر أنها بدأت هكذا: بعد تخويل الأمم المتحدة استخدام العنف ضد العراق إذا لم يسحب قواته من الكويت قبل منتصف يناير، تحدث ''بوش'' بعد صدور القرار الدولي بيومين فقط عن استعداده لاستقبال وزير خارجية ''سَدَم'' في واشنطن، يعقبها إرسال وزير خارجيته إلى بغداد لمقابلته.

كأن ''سَدَم'' كان ينتظر أيّ بادرة من ''بوش'' تضمن له

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الحفاظ على القليل من ماء الوجه كي يقلب قراراته رأساً على عقب.

بعد أسبوع واحد فقط، جاء قراره المفاجئ: الإفراج عن جميع "الرهائن" الغربيين قبل حلول "كريسماس".

وها هو مطار "هيثرو" يستقبل أول دفعة منهم100 : بريطاني، ليعقبها قدوم 400 آخر من بغداد، بعد يومين.

أتذكر ذلك العنوان المطبوع بالخط العريض في صفحة الجريدة الأولى: **العراق يوافق على عرض ''بوش''**. وفي وسطها إعلان عن احتفال أسواق المال الأوروبية بانخفاض التوتر بارتفاع قيمة أسهمها: في لندن ارتفع مؤشّر "فوتسي 100" بأكثر من 37 نقطة؛ كذلك هو الحال في "وول ستريت".

على الرغم من البرد القارس، كانت بعض الحمائم تتجول بحرية بين أرجل المشاة في الساحة بحثا عن الطعام، بينما راحت أسراب منها تحلق في الفراغ الفاصل ما بين كاتدرائية "سانت مارتن" و"الغاليري الوطني".

ظهر ''أَسعَد'' أمامي فجأة لحظة التفاتي صوب شجرة عيد الميلاد، ولعلي لم أميزه للحظة بسبب قبعة الفرو التي غطت أذنيه وخديه وطرفي رقبته. تمتمتُ معتذراً: "عرفتك من صوتك فقط..."

قال بحماسة طفل: "هذا البرد القادم من القطب الشمالي لا تردعه إلا القبعات الروسية... هل شاهدتَ النجمة الحمراء؟"

أشار بفخر إلى موقعها وسط مقدمة القبعة التي غطت جبهته:"أنا اليوم أحمر للعظم..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

حين التقيتُ ’’أَسعَد‘‘ في ذلك اليوم الصقيعي، كان جميع المحتجزين الأمريكيين قد غادروا العراق والكويت. فكأن ’’بوش‘‘ ظل ينتظر تحقق ذلك الإجلاء سريعاً، ليكشف عن ورقة محيِّرة أخرى لـ ’’سَدَم‘‘: عند قدوم وزير خارجيته إلى واشنطن سيحضر الاجتماع ممثلون عن السعودية والكويت ومصر. فما كان من ’’سَدَم‘‘ إلا أن يضع شرطاً مماثلاً: عند قدوم وزير خارجية ’’بوش‘‘ إلى بغداد، سيشارك في الاجتماع وفد فلسطيني.

قرأتُ قبل مغادرتي البيت ردّ ’’جيمس بيكر‘‘ في الصحيفة الملقاة على طاولة القهوة شيئاً كهذا: "*إذا طرحوا القضية الفلسطينية سأقول لهم إنكم لم تحتلوا الكويت لتحلوها، وإذا كنتم تظنون أن احتلالكم الكويت سيخدم الفلسطينيين فأنتم واهمون.*"

على نفس الصفحة طالعني عنوان محيِّر آخر :’’بوش‘‘ *يساهم بشكل خفي في تشكيل منظمة، اسمها "لجنة السلم والأمن في الخليج"* ، هدفها الضغط على الكونغرس للقبول بخيار الحرب بدلا من العقوبات الاقتصادية ضد العراق.

مع ذلك، ظل الأمل بتجنب الحرب يخامرني بقوة؛ كانت أصوات أولئك الداعين إلى منح ’’سَدَم‘‘ فرصة للخروج من الكويت، مقابل منحه وعوداً هلامية غير قابلة للتحقق، جارفة في كل مكان، ولعل ما عمّق تفاؤلي أجواء "كريسماس" المبهجة حولي: الأسواق العامرة بالناس، أغاني السلام المنبثة من الراديوهات والمسجلات، وأشرطة المصابيح المعلقة فوق أشجار لندن اليابسة، حيث تنعكس أضواؤها الملونة على الجدران والأرصفة ووجوه السابلة.

قال ’’أَسعَد‘‘ وهو يراقب جذِلا هبوط العتمة على شارع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

"سانت مارتن"، بينما تألقت لوحات العروض المضيئة على واجهات مسارحه: "سلّمَت ’’هاجَر‘‘ عليك... كانت تريد أن تلتقي بك اليوم، لكنها مريضة..."

وحينما قرأ في عينيّ خوفاً عكسه تسارع أنفاسي، ردَّد وهو يربت على كتفي: "مجرد رشح خفيف... يومين وتشفى... هي قضت ساعات تلعب بالثلج مع أولادي في حديقة الدكتورة ’’عالية‘‘..."

"متى؟"

"الأحد الماضي... لمّا غطى البياض كل هذه الجزيرة..."

كأن ’’أَسعَد‘‘ كان يقرأ ما يعتلج في نفسي، فرمى فوق النار قليلاً من الزيت:

"أصرّت ’’هاجَر‘‘ على الذهاب إلى "هامسْتِد هيث" بعدما شاهدت على شاشة التلفزيون شباباً يتزلجون على الجليد في ذلك المتنزه..."

عاد صوته بعد دقائق من الصمت، ظلت أقدامنا خلالها تضرب إسفلت الرصيف المتلوي بحميّة تحت وطأة برد تزداد حدته لحظة بعد لحظة. كنت على وشك الاستفسار منه عن المكان الذي يقودني إليه، ومع كل خطوة كان شعوري يتزايد بعدم معرفتي لهذه المدينة التي أعيش فيها منذ ربع قرن، مقارنةً بمعرفة صديقك لها رغم أن إقامته فيها لا تزيد عن خمس سنوات: "هل تعرف مع مَن ذهبتْ؟" قال ’’أَسعَد‘‘ . "معك؟" سألتُه وأنا أحاول إظهار عدم اهتمامي بحكايته ."لا، طبعاً... أنا لا أحتمل رؤية بياض الثلج طويلاً..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لا بدّ أن ’’أَسعَد‘‘ أخذك إلى ذلك المطعم الإيطالي الذي اقتادني إليه. ولعلها كانت مجرد مصادفة، أن تمتلئ قاعته بزبائن احتلوا صفين طويلين من الطاولات، على طرفي الأرضية الخشبية. كان الضجيج يتصاعد متجانساً في الفراغ كأنه فحيح أفعوان خرافي، يكسره بين لحظة وأخرى صليل كؤوس وملاعق وضحكات نسائية صاخبة. التفتُّ إلى ’’أَسعَد‘‘ لأستوضح منه ما يجب فعله، فبدا لي شخصاً آخر. كان بروفيله يوحي بأنه يعرف الحاضرين جميعاً، بمن فيهم تلك العروس الجالسة وسط الحشد، بثيابها البيضاء وبرقعها الشفاف، فعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة جعلت عينيه تغوصان في محجريهما. ارتفعت يد من وراء الكاونتر الصغير المقابل للباب، فتحرك مرافقي بسلاسة في الفراغ القائم بين صفي الطاولات صوبها.

التفت ’’أَسعَد‘‘ إليّ، بعد مصافحة صاحب المطعم بحرارة، بينما ظلت يده اليسرى موضوعة على كتف الآخر: "هذا ’’تشارلي‘‘ صديقي..."

"مرحباً بك وبصديقك... لم أتوقع قدومك... آسف..." قال صاحب المطعم، "اليوم، المطعم محجوز لحفلة عرس يوناني..."

غير أنه استدرك قائلاً: "مع ذلك، يمكنكما البقاء بجانب الكاونْتَر مع العمال...هههه..."

ولقطع الطريق على ترددنا بالبقاء، سكب لنا كأسَي نبيذ أحمر.

قال ’’أَسعَد‘‘ ضاحكاً: "ألا يشبه ’’تشارلي‘‘ ’’شابلن‘‘؟" فما كان من الآخر إلّا أن تقمص، للحظة، إحدى حركات الممثل

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

الأسطوري الشهيرة في أفلامه الصامتة.

"هل تصدق أنه عمل "مهرج" في شبابه، بسيرك؟ وماذا كانت عروضه؟ اِحزر..." أضاف صديقنا. أشار الآخر إلى أحد جدران المطعم: "انظر هناك وستعرف..."

* * *

بدأت آلة الماندولين تصدح وراءنا، بينما ظلت عيناي تتطلعان في صور الأسود والأبيض المعلقة على الجدران، على الرغم من خفوت الأضواء في الصالة. خمنتُ أن الشخصية الوحيدة التي تظهر في كل تلك الفوتوغرافات هي نفسها :''تشارلي'' :''تشارلي'' في طفولته وهو يغني على خشبة مسرح؛ ''تشارلي'' شاباً في مشاهد هزلية تقلد ''شابلن'' الأصلي لكن بحجم أصغر؛ ''تشارلي'' مراهقا يعزف على آلة الأرغن... ولعل الخدعة الوحيدة للبصر هو اختلاط بعض صور الممثل العتيد بصور صاحب المطعم الإيطالي.

ارتفعت أصوات بعض المحتفلين باِسمه، كأنها تطالبه بافتتاح الحفلة: "''تشارلي'' ...''تشارلي''..."

ها أنذا أراه يتقدم صوب الحاضرين، بخطى بطيئة كأنه مغني الأوبرا ''بافاروتي''، ولا أعرف من أين جاء بالمنديل الأبيض الحريري الذي اعتاد الأخير على حمله كلما برز على خشبة مسرح، وكأن عازف الماندولين عرف أيّ "آرْيا" سيغني، فخفف من ضربات أصابعه على آلته، حتى أصبحت أقرب للهمس.

ساد صمت مطبق على الصالة، وخفتت المصابيح أكثر بينما اشتعلت شموع على الطاولة المخصصة لكعكة العرس. ومن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

موقعي كنت أستطيع رؤية العريسين واقفَين وسط القاعة حيث تشابكت أكفهما بانتظار انطلاق ’’تشارلي‘‘ بالغناء.

لم يخيّب صاحب المطعم ظنهما طويلاً. ارتفع صوته خافتاً في البدء بجملة موسيقية كررها مرتين، كأنه يفتتح ذلك المقطع الغنائي الشهير من أوبرا ’’بوتشيني‘‘، ’’توراندوت‘‘. حين التفتُّ قليلاً صوب ’’أَسعَد‘‘ وجدته ساهياً تماماً عني، وعند تماسّ نظراتنا ببعض، لمحتُ دمعتين عالقتين على جفنيه الأسفلين. كم كنتُ تواقاً لمعرفة كلمات ذلك المقطع الغنائي الذي راح صوت ’’تشارلي‘‘ يصعد معه خطوة خطوة.

كأن صديقك قرأ رغبتي الصامتة، فراح يترجم الأغنية متعقباً سطورها على لسان ’’تشارلي‘‘، من دون أن يلتفت إليّ، بينما اندفع العريسان الشابان في رقص بطيء، تتشابك نظراتهما ببعض، وتستقر يد العريس اليسرى على ظهر عروسه بينما تتشابك أصابع اليد الأخرى بأصابعها.

أسمع صوت ’’أَسعَد‘‘ هامساً، كأنه يهذي مع نفسه: "لا أحد يجب أن ينام.. حتى أنتِ يا أميرة.. في غرفتك الباردة.. راقبي النجوم التي تختض بالحب والأمل.. لكن سرّي مخفيٌّ معي، لا أحد يجب أن يعرفه.. فعلى شفتيك سأردده.. حين تشع الأضواء.. وقُبلتي التي ستذيب الصمت ستجعلك لي..لا أحد يعرف اسمه.. ونحن، واحسرتاه، يجب أن نموت.. اختفِ أيها الليل، وانْفَلِي يا نجوم.. في الفجر سأنتصر.. سأنتصر.. سأنتصر."

* * *

هل تصدق إذا قلت لك إنني اقتربتُ كثيراً من ’’أَسعَد‘‘ في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تلك الليلة، ولعل ذلك يعود إلى الزاوية الضيقة التي حُشِرنا فيها داخل المطعم، أو نوعية النبيذ الرائق الذي بقينا نكرعه بتلذذ ودون توقف، كأن صديقك بث فيّ روحاً غريبة لم أعتد عليها في حياتي: الذوبان الكامل في اللحظة. أو كأني كنت أريد أن أصل إلى النقطة التي منها يرى ’’أَسعَد‘‘ العالم؛ أو ربما بسبب صاحب المطعم الذي قوبل غناؤه بتصفيق وتصفير مدوّيين.

قال ’’تشارلي‘‘ لي من وراء الكاونتر، بينما كان يضع أمامنا كأسَي نبيذ مترعين:

"أرجو ألا تكون انزعجتَ من غنائي."

"أبداً، على العكس، أنت مكانك الحقيقي في دور الأوبرا الكبرى..."

صاح ’’أَسعَد‘‘ وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة: "كان بحاجة إلى عشر بوصات فقط ليأخذه الجمهور مأخذ الجد..."

قال ’’تشارلي‘‘ ملتفتاً إليّ، كأنه يريد إنكار ما سمعه: "غناء الأوبرا يتقنه كل الإيطاليين، وأنا مثل الجميع... هل تعرف أن الطباخ والنادلَين الذين أشغّلهم هنا يغنون أحسن مني؟ اِسأل صديقك إذا لم تصدقني."

هز ’’أَسعَد‘‘ رأسه موافقاً.

عاد صوت ’’تشارلي‘‘ أقوى، مع ارتفاع ضربات أوتار الماندولين وارتفاع أصوات الراقصين وضحكاتهم:

"بعد موتي، لو عرض علي الربّ حياة أخرى، فسأطلب منه بالضبط نفس النسخة التي عشتها..."

سأل ’’أَسعَد‘‘ مناكداً: "حتى طولك؟"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

"نعم حتى طولي.. اكتشفتُ منذ سنوات أن قِصَر قامتي بركة متخفية منحتني إياها تلك النجوم التي خطّت قدري..."

ارتفعت الأنغام اليونانية أعلى فأعلى، فحضرتني تلك الموسيقى الشعبية التي سمعتُها في بيتك لـ''ميكيس ثيودوراكيس''، وكيف أن عينيك التمعتا حينما أخبرتَني بأن الموسيقي اليوناني الأبرز في بلده من رفاقك الأمميين.

بدأ المحتفلون بترديد أغنية، جعلت الاستماع إلى بعضنا عسيراً. أخمن أن ''تشارلي'' ردد بصوت أقوى ما أراد شرحه لنا: "بفضل قامتي القصيرة، رفضتني كل النساء اللواتي عشقتهن، فبقيتُ أعزب... قراراتي أتخذها كما أشاء لا كبعضهم..."

أشار، وهو يغمزني، إلى ''أَسعَد'' الذي تبدّت على وجهه ملامح السكر، غير أنه ظل محتفظاً بابتسامة عريضة تتعارض مع بلوغه هذه المرحلة.

"قد تأتيان غداً ولا تجدان المطعم لأني أكون قد بعته... أو قد تسمعان أن ''تشارلي'' رمى نفسه في نهر التيمز وغرق فيه..."

عاد صوت صاحب المطعم هذه المرة أكثر مرحاً: "إنها حرية الأعزب..."

لم يكن صديقك يتابع حديث ''تشارلي''. كانت عيناه مثبتتين على الراقصِين، فكأن انطلاق موسيقى ''زوربا'' دعوة له ليلتحق بهم.

ها أنذا أراه من موقعي، وهو يرمي سترته بطريقة استعراضية، ثم يفتح ذراعيه إلى أعلى، فيمضي في خطاه

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المتأرجحة أمام صفّ من المدعوين الذين تشابكت أصابعهم بعضاً ببعض، استعداداً لأداء دبكة على ذلك اللحن الشهير.

ما كنتَ ستفعل لو أنك في مكاني؟

لا أستبعد أنك ستترك المطعم تحت وطأة شعور بالحرج، أو لعل ''أَسعَد'' سيمتنع عن المشاركة خوفاً من غضبك الصامت عليه.

أما أنا فتجمدتُ فوق مقعدي العالي أمام الكاونتر متوقعاً حدوث ما لا يحمد عقباه.

وكم كنتُ على خطأ!

كم أظهر أولئك الشباب الأنيقون روحاً رياضية كريمة، فبدلاً من مواصلة دبكتهم اليونانية، راحوا يصفقون على ضربات الأوتار، وعلى أعينهم خليط من الاستغراب والإعجاب والشفقة وهم يراقبون هذا الطائر الغريب يهبط عليهم من كوكب آخر، ليشاركهم فرحتهم ويقاسمهم تقاليد رقصهم، على الرغم من خراقة حركاته، وسكره المفضوح.

* * *

بعد انتهاء وصلة الرقص لم يعد ''أَسعَد'' إلى موقعه، بل بقي وقتاً مع المحتفلين. من زاويتي كنت أستطيع رؤيته جالساً قرب العريسَين، ويداه تتحركان في الهواء، بينما تحلق عدد من الشباب حوله وهم يصغون إليه بانشداد واضح. كانت أساريرهم تتقلب بين الضحك والجدّ، مع تقلب مواضيع حديثه.

وأنا أراقبه عن كثب، استحكم فضول شديد بي: عمّ كان يتكلم صديقك؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تذكرتُ جملتك الشهيرة تلك التي ضحكنا على أثرها طويلاً: "لـو نزلـت كائنـات فضـائية علـى الأرض لكسـب ’’أَسـعَد‘‘ صداقتها، وتبادل العناوين معها..." وها أنذا أراه يفعل ذلك مع المتحلقين حوله بمن فيهم العريس.

* * *

حـال انتهـاء عـازف المانـدولين مـن مهمتـه تمامـاً، استرجعت مصـابيح الإضـاءة المغروسـة فـي السـقف كـل قوتهـا، وكـأن ’’تشـارلي‘‘ أراد بـذلك أن يعلـن عـن انتهـاء الحفلـة، ودعـوة الحاضرين للمغادرة.

تـدريجياً، تناقصـت الوجـوه أمـامي ومعهـا تناقصـت حـدة الأصوات، فأصبحت الكلمات أكثر وضوحاً.

ها نحن أخيراً لوحدنا في الصالة، بينما كان صاحب المطعم منشغلاً أمام خزانـة النقود فـي عدّ دخلـه، ونـادلاه فـي تنظيف الأرضية والطاولات.

قال ’’أَسعَد‘‘ وهو يشاهدني أتململ فوق مقعدي الخالي من الظهر والذراعين تهيؤاً للخروج: "تحب البقاء أطول هنا؟"

وكأنـه قـرأ دهشـة مـا علـى عينـيّ: "ولا يهمـك... يمكننـا أن نقضي وقتاً أطول إذا أحببت..."

كـان علـيّ أن أسألك إذا كنتَ ذهبت يومـاً إلـى ذلك المطعم، وإذا كنتَ قد بقيت مع صديقك فيه بعد إغلاقه.

قال ’’تشارلي‘‘ الذي لم يبدُ منه سوى رأسه ورقبتـه مـن وراء الكـاونتر عنـد وقوفـه أمامنـا: "بالتأكيـد يمكنكمـا البقـاء سـاعتين أخريين حتى ننتهي من ترتيب المكان."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

التفـتَ صـوبي مُطَمْئنـاً: "صـديقك هـو مثـل أخـي... نحـن متشابهان بكل شيء..."

"اذن أريـد دفـع الفـاتورة أولاً... بمـا فيهـا زجاجـة بـوردو أخرى..."

* * *

لا أخفيك أن الصالة لم تكن هادئة تماماً، مع تلك الطرطقات الخفيفـة والكلمـات الإيطاليـة المنغَّمـة التـي كـان ’’تشـارلي‘‘ والنادلان يتبادلونها.

غير أنهـا منحـت جلستنا بعداً حميمياً خاصـاً. هـا نحـن فـي مكـان لا يمـت بصـلة إلـى تاريخنـا الشخصـي، ولا علاقـة لـه بالماضي أو الحاضر.

"هل كنتَ مدعواً لحفلة العرس؟"

وكأن ’’أَسعَد‘‘ أوّلَ سؤالي سخريةً مقنَّعة.

"لا،" أجـاب صـديقك وهـو يكـرع الكـأس بالكامـل، "الفـرح عـدوى تصـيبني كلمـا شـاهدتُ حشـداً فرِحـاً... هـل تعـرف أننـا البشر، كما يقول ’’ماهر‘‘، نشترك بنسبة 99.9% من الجينـات... الفروقات كلها بذلك الكسر الضئيل الذي يحدد أمزجتنا..."

أعترف لـك بـأني لـم أكـن أنصـت تمامـاً إلـى مـا ظـل ’’أَسـعَد‘‘ يعيد قوله بصيغ مختلفة. أتذكر أنه قال شيئاً كهذا، أو قريباً منـه: "في ليلة كهذه بعد فنائي بقرون، سيمر شخص تتطـابق جيناتـه تمامـا مـع جينـاتي، بهـذا المطعـم، ويكـون صـاحبه ’’تشـارلي‘‘ آخر، بنفس قسماته الطفولية التي تراها الآن..."

لا أخفيك القول إني توجستُ من بلوغه مرحلة "التنمر" التـي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

اعتاد عليها بعد كل الكؤوس التي كرعها منذ وصولنا إلى ذلك المكان، لكن ''أَسعَد''، اليوم، كان مختلفاً عمن نعرفه: عينان نصف مغمضتين وابتسامة عريضة تضيء وجهه وعلى حافة فمه استقرت سيجارة شبه مطفأة.

وكم كنتُ على صواب!

"لمْ تسألني مع مَن ذهبت ''هاجَر'' إلى المتنزَّه ليلاً..."

جاء صوت صديقك فجأة، بارداً، متحشرجاً. ولعلي أستطيع أن أجزم بأنه كان يقاوم انفجار ضحكة ساخرة في صدره، عكستها استدارة غمازتي خديه والتماعهما، فخفف عنها بسعلتين قصيرتين.

ساد صمت عميق بيننا، يقطعه من وقت إلى آخر، صرير طاولة يسحبها أحد النادلَين، بينما يساعده ''تشارلي'' في إعادتها إلى موقعها الأصلي.

"إنه ''ماهر''،" قال صديقك، بينما ظلت عيناه نصف المغلقتين تراقبان الانفعال الذي أصابني، فدفع إلى احتباس أنفاسي، وارتفاع حدة نبضاتي.

لا أتذكر متى عاد صوت ''أَسعَد''، ليحكي بنبرة مخفّفة، عن عفوية اللقاء الذي جمع صديقه بهاجَر؛ فَتَحْتَ إصرارها على الذهاب إلى "هامِسْتِد هِيث" حتى من دون مُرافق، لم يبقَ أمامه خيار سوى الاتصال بـ''ماهر''.

وفي اليوم اللاحق حضر الأخير معه بسيارته إلى بيت الدكتورة ''عالية''، قبل حلول الظلام.

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أوشك عقربا الساعة المعلقة على الجدار فوق الكاونتر بلوغ الثانية صباحاً، بينما تعمقت العتمة حولنا، وعلى الجدار المجاور لنا بدا ظلانا متداخلين مع صورة فوتوغرافية لشارلي شابلن بقبعته وعصاه المشهورتين.

لم يبق في المطعم أحد سوانا، و''تشارلي'' الذي كنا نستطيع رؤية نصف قذاله من وراء الكاونتر، بفضل مصباح طاولة قريب منه. ولا بدّ أننا نسيناه لحظة واحدة ليغافلنا فيظهر فجأة فوق رأسينا، حاملا بيد واحدة كأسين صغيرين مترعين بالكونياك.

لكأنه من زاويته القصية قرأ ما كان يعتمل في نفس ''أَسعَد'' من إحباط وهو يسكب آخر قطرات النبيذ في فمه، أو لعله اعتاد على إخراج صديقه الحميم بهذه الطريقة الأنيقة.

"هذان كأسا الوداع هدية مني،" قال ''تشارلي'' بينما راحت عيناه تتنقلان بودٍّ غامر بيننا.

أتذكر كيف طفح البِشْر على عيني ''أَسعَد'' شبه المغلقتين وانفرجت أساريره وهو يربت على ذراع صاحب المطعم.

"هل تعرف اسم ''تشارلي'' الحقيقي؟" قال صديقك.

غير أنه أجاب عن سؤاله قبل إعطائي فرصة للتخمين.

"هل تصدق إذا قلت لك إن اسمه ''أنجِلو''؟" تمتم طاهر، "ألا تجده ملاكاً متنكراً بشكل إنسان ليجعل حياتنا أجمل؟"

قال ''تشارلي''، بنبرة اعتذارية، بينما طفحت حمرة على تقاطيع وجهه قبل عودته إلى الكاونتر: "لا تصدق ما يقوله، أنا عندي من الشرور ما يكفي لوضعي في أسفل طبقات جحيم دانتي."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عاد الصمت بيننا ثانية. كان ''أَسعَد'' يشبك كأسه بين أصابع يديه، وعيناه تحدقان في قاعه الأصفر: "نسيتُ أن أجلب الكاسيتات معي..." وحين قرأ استفهاما فوق عيني بادر قائلا: "فيها تسجيل كامل للمقابلات التي أجريتها مع عمّو... هو الآن نسيها تماماً..."

من مكاني كنت أستطيع رؤية ''تشارلي'' بجانب الباب الخلفي منتظراً تزحزحنا. قال ''أَسعَد'' وهو ينهض: "لماذا لا تأتي معي إلى بيتي؟ الباص الليلي يأخذنا إليه من أمام المطعم..." أضاف بنبرة معاتبة: "أنت لم تزرنا أبدا..."

وكأن صمتي كان موافقة على عرضه.

ألقى نظرة مواربة على الساعة الجدارية المجاورة لنا، فردد باقتضاب: "يجب أن نستعجل... الباص يصل بعد خمس دقائق..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

«AlfYaa منشورات «ألف ياء

المظروف الرابع عشر

بَوصَلة الوهم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(16 ديسمبر 1990)

لا بد أنك زرتَ شَقّة ''أَسعَد'' مراراً، ونمتَ على نفس الكنبة التي استضافتني لأقل من أربع ساعات.

أستحضرُ الآن ذلك الخليط من الأصوات الطفولية التي أيقظتني عنوة، وحين فتحتُ عينيّ بصعوبة كانوا هناك بجوار الباب نصف المفتوح، يراقبونني بفضول شديد: رؤوس أربعة أطفال بأعمار مختلفة تطل من فجوة الباب نصف المفتوح. وكأن نهوضي السريع، من الكنبة ودعوتهم للدخول إلى الغرفة أفزعهم فاختفوا تاركين وراءهم كركرات وصرخات متقطعة.

من النافذة الصغيرة الجانبية، تسرب عبر الفجوة القائمة بين الستارتين، نثيث ضوء باهت، جعلني قادرا على التمييز بين الكتل المختلفة الحجم داخل حجرة الجلوس. لا بد أن الساعة تجاوزت السابعة. أنت تعرف كم الليل طويل في هذا الشهر، ومع طبقات الغيوم الكثيفة التي ظلت ترافقنا خلاله، انقطع شعورنا بحلول النهار، على الرغم مما يبذله سعاة البريد وباعة الحليب من جهود لتذكيرنا به.

قد لا أبالغ إذا قلتُ لك، إن شكاً عميقا ساورني من حقيقة وجودي في شَقّة ''أَسعَد''، ولعل ذلك ناجم عن مسْح الذاكرة لاجزاء عديدة من شريط رحلتي معه إلى هذه النقطة. أتلمس باستغراب البيجاما القصيرة التي أرتديها، فتتلقّتُ عيناي باحثتين عن ثيابي، ها أنذا أراها أمامي، بفضل شعاع ضوء المصباح المتسرب من فتحة الباب الضيقة التي تركها الصغار وراءهم. كانت مصفَّفة بعناية على ظهر كرسي مرصوف في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

زاوية الغرفة المقابلة لي.

لا بد أن ''أَسعَد'' بذل جهودا شاقة، رغم شدة ثمالته، ليُضجعني على الكنبة، بعد خلع ملابسي، وإلباسي، كأم رؤوم، هذه البيجاما الرمادية المقلَّمة بخطوط زرقاء.

كذلك، لم ينسَ تغطية جلد الكنبة البارد بشرشف نظيف، ووضْع وسادة ناعمة تحت رأسي، ومدّ لحاف سميك على جسدي.

تشكلت قناعة عميقة في نفسي أن عُدّة نومي هذه، تظل جاهزة دائماً، لقدوم صديق ما برفقة صاحب البيت، وعلى الأغلب تقوم زوجته، ''مريم''، بغسلها بعد كل استضافة ليلية طارئة.

وأنا أتطلع إلى تلك الأشياء الصغيرة المبثوثة على سجاد الأرضية، حضرني سؤال جعل نبضات قلبي تتسارع أكثر فأكثر: ماذا لو أني كنت المبادر واقتدتُ ''أسعد'' إلى بيتي من دون إخبار ''لورا'' مسبقا؟

لكأن هذا السؤال فتح باب المقارنة واسعا بين عالمين يقيمان في نفس المدينة، لكن تفصلهما هوة شاسعة.

ولعل أهم اختلاف بينهما هو في طريقة تعاملهما مع الزمن. الأول محكوم بمبدأ السببية، والثاني بانعدامها تماماً.

مع ''لورا'' اعتدتُ طرد المصادفة بكل أشكالها من حياتي: كل شيء مخطَّط له مسبقاً، قبل سنة على الأقل من حدوثه: رحلاتنا السنوية أو تبديل أثاث البيت أو إجراء إصلاح ما عليه؛ ناهيك عن بوليصات التأمين المتعددة: بوليصة تأمين على الحياة وأخرى على البيت وثالثة على فقدان العمل ورابعة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

على الأثاث، وخامسة على صيانة الكهرباء وسادسة على الزلازل.... آخر بوليصة اقترحت ’’لورا‘‘ عليّ عملها، هي على الموت. والهدف منها عدم ترك أي من أقاربي الأحياء تحمُّل تكاليف جنازتي. إنها كما قالت: "لراحة البال."

بالطبع، كلانا كتب وصيته قبل سنوات عديدة، لدى مكتب محاماة بارز، ولذلك فنحن لم نترك للصدفة أي فرصة للتدخل لا في حياتنا ولا ما بعدها.

وهنا قد يحق لي أن أسألك: كيف سيكون رد فعل ’’لورا‘‘ على "نزوة" دعوتي المفاجئة لأَسعَد للمبيت عندنا؟

بالتأكيد، هي لن تعبّر عن موقفها بالكلمات، ويكون عليّ تعقبه فوق تقاطيع وجهها، وحركة عينيها وشفتيها.

كذلك، هي لن تذكّرني بتلك المواعيد التي كانت تضربها قبل أسابيع مع أمها.

"دعتني أمي إلى بيتها للشاي،" تقول ’’لورا‘‘؛ وأكاد أسألها، أكثر من مرة، دون أن أجرؤ: "للشاي فقط؟"

* * *

تسترجع شَقّة ’’أَسعَد‘‘ حياتها تدريجياً، كأنها طائرة بدأت للتو بتدوير محركاتها. ها هي أصوات أطفاله تعلو أكثر فأكثر، بين بكاء وضحك وصراخ. استطعتُ تمييز صوت ابنته البكر، ’’أمل‘‘، وهي توجه إرشاداتها لأخوتها الذكور بالكف عن الشجار، أسمع تلك الكلمة بين لحظة وأخرى: "إششش..."؛ كأنها كانت حريصة على إبقاء والديها مستمتعَين بالنوم، بينما هي تدير وحدها دفة السفينة الصاخبة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أغرانـي النهـار للقائـه، فنهضـتُ مـن الكنبـة، هـا أنـذا أخطـو صوب النافذة لأدفع بتمهل ستارتيها جانباً. أمـامي، كـان هنـاك ضـباب شـفيف، يفصـل عينـيّ عـن صـف مـن بنايـات بطوابـق ثلاثة؛ ولعل وجود شجرتين عـاريتين تمامـاً مـن أوراقهمـا علـى رصيف الشارع الضيق، عمّق فيّ شعوراً غريباً: كـأني فـي تلـك المسـاحة الفاصـلة مـا بـين طبقتـي النـوم واليقظـة، حيـث تفقـد الأفكـار الـدائرة فـي الـرأس، عبـر الكلمـات، كثافتهـا وتماسـكها، لتصـبح نوعـاً مـن هـذيان هلامـي، قبـل دخـول دائـرة الصـمت العميق أخيراً.

جـاء صـوت ’’أَسـعَد‘‘ غليظـاً صـدئاً ليخرجنـي مـن دوامتـي، ويـدفعني للائـتلاف مـع عالمـه الأُسَـريّ: "لاحظـتَ كيـف اختفـى الثلج كله؟"

أتذكر كيف أن احمراراً خفيفاً طفا علـى وجهـه، وهـو يراقـب الأشـياء المبعثـرة حولـه، فـراح يلـتقط علـى عجـل بعضـاً منهـا: رضّــاعة فارغــة، فــردة جــوراب، ملعقتــين، وربمــا صــحناً صغيراً...

اختفـى صـديقك دقـائق كانـت كافيـة لتبـديل ملابسـي، وكافيـة للتطلـع حـولي. علـى أحـد الجـدران عُلّقـت صـورة فوتوغرافيـة للوحـة: زقـاق بغـدادي تقليـدي، وحولهـا صـور عائليـة مكبَّـرة أخـرى، بالأسـود والأبـيض، تعـود إلـى أزمنـة أقـدم. قـدّرتُ أن تكـون أكبرهـا لأفـراد أسـرة ’’مـريم‘‘، وهـي بيـنهم حـين كانـت مراهقة.

تسـربت رائحـة البـيض المقلـيّ إلـى هـواء الحجـرة، مختلطـة بدمدمـة أقدام مسرعة تقاطعهـا، بين لحظـة وأخـرى، همهمـات غامضـة؛ كـأن تحضـيراً مـا كـان يجـري خلـف بـاب الغرفـة،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يتشارك في إعداده أكثر من شخص.

حضرني للحظة بيت أخي الأكبر الذي كنت أزوره أحياناً أيام الخميس، فنسهر إلى ساعة متأخرة، يعقبها تحضير كنبة غرفة الجلوس لنومي، وفي ساعة مبكرة من الصباح، ينفتح الباب إلى نصفه ليمد طفلاه رأسيهما بفضول صوبي، بالضبط مثلما فعل أبناء ''أَسعَد'' الأربعة.

* * *

في المطبخ، جلسنا حول طاولة صغيرة عامرة بأطعمة الفطور.

قالت ''مريم'' وهي تتطلع في وجهي: "اعذرنا عن التقصير..."

كأنها في هذه الجملة أرادت توجيه اللوم لأَسعَد ، أكثر من أي شيء آخر. فحتى بعد نفيي المتكرر وتأكيدي على العكس، ظلت عيناها تحملان حنقاً غاضباً على زوجها، يتضح كلما أدارت عينيها عني صوبه: "دائما يحرجني مع أصدقائه،" رددت كلماتها وكأنها تتحدث عن شخص غائب، قبل التحول إلى ضمير المخاطب: "أما كان عليك أن تخابرني أمس من كابينة تلفون..."

قاطعها ''أَسعَد'' وعيناه الضاحكتان الخجلتان تتنقلان بيني وبين قطعة الخبز في يده: "دكتور ''يوسف'' من أهل البيت... هو لا يحب الرسميات."

عاد صوته بعد ارتشافه، جرعة ساخنة من شاي "استكانِهِ": "نحن نسكن وسط المدينة، وكل شيء متوفر بالقرب منا،" قال صديقك مخاطباً ''مريم'' بنبرة خانعة دون أن ينظر إليها: "هذا

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الصباح خرجتُ إلى الحانوت الواقع في الركن، فأخذتُ منه البيض والخبز والجبن... صاحبه أجنبي مثلنا ومحله مفتوح سبعة أيام من الصباح حتى منتصف الليل... هو يبيع حتى بالدَين..."

"هه... بالدَين،" قالت ''مريم'' متأففة: "رَحْ تغرّقنا بالديون..."

علي أن أعترف بأن المطبخ كان أدفأ مكان في بيت ''أَسعَد'' و''مريم''، أو بالأحرى هو المكان الدافئ، عن حق، بين غرف المسكن الأخرى، فالحرارة المنبعثة من الطباخ الغازي، تظل محتبسة في الفضاء الصغير.

أسترجعُ، من وقت إلى آخر، خيط المناكدة الأسريّة التي دارت بينهما عن شؤون البيت اليومية، لكني لم أكن أتابع فحواها بقدر ما كانت أذناي تتعقبان بتلذذ لهجتهما البغدادية التي غابت عني طويلاً، بينما كان أنفي يلتقط من الجدران روائح الأكلات التي ظلت أمي تطبخها بانتظام.

ولعل ما زاد اندماجي في الجو، لغط الصغار المتسرب من وراء باب المطبخ المغلق، حاملاً مع الضحكات والصرخات خليطاً من كلمات بالإنجليزية والعربية، فتجعلني أشعر كأني في فراغ بأربعة أبعاد، كأن تلك اللحظة مفتاح سحري، يقودني في متاهة الذاكرة، من دون استرجاع تفاصيل محددة: أنا تحت وطأة شعور بالانخطاف؛ جنّي يسكنني، فيعيدني إلى بيت العائلة القديم الذي اختفى منذ سنين عن الوجود، وبيتكم قبل أن تتركوا المنطقة. تلك الروائح، التي تكلست دهراً في شراييني، تعود إلى الحياة بقوة هنا في هذه البقعة النائية التي تفصلها عن تلك المجرة سنوات ضوئية كثيرة.

أستفيق من ذهولي، على صوت ''مريم'': "ما رأيك بفنجان

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قهوة عربية دكتور يوسف؟"

لا بد أنها كررت السؤال أكثر من مرة، فأصابها اضطراب خفيف من عجزي عن الاستماع إليها، وإجابتها: هل كنتُ مستنكفا الرد عليها؟ أو أني شططتُ إلى مكان آخر، رغم اهتزاز رأسي بانتظام لحديثهما، ورغم تلك الابتسامة البلهاء التي ظلت ملتصقة على شفتيّ ."فكرة رائعة،" قلتُ متحمساً، "أنا ما شربتها من زمان..."

* * *

حتى بعد انتهاء حصة الكرتون، ظلت أعين الأطفال ملتصقة بشاشة التلفزيون. فسَّرتُ إصرارهم على البقاء معنا إلى خيط الدفء السائد في غرفة الجلوس، بفضل المدفأة الكهربائية المركونة قرب الباب، مقارنةً بالممر المُثْلج الذي تنتشر الغرف على طرفيه.

قال ’’أَسعَد‘‘، وكأنه كان يقرأ ما يدور في رأسي: "إنهم ينتظرون الأخبار..." أكملت ’’مريم‘‘ الفكرة التي كانت على طرف لسان زوجها، حين قرأت شيئا من الحيرة على عينيّ: "اعتادوا على رؤية الدبابات والطائرات والصواريخ..."

ردد ’’أَسعَد‘‘ شارحاً: "بالنسبة لهم، كلها مجرد ألعاب يتمنون لو..."

قاطعته ’’مريم‘‘، وعلى وجهها انشراح مفاجئ: "هم اعتادوا على وجوه ’’صدام‘‘، و’’بوش‘‘، و’’بيكر‘‘، و..."

"وخصوصاً وزير الخارجية البريطاني ’’دوغلاس هيرد‘‘،" أضاف ’’أَسعَد‘‘، قبل أن تسترجع زوجته خيط السرد: "هم يحبون شكله وصوته لأنه يذكّرهم كثيرا بِـ’’بَپّاي‘‘، شخصية

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

البحّار الكرتونية..."

قاطعها ’’أَسعَد‘‘: "هم يتوقعون أن يُخرج علبة السبانخ من جيبه مثل ’’پَپّاي‘‘، كلما عصف به الغضب..."

قالت ’’مريم‘‘: "وهو كلما ذكر اسم ’’صدّام‘‘ تقدح عيناه بغضب يشبه غضب ’’پَپّاي‘‘..."

* * *

أتذكر ذلك التقرير القصير الذي شاهدته معهما على شاشة التلفزيون، حين أعلن وزير خارجية ’’سَدَم‘‘، إلغاء سفره المقرر في هذا الأحد إلى واشنطن، للاجتماع بنظيره الأمريكي هناك.

كانت عينا ’’أَسعَد‘‘ تبرقان فرحاً وهو يتابع حديث "طارق عزيز" مع سياسي ألماني يزور بغداد عن الأسباب: إنها تلك الإهانات والتهديدات التي ما انفك ’’بوش‘‘ ومساعدوه الكبار من إطلاقها ضد ’’سَدَم‘‘، حال خروج كل الرهائن الأميركيين من العراق. لذلك فهو لا يستطيع الانخراط في جو عدائي كهذا.

مع ذلك أبقى المراسل خيطاً من الأمل: قد يذهب وزير الخارجية الأميركية، ’’جيمس بيكر‘‘، في السادس من يناير المقبل إلى بغداد.

قال ’’أَسعَد‘‘ ضاحكاً: "بين عشية وضحاها انقلبت قواعد اللعبة: من دعوة إلى المفاوضات إلى أمر بالخروج السريع عارياً كما خُلق... لا مساومة على بوصة من الأرض المحتلة، لا مفاوضات ولا يحزنون كما قال العم ’’بوش‘‘ قبل أيام."

قالت ’’مريم‘‘ ساخرة: "لا بد أنك تعرف بهذا الشيء بعد أن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

تحدثتَ معه على التلفون."

قال ''أَسعَد'' متجاوباً مع مناكدتها: "لا، ما أخبرني... رجال الاستخبارات باطنيون ولا تعرفين ما يريدونه حتى لحظة فعلهم... مسكين صاحبنا... لو كان يعرف مع مَن هو يلعب لأجَّلَ فعلته حتى خروج هذا البعبع من البيت الأبيض."

قاطع حديثنا مشهد إعلاني آخر، عن وصول قائد الفرقة المدرعة الأولى إلى الصحراء. ها هو اللواء البريطاني ''روبرت غراهام'' ينزل من هليكوبتر على إيقاع آلة مزمار القِرَب الاسكتلندية، احتفالاً بقدومه، فيمضي في خطوات ثقيلة متمايلة بفعل تحرك الرمال تحت جزمته العسكرية، وفي الأخير يقف أمام الكاميرا لأقل من دقيقة ليخبرنا بتباشير اكتمال وصول جنوده ودباباته وذخيرته في بداية يناير المقبل، ثم تنتقل عيوننا سريعاً إلى تحشيد آخر، يتواصل ليل نهار، كما تصفه المعلقة، فتظهر لنا دبابة تتقدم داخل مستودع لا أحد يعلم أين موقعه. فجأة، يظهر عضو كونغرس جاء لزيارة القوات الأمريكية، ليعلن لنا أن احتمالات وقوع الحرب زادت كثيراً عما كانت عليه قبل أسبوعين، وهذا لأن ''حسين'' ظل، حسب رأيه، يستخدم فرصة المحادثات كوسيلة للتلاعب بدلا من محادثات جادة.

ينتهي الفيلم الإخباري بطلقتَي مدفع شبيهتين بصفقة باب خشبي وسط صحراء شاسعة لا مبالية.

قال ''أَسعَد'' كاسراً، بمرح، حالة الصمت التي تلبستنا: "''صاحبنا'' أدرك الآن أن السهم انطلق منذ فترة طويلة، ولن يتوقف إلا بعد إصابة الهدف..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

على الرغم من تلك الدعابات الساخرة التي كانت ''مريم'' تُطلقها، من وقت إلى آخر، على زوجها، ظلت عيناها، طوال مكوثي في بيتهما، تحملان نقمة خفية من وجوده في حياتها. كأن مناكداتها المفاجئة تلك نوع من التنفيس عن حنق حبيس على الطريق الذي شطَّت قدماها إليه ولم يعد ممكناً الخروج عنه إلا بالمضي أكثر فأكثر في الحديث، الرتيب، الممل، عن مواهب أطفالها الخارقة، والتباهي بما حققه إخوتها وأبناؤهم من نجاحات باهرة في بغداد أو في بلدان الشتات، بينما يستجمع صديقك خلالها تماسكه، فتتنامى ابتسامة ساخرة، فوق عينيه، ثم يقاسمني إياها؛ ليقول لي عبرها شيئاً كهذا: "ألا يعتبر الاستماع إليها بطولة؟"

أتذكر أنك أخبرتني عن بطولة من نوع نادر كان ''أَسعَد'' مشهوراً بها في الكلية. أو هل يمكن تسميتها هكذا حقا؟

كان، حسبما ذكرتَ لي، يبالغ في تقديس زميلاته، إلى الحد الذي لا يستطيع أي طالب ترديد كلمة فاضحة بين أصدقائه الذكور عن إحداهن، كأنْ يعبّر عن إعجابه بردفيها أو ثدييها، وهذا ما جعلهم يمعنون في تعذيبه بتعابير جنسية مبتذلة في وصف إحداهن، من دون إعطائه فرصة للهرب، فيمضي غالقا كلتا أذنيه براحتيه، قطعاً للكلمات من أن تتحول إلى صور تشوه جوهر الأنوثة المقدس بالنسبة إليه.

ولعله، لهذا السبب، كان مغناطيساً يجذب الطالبات حتى من خارج صفه.

ما زال وصفك يحضرني، بينما تتسلل ابتسامة خجول إلى شفتيك، كيف كان الفتيان الغيورون يراقبون، عن كثب، صديقك الجالس أمام طاولة في مقصف الكلية، محاطاً بجمهرة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

من أجمل الطالبات.

ولا بد أنهم كانوا يلعنون الحظ الذي يعطي الجوز لمن لا أسنان له. فماذا سيفعل صديقك مع أي منهن غير الاستماع إلى شكاويها، وتقديم النصح لها إن كان لديها مشاكل مع أسرتها، أو في الدراسة، أو إذا كان قلبها ينبض بقوة عند ظهور زيد أو عمرو أمامها.

أتذكر أني سألتك مازحاً: هل كان ''أَسعَد'' عرّاب العلاقات العاطفية في الكلية؟

لكنك لم تجبني، واكتفيتَ بابتسامة، تدل على الإيجاب. كل ما أخبرتني به آنذاك هو أن ''مريم'' كانت طالبة معكما في نفس الكلية، وبصمتك المعهود تركتني دون مساعدة لأستنتج كيف اقترنت بـ''أَسعَد''، أو في الحقيقة بقاء السؤال معلقاً في خاطري.

لا أستبعد أن صديقك الوفيّ أفشى لك السر، في لحظة "تجلٍّ" عارمة، وأنت بطبيعتك المنغلقة، كتمته عني تماماً.

* * *

حتى هذه اللحظة، ينتابني شك عميق من أن ''أَسعَد'' صارحني حقاً بسبب اقترانه بمريم، إذ قد يكون حديثه عن الموضوع دار في مطعم ''تشارلي'' أو الباص، أو ربما هو مجرد افتراء اخترعته ذاكرتي المشوشة، وإلّا كيف تفسر اختفاء أكثر أجزاء تلك الرحلة منها، ولم يبق مخزوننا فيها إلّا ذلك الانطباع الباهت الذي تركه على عينيّ مشهد الشوارع الخلفية، خلال مشينا المتأرجح فوق أرصفتها الضيقة؟

كم بدا العالم المرئي لي وهماً، حين انعطفنا صوب المربع

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المخصص لمساكن البلدية في تلك المنطقة اللندنية، كانت رقائق البَرَد تتطاير في الفضاء كأنها فراشات بيضاء صغيرة، قبل سقوطها وذوبانها السريع على إسفلت الشوارع، بينما رسمت مصابيح الطريق القليلة الصفراء خلفية هلامية شاحبة، بفضل الضباب الشفيف الذي حوَّل الأشجار القليلة العارية من أوراقها، أذرعاً مرفوعة صوب سماء لا مبالية.

لعل آخر شيء علِق في ذاكرتي من إسرائنا الليلي ذاك، شتلات الصُّبَّير المدلاة من الدرابزون العازل بين الفراغ والممر الضيق الموصل إلى شَقَّة طاهر، حيث الجليد غطى قبابها.

وها هي الحكاية تبزغ بأكملها في رأسي، دون مقدمات.

* * *

أستطيع تخيل ''مريم'' (كما وصفها ''أَسعَد'') في أول سنتها الجامعية: صبية نزقة، حريصة، كما هي الآن، على الإعلان عن جوهرتيها النافرتين فوق صدرها، ولا تكف عن ارتداء تنورة قصيرة ضيقة تكشف وتخفي، في آن، وركين مقوسين بعناية وخصراً نحيلاً.

كانت ''مريم'' على عكس الزميلات المحلقات حول ''أَسعَد''، صريحة معه في التعبير عن رغباتها: "أبحث عن شاب وسيم ومرح وطيب،" وحين تطلّع لحظة في عينيها الصغيرتين المضطربتين، انفجرت بضحكة صاخبة، جعلت كل الرؤوس تلتفت إليهما في كانتين الكلية: "بالتأكيد، أريده مثلك..."

أتصور ''أَسعَد'' آنذاك شاباً خجولاً، جاداً، محكوماً بروحية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

فارس قَدَره إصلاح أي خلل تقع عيناه عليه.

ولعل ما يجمعكما معا تلك الطهرانية غير القابلة للوصف تجاه المرأة.

لا بد أن صديقك كان وراء اندفاع ’’مريم‘‘ للخروج مع زميلها ’’سين‘‘، إذ أغدق عليه كل الصفات التي لا يمتلكها أحد سوى الملائكة.

ولم يمض سوى شهر حتى عادت ’’مريم‘‘ إلى ’’أَسعَد‘‘ لتخبره بخطأ تقديراته.

كانت الدموع تتدفق بغزارة من مآقيها: "تصور أنه أخبرني دون أن يخجل بانتهاء علاقتنا،" قالت ’’مريم‘‘ بمرارة.

ولم يجد مرشدها، لمواساتها، سوى عبارات من نوع "هو الخَسران"، و"أنتِ أحسن منه بألف مرة"، و"كل الطلاب يحلمون..."

قبل أن يكمل جملته، ارتفع صوتها وسط نشيج متقطع خافت، بينما انفتح كفاها لا إرادياً فبدت كأنها تتضرع له وتلومه في آن: "مَن سيقبل بي بعد ما حدث... وماذا سيفعل والدي وأخوتي بي إذا عرفوا؟"

هل شعر ’’أَسعَد‘‘، في تلك اللحظة، بأنه المسؤول الأول والأخير عما حدث لمريم، وأن عليه إنقاذ العالم، حتى لو دفع حياته ثمناً، حين بادرها بالسؤال بنبرة، مترددة، خجولة: "تقبلين بي؟"

* * *

قبل خروجي من بيته، صاح بنبرة اعتذارية: "لحظة من

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

فضلك... نسيتُ أن أعطيكَ ما وعدتكَ به..."

ولم يمض وقت طويل حتى عاد وفي يده كيس بلاستيكي . "لقد وضعتُ كاسيتات ''عمّو'' فيه."

وبعد صمت قصير، كأنه كان يريد قراءة رد فعلي خلاله: "ربما تفيدك في بحث أكاديمي جديد."

إلا أن ما دفع أنفاسي للتسارع تلك الجملة التي رددها بصوت خافت وحذر مخافة أن تسمعه ''مريم'': "هناك رسالة في الكيس لك أيضاً."

أردتُ أن أسأله عن مصدرها رغم يقيني المطلق بأنها من ''هاجَر''، لكن الكلمات التصقت في سقف فمي، ولا بد أنه حَدَسَ ارتباكي، بتجمد أصابع كفي حول ذراع الباب. كانت الرغبة الوحيدة التي تسلطت علي آنذاك الخروج خطوتين والاختلاء بنفسي لأنقضّ على الرسالة، لكن الرياح لا تجري، إلا ما ندر، وفق ما تشتهيه السفن.

أفتح الباب أخيراً، فأفاجَأ بشخص أمامي، لم تسمح لي عتمة الممر بتبيُّن ملامحه، لحظةً واحدةً، كانت كافية لأَسعَد للتدخل مرحِّباً بحرارة: "جئتَ في وقتك... الدكتور ''يوسف'' موشك على مغادرتنا."

قال ''ماهر'' معاتباً مضيفي: "كان عليك أن تخبرني أبكر... مع ذلك، ما زلنا في أوائل المساء، وشقّتي ليست بعيدة من هنا..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

المظروف الخامس عشر

شِباك غير مرئية

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أشك أنك ذهبتَ يوماً إلى مسكن ''ماهر''، أو سألتَ ''أَسعَد'' عنه، ففي أعماقك يسكن شعوران متعارضان تجاهه: نفور شديد من "مجونه" الذي ظل صديقكما المشترك يخبرك عنه، وانشداد قوي إليه، إذ بفضل وجوده في حيز ذاكرتك تستطيع تلمس خصائص ذاتك، واسترجاع هويتك كل صباح، حتى بغياب وسط اجتماعي ثابت تتفاعل لا إرادياً معه: أن تكون نقيضه تماماً.

في غرفة الجلوس، كانت صورة ''آفا غاردنر'' المكبَّرة تتوسط أحد جدرانها العارية، وكأنها بفضل الضوء الخافت المبثوث في الفراغ، واستدارة رقبتها قليلا صوب المُشاهد، جندت سحر عينيها اللوزتين، الجادتين، لتأسره في قبضتها، ولعل لون فستانها الخمري وجلستها على كرسي مائل مغطى بصوف أبيض، عمّقا سحر تلك اللحظة، وحرّراها من العدم، لتبقى هنا وراء زجاج الإطار الذي حبسها ''ماهر'' فيه.

خطر لي، وأنا أستحضرك أمام الشبكة المفروشة بالكامل تحت السقف، هذا السؤال: كيف سيؤوِّل ''جليل'' "الثوري" اهتمام ''ماهر'' الجلي بإدهاش ضيوفه، عبر أشياء باطلة؟ هل شاهدتَ من قبلُ مصابيح في هيئة محارات صغيرة ينبثق الضوء من فتحاتها الضيقة؟ ولعل ما زاد المكان غرابة بروز قط كسول توقف لحظة عند باب الغرفة ثم راح يتقدم صوبي بحذر ليقف على بعد ذراعين عني. قال ''أَسعَد'' متباهياً كأنه المالك الحقيقي له: "إنه من سلالة الفصيلة السيامية الأصيلة... انظر إلى عينيه الزرقاوين، هل شاهدتَ من قبل مثلهما؟" وقبل أن أبدي إعجابي بهما، أو بأي شيء آخر فيه، ارتفع صوت

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

صديقك بنبرة ساخرة: "لا تستغرب إذا لم يرحب ’’نيرو‘‘ بك، فهو بالتأكيد مندهش من زيارة رجل غريب هذا البيت."

* * *

لا أتذكر كيف جرنا الحديث إلى ’’هاجَر‘‘. لعل وراء ذلك قطرات المطر التي ظلت تنقر على زجاج النافذة، أو ستارتها الداكنة الحمرة، أو قرقرة ’’نيرو‘‘ نصف النائم في حضن ’’ماهر‘‘، بينما ظلت يد مضيفنا اليمنى تمسد بتأنٍ قمة رأس قطه المائل إلى السواد، هابطةً إلى فراء جسده ناصع البياض.

ومن موقعي كنت أنقّل البصر بين صديقك الجالس أمامي والمشغول دائما بملء كؤوسنا، ونقيضك الجالس إلى يساري، على كنبة تتوسط جدار الغرفة المقابل لبابها. ولا أستبعد أن مقارنة ما أثارتها عيناي الفضوليتان بينهما. فإنْ بدا ’’أَسعَد‘‘ وكأنّ على رأسه الطير في مسعاه الدؤوب لإرضائنا، بينما خرج جزء من حافة قميصه الباهت اللون فوق سرواله الجنز القديم، كان ’’ماهر‘‘ هادئاً تماماً، ومفرِطا كالعادة في العناية بقيافته؛ ببدلته الفاخرة، وقميصه الحريري، وشعره المصفوف بعناية، ولا بد أنك تتذكر طوله ورشاقته اللذين بدوا لي آنذاك متماهيين مع طول ورشاقة قطه ’’نيرو‘‘، فكأنهما جسّدا معاً، في تلك اللحظة، مفهوم الأناقة بأحسن تجلياتها.

جاء سؤال صديقك ’’البريء‘‘ خارج سياق عبارات المجاملة وسعينا الدؤوب لإيجاد إيقاع ندوزن عليه ذلك اللقاء الذي حكمته الصدفة المحض؛ صدفة بقائي دقيقة إضافية في شَقّة ’’أَسعَد‘‘ و’’مريم‘‘ قبل وصول ’’ماهر‘‘ إليها.

"لم تحكِ لنا ما جرى لكما في متنزه "هامستد هيث"،" قال

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

’’أَسعَد‘‘ وهو يزيح بصره عني قليلا، متظاهراً بأنه لا يرى انعكاس كلماته على وجهي.

قد لا أبالغ إذا شبّهتُ حالي بحال حيوان برّي يسقط فجأة في فخ غير مرئي: ها هي نبضات قلبه تتصاعد بجنون، بينما تعجز رئتاه عن إخراج الهواء الفاسد منها، وتتصلب عضلات حنكه الأسفل، وتتهالك نهايات أطرافه.

لكني لحسن الحظ، كنت قادرا على مد ذراعي والإمساك بجوانب كأسي في منتصفه، ثم إفراغ ثمالته دفعة واحدة في جوفي.

قال ’’ماهر‘‘ وهو يدفع بالقط عن حضنه إلى أرضية الغرفة المغطاة بسجادة فارسية: "كانت ليلة بيضاء بحق، لم أعش مثيلا لها من قبل..."

* * *

أستطيع الآن، بعد مرور سنوات على حديث مُضيِّفنا المتقطع والمنتشي، عن إسرائه الليلي مع ’’هاجَر‘‘، إعادة خيوطه لك، رغم أنه قد يؤلمك، مثلما آلمني وأنا أسمعه جرعة مريرة وراء أخرى، بفاصل يملؤه صوت "بول مكارْتني"، منبثاً من جهاز تسجيل ستيريو فخم. لا بد أن تلك الكلمات ظلت عالقة في ذاكرتي كالدبق لأنها عكست حالتي في تلك اللحظات: "أمس، كان الحب لعبة سهلة الممارسة، والآن أنا أحتاج إلى مكان أختفي فيه..."

كان الوفر يتساقط دون ملل في هيئة رقائق بيضاء، من سماء شاحبة معطاء حوَّلت الأشجار المحيطة بذلك المرج

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفسيح، الذي تتعثر أقدامهما على عشبه المخضلّ، إلى منارات مشبعة بضوء طبشوري، ظل يتغلغل في عتمة الفضاء.

يأتيني صوت ''ماهر'' هامساً: "حين التفتُّ إليها بدا وجهها مُشِعّاً ولا بدَّ أنها رأتني بنفس الشكل."

بدأت الأرض ترتفع دُرُجاً تحت أقدامهما، فراحت خطوات ''هاجَر'' تتثاقل أكثر فأكثر، وفي لحظة، تشبثت لا إرادياً بذراع ''ماهر'' اليمنى لتدفع جسدها المتثاقل بفعل الجاذبية إلى أمام.

فجأة، برزت أمامهما تلك الربوة التي شاهدَتْها قبل يوم واحد على شاشة التلفزيون، ولم تصدق عينيها أن ما تراه الآن حقيقي وأجمل بكثير من صورة الأمس التلفزيونية.

كان السطح المائل مُناراً بضوء غريب؛ خليط ما بين بياض طبقة الثلج الصاعد إلى أعلى وصفرة الغيوم الهابطة إلى أسفل... كأنهما كانا في قاعة مسرح سحري، حسب وصف ''ماهر''، حيث يتزلج الشباب الصاخب دون انقطاع على خشبته.

* * *

بين قطبي الحب والكراهية شعور ثالث خفيّ يتوسطهما، وهو مثل محرار يتحرك الزئبق القلق فيه بتبدل درجات الحرارة خارجه: إنه النفور.

قد تتضايق إذا قلت لك إنه سلاحك الأقوى الذي تستخدمه لحماية نفسك، فحال خروج الآخر قليلا عن معاييرك المطلقة، ترفعه عليه، في هيئة خط عميق وسط جبينك، يتبعه تقلص محجري عينيك في وجهه، كأنك تسعى بذلك إلى تصغيره تحت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عدسة مخصصة لهذا الغرض، ولعل ذلك يجعل كل من يعرفك متحفظاً في التعامل معك، إن لم يكن متخاذلا أمامك، ومنساقاً إليك.

أسوأ أنواع النفور هو ذلك المجاور لعاطفة الحب. فهو يفتح لك بخبث باب الجحيم، ثم يُدخلك إليه دون أن تدري، وحين تعي وقوعك فيه يكون الوقت متأخراً.

ولعل أفضل موقع للنفور حين يكون في وسط محرار العاطفة الافتراضي، بين الحب والكراهية، فأنت تتحرر من عذابات الشعور الأول وشرور الثاني، بتحييدهما معاً، فيصبح الآخر كائناً غريباً تماماً بالنسبة لك.

غير أني كنتُ بعيداً جداً عن هذا الخيار المفضل، فكأن كلمات ''ماهر'' المتباهية، بما حققه في تلك الليلة مع ''هاجَر''، خيط ظل يجرني إلى الخيار الآخر، بينما ظل ''أسعَد'' حريصاً على ملء كأسي بالكونياك حتى قبل نفاده.

هل كان صديقك متواطئاً مع ''ماهر'' في إيقاعي بحبائل الثمالة؟

* * *

قبل صعودهما في سيارته، لمح ''ماهر''، تحت مصابيح الشارع الصفراء، سترة ''هاجَر'' الصوفية: كانت مشبعة بالماء الى الحد الذي راحت قطراته تتسرب دون انقطاع من حوافها، فقدّر أن المطر تغلغل في بلوزها وقميصها بل وحتى ملابسها الداخلية.

سألَتْه بكلمات مرتعشة، لكنها مرحة: "كيف بقيت ثيابك ناشفة؟"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"أنـا ألـبس سـروالاً ومعطفـا وجزمـة مضـادة للمـاء،" أجـاب ''ماهر''.

"أصـبح سقوط المطر في بغداد مناسبة نـادرة نحتفل بهـا... أنتم محظوظون."

أضافت ''هـاجَر'': "فـي كل الأحـوال هذه مناسبة واحـدة فـي العمر لن أنساها أبداً... تَنَقُّع تام لمرة واحدة لا يضرّ كثيراً..."

"شـقّتي قريبــة مــن هنــا... خمـس دقـائق ونصـلها..." قــال ''ماهر''، وحين رأى استغراباً في عينيها، تمتم مبرراً اقتراحـه: "يمكنـكِ تنشيف ملابسك فيها قبل عودتك إلى بيت الدكتورة ''عالية''... وبالطبع، تتدفئين قليلاً."

سـألته ''هـاجَر'' بعـد لحظـة صـمت: "كـم مـدة الرحلـة إلــى بيتها؟"

"مع الثلج المتساقط سنحتاج على الأقل إلى ساعة وربع..."

وكأنهـا، وللحظـات، ظلت تداور اقتـراح ''مـاهر'' فـي ذهنهـا قبـل أن تجيبـه، بكلمـات تصطك بعضـها ببعض من شدة البرد المتغلغل في عظامها: "إذا رأتني خالتي هكذا ستقتنع تماماً بـأني مجنونة."

* * *

حل صمت عميق بيننا، كنتُ خلالـه تحت وطـأة هلاوس من نـوع خـاص، فـي هيئـة أسئلة تتكـاثر داخل رأسـي كالبكتيريـا، فأرددهـا فـي أعمـاقي، دون أن يسـمعها الآخـران: هـل نشـرت ''هاجَر'' ملابسها الداخلية المبلَّلة فوق هذه المدفأة المجاورة لـي لتنشيفها، أم فـي مـدفأة غرفـة النـوم؟ وهـل أعطاهـا مـاهر ثـوب

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

إحـدى محظياتـه، أم دخلـت تحـت لحـاف سـريره عاريـة حتـى جفاف ملابسها؟

بل إن مخيلتي مضت أبعد من ذلك: ها أنذا أتخيلهما يتبادلان القُبَل على نفس الكنبة الجلدية التـي كـان ’’مـاهر‘‘ يحتلهـا، بينمـا يلفهما معاً غطـاء صـوفي سميك، ويراقبهمـا القط ’’نيـرو‘‘ عـن كثب باندهاش شديد.

كدتُ أسأله، تحت وطأة حنق عاصف اجتاحني، عن الخانـة التـي أدخـل ثـديَي ’’هـاجَر‘‘ فيهـا وفـق نظريتـه سيئة الصيت: "الأخدود"، لكن تدخل ’’أَسعَد‘‘ المفاجئ أعادني إلى سكة العقل بهذا السؤال: "هل ستقع الحرب، فعلا، بعد 30 يوماً؟"

"قرأتُ تقريراً يشير إلـى أن ’’صـدام‘‘ أعطـى أوامره برسم الحدود مع الكويت،" قال ’’ماهر‘‘، "لكن الأسلاك الشائكة التـي نصبها تضم حقل نفط ’’كويتي صغير‘‘."

أظن أني سألته آنذاك: "إذن هناك مفاوضات وراء الستار؟"

"ليس مستبعداً... لكنـي أشـك فـي نجاحهـا..." رشـف ’’مـاهر‘‘ جرعة من كأسـه، قبل إنهـاء جملتـه: "مضـت فترة طويلـة علـى تسويق بضاعة الحرب والأغلبية أصبحت تتقبلها..."

تـذكرتُ مـا قالتـه ابنتـي البكـر ’’سـوزان‘‘ عـن استفتاء أجراه فريق من طلاب السنة النهائية، فـي مدرستها، حول مدى تأييد فكـرة شـن حـرب علـى العـراق، بعـد شـهادة الصـبيّة الكويتيـة "نيّـرة" أمـام الكـونغرس بأسـبوع، فكانـت النتيجـة مذهلـة: أيَّـدَ حوالي 80 في المائة من الطلاب المستجوبَين شنها.

قـال ’’أَسعَد‘‘ سـاخراً: "’’صـدام‘‘ سينسحب مـن آخـر بوصـة احتلها قبل الأجل النهائي بيوم..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف السادس عشر

كرة الثلج (1)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(28 ديسمبر 1990)

(1)

لا بد أنك تتذكر تلك الأيام التي سبقت رأس السنة الجديدة، أو على الأقل تتذكر لقاءاتنا المتكررة، بحثا عن أخبار جديدة غير ما نسمعه على شاشة التلفزيون أو ما نقرأه في الصحف. مع ذلك كنا نقضي معظم الوقت صامتين.

منذ بداية هذا الشهر وأعصابنا كرة يتبادلها ’’بوش‘‘ و’’سَدَم‘‘ عبر آلاف الأميال.

’’بوش‘‘: "سأبعث وزير خارجيتي، ’’جيمس بيكر‘‘، إلى بغداد للتباحث مع الرئيس العراقي حول حل سلمي."

’’بيكر‘‘: "المباحثات لن تكون مفاوضات حول ما قرره مجلس الأمن الدولي من انسحاب العراق الكامل من الكويت."

’’بوش‘‘: "سنستقبل وزير الخارجية العراقي، طارق عزيز خلال هذا الشهر، وفي الاجتماع سيحضر سفراء مصر والسعودية والكويت."

’’سَدَم‘‘: "عندما يحضر وزير الخارجية الأميركي إلى بغداد سيشارك وفد فلسطيني في الاجتماع."

’’بيكر‘‘: "احتلال الكويت لم يكن من أجل مساعدة الفلسطينيين."

’’سَدَم‘‘: "لن أبعث وزير خارجيتي إلى واشنطن لكي تقدَّم له محاضرة في البيت الأبيض، عما يجب علينا فعله."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غير أن الإيقاع تغير فجأة؛ ببروز إله الحرب الإغريقي، ’’أيرِس‘‘، من وسط الغيوم، متجسدا بوزير الدفاع الأميركي، ’’ريتشارد تشيني‘‘، الذي على ضربات طبله رحنا نسترجع صور مدينة هيروشيما المنكوبة: "الساعة تتكّ باتجاه الحرب،" وحين سأله أحد الصحفيين عما إذا كانت القوات البرية والبحرية الأميركية مزودة بالأسلحة الكيمياوية والبيولوجية والنووية، رفض الإجابة، لكن الصحيفة أشارت إلى أن حاملات الطائرات التي تتحرك في الخليج والبحر الأحمر تحمل عادة أسلحة نووية. بدلا عن ذلك فضّل الإجابة بطريقة ملتوية: "تحت تصرف الرئيس "طيف كامل" من الأسلحة المتوافرة إذا اندلعت المواجهات الحربية الآن أو بعد انقضاء الأجل الذي حدده مجلس الأمن بتاريخ 15 يناير."

بعد يومين، خفتت نبرة ’’بوش‘‘ الاستفزازية لتحل محلها الرغبة بالمساومة، بإعلان استعداده لربط أزمة الخليج بملف فلسطين، وتنظيم مؤتمر سلام شرق أوسطي مقابل انسحاب العراق من الكويت.

بل مضى خطوة أبعد، جعلتنا نتنفس الصعداء، حين قلل هو وقادة جيشه الكبار من أهمية الأجل النهائي المحدد في قرار الأمم المتحدة، إذ أصبح يشار إليه بأنه تاريخ "التفويض" بدلاً من تاريخ بدء الحرب.

غير أن التسويق لها (كما يسميه ’’ماهر‘‘) لم يتراخَ قط: كل يوم، كان هناك إعلان إخباري يُهيّئ الجمهور لها، عبر تكراره على شاشة التلفزيون، ونشره مع صور مثيرة في كل الصحف الوطنية :’’بوش‘‘ يأمر بتلقيح جنوده في منطقة الخليج ضد الأسلحة الجرثومية، بعد تحذير مدير وكالة الاستخبارات

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المركزيـة، "ويليـام ويبسـتر"، مـن قـدرة العـراق علـى اسـتخدام مخزونــه الضــخم منهــا فــي أوائــل الســنة الجديــدة، وفــي هــذا المخــزون جــراثيم متعــددة مثــل التيفوئيــد والكــوليرا والجمــرة الخبيثة"؛ في يوم آخر، صورة تجمع رجلاً وامرأة يرتدي كل منهمـا قناعـاً واقيـاً مـن الغـازات السـامة، فظهـرا كأنهمـا كلبـان سلوقيان يقفان باستقامة على طرفيهما الخلفيين.

(2)

ما زال ذلك اليوم الذي قضيته وحيداً في بيتي عالقا بقوة في ذاكرتي.

كانت ''لورا'' قد سافرت قبل يومين إلـى "سومرست"، حيث يسـكن أخوهـا ''مـارك''، برفقـة ''سـوزان'' و''منـى''. ولعلـي أخبرتك أني لم أحتفل مع أسرتي بعيد الميلاد في بيت حمـاتي، ''مارغريت''، ولا بد أن زوجتي شعرت بـالحرج، وهـي تعتـذر لأمها عن عدم مشاركتي إياهم غداء "كريسماس" الدسم، مثلمـا هو الحال كل سنة، مفضلا البقـاء وحـدي فـي البيـت. ولا أستبعد أنها بررت ذلك بسبب وضـعي النفسـي، النـاجم عن قلقـي علـى أقاربي في بلدي الأصلي الذي لم أذكره يومـا من قبلُ أمامهـا، مع اقتراب نشوب الحرب ضده.

عدتُ لرسالة ''هـاجَر''، ولا أخفيكَ القول إنـي قرأتهـا مـرات عديدة، ما جعلها محفورة في رأسي كنقش علـى حجر صلد.

وقد تستغرب أني أضعتُ وقتا طويلاً معها بدلا من تمزيقهـا فوراً، بعد كل ما سمعته عنهـا من ''مـاهر''. توقفتُ طـويلاً عند هذه الجمل غير المترابطة: "صدِّق أو لا تصدِّق :''مـاهر'' طلب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

يدي... أنا يهمني رأيك كثيراً، فمكانتك كبيرة عندي، ولا أحد عندي أستشيره غيرك... انصحني رجاءً..."

كأن الرسالة أطلقت ثانية كل الشياطين التي سكنتني في شَقّة ''ماهر''. أتذكر كيف حاصرني آنذاك شعور عميق بالشقاء وأنا أكتشف مدى تعلقي المجنون بها، على وقع كلماته التي ظلت تنغزني كإبر، خلال حديثه عن رحلتهما السحرية إلى متنزه "هامستد هيث".

أظن أن شكّاً مرضيّاً ساورني بوجود ''هاجَر'' في غرفة النوم، حين انتقل بصري إلى طرف الشَقّة الآخر. كنت أستطيع رؤية بابها الموصد، عبر باب حجرة الجلوس نصف الزجاجي، وأستطيع تمييز لون طلائه الغريب.

بِربّك مَن سيختار اللون الزهري الفاتح لباب غير الصبايا الناعمات؟ وهل هو جزء من فخ ينصبه مضيفي لزائراته؟ نوع من خلق الفضول البريء في نفوسهن لاستكشاف ما وراءه. حضرتني جملة ''أَسعَد'' العابرة حين كنا في مطعم تشارلي: "لا تدخل امرأة شَقّة ''ماهر'' إلا وتركت تذكاراً حميماً فيها..." وحين سألته عن طبيعة هذا التذكار، اكتفى بضحكة طفولية. قبل أن يتمتم: "لا أعرف... هذا ما قال لي ''ماهر'' مازحاً..."

(3)

قد تكون شهادتي غير مقبولة إذا قلت إن ذائقة ''ماهر'' فاقعة في اختياراته لألوان الجدران والأثاث، ولعل التنافر القائم بين قطع شقته المختلفة ناجم عن نصائح نساء عديدات مررن في حياته على عجل وتركن بصماتهن عليها هنا وهناك.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

خـلال السـاعات القليلـة التـي جمعتنـي بـه فـي مسـكنه، بقيـتُ أراقبـه سـعياً لاستكشـاف تلـك الصـورة المتهتكـة والمستبدة التـي رسـمها ’’أَسـعَد‘‘ لـه، لكنـي لـم أكتشـف الا شخصـاً آخـر شـبيهاً بـالكثير مـن أبنـاء هـذا البلـد، فـي حيـائهم، وتقليلهم مـن شـأنهم، وعـدم التعبيـر عـن آرائهـم الحقيقيـة تجنبـاً لأي صِـدام معـك، فأقصـى مـا يقولـه أغلـبهم إذا كـانوا لا يوافقـون علـى مـا تقولـه تمامـاً: "لا أدري".

شيء واحد يختلف ’’ماهر‘‘ به عن غيره هو حرصـه الشديد على أناقة تقليدية تبدو مثيرة للسخرية اليوم، فكأنـه موظـف فـي وكالـة عقـارات أو مصـرف يقابـل باسـتمرار زبـائن، ويجـب إقناعهم بمكانة المؤسسة الرفيعة التي يعمل فيها عبر قيافته.

غيـر أنـي أتصـوره يـؤدي الـدور نفسـه حتـى بحضـور امـرأة دعاها إلى بيته، فلعبة الغياب التي يمارسها مع ضيوفه تمنحهم شعوراً بالحرية، لكأنـه عارضـة أزيـاء عليهـا تغييـب شخصـيتها لصـالح تسـويق الثـوب الـذي ترتديـه أمـام الجمهـور، فحتـى لـو كانـت شـبه عاريـة فإنهـا لـن تـوقظ الغريـزة عنـد الحاضـرين الذكور.

لعلـه يريـد أن يقـول لضـيفته مُطَمْئِنـا مـن دون كلمـات: "أنـا لست هنا إلا طـوع بنانـك، فكل مـا تـرين فـيّ لـيس سـوى امتداد للأشـياء الصـغيرة التـي انجـذبتِ إليهـا حولـكِ (رغـم ضـآلة أهميتهـا) بمـا فيهـا القـط ’’نيـرو‘‘ وطـاقم بـدلتي الكلاسـيكية، وقـد تثيـر حيـاديتي تجاهـكِ، شـعوراً بـانجراح الأنثـى فيـك، فتسـعَين لاستكشاف ما يخفيه سطح الماء الهادئ من أمواج..."

لا بـد أن رغبـة جامحـة غمرتنـي فـي لحظـة مـا للـدخول إلـى غرفـة نومـه ومشـاهدة محتوياتهـا، لكـن علـى مـا أذكـر، اقتـرب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

’’نيرو‘‘ آنذاك مني، كأنه كان يقرأ ما يدور في رأسي، وحين ربتُّ على حضني دعوةً لاستضافته، لم يجد حرجاً في القفز بخفة إليه والبدء بالقرقرة.

(4)

من غرفة الجلوس في بيتي، كنت أستطيع سماع عويل العاصفة، يتسلل واهياً عبر زجاج النافذة المحاذية للحديقة الأمامية الصغيرة، فيكسر حدة الصمت المطبق عليه.

ستبقى ’’لورا‘‘ والبنتان في منطقة "سومرست" حتى بداية السنة الجديدة مع ’’مارك‘‘ وأسرته، ولا بد أن العواصف هناك أقوى مما هي عليه في لندن لقربها من البحر، فحسب النشرات الجوية، التي طالعتها في الصحف اليومية، شهد ريف إنجلترا الجنوبي الغربي انقطاع الكهرباء في بعض قراه وبلداته بسبب رياح البحر العاتية، مع ذلك أصرت زوجتي على البقاء في بيت أخيها حتى انتهاء عطلة أعياد الميلاد.

هل أرادت أسرتي الهرب أقصى ما يمكن من الاضطراب الذي تسببتُ في إحداثه على حياتها الرتيبة الخالية من المفاجآت؟ فمنذ عودة ’’كريس‘‘ إلى لندن، كفت زوجتي عن شراء صحف أو متابعة الأخبار "المزعجة" على شاشة التلفزيون واكتفت بمتابعة المسلسلات وحفلات الجاز والأفلام الروائية أحياناً.

أتذكر كيف أن وجنتيها احمرتا حين سألتها ’’منى‘‘ عنه. تلكأت قليلا بينما حدقت لحظة في وجهي بحثاً عما كان يدور في خلدي. تمتمت: "هو بخير..." ثم أضافت بنبرة مخففة:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

"كانت الظروف قاسية قليلا هناك..."

قالت ’’منى‘‘: "هل تعرض للتعذيب؟" وحين أجابت أمها بالنفي، سعيا لإغلاق الحديث عن عشيقها السابق، صاحت ابنتي بانفعال: "كيف لا... من يُخرج الخُدَّج من الحاضنات ويدعهم يموتون أمامه لا يردعه شيء عن تعذيب الرهائن..." ومثل كل مرة، خرجت غاضبة من الغرفة، وصفقت الباب وراءها، وهي تردد عاليا: "وحوش... يستحقون الإبادة..."

(5)

كانت الصحف في غرفة الجلوس إحدى علائم الفوضى المرئية، فحال دخولك فيها، يصطدم بصرك بأكداس منها، منتشرة في كل مكان؛ على طاولة القهوة وتحتها، وبجانب التلفاز، وفي الزوايا، وتحت الكنبة، عدا عن تلك القصاصات المغروزة على ظهر لوح فليني مستند إلى قاعدة أحد الجدران.

أتذكر أني هاتفتك في ذلك اليوم، لأبشرك بالأخبار السعيدة التي قرأتها للتو على صفحات الجرائد التي اشتريتها قبل ساعتين أو ثلاث: كانت هناك اتصالات للمرة الأولى، بعد مرور أسبوع، بين السفارة الأميركية في بغداد ووزارة الخارجية العراقية خلال عيد الميلاد، ما خلق تفاؤلاً واسعاً من أن الحرب سيمكن تلافيها.

وما عمّق هذا الشعور استدعاء ’’سَدَم‘‘ لسفرائه في دول الغرب واجتماعه بهم ليُعلمهم باستعداد بغداد للمحادثات مع أميركا.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بل ذهبت صحيفة أخرى أبعد من ذلك، حين أشارت إلى انتشار شائعات كثيرة في بغداد عن اقتراب الانسحاب من الكويت، ولغرض تحقيق ذلك بطريقة مسرحية، هناك مظاهرة شعبية كبيرة يهيئها أعوان ’’سَدَم‘‘ تحث على الانسحاب، فيضطر الأخير إلى تلبية التماس رعيته له رحمةً بهم.

ولعل هذه التقارير المفرحة جعلتني أنسى العنوان الذي قرأته آنذاك في نفس الجريدة: "استدعاء 500 شخص يمتلكون خبرات طبية للالتحاق بالجيش البريطاني."

(6)

سرقتني إغفاءة قصيرة على الكنبة، فتسلل ’’سَدَم‘‘ إليّ عبر حلم قصير خالٍ من الكلمات. ها أنذا أراه واقفا على سكة حديدية داخل محطة مترو تحت الأرض، حيث القطارات السريعة بكلا الاتجاهين لا تكف عن العبور كل دقيقة.

على رصيف المحطة، يقف رؤساء وملوك بلدان العالم، يتطلعون إليه باستغراب، بينما كنت واقفاً في زاوية لا يستطيع أن يراني منها، أتذكر أنه كان يرتدي بدلة غامقة اللون وربطة عنق عريضة، وبدا في كامل هدوئه، بينما كان القلق طافحاً على وجوه الآخرين، من اقتراب قطار سريع راح يطلق صفيراً حاداً، إعلاناً عن اقترابه من تلك المحطة.

فجأةً، صاح ’’سَدَم‘‘ عليّ باسمي الأول، فتقدمتُ خائفاً حتى حافة الرصيف المطلّ على الهوة التي يقف فيها، سمعته يأمرني بنبرة تعطي انطباعاً بأنه يعرفني: "عليك أن تترجم لهم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

خطـابي..." وقبـل أن يبـدأ بإلقائـه ارتجـالاً، استيقظتُ علـى رنـين التلفون الملحاح، الذي جاء ليضـاعف من هلعـي، ويعمق شكي بحقيقة ما كنت أسمعه.

مَن تظن كان على طرف الخط الآخر؟

جاءني صوت نسائي متماسك بعد استفسـاري عن المُهـاتف: "هل عرفتنـي؟"

تعثرت الكلمات على لساني، وأنا بين مطرقة النفور وسندان الانجـذاب، قبـل تمكنــي مـن ترديـد كلمتـين متقطعتـين: "نعـم، بالتأكيد..."

قالت ''هاجَر'' وكأنها كانت تقرأ ما يدور في رأسـي: "علمتُ من ''أَسعَد'' أنك وحدك هذه الأيام فـ..."

اقتحم صوتي كلماتها الأخيـرة مستفسرا دون إرادتـي: "كيـف حال الدكتورة ''عالية''؟"

"بخير... هي اليوم في المستشفى..."

لا بد أنها توقعت رداً ما مني يسمح للمحادثـة بالتـدفق عفويـاً، لكن صمتي الطويل، دفعها أخيرا لكسره: "توقعت أن تـرد علـى طلبـي... فـي كل الأحـوال أنـا قـررت وانتهـى الأمـر... أرجـوك مزق رسالتي..."

لكأنهـا شعرت، وعلـى غيـر عادتهـا، بحـدة نبرتهـا، فرقرقت صـوتها ليصـلني مملـوءاً بوعـد مـا: "أتمنـى أن تزورنـا قريبـاً دكتور ''يوسف''..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(7)

نسيتُ إخبارك كيف عدتُ إلى منزلي من شَقّة ''ماهر''.

كان الوقت حوالي الثالثة، والمطر ما زال يسفع بانتظام زجاج النافذة من وراء ستارتها الغامقة اللون. اقترحتُ أن أطلب سيارة أجرة عبر الهاتف، لكن مضيفي رفض بشدة ."أنا سأوصلك... غدا عندي إجازة، وما أحتاج أستيقظ باكراً..."

بدا ''أَسعَد'' شبه غافٍ آنذاك، حيث أسند حنكه على صدره، وأغمض عينيه، لكن إحدى يديه ظلت تمسد بتؤدة ظهر ''نيرو'' المسترخي تماما في حضنه.

قال ''ماهر'': "سنوصله إلى شقته أولاً ثم ننطلق... سينام في الطريق إذا أخذناه معنا..."

ولم تستغرق الرحلة إلى البناية التي يسكن فيها ''أَسعَد'' أكثر من دقائق قليلة.

قبل هبوطه من السيارة التفتَّ إلى المقعد الخلفي لوداعه. كم بدت لي عيناه مغمومتين بحزن كامد وعميق، على الرغم من بلوغه أعلى درجة ثمالة رأيته فيها. غمغم، وهو يضع قدمه على الأرض، بكلمات ملتوية، كأنه أراد أن يقول "نلتقي قريباً... مع السلامة..."

قال ''ماهر'' حين رأى القلق في عينيّ أثناء مراقبتي صديقك واقفاً بصعوبة أمام بوابة البناية، بينما راحت يداه تبحثان عن المفاتيح في جيوبه: "لا تخف عليه... هذه هي حاله كل يوم..." أضاف ضاحكاً: "هو يعرف طريقه حتى لو عصبتَ عينيه..."

انطلقنا ثانية بخفة، وسط شوارع شبه فارغة، تعلوها شبكات وفقاعات ضوئية ملونة، ذات أشكال متعددة، من نجوم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ومظلات إلى فراشات وكرات تبدو كأنها عائمة في الهواء، بينما ارتدت الأشجار الصغيرة المزروعة على حافاتها، شرائط من مصابيح صغيرة تبث بين أغصانها الجافة أضواء زرقاء باهتة. ردد ماهر ساخراً: "الاحتفال بقدوم "كريسماس" مثل كل سنة وأكثر... لا أحد قلق من الحرب الوشيكة..."

حال خروجنا من مركز المدينة، ودخولنا في الطرق السريعة، اختفت مظاهر الزينة من أمامنا، وما عادت أبصارنا تتابع شيئا آخر سوى قطرات المطر الناعمة التي ظلت تضرب زجاج النافذة الأمامية برفق، بينما ظلت الماسحتان تبعدانها بانتظام.

اتذكر أن الرؤية لم تكن واضحة تماماً، بسبب المطر المختلط بالضوء البرتقالي الذي تبثه مصابيح الطريق العالية، وهذا ما أجبر ''ماهر'' على التحرك ببطء، لكنني لم ألمس على وجهه انزعاجاً ما، لكأنه فرح ببقائنا معا فترة أطول في تلك الرحلة.

لا بد أن أعترف لك بأني كلما فكرت بتلك الرحلة، ازداد نبض قلبي خوفاً، فلو أوقفتنا دورية من شرطة المرور لما احتاجت إلى أن تجري فحصاً للسائق لمعرفة ما إذا كان تجاوز حدود المسموح به في تناول الكحول قبل الشروع بالسياقة. كان هواء السيارة مشبعاً برائحة الكونياك، حتى بعد هبوط ''أَسعَد'' منها.

مع ذلك، فأنا مقتنع الآن بلا مبالاة ''ماهر'' حتى لو أننا تعرضنا لتجربة كهذه.

طوال جلوسي بجانبه، كانت قناعتي تتعمق (دون أي سبب ظاهر)، بامتلاكه جرأة لا تعرف الحدود لتحقيق أيّ رغبة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

تسكنه، ربما بسبب تماسكه الغريب كلما تجاوزتنا سيارة شرطة على الطريق.

في لحظة ما جاءت كلماتي لتكسر صمتاً عميقاً ساد بيننا: "’’أَسعَد‘‘ أخبرني أنك درستَ في كلية الطب هنا..."

لكأن تأثير عبارتي كان معاكساً لما توقعته، فعدا عن تأوه أقرب لأن يكون تنفساً عميقاً، وضغْطٍ أقوى على دواسة الوقود للحظة، ركَنَ ’’ماهر‘‘ إلى صمت أعمق.

كدتُ أعتذر له عن تطفلي، لكنه سبقني بأقل من رمشة عين: "نعم، لسنة واحدة فقط..."

لا بد أن ’’ماهر‘‘ حدس السؤال الذي كان يدور في رأسي آنذاك دون أن أتجرأ على طرحه: "لماذا؟"، إذ كيف يمكنك تفسير اندفاعه في تقديم إجابة مفصلة عنه؟

"حين جئتُ إلى لندن كان شبابها في أوج ثورتهم على القيم والتقاليد... أكثر المحرمات صارت موضوعاً للاختبار..."

أطبق صمت ثقيل بيننا، تعاكسه نقرات دؤوب على زجاج النافذة الأمامية، بفعل خيوط المطر الغزير التي بدت أمامنا مشعشعة بأضواء مصابيح الطريق غامقة الصفرة، فيما ظلت الماسحتان تتحركان بأقصى سرعتهما جيئةً وذهاباً لتمنحنا القدرة على الرؤية أمتاراً قليلة.

شعرتُ كأننا مجمدان داخل محارة مقفلة، تتسرب إلينا طرطقات الماء المضغوط تحت العجلات الأربع بانتظام، فتتثاقل حركتها أكثر فأكثر، وقد لا تصدق إذا قلت لك إني نسيت للحظة إلى أين يأخذني ’’ماهر‘‘.

وكأنه كان يقرأ حيرتي آنذاك، حينما عاد صوته بنبرة

«منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ساخرة: "ماذا تتوقع من مراهق لم ير يوماً نساء بلدته الا ملفعات من الرأس إلى أسفل القدمين بالسواد، فلا يعرف إن كانت لديهن خصور مقوسة وبطون ضامرة، مثل عارضات الأزياء اللواتي علق صورهن على جدران غرفته، إلى مدينة أصبح الجنس فيها مثل قدح بيرة عابر لإطفاء عطش الصيف..."

(8)

هل الندم على اختيارات الماضي هو الآصرة الأقوى التي توحد البشر؟

كنت استمع إلى ’’ماهر‘‘، حين تسللت فجأة مرارة في فمي، تبعها جفاف في حنجرتي، ليعقبهما لوم عميق لي من شخص آخر يسكن في مكان ما داخل رأسي، على قبولي بعرض ’’لورا‘‘ بالعيش ثانية معاً، ولا أستبعد أن ذلك الصوت الغريب حضرني تحت تأثير حديث ’’ماهر‘‘، وتأثير عناصر الطبيعة الهائجة حولنا.

كأني أسمعه حتى الآن وهو يتحدث بنبرة ساخرة ومحايدة عن ذلك الطالب المتفوق، الذي مُنح بعثة لدراسة الطب في إنجلترا بعد أشهر قليلة على تخرجه من الثانوية العامة.

كم شعرت أمه بالفخر، وهي تراه على وشك السفر إلى لندن، فراحت تحضّر حقيبته بعناية ."لا تنس أن تشتري فوراً حين تنزل في لندن مظلة وسترة صوف سميكة، حتى لا تمرض،" رددت وهي تكوي آخر القمصان قبل صفّه في الحقيبة، "يقولون: المطر ينزل دائماً هناك..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

انتابتها غُصّة، لثوانٍ، حاولت خلالها إخفاء وجهها عنه.

يأتيني صوت ‘‘ماهر’’ مبحوحاً وسط نقرات المطر الدؤوب: "لو تطلع شخص غريب إليها آنذاك لظن أنها تهيئ حقيبة ابنها الوحيد لسفرة مدتها أسبوع واحد."

اكتشفتُ أثناء رحلة العودة إلى بيتي تلك، أنكما تلتقيان معاً بأمر واحد فقط؛ ولعلي أستطيع تسميته: "عقدة الأم"، لكن بشكلين مختلفين.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

المظروف السابع عشر

أشباح الماضي (1)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(31 ديسمبر 1990)

لعلك، في خضم الأحداث المتسارعة، نسيتَ لقاءنا في بيت الدكتورة ’’عالية‘‘، للاحتفال معاً بعيد رأس السنة الجديدة.

هل تذكر كيف ظلت الكنبة التي احتلها والدا ’’أَسعَد‘‘ قبل أربعة أشهر تجذب أنظار الجميع، وكم بدا المدعوون كأنهم يتجنبونها، حتى قدوم ’’سارة‘‘ وزوجها ’’جوناثان‘‘، فجلسا عليها بارتياح.

أمامهما جلس ’’أَسعَد‘‘ و’’مريم‘‘ متباعدين أقصى ما يمكن على كنبتهما. وكم بدا صديقك، على غير عادته، شديد الرصانة والتحفظ، ولا أستبعد أن عينيه اللتين ظلتا ترصدان الأريكة المقابلة له، من وقت إلى آخر، كانتا تريان شبح أبيه وهو يقرأ قصيدته العصماء، أو طيف أمه وهي تمسح كفيها ببعض تعبيراً عن خيبتها العميقة من ابنها البكر، وكلما تلاقت عيناه بعيني ’’سارة‘‘ أو ’’جوناثان‘‘ رسم ابتسامة اعتذار باهتة لهما.

أم أن عينيه كانتا مثبتتين على تلك البقعة لتوقظا في نفسه شعوراً بالذنب على تركهما هكذا يعودان إلى بغداد وهما ساخطان تماما عليه، وفي ظرف خطير كهذا؟

ولعل ذلك كان وراء إصراره على أن الحرب لن تقع.

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘، كسراً لحالة الصمت التي سكنتنا جميعا: "قرأتُ اليوم في "الغارديان" عن استعداد البابا للتوسط بين العراق وأمريكا..."

قال ’’ماهر‘‘" :’’صدّام‘‘ يعرف أنه سيخسر في الحالتين: إذا

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

خرج من الكويت قبل حلول الأجل النهائي أو أصرّ على البقاء فيه..."

قاطعه ’’أَسعَد‘‘ على غير عادته: "سترون كيف سينسحب صاحبنا قبل 24 ساعة فقط من انتهاء الأجل..."

استرجع ’’ماهر‘‘ خيط الحديث: "حتى لو راح "البابا" بنفسه إليه، وتوسل به لينسحب من الكويت سيرفض.... كم شخصية عالمية حضرت إلى بغداد لإقناعه؟"

تدخلت ’’هاجَر‘‘، مقاطعةً: "حضرتم اليوم للاحتفال برأس السنة الجديدة أم لإدارة ندوة سياسية؟"

* * *

لفَّنا الصمت دقائق، لم نكن نسمع خلالها سوى تمتمات العود الناعمة، من بين أصابع ’’منير بشير‘‘، تأتينا عبر مكبِّرَي صوت مثبتين في السقف.

لا أستبعد أنك شاركتني نفس الشعور: كيف أن عجلة الزمن أسرعت في حركتها منذ آخر لقاء لنا في هذه الغرفة، وكم بدت بستائرها السميكة، وبرودتها، وشرائط الزينة الملونة المعلقة على جدرانها، مختلفة عن تلك التي ضمتنا قبل أربعة أشهر.

أو ربما هو الوهم الذي نشترك فيه بأن الماضي أجمل من الحاضر.

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ معتذرة: "اليوم فقط حضر السمكري لإصلاح التدفئة المركزية... البيت ظل أربعة أيام بلا تدفئة..."

قالت ’’هاجَر‘‘: "بقينا بالمعاطف طوال الوقت، ولولا المدفأة الكهربائية لجمدنا تماماً..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قال ’’ماهر‘‘: "لم نعرف في لندن مثل هذا البرد منذ سنوات..."

وكدتُ أسأل المضيفة، حين وقعت عيناي على ’’سارة‘‘ وزوجها، لمَ لمْ تذهب هي و’’هاجَر‘‘ إلى بيت ابنتها، خلال تلك الأيام، خصوصاً أنها فترة يقضي معظم أفراد العائلة الواحدة أوقاتهم معاً في هذا البلد، لكني تذكرت في آخر لحظة، ’’عمّو‘‘ المعتكف في حجرته: كم سيكون تغير كهذا صدمة عليه غير قابلة للفهم.

أتذكر أنك ردَّدتَ جملة كهذه: "أنا لازمتُ شقتي كل أيام هبوط الثلج..."

"حسناً فعلْتَ،" قالت الدكتورة ’’عالية‘‘، بينما ثبّتت عينيها عليك، كأنْ لا أحد جالساً في الغرفة سواك: "لندن مدينة سريعة العطب... حال سقوط الثلج فيها تتعطل القطارات وتنكسر أنابيب المياه، وتخرب أجهزة التدفئة..."

* * *

حضرتني فكرة ’’عمّو‘‘ الغريبة، فجعلت أصواتكم تتلاشى لحظةً: كيف أن حياتنا ليست إلا رجعاً لحياة أصلية جرت في كون آخر؛ جزءاً من لعبة فيديو يمارسها طفل عن بعد كيفما يشاء.

هل هناك تفسير أفضل من نظرية ’’عمّو‘‘، لوجودنا معاً في ذلك المساء، نتبادل خلاله الأنخاب والأمنيات بعام سعيد، بينما يخرق بانتظام ضجيج الطائرات، (وعلى غير العادة)، سكون هذه المنطقة الواقعة في أقصى شمال شرقي لندن؟

سألتُ فجأة، قاطعاً مسار الحوار الدائر آنذاك بينكم، مما

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

دفعكم تلتفتون مستغربين صوبي: "أين تتجه هذه الطائرات؟"

قالت الدكتورة ''عالية'': "لا أعرف، ربما ''جوناثان'' عنده الجواب، فهو يعمل مع وزارة الدفاع."

"أنا لا أعمل معها،" أجاب زوج ''سارة'' بانفعال واضح من ملاحظة حماته، رغم احتفاظ صوته بالهدوء، "الشركة التي أعمل فيها متعاقدة مع الوزارة..."

أتذكر أنك سألته بعد فترة صمت عما تنتج شركته، فجاء جوابه صاعقاً: "أنظمة توجيه الصواريخ بالليزر..."

أضاف ''جوناثان'' مخففاً من الصدمة التي تركتها كلماته علينا: "هذا مجرد اسم، وهو يشمل كل أنواع التوجيه للأجسام المتحركة في الفضاء..."

قالت الدكتورة ''عالية''، التي بدت لي كأنها هي الأخرى فوجئت بمعرفة اختصاص صهرها الحقيقي للتو: "كنت أظنك تعمل في مجال الاتصالات العامة معها..."

قال ''جوناثان'': "الكثير من الأجهزة الإلكترونية العامة اليوم تصلح للاستخدامين المدني والعسكري معاً..."

وحين سألْتَه عن طبيعة عمله، أجابك: "أنا أعمل مع فريق بحث صغير من المهندسين والعلماء لتحسين أداء الأنظمة، وهو جزء من شبكة واسعة عالمياً..."

تبادلت الدكتورة ''عالية'' معك نظرة تواطؤ، قبل أن تطلق عبارة لإغلاق هذا الموضوع في يوم كهذا: "إنها العولمة في نهاية المطاف..."

غير أن ''أَسعَد'' تدارك خيط الحوار الذي انقطع لحظات

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قليلة ليعيد طرح سؤالي على زوج ’’سارة‘‘: "هل تعرف أين تتوجه هذه الطائرات؟"

"على الأغلب إلى الخليج،" قال ’’جوناثان‘‘ بنبرة مخففة، "هي طائرات أميركية تمر في أجوائنا..."

* * *

تململت ’’سارة‘‘ أخيراً، لتستأذن في المغادرة مع زوجها. وحين عبّرت أمها عن استغرابها من ذلك، قالت معتذرة، إن الفتاة التي تعتني بطفليهما ستخرج مع صديقها إلى ساحة "الطرف الأغر"، للاحتفال هناك ببدء السنة الجديدة ."عملها ينتهي بعد نصف ساعة فقط،" أضافت ’’سارة‘‘، وهي تنهض من الكنبة، فيتبعها ’’جوناثان‘‘.

لا بد أن شعوراً بالأسى غمر الدكتورة ’’عالية‘‘ وهي ترى ابنتها على وشك الخروج من بيتها قبل بدء السنة الجديدة بثلاث ساعات فقط. قالت بنبرة الأم المستضعفة أمام أبنائها العنيدين: "كان بإمكانك جلب الصغيرين هنا... البيت واسع لكم..."

"غداً ننتظركم على الغداء..." قالت ’’سارة‘‘ لأمها، ثم أضافت للتخفيف من أثر خروجها المبكر: "ليلة رأس السنة مثل كل الليالي...هي خاصة للمراهقين فقط..." وقبل مغادرة الغرفة التفتت إلينا لتهنِّئنا، على عجل، بالعام الجديد، فكرر زوجها كلماتها حرفياً: ".happy new year"

* * *

لا بد أننا تنفسنا الصعداء، حين سمعنا خفقة الباب لحظة انغلاقه وراءهما. أتذكر كم حاول ’’أَسعَد‘‘ الجالس أمامهما فتح

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

مواضيع صغيرة لجرهما إلى الحديث بالإنجليزية، لكنه كان يصطدم بجدار من الصمت بعد أن يجيب أحدهما بعبارة واحدة تقريباً عن أي من استفساراته.

أتذكر حين سأل ‘‘جوناثان’’: "ما رأيك باللاعب إيان راش؟" أجابه الآخر بسؤال غريب:"لا، أين يلعب؟"،

"إنه في فريق ليفربول..."

"أنا لا أتابع كرة القدم..."

"هو أبرز لاعب في كل أندية أوروبا..."

"أنا أهتم أكثر بلعبة الكريكيت..."

"هل مارستها؟"

"نعم، خلال سنوات الدراسة الجامعية..."

"والآن؟"

"مع الأسف، كل وقتي الآن مكرس للعمل في المكتب والبيت."

كان صديقك يتوقع إغراء ‘‘سارة’’ بالمشاركة في أطراف الحديث، لكن الحظ لم يحالفه تماماً: "مَن هي أفضل فرقة "بوب" اليوم في رأيك؟"

"لا أدري"،

"هل تفضلين السفر خارج بريطانيا خلال العطل؟"

"أحياناً."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كـان تصـرف ‘‘هـاجَر’’ حـال انغـلاق بـاب البيـت وراءهمـا مفاجئـاً لـي، ولا شـك أنـك صُـدمتَ بـه، كـم بـدت شخصـاً آخـر بمـزاج نـاري عـارم. فحتـى مـع اندهاشـنا لتجاهـل ‘‘سـارة’’ لهـا خـلال الأمسية وخروجهـا من دون أن تلتفت صـوبها لتحييهـا، كان رد فعلها شديد الغرابة، فعدا عن تعكر تقاطيع وجهها كانت عيناها متقدتين غضبـاً، وحاجباهـا مقوسين إلـى أعلـى. كم بـدت لي على حافة الانفجار؛ أتذكر كيف كانت أنفاسـها تتسـارع فوق صـدرها، وكيـف ثبّتت ناظريهـا علـى عينـي الـدكتورة ‘‘عاليـة’’ التـي بـدت آنـذاك مرتبكـة، تتلفت لا إراديـاً فـي شـتى الاتجاهـات هرباً من تلك المحاكمة الصامتة.

لكن ‘‘هاجَر’’ نهضت فجأة، ثم اتجهت بخطـى متأنيـة صـوب باب الحديقة الخلفية، من دون أن تستأذن من الحضور.

مـع ذلـك، ظلـت أعيننـا معلقـة بهـا عبـر الزجـاج الفاصـل بـين المكانين، بعد انزياح الستارة السميكة عنه، على الرغم من أننـا لـم نكـن نـرى سـوى ظهرهـا المسـتقيم الـذي بـدا تحـت تـأثير انعكاسات الضوء في غرفة الجلوس والظلمة في الخارج أقرب إلــى لوحــة مـؤطرة لشـبح امـرأة غامضــة، ولا بـد أن حركـة ذراعها بين الفينة والأخرى هو الـذي جعلنـا نحـدس بأنهـا كانـت تدخن.

انفرج الباب من وراء ‘‘هاجَر’’ بتـأن، بمـا يكفـي لتمـد رأسـها مـن الفجـوة صـوبنا: "إذا كـان واحـد مـنكم "متلهـف" لسـيجارة فأهلا بـه،" رددت عبارتهـا بنبـرة مرحـة، بينمـا اسـترجع وجههـا اشراقته.

أتذكر أننا تنفسـنا الصـعداء، حين خاطبـت الـدكتورة ‘‘عاليـة’’ بكلمـات تحبب تتضمن اعتذاراً مبطناً مثـل "أنـتِ خيمتنـا،" و"كـم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تفتخر عائلتنا الكبيرة بك،" و"ما أحنَّ قلبك،" ما حرض عينَي مضيفتنا على سفح دموع فرِحة، أسرعت إلى مسحها بحافة كمها.

كان مشهداً عاصفاً، كأنه مقتبس من إحدى مسرحيات "تشيخوف"، حين تقدمت ’’هاجَر‘‘ نحو الدكتورة ’’عالية‘‘ التي ظلت جالسة على كرسيها ذي الذراعين فقبّلت جبهتها، ثم ركعت أمامها ووضعت رأسها في حضن مضيفتنا، لأكثر من دقيقة بينما ظلت الأخيرة تداعب شعر ’’هاجَر‘‘ المكزبر النافر بتؤدة أمّ مع طفلتها المشاكسة.

* * *

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ بنبرة مرحة: "مَن يحب التدخين في الحديقة، هذا هو الوقت المناسب... أنا و’’مريم‘‘ سنحضّر المائدة،" أضافت حال نهوضنا: "اِلبسوا معاطفكم... درجة الحرارة قريبة من الصفر في الخارج..."

وكم أثار استغرابنا حين عرض ’’أَسعَد‘‘ مساعدته في إنجاز هذه المهمة. أتذكر تعليق ’’ماهر‘‘ الساخر: "بشرط ألا تستغل غيابنا وتشرب كل النبيذ..." وحين قرأ استغراباً ما في عيوننا لمعرفتنا بأنه لا يدخن منذ سنوات تمتم ضاحكاً: "سأرافقكم حتى لا تشعروا بالغربة..."

قال ’’أَسعَد‘‘: "في كل الأحوال البرد سيعيدكم قبل فتحي أول زجاجة..."

وكم كان صديقك على صواب!

* * *

«منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لا أستبعد أنك استوحيتَ مشهدنا في آخر لوحاتك غير المكتملة من وقفتنا على حافة الطارمة المفتوحة، نراقب بصمت رقعة العشب المستطيلة. كانت السماء خالية تماماً من الغيوم التي ظلت مكلكلة فوق الرؤوس طوال ساعات النهار، فبدت آنذاك سجادة مفروشة بلون لازوردي شديد الدكنة، وتحتها سراج منير يميل إلى الشرق قليلاً. كم أثار دهشتي أن يكون القمر بدراً أيضاً مثلما كان حين تجمعنا في الزاوية نفسها قبل أربعة أشهر، ولعل ذلك أثار في نفسي شعوراً غريباً بوجود قدرية ما تجرف حياتنا صوب شواطئ مجهولة، غير أن البدر بدا أصغر كثيراً مما كان عليه في أوائل أيلول، ربما بسبب البرد الذي قلص حاسة بصري، أو بسبب ذلك العطر الذي تنشقْتُه لحظة وقوفنا معاً وسط نفس العشب القائم أمامنا، لكنه في هذه المرة كان مغموراً بماء المطر الذي تحولت الطبقة العليا منه إلى جليد ناعم تنعكس على صفحته البيضاء أشعة القمر الشاحبة.

وكأن ''ماهر'' الواقف على بعد متر منا، تجنباً لاستنشاق دخان سجائرنا، استشعر ارتعاش جسد ''هاجَر'' لا شعورياً تحت وطأة البرد المثلج، على الرغم من وقوفها بيني وبينك، فخلع معطفه ثم مشى بخفة القط ''نيرو'' حتى وقف وراءها ليعلقه على كتفيها، ولا بد أن أصابعه لامست في طريقها مناطق حساسة من جسدها ناهيك عن ضغط كتفيها قليلاً.

التفتت ''هاجَر'' إليه، وهي تمسك بحافتي المعطف المطويتين: "هذا من لطفك، لكنك ستستبرد..." ثم أضافت بمرح: "نحن النساء نتحمل البرد أكثر منكم..."

"أنا دائما ألبس بلوزة إضافية من الصوف المعالَج تحت

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

القميص،" قال ’’ماهر‘‘ مبرراً مبادرته، "هي رقيقة لكنها مثل بطاريات التدفئة..."

قالت ’’هاجَر‘‘ ضاحكة: "أنت سوبرمان..."

* * *

حول مائدة الطعام، ظلت أحاديثنا مبعثرة، أتذكر حين سألتك ’’هاجَر‘‘: "كيف تكسب قوُتَك؟" بقيتَ صامتاً أكثر من دقيقة، ولا أستبعد أنك تضايقتَ من سؤالها، فرِحتَ ترتشف الشراب بتباطؤ متعمد من كأسك.

كان الكل ينتظر إجابتك بفضول واضح، إذ توقفت كل أدوات الأكل المعدنية عن صليلها.

فجأة عبرت كلماتك حاجز الصوت بصعوبة: "أنا أذهب ثلاثة أيام في الأسبوع إلى "الغاليري الوطني" لأرسم اللوحات..."

"وماذا تفعل بها؟" سألت ’’هاجَر‘‘ بفضول طفولي عكسه اتساع عينيها، فأجبتَها: "أبيعها لغاليري متخصص باللوحات المنسوخة..."

سألت الدكتورة عالية: "مَن تحب استنساخ أعمالهم؟"

أتذكر أنك قلتَ شيئا كهذا: "أولئك الذين تستهوي أعمالهم زبائن المحل..." ثم أضفتَ بنبرة مقللة من شأن ما ترسمه: "مثل ’’فان غوخ‘‘ و’’تيرنر‘‘ و’’دافنشي‘‘ و’’ماتيس‘‘..."

وكأن هذه الأسماء وحدها جمَّدت حركة الملاعق والسكاكين والشوكات في الهواء. قالت الدكتورة ’’عالية‘‘ بعد تحررها من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تلابيب الدهشة: "لم تخبرني بذلك من قبل... هل تأخذ "صور" للرسوم قبل تسليمها للبائع؟"

"لا... استنساخ أعمال الآخرين حرفة أكثر من فن،" قلتَ بعد ازدرادك لقمة صغيرة من الطعام الموضوع في صحنك، وأظنك أضفت جملة أخرى كهذه: "لو كانت أعمالي تغطي مصاريف الحياة لما استنسختُ أي لوحة..."

قالت ''هاجَر'' لكسر مناخ الجدية: "لماذا لا ترسمني؟ ألا أصلح كموديل لك؟" ثم أضافت بنبرة تفتعل الترجي: "ألا تجدني أجمل من موناليزا؟" بينما راحت تحرك بدنها ووجهها وتداعب خصلات شعرها، لتقلد وضع صاحبة اللوحة الغامضة.

ارتفع صوت الدكتورة ''عالية'' محتجاً وسط ضحكاتنا، ونحن نتابع مشهدين متعارضين في آن :''هاجَر'' بتقليد ملامح "الجوكندا" وأنت بارتباكك وعرق الخجل الذي غطى جبينك، كأنك تبحث في أعماقك عن كل النساء اللواتي ألبستهنَّ ثياب الملائكة لتقارنهنَّ بهذه الخليعة التي هبطت عليك من قلب الجحيم ."أنا أولاً ...''جليل'' وعد برسمي، وما زلتُ أنتظر،" قالت مضيفتنا، وهي تتطلع مستغربة بالزائرة القادمة من بغداد.

قالت ''مريم'' التي ظلت صامتة طوال جلوسنا حول مائدة الطعام: "ماذا تريد أكثر أستاذ ''جليل''، أجمل امرأتين في العالم تتنافسان عليك!"

وكأن ''هاجَر'' قررت أخيراً تغيير دفة الحوار صوب ''ماهر'' حين عبَّرت عن إعجابها بيديه، بينما كان منغمراً في تناول طعامه، باستخدام أنيق للشوكة والسكين ."أصابعك الطويلة تصلح لعازف كمان أو بيانو محترف..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حضرتني آنذاك تلك الجملة التي قالها ’’ماهر‘‘ لي أثناء رحلتنا الأخيرة معا في سيارته إلى بيتي، تعبيراً عن سخطه العميق مما آل به المطاف، فضحكتُ مع نفسي: "هاتان اليدان بدلاً من أن تقوما بفحص المرضى، مثلما كانت أمي تتمنى، أصبحتا متخصصتين في تحليل الدم والفضلات القذرة."

صاح ’’أَسعَد‘‘ متباهياً وكأنه هو المعنيّ: "في شقته بيانو فخم، وهو يعزف عليه، ببراعة، موسيقى حديثة وكلاسيكية..."

غير أن ’’ماهر‘‘ سعى إلى التقليل من شأن عزفه، والسعي لخلق فضول ما في نفس ’’هاجَر‘‘ حول ماضيه أكثر من الموسيقى. لعله ردد شيئاً قريباً من هذه الإجابة: "نوعية البيانو عادية وحجمه صغير... هو ما تركته زوجتي السابقة وراءها... ربما للذكرى..."

"هي موسيقية محترفة؟" سألت الدكتورة ’’عالية‘‘.

"نوعاً ما... كانت مدرّسة موسيقى."

"لا بد أنها هي التي علمتك الموسيقى... طبعاً قبل أن تنفصلا..." قالت ’’هاجَر‘‘ بنبرة تفتعل الجدية، دفعتنا إلى الضحك، بينما ارتسمت على وجهك ابتسامة تشفٍّ به أكثر منها رد فعل تلقائي على المزحة.

قال ’’ماهر‘‘ وهو ينشر أصابعه في الهواء تعبيراً عن ألمه من الانفصال: "فعلاً... بفضلها بدأت أحب الموسيقى الكلاسيكية والأدب والفنون..."

* * *

ظلت ’’هاجَر‘‘ تتردد على ’’عمّو‘‘ كل ساعة تقريباً لتبقى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

معه دقائق قليلة، لكنها بعد انتهائنا من العشاء وانتقالنا إلى غرفة الجلوس ثانية، قضت وقتاً أطول معه، ولعلها تكفلت بتقديم العشاء له، والتخفيف من الكآبة المزمنة التي أصابته منذ وقوع ذلك الحدث الذي ظلت الدكتورة ''عالية'' تشير إليه من دون الإفصاح عن طبيعته.

لكنها هذه المرة، وربما بسبب الأخبار التي تبثها محطات التلفزيون والصحف كل يوم عن تفكك الاتحاد السوفياتي السريع، أصابها شعور باليأس، مثيل لما أصاب ''عمّو'' عشية سقوط جدار برلين، الذي كان يراه آخر معقل يحمي من غزو "البرابرة"، كما كان يسمي أنظمة الغرب الرأسمالي.

قضى ''عمّو'' ليلة التاسع من نوفمبر 1989 وهو يتابع عبر شاشة التلفزيون تحطم أجزاء من الجدار بمعاول الكثير من الشباب المبتهجين، فراح يصرخ بألم كلما تطايرت قطعة صغيرة منه، لكأنهم كانوا يضربون جسده عن بعد، ويردد عالياً عبارة للرفيق ''ستالين'' مراراً: "كلما تعمقت الاشتراكية زادت مقاومة أعداء الثورة لها،" وها هم الأعداء ينجحون في إدخال ''غورباتشوف'' إلى الكرملين: الحصان الخشبي الذي خدع به الإغريق سكان طروادة ففتحوا لأعدائهم أبواب سورهم الحصين.

كأنما وهو يشاهد سقوط الجدار، ينتابه شعورٌ من يشاهد حياته تفقد معناها بالكامل، (حسبما تمتمت مضيفتنا): من أول شعار خطّه على أحد جدران بغداد القديمة قبل أكثر من ستين سنة، يبشر فيه بقدوم الثورة الحمراء التي أشعلها ''لينين'' في روسيا، وحتى لحظة انهيار جدار برلين.

قالت الدكتورة ''عالية'' متأوهة: "استيقظتُ صباحاً، وذهبتُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لأحييه كما هي العادة كل يوم لكني فوجئتُ باختفائه."

مع ذلك، توقعتْ أن يعود ''عمّو'' بعد ساعة أو ساعتين من مشوار مشيٍ يفضفض فيه عن نفسه مما حدث في برلين، لكن بلا جدوى. وكان عليها أن تذهب إلى المستشفى حال وصول المرأة المعنية برعايته.

لكنها ظلت من هناك تتصل بجانيت هاتفياً كل ساعة، تستفسر عما إذا رجع خالها الى البيت فيأتيها الجواب بالنفي.

في الساعة الرابعة عصراً اتصلت بالشرطة لإخبارهم باختفاء ''عمّو'' الغريب.

كان عليها أن تعطيهم معلومات عديدة عبر الهاتف: عمره، وأوصافه وعنوان بيتها ومكان عملها وصلة القرابة به والأمراض التي يعاني منها.

ولم يستغرق البحث عنه طويلاً، حين اتصلوا بها لإعلامها بأنهم عثروا عليه في مستشفى قريب من مستشفاها، وهو في وضع صحي مقبول، بعد إزالة مادة سريعة الاشتعال عن رأسه وملابسه، لكنه ما زال في حال نفسية مضطربة.

قبل حلول العاشرة مساء حضرت سيارة إسعاف إلى بيتها، وعلى متنها كان ''عمّو''.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الثامن عشر

فردوس أرضي (2)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(10 نوفمبر 1989)

لا أستبعد أن تكون أحداث النهار الذي اختفى ''عمّو'' فيه بدأت هكذا: بعد قضاء معظم ساعات الليلة الفائتة ساهراً أمام التلفاز، تسلل النوم إليه (ربما) لساعة أو أقل قليلاً، غير أن صرخات الشباب المبتهج من أعلى وأسفل جدار برلين، أيقظته من غفوته، فاصطدمت عيناه بمشهد المعاول والمطارق التي جلبها بعضهم لتكسير ثُلَمٍ من حجارته، بينما جلس آخرون على سطحه الأعلى، تتدلى بارتخاء سيقانهم على واجهته، وفي أيديهم زجاجات الجعّة.

مع ذلك، جعلته حالة "الانفعال" التي تلبسته، يشعر كأنه نام ساعات الليل كلها، وأن صحواً ونشاطاً غامرين راحا يحفزانه على الخروج من البيت والمضيّ صوب الحديقة العامة القريبة منه.

كانت ذاكرة ''عمّو'' لا تزال (إلى حدّ ما) متماسكة حين حاوره أَسعَد، لكنه ظل يشطّ من موضوع إلى آخر؛ من فكرة إلى أخرى، دون وجود رابط بينهما، ما خلا فراغات الصمت الطويلة التي تعكسها الكاسيتات في هيأة وشوشة خفيفة أو سعلة أو طقطقة ملعقة داخل فنجان.

لا بدّ أن خوفاً ما استحوذ عليه بعد قطع نصف المسافة الفاصلة بين بيت الدكتورة ''عالية'' والحديقة العامة، إذ كيف تفسر تغيير مسار جولته المفاجئ؟

كانت الغيوم تتجمع بسرعة فوق رأسه، بينما ظلت ريح

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

خريفية تهز بدأب جذوع الشجر الممتد على رصيفي الشارع، فتتناثر أوراقها متقلبةً في الفضاء قبل بلوغها سطح الأرض.

ولعل واحدة منها مسّت فروة رأسه فذكّره الندى اللاصق بها باحتمال سقوط المطر قريباً.

كان عليه أن يجلب المظلة معه.

حتى بعد مضيّ عقود له في هذا البلد ما زال طقسه قادراً على خداعه.

لذلك طبعت الدكتورة ’’عالية‘‘ (وبحروف كبيرة) تعليمات صارمة على ورقة، يلزمه اتّباعها قبل خروجه من البيت، ولصقتها على ظهر باب غرفته، أولها التحوط من هطول المطر.

غير أنه ظل حريصاً دائماً على مخالفة تعليمة أو تعليمتين منها، فيدفع ابنة أخته لاحقاً إلى التعبير عن "غضبها منه" بتقطيبة خفيفة على محياها ثوانيَ قليلة قبل أن تعود إلى طبيعتها السمحة المرحة.

مع ذلك، ولّدت فكرة العودة إلى غرفته الآن، ومشاهدة ما كان يحدث من دمار لجدار برلين، (الذي سماه مراراً على الكاسيتات المسجّلة بـ "خط الدفاع الأول ضد البربرية") ضِيقاً عميقاً في نفسه، دفعته حال بلوغه موقفاً للحافلات، أن يرفع يده لإحداها حين اقتربت منه، دون أن يكلف نفسه عناء معرفة مسارها، أو منتهاها.

* * *

صحا’’عمّو‘‘ على صوت رجل ظل يناديه بإلحاح: "اِنهض

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أيها السيد هذا آخر موقف،" بينما راحت أصابعه تهز كتفه هزاً رقيقاً.

أضاف السائق وهو يقرأ حيرة على عيني الراكب الوحيد المتبقّي في حافلته، جعلته يشك بسلامته العقلية: "هل تعرف أين نحن؟"

استرجع ‘‘عمّو’’ جزءاً ضئيلاً من خيط ذاكرته، مكنته من الإجابة بعبارة، متماسكة، واضحة: "نعم... هذا هو المكان الذي أقصده..."

كانت المنطقة التي هبط فيها غاصة بالمشاة والمحلات، وحوله كانت العربات تتحرك ببطء باتجاهين متعاكسين، بينما يتقافز بينها العابرون من رصيف إلى آخر.

كم بدا له أنه يدخل متاهة لا منفذ فيها، وأن قوة خفية عبثية تدفعه يميناً وشمالاً. حضرته فكرة قوية: أن يدخل متجر مواد البناء المجاور له ويسأل البائع فيها عن اسم هذا الحيّ.

غير أنه نسي ما كان ينشده حال وضع أول خطوة على أرضيته.

بدلاً عن ذلك، وجد نفسه يتعثر ذهاباً وإياباً بين صفّي السلع المرصوفة على رفوفه، ما دفع الشاب الواقف خلف "الكاونتر" إلى الاستفسار منه بلطف: "هل أستطيع مساعدتك؟"

لكأن السؤال استفز روح التمرد الموغلة في أعماقه منذ صباه: "لا، شكراً،" رد بنبرة حادة. سحب زجاجة من أحد الرفوف دون أن يقرأ الملصق عليها: "هذا ما أريده..."

ولم يدرك ماهية محتواها إلّا بعد دفْع ثمنها، وخروجه من المحلّ، حين سحبَها من الكيس البلاستيكي وتطلَّع ملياً في

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ملصقها قرأ عليه: "زيت التربنتين". وضع الزجاجة في جيب معطفه الواسع، ولا أستبعد حضور عدد من الاستعمالات لهذه المادّة في ذهنه، ليبرر احتفاظه بها: إزالة بقع الطلاء عن الثياب، أو إيقاد فحم الشواية كلما دعت ابنة اخته أصدقاءها، وعنّ لها الجلوس معهم في حديقة بيتها...

استقل عشوائياً حافلة أخرى، وحال انطلاقها راحت أصوات الراكبين تتلاشى في أذنيه، وكثافة الصور تتضاءل على شاشة عينيه، حتى اختفائها تماماً.

غير أن إغفاءته، هذه المرة، كانت أقصر في الحافلة، إذ استفاق لحظة ظهور ساحة "الطرف الأغرّ" أمامه، فنهض مسرعاً للهبوط منها.

* * *

وهو يراقب تمثال الأدميرال ’’نيلسون‘‘ الشامخ عالياً، حضر ’’عمّو‘‘ ذلك المشهد الذي اصطحبه والده إليه حين أُنزل العلم العثماني عن صاريته، ورُفع العلم البريطاني محله، وسط صمت ووجوم الحاضرين من أهالي بغداد، تتخلله، من وقت إلى آخر، آهات بعضهم ونوبات من نحيب خافت.

أدهشته سحنات وجوه الجنود، المنتشرين في ساحة القشلة، بتعدد ألوانها ما بين الشقرة المائلة للحمرة والسواد الغامق، بينما أثارت العمائم المتنوعة التي ارتداها بعضهم الخوف في نفسه.

كانت الليلة التي سبقت سقوط بغداد بيد الجيش البريطاني حافلة بالرعب، دفعت أمه لأخذه وأخته الصغرى ’’سميرة‘‘ إلى

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"السرداب" وحشرهما وسط أكياس الخيش المملوءة بالأرزّ والحنطة والبقوليات. مع ذلك ظل دويّ المدافع يصل إلى سمعه، ممزوجاً بعويل عاصفة ترابية، لم يشهد سكان المدينة مثيلاً لها من قبل.

فجأة، اهتزت جدران البيت السميكة وأرضيتها بهم، واخترقت فضاء السرداب، في آن، رعدة مزلزلة، لم تشهد البلاد مثيلا لها، جعلت الأم تقتنع بحلول يوم القيامة الموعود، فراحت تقرأ بصوت مرتجف، متقطع ما تحفظه من آياتٍ وتعويذات، تضرعاً إلى الله بالتخفيف من آثارها على أفراد أسرتها.

لم يدرك سكان المدينة حقيقة ذلك الانفجار المروّع الا في اليوم اللاحق: لقد فجّر الجنود العثمانيون قبل انسحابهم من بغداد "باب الطلّسم" الذي استُعمل طوال سنوات الحرب الكبرى مستودعا لبارود بنادقهم ومدافعهم.

* * *

مطر خفيف راح ينثّ بدأب عليه، تتدلق قطراته على جبهته متسللةً عبر حاجبيه، ونظارته الطبية، صوب عينيه فتختلط بقطرات الدمع النابعة من طرفيهما المجاورين لأعلى أنفه.

لكأن الساحة، بمشاتها المسرعين ونافورتها الكبيرة وأسديها الغرانيتيَّين، شريط فيلم مشوش الصورة أمام ناظريه، يعمق الإحساس في نفسه بغرابة وجوده هنا، في هذه اللحظة بالذات، بدلاً من أن يكون، مثل كل يوم، مستلقياً في فراشه الوثير الدافئ، بعناية امرأة لطيفة طيبة، مثل ''جانيت''.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تسللت إلى سمعه الثقيل أصوات جوقة صاخبة من الطرف الآخر المقابل للساحة: مزيج من أناشيد وهتافات وصرخات فردية، على دمدمات طبل.

أسمع، على شريط الكاسيت، صوت ’’عمّو‘‘ متحشرجاً هذه المرة، بعد دقائق صمت موشوش، ولا أشك أن نوبة بكاء انتابته خلالها ظل يسعى لخنقها، عبر سعلات متقطعة وأنفاس حرى:"لم تميز عيناي في البدء سوى أعلام مرفوعة بأيديهم..."

شعر كأن تياراً كهربائياً يسري في جسده، ويكاد يسقطه أرضاً، لحظة ربطه ألوان الأعلام الثلاثة: الأسود والأحمر والأصفر، بألمانيا الغربية، ومن الكلمات القليلة التي تمكنت أذنه اليسرى السليمة التقاطها بوضوح كاف، عرف أنهم مجموعة من الشباب الألماني "الأهوج" يقفون الآن على مدرج كاتدرائية "سانت جون"، "ليرددوا كالببغاوات بالالمانية عبارات فضفاضة خالية من المعنى: الحرية... الاستبداد... وحدة الألمانيتين..." لو كان الآن أصغر سناً قليلاً، وبحال صحية أفضل، لذهب إليهم، وتحدث معهم عن الأرث العظيم الذي تركه لهم أسلافهم ولم يتعرفوا عليه بعد، بسبب ما تعرضت إليه أدمغتهم من غسل متواصل على يد مأجوري الرأسمالية الجشعين ."هل سمعتم بـ’’ماركس‘‘ أو ’’أنجلز‘‘؟ هل قرأتم شيئا لـ’’روزا لُكْسِمبَرغ‘‘ أو ’’ليبِكْنِخت‘‘ أو ’’بْرِيخْتْ‘‘؟ وحتى لو أصمّوا آذانهم لي وسخروا بي أو ضربوني فإني لن أكف عن إنارة عقولهم بأفكار هؤلاء الخالدين..."

* * *

لا أستبعد أن يكون سؤال ’’أَسعَد‘‘ هذا قد استفزَّ ’’عمّو‘‘

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قليلاً، رغم قناعته بأن الآخر ما زال على عهده به: "رفيقاً حقيقياً": "هل فكرتَ يوماً بالعيش في بلد اشتراكي مثل كوبا أو ألبانيا؟"

"ما جدوى بقائي في بلد تحكمه البروليتاريا؟ نضالنا الحقيقي هو في البلدان التي ما زالت تعيش الصراع الطبقي..." ردد ''عمّو'' بنبرة أعلى وأشدّ، كأنه كان يقرأ في كتاب، "هل تظن أن الحريات التي نتمتع بها هنا جاءت مجاناً لا بفضل نضال الطبقة العاملة وتضحياتها الجسام؟"

ازدادت أصوات المحتفلين بسقوط "الجدار" وضوحاً وصخباً، بعد هبوطهم من مدرج الكاتدرائية وقدومهم إلى الساحة. ملأت أنفاسه رائحة الشمبانيا والجعة ورنين الزجاجات لحظة تماس إحداها بالأخرى. كان بعضهم يكرر ما ظل عدد من الشباب "المضلَّل" يهتف ليلة أمس، أمام حرس الحدود في برلين الشرقية: "افتحوا البوابة... افتحوا البوابة..."

التفت أحدهم إليه: "ألا تشرب معنا أيها السيد؟ ألست سعيداً باستردادنا لحريتنا؟"

* * *

قبل سقوط بغداد بأشهر قليلة أتقن''عمّو'' القراءة والكتابة والحساب إلى درجة أهّلته للالتحاق بالمدرسة العسكرية في إسطنبول.

ولم يكن تحقيق هذا الهدف ممكناً من دون وساطة مسؤول تركي بارز، مثل "الباشا" الذي يعمل أبوه وكيلاً لأعماله في الولايات الثلاث التي أطلق عليها الانجليز بعد احتلالهم لها اسم "دولة العراق".

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غير أن الريح جرت بما لا تشتهي السفن، لتُحبط ما كان الأب يتمناه لأصغر أبنائه الذكور وأذكاهم، بعد حفظه القرآن عن ظهر قلب، في "كتّاب الملا داود"، وتمكنه من كتابة كل آياته بلا وسيط يُملي عليه.

فقبل سقوط بغداد، بأيام قليلة، غادرها، دون رجعة، وليّ نعمته، برفقة الوالي العثماني ’’خليل باشا‘‘، عائداً إلى مسقط رأسه: "إسطنبول".

مع ذلك، كان فشل الأب برؤية ولده الأصغر ضابطاً، بعد ست سنوات فقط، قابله نجاح صاعق في أعماله، جعلته يردد من وقت إلى آخر أمام أفراد أسرته: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم..."

كان على "الباشا" التخلص من كل أطيانه قبل الرحيل النهائي عن بغداد. غير أن الوقت الذي في حوزته أقصر من أن يستطيع خلاله تعيين "دلّال" قادر على بيعها بأسعار مناسبة، فلم يبق أمامه مشترٍ سوى وكيل أعماله الأمين.

اقترح الأب دفع قسط صغير من قيمة البساتين والحقول، وما يتبقى يُدفَع للباشا أو ورَثَتِه بأقساط سنوية متساوية، ولستّة أعوام متعاقبة، فوافق الأخير على مضض.

* * *

هل سرقته إغفاءة أخرى خلال جلوسه على إحدى مصاطب الساحة؟

فجأة برزت أمامه وجوه عديدة تحدق فيه عن قرب، فأشعرته كأنها تراقب بذهول كائناً هبط للتو من كوكب آخر.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

دار لغط حوله: "هل أنت بخير؟" سأله أحدهم بنبرة قلقة؛ ردد آخر: "هو ربما بحاجة إلى سيارة إسعاف؛" أكد ثالث: "نعم، انظروا إلى شحوب وجهه..."

كان يسمع صوته عالياً في رأسه على الرغم من تفكك الكلمات فوق لسانه وتحولها إلى غمغمة متقطعة: "نعم أنا مريض، ووجهي شاحب على مستقبلكم أيها المغفلون..." وقف ’’عمّو‘‘ على قدميه، فتراجعوا خطوة إلى الخلف، حدجهم بعينين ناريتين متحديتين: "الرأسمالية ستجرشكم بحروبها الكبرى... وسلعها ستفسد أرواحكم..."

كان عليه أن يستجمع كل شتات عزيمته ليدفع بجسده المتهالك، المرتعش، وسط الحشد المندهش، المتعاطف معه.

لا بد أن بعضهم ظنه مريداً مؤمناً من أتباع "شهود يهوه" جاء ليحذرهم من قرب حلول يوم الدينونة، ويدعوهم للانضمام إلى طائفته.

وحين تجاوزهم جميعاً، واتسع الفراغ حوله، تنفس بعمق مراراً. مد يده لا إرادياً إلى جيبه الأيسر الفارغ، ففوجئ بكيس ورقي سميك يدخل بين إبهامه وأصابعه الأربع.

وهو يتطلع في السندويشة الملفوفة بورق شفاف، ملأت رائحة البيض المنبعثة من بين شريحتي الخبز أنفه وأيقظت الجوع الغافي في عروقه، بعد انقطاع يوم شبه كامل عن الأكل. لا بد أن أحدهم خمَّنَ ما يحتاج إليه جسده حقاً فدس في جيبه هدية "كريسماس" قبل حلوله بأكثر من شهر.

شهية مجنونة للحياة تتقمصه.

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مع دخول الإنجليز بغداد، دخلت معهم جحافل كثيرة من المتعلمين وأصحاب الحرف، من بلدان شتى، سعياً لفرص العمل الوفيرة.

بين عشية وضحاها استيقظ أهالي بغداد على عالم ظن الكثير منهم أنه محض خيال: بيوت الميسورين تضاء بالكهرباء بدلا من الفوانيس والشموع؛ عربات كثيرة تجوب المدينة بدلاً من سيارة واحدة كان يستقلها والي بغداد العثماني، وجسر آخَر على ظهر العوامات يربط بين ضفتي دجلة.

كان على سلطة الاحتلال بناء الثكنات العسكرية لجيشها العرمرم، وشقّ الطرق، وإنشاء خطوط السكك الحديدية لتسهيل تنقل الوحدات العسكرية بين الولايات الثلاث، ونقل ما تحتاج إليه من بضائع استهلاكية وأعتدة وذخائر بطريقة أسرع.

"التجار والوسطاء وشيوخ العشائر الإقطاعيون هم من استفاد من ازدهار السوق،" يقول ‘‘عمّو‘‘ نادباً بعد نوبة سعال حادة، "لا العمال والفلاحون الفقراء..."

كم تضاعفت ثروة أبيه بسرعة مذهلة مع اتساع الحاجة إلى محاصيل بساتينه ومزارعه من فواكه وحبوب وخضار لإطعام القوات الأجنبية، فتمكن من الإيفاء بما عليه من ديون للباشا خلال ثلاث سنوات متعاقبة فقط.

تنفس أبناء بغداد الصعداء حين أُعلنت الهدنة بين الطرفين المتحاربَين.

كأن حلول السلام أخيراً، سمح لسلطة الاحتلال بإنهاء خدمات الكثير من مهنييها في الجيش ففضلت أعداد كبيرة منهم

«منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

البقاء في بغداد والعمل مع الشركات الأجنبية التي وجدت في العراق أسواقا جد مربحة.

استفاد أبوه من خبرة أحد المهندسين البريطانيين في نصب مضخات الماء لسقي بساتينه ومزارعه بدلا من الطرق البدائية المتبعة من قبل.

كان ’’أوليفر‘‘ بارعاً في التحدث بالمحكية العراقية.

وحين سئل: "كيف تعلمتها؟" أجاب ضاحكاً: "بفضل ثرثرة عمالي..."

"تستطيع تعليم ابني الأصغر الإنجليزية... مقابل أجر طبعاً؟" سأله والده.

"طبعا،" قال الآخر: "وحتى من دون أجر..."

* * *

يتلوَّن صوت ’’عمّو‘‘ على الكاسيت هذه المرة بنبرة مرحة هازئة: "لا بد أن أبي لعن تلك الساعة التي فتح فيها باب بيتنا لأوليفر ليدرِّسني..."

في المدرسة الأهلية التي التحق ’’عمّو‘‘ بها بعد انتهاء الحرب الكبرى كانت الإنجليزية مادة إجبارية فيها ابتداءً من السنة الخامسة.

غير أنَّ الأب اراد أن يُتقن ابنه اللفظ الصحيح لها كما يتكلمها أهلها.

ربما هو نوع من النفاجة أصاب أولئك الذين أثروا كثيراً خلال تلك الحقبة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كـان ’’عمّـو‘‘ قـد التحـق بالمدرسـة ليضـمن لـه مقعـداً فـي المدرسـة الثانويـة الحكوميـة. ولـم يكـن أمامـه سـوى سـنة واحـدة ليكمل المرحلة الابتدائية.

لم تمض سوى أشـهر قليلـة علـى دراسـته مـع ’’أوليفـر‘‘ حتـى بدأ يقرأ قصص أطفـال مبسَّـطة بالإنجليزيـة، ثـم جـاءت المفاجـأة حين جلب الآخر عدداً جديداً من دورية تصدر في لندن، وتبـاع فـي مكتبـة حديثـة ببغـداد متخصصـة بالاصـدارات الغربيـة: "الشهرية العمالية".

حضـر ’’أوليفـر‘‘ الـى العـراق لأداءالخدمـة الإلزاميـة خـلال الحـرب الكبـرى الاولـى. عمـل ضـمن وحـدة معنيـة بتأسـيس خطوط الكهرباء، لكن واجباته في الجيش تجاوزت حدود مهنتـه لتشمل إنشاء السكك الحديدية ووضـع الرسوم الهندسية لطرقهـا ونصـب مضـخات المـاء الكهربائيـة، وحالمـا وضـعت الحـرب أوزارهـا استقال مـن الجيش وتفـرغ للعمـل الحـر فـي العـراق، حيث الحاجة اليه والى أمثاله هائلة في بلد خرج للتو من عباءة القرون الوسطى.

غير ان الدافع الخفـي الآخـر لبقائـه فـي بغـداد لـم يعرفـه الأب الا بعد فوات الاوان.

كانـت أخبـار الثـورة الروسـية تصـل الـى العـراق باهتـة ومتـأخرة، وتنتشـر بـين النـاس مـن لسـان الـى آخـر، وغالبـاً مـا تكون محرَّفة عن حقيقتها.

أصبحت كلمة "بلاشفة" في بيت ’’عمّو‘‘ رديفا لأكَلَـة لحـوم البشـر: فهـم يقتلـون المـؤمنين ويـدمرون دور العبـادة علـى رؤوسهم ويسلخون الأثرياء ممـا كسبوه طـوال حياتهم مـن مـال حلال، ويصادرون بيوتهم ويغتصبون بناتهم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

ولبعض الأمهات أصبح تخويف أطفالهم بهم مألوفاً اذا هم لم يطيعوهنَّ.

غير أن ’’أوليفر‘‘ قلب كل قناعاته رأساً على عقب: "هذه مجرد افتراءات لأنهم اقاموا دولة الفقراء لأول مرة على الأرض..."

سحرته صورة ’’لينين‘‘ الملونة التي أعطاها أستاذه الاسكتلندي إياه: بدا له أشبه بنبيّ يعظ قومه المتحلقين حوله. كان صغر حجمه ولحيته القصيرة وثيابه الرصينة البسيطة جعلته مصدر انجذاب قوي له في تلك السن المبكرة السريعة التأثر بالمظاهر الجديدة المثيرة.

أصبح الدافع لإتقان الانجليزية مخالفاً تماماً لما تمناه والده له: فضول شديد لمعرفة ما يقوله هذا الرجل الضئيل الجسد الذي يبدو له كأنه مقدود من فولاذ. قصاصات من كتبه تنشرها مجلة "الشهرية العمالية" التي تصل بانتظام إلى مكتبة "ماكنزي" المتخصصة بالإصدارات الغربية، فيترجمها ’’عمّو‘‘ إلى العربية بمساعدة ’’أوليفر‘‘، على ورق الاستنساخ، ثم يوزعها على أصدقائه المقربين.

* * *

يأتيني صوت ’’عمّو‘‘ مرتعشاً، بارداً، عبر جهاز التسجيل الصغير: "كان أول شعار خطته يدي على أربعة جدران في منطقتنا :’’يا عمال وفلاحي العراق اتحدوا‘‘."

ولم تأت تلك الخطوة إلا بعد أن أصبح قادراً على تلمس هذه الحقيقة التي ظلت مخفية على الجميع لقرون عديدة: أرباح رجال الأعمال ليست سوى سرقة، وأجور العمال ليست إلا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

جزءاً مما يستحقونه، كي تبقيهم عبيداً أحياءً في خدمة سادتهم.

ها هي الخلايا مثلما دعا الرفيق ''لينين'' تنتشر على ضفتي نهر دجلة.

لكأن قوة سحرية تتلبسه، فتجعله قادراً على اختراق تلك الغيتوات الكثيرة المعزولة بعضها عن بعض، بحواجز مذهبية ودينية وعشائرية، وأينما حل كان يحرض على الثورة: طرد المستعمرين بعد مصادرة كل ممتلكاتهم، وانتزاع الأراضي من شيوخ العشائر، وإقامة حكم العمال والفلاحين...

يتمتم ''عمّو'' بنبرة خافتة، لا تكاد تُسمع: "كانت مزارع أبي أول اختبار حقيقي لي..."

كان العمال الزراعيون مياومين بلا أي حقوق، وأجورهم تعطى لهم يوماً بيوم.

وعند ظهورهم في اليوم اللاحق يكون للسرگال ''حسن'' الحق باختيار من يشاء ورفض من يشاء.

* * *

خلال العطل المدرسية ظل ''عمّو'' يحضر بانتظام إلى أطيان الأب. وقد عزا الأخير ذلك بحب ابنه الأصغر مساعدته في إدارتها.

غير أن الحقيقة انجلت ذات يوم حين قدم أحد العمال للسرگال ورقة ملفوفة بعناية: "هذه طلباتنا لجنابك..."

لا بد أن الصدمة شلت لسان الآخر ثوانيَ قبل التمكن من استرجاع تماسكه الداخلي، ولا أستبعد أن يكون سؤال كهذا حضره: "من كتب لهم هذه العريضة وهم جميعاً أميون؟"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وحين حضر اسم ’’عمّو‘‘ على لسانه، استغفر ربه مراراً. فهل يمكن أن يسعى ابن إلى إيذاء أبيه؟ صحيح أنه كان يراه غالباً جالساً في أوقات الاستراحة بين العمال، ولم تكن المسافة الفاصلة بينهما لتسمح بسماع حديثه معهم.

يمتاز السركال ’’حسن‘‘ عن نظرائه بالحِلم والدهاء وروح الكتمان، حتى أمام حدث شديد النشوز، كتسلمه عريضة المطالب تلك لأول مرة في حياته.

قرأها مراراً. كان فهْم بعض جملها أصعب عليه مما كان يتوقعه، فقدرته على القراءة ظلت محدودة بالكمبيالات وقوائم المبيعات وصياغات العقود المتكررة.

توقف عند بعض الكلمات التي بدت له ألغازاً: "الإضراب" و"قوة العمل" و"الإنتاجية".

مع ذلك استطاع إدراك المطالب، ما جعله يهز يده اليمنى استغراباً واستهزاءً: "زيادة الأجور"؛ "ساعات عمل محدودة"؛ "عطلة سنوية مدفوعة الأجر" و"عقود عمل طويلة الأمد".

* * *

لم يتطلب تنفيذ خطة السركال ’’حسن‘‘ لكشف "المستور" نفقات وجهوداً كثيرة.

كان عليه، أولاً، أن يشخّص من بين العمال الأضعف نفسياً والأكثر عوزاً، ولم يستغرق إنجاز هذه المهمة أكثر من يومين، تبعها تحميل عربة بأربعة أكياس من الأرزّ والدقيق وصفيحتين من التمر المكبوس، ونقلها إلى كوخه الواقع خارج بغداد القديمة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وأمام وعود سيد عمله القاطعة بزيادة أجره وشراء ثياب جديدة لأطفاله، وجد ’’زيدان‘‘ نفسه عاجزا عن رفض ما طلبه الآخر منه: أن يكشف عمن وراء كتابة العريضة، وماذا ينوي العمال فعله في حال رفض مطالبهم.

يتردد صوت ’’عمّو‘‘ وسط كاسيت التسجيل الثاني قوياً، مرحاً:"من ’’زيدان‘‘ سمع وكيل أعمال أبي كلمات ما كان يظن أنها موجودة في القاموس مثل "فائض القيمة" و"الإضراب" و"الاستغلال" و"الشغيلة"..."

* * *

تهدج صوت ’’عمّو‘‘ بعد صمت طويل على الكاسيت. لكأني أتخيله يلتفت صوب الإطار الكبير المعلق على الجدار المقابل لسريره، فيؤشر بإبهامه المرتعش على صورة أبيه الفوتوغرافية المعلقة على الجدار: "حتى بعد انكشاف نواياي بإيذائه، ظل يعزّني أكثر من كل إخوتي، بينما بقيتُ قاسياً جداً معه..."

حين واجهه الأب بالأدلة القاطعة ضده، تحول ’’عمّو‘‘ من موقف الدفاع إلى الهجوم ."أنتم الملّاكين تمتصون دماء عمالكم..."

مع ذلك ظل والده محتفظاً برباطة جأش غريبة، تنمّ عن قناعة مطلقة بأن ابنه المفضَّل مسكون بجنّي ما: "أستطيع أن أضمن لك وظيفة مرموقة... الدولة ما زالت تحبو وتحتاج إلى متعلمين أذكياء مثلك... البلد بحاجة إلى شبابه..."

اعتصم ’’عمّو‘‘ بالصمت طويلاً بدلا من الإجابة بالرفض فما كان من الآخر إلا أن اتَّبع طريقة أخرى لردعه: "مناصب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

إخوانك في الحكومة مهددة بسبب نشاطاتك،" ردد بنبرة تجمع ما بين الرجاء والتهديد، "جاءتهم إنذارات من رؤسائهم..أنت ستدمر مستقبلهم...وتقطع رزقي أيضاً..."

"عندك أبناء كثيرون ويمكنك اعتباري غير موجود،" قال ’’عمّو‘‘ بنبرة باردة دفعت شاربي أبيه الأشيبين إلى الارتعاش، وبروز احمرار في عينيه. ها هو يرفع ذراعه الأيمن، ثم يطلق سبابته صوب باب الحجرة: "أُخرج من البيت ولا تُرِني وجهك أبداً... أنا بريء منك إلى يوم الدين..."

* * *

فجأة، تحسست أصابع ’’عمّو‘‘ زجاجة "التربنتين"، وحينما أخرجها من جيبه الأيمن، نسي للحظة كيف وصلت إليه، قبل أن تسترد ذاكرته مسار رحلته حتى لحظة وقوفه وسط ساحة الطرف الأغرّ.

كانت تلك اللحظة كافية لإثارة المخاوف في نفسه: هل أدى سقوط جدار برلين إلى دخوله في طريق "الزهايمر"؟

فكما هو الحال مع ’’كاثرين‘‘ بدأت الأمور بنسيان الأشياء الصغيرة.

وشيئاً فشيئاً راحت الهوة تتسع حتى جاء اليوم الذي لم تعرفه فيه.

مع ذلك، فإنه يتذكر بوضوح وقوفه في هذا المكان نفسه، قبل أكثر من نصف قرن، بعد قدومه من بغداد بأقل من شهر، حين شارك في تظاهرة كبيرة ضد استيلاء النازية على الحكم في ألمانيا.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كم بدت له لندن آنذاك مدينة شديدة العتمة، تغطي واجهات بناياتها طبقة من السخام الأسود، وسط ضباب مائل للصفرة، يجعل رؤية الشمس مناسبة نادرة تستحق احتفال الناس بها.

ولم يأت انتقاله إليها إلا بعد صدور مذكرة باعتقاله، بتهمة التحريض ضد الدولة.

غير أن أخاه الأكبر ’’خليل‘‘ الذي كان يحتل منصباً عالياً في وزارة الداخلية علم بالأمر مسبقاً، فساعد ’’عمّو‘‘ على السفر السريع إلى لندن.

* * *

حتى بعد طرده من بيت العائلة، والإعلان على الملأ عن تبرئهم منه، ظل إخوته الكبار يساعدونه عن بعد، إرضاءً للأم التي ما انقطعت عن إثارة الشفقة في نفوسهم على أخيهم الأصغر. فهي لم تكن قادرة على رؤية تصرفات ’’عمّو‘‘ أكثر من شغب مراهق بحاجة إلى زوجة قوية تشكمه.

بل حتى الأب، لانت عريكته بتأثيرها العاطفي عليه.

فلتجنب بكائها وشكواها المتواصلين، غض النظر على إبقاء أواصرها بابنها "المتمرد" عبر شبكة من الأقارب والأصدقاء، ولم يعترض على تغطية نفقات دراسته وعيشه في إنجلترا، بعيدا عن مطاردات الشرطة السرية له ببغداد.

فبهذه الطريقة ضمن سلامة جميع أفراد عائلته.

* * *

كأن التعرف على ’’كاثرين‘‘ واقترانه بها تأكيد على صواب

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قناعاتـه، وإلا كيـف يمكـن تفسـير أن يعـيش رجـل وامـرأة معـاً لنصـف قـرن بوئـام، رغـم انتمائهمـا لعـالمين مختلفـين جـذرياً كالعراق واسكتلندا.

لدى اختتام مؤتمر للشباب الاشتراكي نظمته صحيفة "دَيلي لَيبَر" ردد الجميع معاً، على أنغام الموسيقى الصادحة، نشيد الأممية، وشاءت المصادفة أن تكون ’’كاثرين‘‘ واقفة بجانبه. كان شعرها الأشقر يداعب حافة كتفه الأيمن، وعمقت حماستها في غناء النشيد لون بشرة وجهها الزهري طبقة إضافية، ولا بد أنها أدركت ليس من ملامح وجهه فقط، بل من تعثره في الأداء، أصله الأجنبي.

في تلك اللحظة التي تلاقت خلالها نظراتهما، انتابه شعور غريب بأن القاعة الصغيرة التي ضمت طلاباً من شتى أنحاء العالم، هي العالم نفسه. يتوقف عن الغناء، ويترك أذنه تصيخ السمع إلى رقرقة الصوت العذب المجاور له: "غد الأممية يوحد البشر.. لا تدعوا أحداً يبني جدراناً.. جدراناً من الكراهية لا من الحجر..."

سمع صوتاً قوياً يتدفق في رأسه، مخاطباً هذه الفتاة الناعمة المجهولة تماماً: "أعدكِ أن أكون وفياً لكِ طوال العمر إذا قبلتِ بي..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف التاسع عشر

أشباح الماضي (2)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

(1 يناير 1991)

على عكس نظرية ’’عمّو‘‘ أصبحت حياتنا منذ ليلة رأس الجديدة انعكاساً لما كانت تبثه شاشات التلفزيون من صور حول استعدادات أميركا وبريطانيا لخوض الحرب: الصورة أولاً ثم الواقع ثانياً. ولعلي لا أعني بتفاصيلها بل بتسارع إيقاعها.

الأحداث في حياتنا تسارعت حتى قبل بدء عام .1991 لعلك تذكر حين هبطت ’’هاجَر‘‘ من غرفة ’’عمّو‘‘. كانت الساعة المثبَّتة على الجدار تشير إلى الحادية عشرة وخمس دقائق. وكالعادة، استرجعت الغرفة تلك الطاقة الغامضة التي تولدها ’’هاجَر‘‘ كلما عادت إليها.

لكنها في هذه المرة، بدت لي، على غير عادتها، منكسرة، ولعل احمرار عينيها دليل على انخراطها بنوبة بكاء عارمة، ما جعلنا نظن أن مكروها ما وقع لـ ’’عمّو‘‘.

لا بد أن الدكتورة ’’عالية‘‘ بذلت جهداً كبيراً لتجعل صوتها متماسكاً حين سألتها": "كيف حال خالي؟"

"هو بخير،" تمتمت ’’هاجَر‘‘ بعد صمت ثقيل،"ذاكرته استيقظت بشكل عجيب على حدث قديم: تفاصيل يوم ولادتي..."

لعلك تستطيع استذكار القليل مما نقلتْه عن ’’عمّو‘‘.

كان قد مضى على عودته من المنفى شهر واحد، وحوالي شهران على وقوع الثورة وإعلان الحكم الجمهوري.

"قضت أمي، حسب كلام ’’جدّو‘‘ ليلة عسيرة في المستشفى،

«منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حتى مطلع الفجر،" قالت ''هاجَر''، وهي تحدق في عيني الدكتورة ''عالية''، "حين سمع أفراد العائلة المنتظرين خارج غرفة العمليات صرخة الطفل..."

لا بد أننا جميعا صُعقنا لدى سماعنا ذلك السؤال الذي وجهته إلى مضيفتها: "تتذكرين تلك الليلة القاسية؟"

* * *

في اليوم الأخير من عام 1990، قطع ''سَدَم'' الشك باليقين، حين أنكر وزير إعلامه على شاشة التلفزيون صحة ما تردد عن اقتراب خروج مظاهرات مطالبة بالانسحاب من الكويت . "هذا التفكير المريض موجود في عقول المخططين الأشرار ودوائرهم المشبوهة،" قال ذلك المسؤول الحكومي بنبرة غاضبة، "الجميع مقتنعون بحقيقة أن الكويت هي المحافظة التاسعة عشرة..."

وفي هذا اليوم بالذات، ووسط فرقعات الألعاب النارية المتصاعدة من وراء باب الحديقة الزجاجي، تكشفت لنا هذه الحقيقة الصاعقة :''هاجَر'' هي ابنة الدكتورة ''عالية''!

هل يحضرك أحيانا ذلك المشهد الذي وجدت طبيبة الأمراض النسائية نفسها، وكأنها في قفص الاتهام أمام ضحيتها؟

أتذكر أننا لذنا جميعاً بالصمت مع مضيفتنا، ولعلها صُعقت أكثر منا لأنها لم تتوقع أن تسترجع ذاكرة ''عمّو'' المتدهورة تفاصيل أحداث مغرقة في القدم مثل ولادة طفلتها البكر، ''هاجَر''.

"ماما ''منيرة'' قالت لي وأنا في الخامسة: خالة ''عالية''

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ولدتكِ،" تمتمت ’’هاجَر‘‘ بنبرة ساخرة، "ظننتُ حينها أن كل الأطفال تلدهم خالاتهم..."

عاد صوتها بعد دقيقة صمت ثقيلة بنبرة مبحوحة: "أنتِ تركتني وأنا عمري تسعة أشهر، ’’جدّو‘‘ يقول لتكملي دراستك..."

ظلت مضيفتنا صامتة، واضعة كفيها المتصالبتين على حضنها، بينما أخفضت بصرها باستسلام كامل للأخرى.

استرجعت ’’هاجَر‘‘ سوط الأسئلة المعذبة مرة أخرى: "هل أخبرتِ سارة بأني أختها؟ طبعاً لا..." وقبل أن ترمش عيناي جاء صوتها هذه المرة مبحوحاً جريحاً هذه المرة: "لهذا السبب هي تراني الآن مجرد ضيفة طفيلية جاءت من كوكب آخر ولا تريد العودة إليه."

* * *

انطلقت ساعة "بيغ بن" تضرب على ناقوسها، عبر شاشة التلفزيون الصغير المركون في إحدى زوايا حجرة الجلوس، معلنة عن حلول منتصف الليل، وولادة سنة جديدة، ثم أعقبها تدفق هائل لسيل من الألعاب النارية على هيئة تشكيلات ملونة متقلبة تنبثق من ضفة نهر التيمز حيث تجمعت حشود ضخمة من الشباب المحتفلين بالمناسبة رغم الطقس المثلج.

لكننا، وعلى غير العادة، بقينا ملتصقين بكراسينا، بينما بقيت أعيننا تتبادل النظرات الحائرة، عاجزين حتى عن تبادل التمنيات الطيبة مع بعضنا البعض.

غادرت ’’هاجَر‘‘ الحجرة قبل انتهاء عروض الألعاب النارية، ولعلنا جميعا ظننّا أنها ذهبت إلى الحمام لغسل وجهها،

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

وإعادة ترتيب زينتها، أو لرؤية ''عمّو''، غير أننا فوجئنا بعد مرور دقائق قليلة، بسماع انصفاق باب البيت الرئيسي بقوة، إعلاناً عن مغادرتها وسط صقيع تلك الليلة المقمرة.

* * *

تحضرني صورتك وأنت جالس بالقرب من الدكتورة ''عالية''، ولا أستبعد الآن أنك كنت تتمنى في أعماقك غيابنا عن ذلك المشهد: رفيقتك التي تجسد المثَل الأعلى لمعتنقي الفكر "العلمي" التقدمي (كما كنت تسميه) مكشوفة أمامنا في صورة معاكسة لما اعتادت أن تظهرها لنا: عينان زائغتان مصوبتان على فراغ الحجرة، وراحة كفّ تسند حنكها الأسفل، لكن ذلك لم يمنع شفتها السفلى من الاستمرار في الارتعاش قليلاً، وظل وجهها شاحباً، بينما راح العرق يتدفق بغزارة من جبينها، فتمسحه بكمّ ذراعها الأيسر.

أتذكر ''مريم'' وهي تقدم لها كأساً من الماء، ثم تقبّل رأسها، وتشد على كتفيها تعبيراً عن تضامنها.

هل تتفق معي بأننا جميعاً وُضِعنا في موقف شديد التعقيد، فأفكارنا كانت مشتتة بين القلق على ''هاجَر'' التي لا نعرف ما حل بها، والخوف على الدكتورة ''عالية'' من تركها لوحدها، وهي في هذه الحال المضطربة، ناهيك عن قلق مضاعف على ''عمّو'' الذي يحتاج إلى عناية متواصلة.

لكأن ''مريم'' كانت تقرأ ما يدور في رؤوسنا، حين قالت بنبرة حازمة: "اذهبوا الآن، وأنا سأبقى مع الدكتورة ''عالية''..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ذاكرتنا شبكة لا رقاقة في كمبيوتر، والأحداث التي عشناها في الماضي لا تقيم داخل رؤوسنا بل هي حولها تحوم مثل فراشات ضالة لا تكف عن التنقل بين السقوط فيها والقفز منها إلى الفضاء.

لكن هذه الفراشات تفقد ألوانها الزاهية شيئا فشيئا، حتى تختفي ذات يوم، فتصبح أشباحاً غير مرئية حولنا.

أستطيع تخيلك وأنت تسمع هرطقتي هذه، فتمضي متفكراً بشرود باحثاً عما إذا كان هناك مكان لكلامي في ديالكتيك نظريتك "العلمية"، التي تفسر كل شيء في الكون.

يحضرني في هذه اللحظة صوت الدكتورة ''عالية'' فأتخيلها جالسة على كرسيها الأثير. ها هي تحدثنا عما جرى لها بعد ولادة ''هاجَر'' بأشهر قليلة: رسالة تصلها من وزارة الصحة تُعلمها بأنها رُشّحت لزمالة دراسية، عرضتها جامعة بريطانية عليهم، وليس أمامها سوى يومين لتقرر قبولها أو رفضها.

أرادت مضيفتنا رفض العرض مباشرة، إذ لم يمض على تخرجها أكثر من سنة، وخلالها وقعت أحداث ضخمة في حياتها: البدء بالعمل في أكبر مستشفى ببغداد، وزواجها، ومغادرة بيت العائلة العريق، ومولد ''هاجَر'' وما رافقه من مخاض عسير، وها هي الآن عليها التخلي عن بيت الزوجية، وعن أثاثه الفاخر، وتحفياته، وحديقته، لتعود من جديد طالبة تدرس ليل نهار ثلاث سنوات أخرى، في مدينة نائية مشهورة بأمطارها وضبابها وبردها.

غير أن أفراد عائلتها الكبيرة وزوجها السابق، ''سرمد''، كان لهم رأي آخر، إذ ظلوا يسعون إلى إقناعها بقبول الزمالة. أختها الكبرى ''منيرة'' قالت: "باب السماء لا تنفتح لنا إلا مرة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

واحدة،" وحينما تعذرت برضيعتها البكر، جاء جواب الأخرى حاسماً: "’’هاجَر‘‘ تبقى معي، حتى تعودي إذا لم تقدري على أخذها قبل ذلك."

بل حتى ’’عمّو‘‘، دفعها بمنطقه الصارم على الموافقة: "جمهوريتنا الفتية بحاجة إلى دور أكبر للنساء في إدارة شؤون البلاد،" قال خالها العائد قبل فترة قصيرة من منفاه اللندني، "كيف تتحقق المساواة بين الجنسين إذا رفضت النساء الواعيات أمثالك التقدم في مجال العمل؟"

* * *

حالما اقترحت ’’مريم‘‘ على ’’أَسعَد‘‘ أخذ أطفالهما (عدا البنت الصغرى زينة) إلى مسكنهم في سيارة ’’ماهر‘‘، جاءت دعوتك لي مفاجئة: "ماذا لو تقضي الليل في شقتي؟" وقبل أن أرد على عرضك، بادرت زوجة ’’أَسعَد‘‘ بالإجابة نيابةً عني، ما جعلني أشعر كأنها تريد خروجنا من بيت الدكتورة ’’عالية‘‘ سريعا: "فكرة جيدة... رَح أطلب لكم سيارة تاكسي بالتلفون."

* * *

لا بد أن الوقت تجاوز الثالثة صباحاً، عند وصول السائق، ها قد مضى على وقوفنا في الشارع أكثر من ربع ساعة، ظلت عيناي خلالها تراقبان صف الأشجار الصامتة العارية من أوراقها. كأن ضوء القمر ورذاذ الثلج منحاها بياضاً جعلها تبدو كأنها أشباح خرافية عملاقة تحدق فينا من رصيف الشارع المقابل.

في الطريق إلى سكنك بقينا صامتَين، ولا أستبعد أنك كنتَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تقلّب في خلجاتك السؤال نفسه الذي كان يدور في رأسي: أين ذهبت ''هاجَر''؟ هل أنا محق في ظنوني إذا قلتُ لك إن اختفاءها المفاجئ كان وراء هوسك بها؟ ها نحن كلانا سمكتان معلقتان بالصنارة نفسها، بينما تتقدم السيارة بنا وسط شوارع تعلوها أقواس زينة مضيئة، وعلى جدران مبانيها شرائط من المصابيح الملونة.

سألَنا السائق بلكنة آسيوية ثقيلة: "كيف كانت ليلتكما؟" أتذكر أنك أجبتَ بعد مرور ثوان: "جيدة، وأنت؟" "أنا لا أحتفل بليلة رأس السنة الجديدة، سيدي،" قال الآخر، وهو يتطلع إلينا عبر المرآة الصغيرة أمامه، "إنها ليلة عمل مكثفة..." ثم بنبرة منشرحة مرحة أضاف: "أحتفل عادة في الليلة الثانية من السنة الجديدة إذا كسبتُ جيداً في الليلة الأولى..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف العشرون

مفاجأة غير متوقعة

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

(1 يناير 1991)

بعكس شقتك التي بدت لي كأنها كهف وسط كهوف ممتدة على جانبي ممر طويل، تتمتع شَقّة ’’ماهر‘‘ بتصميم أنيق يمنح الشعور بالألفة واتساع الفراغ حول ساكنيها، وبالطبع ليس هناك سوى شقّتين متقابلتين في كل طابق، ما يخلق أواصر أكثر حميمية بين ساكني البناية نفسها.

تحضرني تلك الليلة التي استضفتني فيها دائماً. أتذكر، عند فتحك بابها، كيف واجهنا فراغ موحش ينتهي بطباخ وبرّاد إلى اليمين مع طاولة صغيرة وكرسيين، وأمامنا تتكئ كنبة حديدية على جدار، وإلى اليسار باب خمنتُ أنه ينفتح على غرفة نومك.

كانت اللوحات منتشرة في كل مكان داخل تلك الحجرة، لكنها تتكاثر أكثر في "المطبخ"، مركونة على جدرانه. أتذكر أني سألتك أين ترسم؟ فكان جوابك إشارة من يدك إلى المكان نفسه الذي انشدّت عيناي إليه. قلتَ وأنت تولع سيجارة: "النافذة الكبيرة في المطبخ تسمح لرائحة التربنتين والألوان الزيتية بتصريفها للخارج."

ولعلك افترضتَ ضيقي من المكان، حين ردّدتَ محاولا تخفيفه قدر الإمكان: "البريطانيون حريصون على مظهر المباني الخارجية أكثر من داخلها،" ثم أضفتَ بعد سحبك نفَسَين متعاقبين من سيكارتك الموشكة على الانطفاء: "على الأقل بالنسبة لمساكن الطبقة العاملة... لا بد أنك بُهرتَ بمظهر العمارة الخارجي فتوقعتَ أن تكون شققها بنفس المستوى..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كان من الصعب عليّ أن أخبرك عما انتابني آنذاك: لم أتوقع أبداً أن أرى صورة ''هاجَر'' معلقة على الجدار المجاور لباب الشَقّة، وحين جلسنا على الكنبة المقابلة لها اتضح أنها بورتريه غير مكتمل بعد، أو هكذا بدا لي، كأنك ما زلت لم تقرر بعد كيف يجب تلوين خلفية اللوحة أو ملابسها.

لا أستبعد أنك حزرتَ السؤال الذي كان يدور في رأسي: كيف رسمتَ البورتريه؟ أو بصيغة أدق: هل جاءت ''هاجَر'' إلى شقتك بنفسها لهذا الغرض أم أنك نقلتَ ما هو مطبوع في ذاكرتك البصرية على قماشة الخيش؟ الانطباع الذي تشكل في نفسي آنذاك هو أنك جعلتها عائمة في الفضاء من دون أي جاذبية أرضية، مثلما هو الحال مع رسوم القديسين والملائكة في أوائل عصر النهضة.

في المقابل، جعلتَ عينيها تجمعان ما شاهدناه هذه الليلة للمرة الأولى: هشاشة وعزيمة فائقتين في آن.

* * *

حتى مع انطفاء المصابيح، وإغلاق باب غرفة النوم وراءك، ظل شعاع الضوء المتسرب من نافذة المطبخ كافياً لعينيّ كي تريا اللوحة وقد استحالت إلى نفق مظلم وسط جدار أغبش.

لا أستطيع نكران اضطراب غامض تسلل إلى أنفاسي لرؤية صورة ''هاجَر'' في شقتك، ولا أستبعد أنك كنتَ مثلي عاجزاً عن النوم آنذاك، تحت وطأة قلق من اختفائها المفاجئ، وصدمة مما سمعناه منها، ومن الدكتورة ''عالية'' في تلك الليلة الغريبة.

لكأن الذاكرة لا تحتفظ من الماضي إلا بإحباطاته.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يتردد صوت ’’هاجَر‘‘ ونحيبها بقوة في رأسي الآن: "كيف تركتِ ابنتك البكر تعيش كل الظروف القاسية من دون أن تمدي لها يد المساعدة؟"

كانت أعيننا تتنقل بينهما، بينما جمدت حركاتنا تماماً: "هل شعرتِ يوماً بالألم لتركي هناك كل هذه السنوات، وأنتِ و’’سارة‘‘ تستمتعان بالحياة هنا؟"

* * *

لا بد أنك أيضاً كنتَ مسكوناً بالوجه الآخر للحقيقة، خلال ساعات الليل المتبقية: بما سمعناه من الدكتورة ’’عالية‘‘ بعد خروج ’’هاجَر‘‘ من بيتها.

كيف أن زوجها الدكتور ’’سرمد‘‘، اختفى فجأة من حياتها بعد سفره إلى أمريكا، لحضور مؤتمر طبي نظمته الجامعة التي أكمل دراسته فيها قبل سنوات قليلة.

وصلتها رسالة منه بعد أكثر من شهر، يخبرها فيها أنه سيرتبط بحبيبته التي انفصل عنها حين عاد إلى بغداد، وأن باب التخصص والعمل سيُفتَح على مصراعيه هناك أمامه.

كانت لحظة قاسية في حياتها، وكان عليها أن تقرر: إما العودة إلى بغداد مهزومة دراسياً وأسريّاً، أو الكزّ على أسنانها وتحمل المصاعب التي ستتضاعف عليها بعد الولادة.

حين أكملت دراستها بتفوق، راحت تهيئ نفسها للعودة إلى بغداد بهمة فائقة.

عائلتها الكبيرة تنتظرها بفارغ الصبر.

ابنتها البكر ترفل بعناية أفرادها جميعا، وأختها الكبرى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

''منيرة'' (حتى بعد زواجها) ظلت تكرس لها كل وقتها. الصور الفوتوغرافية التي ظلت تصلها تكشف كم كانت ''هاجَر'' سعيدة، حيث الصغار والكبار يحيطون بها دائماً، وفي لقطات مع خالتها ظهرت كأنها في حضن أمّ معطاء لا هدف لها في الحياة غير العناية بأطفالها.

قبل أسبوع واحد فقط من موعد عودتها إلى بغداد، وقع المحظور: انقلاب عسكري دموي قاده ''الخُضر'': إعدامات سريعة من دون محاكمات لرئيس الوزراء ومساعديه؛ واعتقالات واسعة لخصومهم ''الحُمر''.

كانت تعلم أن الانقلابيين سيستهدفون ''عمّو'' باعتباره أحد القياديين البارزين، ولا بد أن بيت العائلة الكبير تعرض آنذاك للتفتيش والعبث بمحتوياته من كتب ولوحات فنية ثمينة، فكيف يمكن تبرير عجزها عن مهاتفتهم عبر البدالة، أو إرسال برقية ما لهم للتأكد من سلامتهم.

وسط ذلك القلق الجنوني كان عليها أن تفكر قبل كل شيء بتأمين دخل ما لإعالة طفلتها ابنة العامين في بريطانيا، فقدمت أولاً على اللجوء السياسي. ولا بد أن الحاجة لتخصصها آنذاك ساعدت على تسهيل إقامتها والحصول على عمل بعد أداء امتحان الكفاءة الخاص بالأطباء الأجانب.

* * *

أعترف لك بأني بقيتُ في شقّتك طوال ساعات استلقائي على الكنبة عاجزاً، كل مرة، عن النوم أكثر من عشر دقائق، ليوقظني سؤال ملحاح: أين ''هاجَر'' الآن؟

ووسط هذا السؤال تسربت قناعة مجنونة ظلت تتكرر في

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

رأسي كجملة موسيقية على إسطوانة مشخوطة: هي الآن مع ’’ماهر‘‘ في شقته، إذ أين يمكنها الذهاب ما خلا شقته التي رافقته إليها بعد خروجهما من متنزه "هامستيد هيث"؟ ولعلها بعد ساعات حميمة قضتها معه آنذاك، عرض عليها مفتاح شقته، وتفاصيل عنوان سكنه.

لا أظن أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة صباحاً، حين لعلع رنين جرس الباب المتعاقب. ولا بدّ أنك دُهشتَ قليلاً لرؤية ’’أَسعَد‘‘ أمامك، لكنك، على الأغلب، صُعقت لحظة اكتشافك مَن كان يقف وراءه في ذلك الممر شبه المعتم الذي يذكّر بعنابر المستشفيات العامة.

سمعتك تتعلثم وأنت ترحب بالزائرِيَن: "أهلاً وسهلاً... تفضلا..." وعندما ردد صديقك عبارات اعتذار على قدومهما في هذا الوقت، عاد صوتك مؤكداً: "لا، أبداً، بالعكس..."

لا أستبعد أنك شعرتَ بحرج شديد أن تظهر أمامهما ببدلتك الرياضية، وألا تكون تماماً متهيئاً لارتداء قناع الألوهة، خصوصاً وأن يكون الزائر الآخر، غير المتوقع ظهوره تماماً هو ’’هاجَر‘‘ لا غيرها.

كانت الدقيقة التي استغرقت وصول ضيفيك إلى منتصف الغرفة كافية لي كي أرتدي سترتي المعلقة على كرسي قريب من الكنبة الحديدية وأُدخل قدميّ في فردتَي حذائي الخاليتين من أي رباط، مع رفع غطاء النوم وتصفيفه على عجل، وركنه جانباً.

كانت ’’هاجَر‘‘ على الأغلب بنفس ملابسها التي خرجت بها من بيت الدكتورة عالية: معطف أزرق غامق، وحقيبة كتف صغيرة، وقفازان أسودان، وشال حريري ملون فوق رأسها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

قالت بارتباك واضح لي: "أعتذر جداً دكتور ''يوسف'' على إزعاجك..."

بادر ''أَسعَد'' مخففاً من حالة الارتباك التي أصابتنا جميعا: "الدكتور ''يوسف'' مثلنا، يحب المفاجآت كثيرا!"

أتذكر أنك استغللتَ انشغالنا بتبادل عبارات المجاملة، والجلوس على الكنبة والكرسي الوحيد، لتذهب إلى غرفتك دقائق قليلة، وتعود بعدها مرتديا ثياب ليلة الأمس.

قالت ''هاجَر'' وهي تتطلع باندهاش إلى صورتها على الجدار: "لم أكن أعرف أني جميلة هكذا... هذا طبعاً بعين الفنان فقط..." وحين علت وجهك حمرة خفيفة، وبقيتَ صامتاً، أضافت بنبرة مرحة: "بالتأكيد هذه اللوحة ستباع بملايين الدولارات بعد مائة سنة فقط..."

"ما رأيكم... نذهب إلى المقهى؟" قلتَ بنبرة مشجعة على مغادرة شقتك فوراً، وقطعاً لمواصلة الحديث المربك عن لوحتك.

حال خروجنا من البناية الفضية اللون، انفتح الشارع العريض شبه الخالي من المشاة والسيارات أمامنا، حيث غطت الشمس الكامدة أحد رصيفيه، بينما احتفظت الظلال بالآخر لنفسها.

حضرتني خلال خطواتنا صوب المقهى، الألوان الباهتة التي تلبستها إحدى لوحاتك، لكأنها كانت تقلد نثار الضوء الطباشيري الذي فاجأ أبصارنا في ذلك الصباح المثلج، فمنحنا شعوراً إضافياً بغرابة لقائنا، أو بالأحرى غرابة وجودنا معاً في تلك اللحظة.

منشورات «ألف ياء» AlYaa»

لا أستبعد أننا مشينا عشر دقائق قبل انعطاف الشارع يميناً، وبروز حديقة "ريجنت بارك" العامة.

خمنتُ أنك تقودنا إلى المقهى الواقع في داخلها، ولم يخب ظني في ذلك. قلتُ آنذاك كسراً للصمت الذي ظل قائماً بيننا طوال الطريق: "أنت محظوظ أن تسكن بجانب أجمل حديقة عامة في لندن..." وأظنك أجبتني حين اجتزنا بوابتها: "فعلاً... وهذا ما يجعلني متمسكاً بشقتي البائسة..."

* * *

طوال جلوسنا في المقهى، كانت أبصارنا مثبتة على ’’هاجَر‘‘ حتى لو بقينا نتظاهر بالعكس: أن نسلط أعيننا على شرائط الزينة بمصابيحها المطفأة، أو عبر زجاج النوافذ الواسعة صوب الأشجار دائمة الخضرة، أو تلك البركة التي يعوم فيها خليط من بجع أسود وأبيض وبعض من النوارس البحرية الضالة.

لا بد أنك مثلي شعرتَ بالراحة حين أخبرتنا ’’هاجَر‘‘ أين ذهبت بعد خروجها العاصف من بيت الدكتورة ’’عالية‘‘: "كان ظهور سيارة "الكاب" السوداء رحمة من السماء،" رددت وهي تنظر إليك بحنو غريب، جعل أنفاسي تضطرب في صدري . "لمّا سألني السائق عن وجهتي حضرني المكان الوحيد الذي أعرفه لأن اسمه عربي: "الطرف الأغرّ"."

"وطبعاً، بعد قضاء ساعات مع المحتفلين، جاءت بالحافلة التي تمر بجانب بيتي،" قال ’’أَسعَد‘‘ متفاخراً بنبرة مرحة، "مثل كل مرة نعود فيها إلى شقتي، بعد جولة سياحية بلندن."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قالت ’’هاجَر‘‘، وهي تطبق راحتيها أمامه عرفاناً بالجميل: "بفضلك شاهدتُ معالم المدينة البارزة."

لكن وجوماً حلّ بيننا حين أضافت بصوت خافت ورصين: "سأتذكركم دائماً حين أعود إلى بغداد."

وكأنها سمعت سؤالاً تردد في رؤوسنا الثلاثة دون أن ننطق به: "لماذا تتركيننا؟" كي تسترسل في جوابها: "ما كان عليّ أن أتصرف بشكل جنوني أمس... الدكتورة ’’عالية‘‘ خالتي فقط... وأمي الحقيقية هي ’’منيرة‘‘..." أضافت بعد أن نفثت نَفَساً عميقاً مشبعاً بدخان سيجارتها: "يجب أن نتقبل أقدارنا كيفما كانت..."

* * *

أخبرنا ’’أَسعَد‘‘، كما تذكُر، خلال جلستنا تلك، بمهاتفته للدكتورة ’’عالية‘‘ حال وصول ’’هاجَر‘‘ إلى شقته، وكم طغت الفرحة عليها بسلامة ابنتها، كشفه تهدج صوتها عبر هاتفه، ولم يمض وقت طويل حتى عادت ’’مريم‘‘ إلى مسكنها بسيارة تاكسي.

قال ’’أَسعَد‘‘: "الدكتورة ’’عالية‘‘ تدعوكم جميعاً إلى بيتها عصر اليوم..."

أضاف وهو يرسم ابتسامة عريضة لحظة استدارة رأسه صوب ’’هاجَر‘‘: "هي تنتظركِ بفارغ الصبر..."

دُهشتُ لقبولكَ الفوري الدعوة، وما زاد من دهشتي تراخي عضلات حنكك عن ابتسامة خجول تتعارض مع ما ألفته من جدية مفرطة تعكسها عيناك الحزينتان دائماً.

حضرتني هذه الفكرة وأنا أتطلع في وجهك بينما كنتَ تتبادل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الحديث مع ''هاجَر'' و''أَسعَد'': النساء الفاتنات لا يُمنحن فرصة لاختبار مواهبهن في الحديث، فالظرفاء المحيطون بهنّ، لا يكفون لحظة عن إمتاعهن بالقصص والطرائف والمغالاة بالعناية بهن، ما يجعلهن يبحثن بدأب عن النقيض: عن شخص منطوٍ على نفسه، مثلك، يخلو من الجاذبية، ولا يبالي بمظهرهن الخارجي ليكتشفن في أنفسهن ما لم يسمح الذكور الآخرون بظهوره: قدرتهن على أن يكنّ في موقع المبادر الإيجابي مع المحبوب، أن يبذلن جهوداً جبارة لكسب حبه وإعجابه بقدراتهن أكثر من جمالهن.

وأكون صريحاً جداً معك، إذا قلتُ لك إني لم أفكر في تلك اللحظة بإمكانية انشداد ''هاجَر'' إليك، فهي تخلو من عنصر أساسي كانت صديقاتك السابقات يتمتعن به: هشاشة واضطراب عميقين يبحثان عن نقطة ارتكاز: إله أرضي بمواصفاتك.

* * *

لا بد أن صديقك الحميم أخبر ''ماهر'' عبر الهاتف عن موعد وصولنا إلى بيت الدكتورة ''عالية''، بعد عودتها من بيت ''سارة''، وهذا ما جعله يستبقنا، بأناقته المألوفة، ووجهه الحليق، وعطره الصاخب. بدا على عكس مظهرنا الخارجي الملخبط، كأنه أخذ قسطاً كبيراً من النوم العميق، واستحم طويلاً، ولعله لهذا السبب لم يحضر إلى شقّتك هذا الصباح، رغم شكي العميق بأنك دعوته يوماً ما إليها.

أعترف لك بأني لم أكن مهيَّأً لبروزه أمامي جالساً باسترخاء مع مضيفتنا يتبادل أطراف الحديث معها، ولا أستبعد أنها كانت مستمتعة بحضوره.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

في المقابل، كانت عاطفتي تجاهه ملتبسة: خليط ما بين انبساط وانقباض لرؤيته المفاجئة هناك، ولا أستبعد أنك قاسمتني نفس المشاعر.

قالت ''هاجَر'' وهي تحتضن الدكتورة ''عالية'' التي فاضت عيناها بالدمع: "أنا محظوظة أن تكون لي أمّ ثانية في لندن."

وحال جلوسنا جميعاً التفتت إلى ''ماهر'' الذي ظلت عيناه تتابعانها طوال الوقت: "كيف حال ابنك ''نيرو''؟" سألته بنبرة جادة أثارت الضحك فينا، لكنه ظل متماسكاً أمامها، محتفظاً هو الآخر بجدية متصنعة: "بخير... طلب مني أن أبلغك سلامه الحار..."

حضرني سؤال كالبرق: "هل تحمل عبارته الأخيرة لغة مشفرة بينهما؟"

كانت شاشة التلفزيون، تنقل آنذاك تقريراً مختصراً عن زيارة الملك ''حسين'' إلى لندن، واجتماعه برئيس الوزراء البريطاني الجديد ''جون ميجور''، من دون إعطاء تفاصيل عن نتائج اجتماعهما.

قال ''ماهر'': "يبدو أنه فشل في إقناع لندن بتغيير موقفها تجاه الحرب القريبة."

قالت الدكتورة ''عالية'': "على الأقل هو يحاول..."

قال ''أَسعَد'': "لعله يحمل عرضاً من ''صدّام'' بالانسحاب إذا مُنح ورقة التوت..."

وأظن أني عَلَّقْتُ: "هو يعوّل على مشروع تقدمه المجموعة الأوروبية: الانسحاب مقابل وعد بمؤتمر دولي..."

جاء صوتك، خافتاً، لحظة انتهاء التقرير: "ما زال غير

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مقتنع بأن هناك اليوم قوة عظمى واحدة تفعل ما تشاء..."

وكأن ’’هاجَر‘‘ ضجرت من حديثنا المتكرر كل يوم، حين نهضت فجأة وهي تتأوه: "اسمحوا لي: لازم أشوف ’’جدّو‘‘..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الواحد والعشرون

بوصلة الوهم (2)

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(1)

لا بدّ أنك تذكر كيف تَسارَعَ إيقاع الأحداث خلال أول أسبوعَين من العام الجديد، وكم كان حالنا شبيهاً بحال الديناصورات لدى ظهور نجم ظل يزداد حجماً والتماعاً ليلة بعد ليلة.

ولم يكن ذلك النجم الباهر، في حقيقة الأمر، سوى حجر كالح عرضه عشرة أميال، نجح على عكس الآلاف من أمثاله، في الاصطدام بهذا الكوكب، إذ تحول حال اختراق مجاله الجوي إلى نيزك خاطف، ليصفع الأرض بقوة تضاري عشرة مليارات قنبلة نووية.

لم تؤد تلك الضربة المريعة إلى محو كل الفصائل الديناصورية عن بكرة أبيها خلال يوم واحد فقط (بعد أن عاشت حياة رخية لما يزيد عن 170 مليون سنة على هذه الأرض)، بل أضرمت حرائق في الغابات على امتداد آلاف الأميال، وحرضت على وقوع فيضانات بحرية كاسحة، وإطلاق كميات مهولة من الغبار الكبريتي إلى السماء، تسبب في منع ضياء الشمس من الوصول الى الأرض زمناً طويلاً، ناهيك عن الزلازل والانهيارات الأرضية والبراكين المروعة التي أعقبت ذلك الانفجار.

كانت حصيلة نجاح ذلك الكويكب في إصابة الهدف مجزية حقاً: إبادة أكثر من ثلاثة أرباع الكائنات الحية على الأرض من حيوانات ونباتات وحشرات، وطيّ صفحة من تاريخ هذا الكوكب الملعون.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كـأني أستحضـر مـا كـان يـدور فـي رأسـي وأنـا أتـابع الاستعدادات القائمة على قدم وساق آنذاك.

في هذه القصاصة التي عثرتُ عليها اليوم أقرأ كيف ستكون مراحل الحرب الثلاث التي أطلق عليها البنتاغون: "عاصفة الصحراء": الأولى: تحقيق تفوق جوي حاسم خلال الأيام القليلة الأولى، وهذا يعني تدمير قوة العراق الجوية لأن ترد بالصواريخ أو الطائرات. ولتحقيق ذلك ستُستخدم قاذفات "الشبح" التي لا تراها الرادارات، وطائرات "أف جي" المزودة بصواريخ مضادة للإشعار، و"أف 15 إي" الموجهة بالأشعة تحت الحمراء، و"أف 111" المحمَّلة بقنابِل تسيّرها أشعة الليزر، وطائرات "التورنيدو" البريطانية المتخصصة بإلقاء القنابل العنقودية؛ وإذا نجحت هذه الخطوة ستبدأ المرحلة الثانية حيث ستصبح السماء مفتوحة لاستخدام القصف السجّادي للقوات العراقية والتحصينات الثابتة باستخدام القاذفات "بي-52" السيئة السمعة، مع الاستمرار في القصف الدقيق لأهداف استراتيجية مثل المفاعلات النووية ومواقع الصواريخ ومواقع تصنيع الأسلحة الكيمياوية؛ وحال انجاز هذه المهمة تبدأ المرحلة الثالثة التي تشمل استخدام الحوّامات والطائرات المدمرة للدبابات "أيه-10" العراقية.

(2)

غير أننا على عكس فصائل الديناصور الساهية كانت أعيننا مسمَّرة على النجم المقترب منا، يوماً بعد يوم، بفضل شاشات التلفزيون والصحف المحلية.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كيف تعزو تلك الحاجة الخفية التي اجتاحتنا جميعا للالتقاء ببعضنا البعض كل يوم؟ هل هي مجرد شعور غريزي يدفع أفراداً من تلك القبيلة المستهدفة لقضاء وقت أطول معاً تخلصاً من شعور غامض بالفناء الفردي حتى لو كانوا بعيدين عنها بآلاف الأميال؟

في المقابل، تحول بيتي الذي أسكنه منذ خمس عشرة سنة إلى مكان غريب تتنازعه مشاعر متضاربة لساكنيها لكنها مخفية ببراعة.

كان الصمت هو القاسم المشترك بيننا. ولا أستبعد أن ''لورا'' والبنتين ظللن ينظرن إليّ بشفقة وحنو، لما أصابني من اضطراب بسبب بلد لم أسعَ يوماً إلى تعريفهن به، أو بِلُغَتِهِ، فظل كأنه لغز أسطوري بالنسبة لهن، يعكسه فقط الاسم العائلي الأجنبي الذي يحملنه، ويلفظنه بطريقة خاطئة: "الصبّاغ".

لم أسأل يوماً ''سوزان'' و''منى'' إن كانتا تتعرضان لمضايقات زميلاتهما اللواتي يعرفن أصل أبيهن.

كانت قنوات التلفزيون تضخ بدأب كل ما يعمق الشعور بالاشمئزاز من سكان تلك البقعة المنبوذة التي يتقدم النجم صوبها: رجال معلقون كالدمى بمشانق عملاقة تحوطهم أعداد كبيرة من المبتهجين بالمشهد المروع؛ تقارير منظمة العفو الدولية عن رمي مئات الخدّج من حاضناتهم على يد الجنود العراقيين، وعن أعمال اختطاف وتعذيب وقتل للمدنيين الكويتيين المقاومين دون محاكمة؛ ناهيك عن قصص أولئك المدنيين الذين كانوا رهائن في ضيافة ''سَدَم'' حول ظروف احتجازهم وما عانوه هم وعوائلهم خلال أشهر احتجازهم.

لاقت فكرة مغادرتي البيت مؤقتاً قبولاً من ''لورا''، فخروج

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

المستأجر المفاجئ من شقتنا الصغيرة وسط لندن، وصعوبة تأجيرها خلال موسم الشتاء، كانا دافعاً في تسريع انتقالي.

اتفقنا جميعاً أن تكون مغادرتي قصيرة: حال انتهاء الفصل الدراسي في نهاية شهر مايو، نعطي الشَقّة لمستأجر جديد، وأعود إلى البيت.

(3)

يحضرني دائماً ذلك الفيلم الوثائقي الذي شاهدته على شاشة التلفزيون :''سَدَم'' يتفقد بعض قطعات من الجيش العراقي داخل الكويت. أتذكر ذلك الجندي الهزيل الجسد الذي خرج من خندقه، وهرول صوبه، ليطبع على يده اليمنى الممدودة أكثر من قبلة.

تنتقل الكاميرا لتصور ''سَدَم'' بمعطفه العسكري وبيريته السوداء، وهو يخطب في حشد من العسكريين. ينقل المترجم بعضاً من عباراته المتباهية التي ما زلت أحفظها: "العراق وضع 60 فرقة على الحدود مع أن عدد سكانه 18 مليون نسمة، في حين أن عدد سكان الغرب 700 مليون ولم يستطع تحشيد أكثر من 14 فرقة."

أظن أن ذلك الفيلم عُرض بعد يوم واحد عن زيارة العاهل الأردني للندن سعياً لمنع وقوع الحرب.

تدور عين الكاميرا بعيداً عن ذلك المشهد، فتنقل للمُشاهد ذلك الخندق اللامتناهي الذي صوَّره بدقة متناهية قمر صناعي أمريكي مكلف برصد الجنود المختبئين فيه.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

انشغلت زوجتي والبنتان معاً، طوال يوم السبت، في ترتيب الشَقّة الصغيرة التي انتقلتُ إليها قبل يومين، وبالطبع لم ينسين نشر النَّبتات البيتية التي جئن بها في أرجاء سكني المؤقت.

عند حلول العصر، أخذت ''لورا'' ابنتينا بسيارتها إلى بيت جدتهما، وعادت على عجل. مع ذلك، كان علينا الإسراع في الخروج، فالمسرحية التي حجزتُ مقعدين لمشاهدتها، يبدأ عرضها بعد ساعة وربع فقط.

قد لا تصدقني إذا قلتُ لك إن اختياري لذلك العرض كان قسرياً، فكل المقاعد في المسارح الأخرى كانت محجوزة، حتى مع اقترابنا من حرب ظل الإعلام ينذر كل يوم باحتمال وقوع خسائر بشرية جسيمة فيها بين الجنود البريطانيين.

كان عنوان المسرحية "مَشاهِد من حياة زوجية" لإنغمار برغمان.

وكم بدت كأنها تحكي عنا ولكن بالمقلوب، ففيها يقع الزوج في حب امرأة أخرى وينفصل عن زوجته المشدودة إليه بشكل أعمى. غير أنهما على الرغم من حدوث الطلاق بينهما يتحولان بعد سنوات إلى عاشقَين يلتقيان سراً بانتظام، بعيداً عن أعين شريكيهما الجديدين.

خمنتُ دون الالتفات إلى ''لورا'' أن يكون وجهها احمرَّ خلال بعض من تلك المشاهد العاصفة كما هو الأمر عادة حين يمسها شعور ما بالخجل أو الغضب.

خلال تمشينا إلى الشَقّة، قالت زوجتي وهي تمسك بساعدي: "آمل أن تدعوني كل شهر لمسرحية جميلة كهذه..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

(4)

كم يبدو الأمر عسيراً على التفسير خلال تلك الأيام الخوالي: كلما ازداد النجم اقتراباً ازداد شعوري بالخفة، أو بصيغة أدق، شعوري بتقلص قوة الجاذبية التي تجرني إلى الأرض، وأظنك كنتَ تعيش الحال نفسها، وربما ''أَسعَد'' و''ماهر''.

قد تستغرب إذا قلت لك إن أحلامي في سكني المنفرد تحررت هي الأخرى من طوق الرقابة الذاتية، كأني بابتعادي عن البيت العائلي لم أتحرر منه شعورياً فحسب بل لا شعورياً أيضاً.

كان عليّ دائماً إخفاء ذلك الشعور بالنفور المتصاعد من أسرتي الصغيرة، بإبداء اهتمام مضاعف بابنتيّ: اصطحابهما إلى السينما مرتين أو ثلاثاً، شراء هدايا لهما أكثر مما هو مألوف سابقاً. أتذكر ''لورا'' حين قالت ضاحكة: "أنت تجعلني أشعر بالغيرة منهما..."

هل كان الدافع وراء تصرفي تخفيف مشاعر الذنب تجاههما؟

حلم واحد اصطادته ذاكرتي بالكامل عند استيقاظي من النوم: كنا في جزيرة خلال عطلة، والطائرة ستقلنا مساءً، خرجتُ للتسكع فيها قبل عودتنا، بعد قطع مسافة طويلة وجدتُ نفسي في سوق يشبه أسواق بغداد القديمة المسقفة، وحين دخلته رأيتُ إلى يميني مقهى صغيراً يقدم الشاي على الطريقة العراقية. حال انتهائي من شرب "استكاني" تذكرت أن عليّ الرجوع بسرعة إلى مكان سكناي لتحضير حقيبتي، لا بد أن ''لورا'' والبنتين ينتظرنني الآن لتناول آخِر وجبة طعام معهن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قبل السفر، لكني نسيت طريق العودة. ندم عميق ينتابني لعدم كتابة العنوان على ورقة وحمله معي. كان الوقت يتسرب سريعاً كحبات الرمل من بين أصابع اليد، فها آنذا أتخبط في خطواتي ذهاباً وإياباً بين الطرق الضيقة. كل شيء بدا مكشوفاً، أستطيع أن أشاهد البحر من مكاني، والجزيرة أصغر من أن يضيع أي إنسان فيها، مع ذلك مسحت ذاكرتي تماما موقع السكن الذي تركته قبل ساعات قليلة.

صحوتُ مرعوباً على فقدان الصلة بأسرتي التي تنتظرني للطيران معاً في المساء والعودة إلى بيتنا الأصلي؛ بدا الحلم لحظة فتح عينيّ أكثر حقيقيةً من حجرة الجلوس الغارقة في الظلمة، ولا بدّ أن أكثر من دقيقة مضت عليّ قبل أن أميز بين الحلم والواقع.

(5)

أخيراً استقررتُ في مركز لندن بعيداً عن ضواحيها الرعوية، وكم كانت شقَّتانا قريبتين من بعضهما البعض، حيث تفصل بينهما عدة أميال فقط، لكأننا نسترجع تلك الأيام الخوالي في بغداد القديمة حيث يقع بيتانا في منطقة واحدة.

لم أخبرك عن حضور ''هاجَر'' و''أَسعَد'' غير المتوقَّع إلى شقتي.

بعد انتقالي بيوم أو يومين إليها، هاتفتُ صديقك، لأعطيه عنواني، دون أن تراودني أي فكرة أنه سيبزغ هكذا فجأة أمامي، مردداً بنبرة اعتذار: "كنا نتمشى قريباً من سكنك فخطر على بالي أن نمر بك..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لا بـد أنّ ’’هـاجَر‘‘ أوَّلـت صـمتي انزعاجـاً مـن زيارتهمـا المفاجئة، حين قالت: "لا تؤاخذنا دكتور ’’يوسف‘‘ إذا جئنـا فـي وقت غير مناسب..."

أعتـرف لـك بـأن الكلمـات لـم تسـعفني للـرد عليهـا، ولعلـك تستطيع تقدير المفاجأة التي شدهتني هكذا: سرب حمام متخفٍّ بين أغصـان شـجرة مورقـة يهبّ دون سابق إنذار مرتفعاً إلـى أعلـى فـيملأ عينيـك ذلـك المشـهد الآسـر، ويهـز سـمعك خفـق الأجنحة المتحررة من قوة الجاذبية الأرضية.

ولعل انفراج عضلات وجهي كشف لها قدراً من ذلك التوق المجنون لرؤيتها.

قال ’’أَسعَد‘‘: "لم أتخيل يوماً أن تسكن قريباً منا جميعاً..."

أتـذكر أنـي أجبتـه: "بقائي مؤقت... خمسـة أشـهر فقط، حتـى حلول العطلة الصيفية."

قالت ’’هاجَر‘‘ ضاحكة: "ألف عمامة تنقلب بخمسة أشهر..."

"ما رأيكم بالقهوة؟" ردَّدتُ تحرراً من شعور بالارتباك.

"أنا أفضّل الشـاي،" قالـت ضـيفتي، فعقّـبَ ’’أَسـعَد‘‘: "أنـا مـع الشـاي دائمـاً حتـى السادسـة مسـاءً..." ثـم أضـاف وهـو يقـدم لـي كيسـاً ورقيـاً: "اشـتريتُ قطـع "كُرْواسـون" طـازجـة مـن مخبـزة فرنسية على الطريق... أتمنى أن تعجبك..."

فـي المطـبخ، بينمـا كنـت أمـلأ الإبريـق الكهربـائي بالمـاء لتسـخينه، ظهـرت ’’هـاجَر‘‘ فجـأة: "أسـتطيع مسـاعدتك إذا أحببت،" قالت بنبرة خفيفة، كأننا زميلان نتقاسم سكناً واحداً...

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(6)

اقتدتُ الضيفين في جولة قصيرة داخل الشَقّة. قال ''أَسعَد'' حين شاهد السرير الضيق المركون في الحجرة الصغيرة شبه الفارغة: "عظيم... عندك سرير إضافي..." وحين بقينا صامتَين أضاف ضاحكاً: "إذا طردتني ''مريم'' من البيت سأكون ضيفاً ثقيلاً عليك..." قالت ''هاجَر'': "هذا السرير يجبرك على الرقاد كالميت من دون حركة." أتذكر أني فسرتُ لهما وجوده: "المستأجر السابق اشتراه لغرض مجهول، وتركه وراءه..."

تسللت أصوات وضحكات طفولية عبر النافذة الشاقولية، فأزاحت ''هاجَر'' بحذر ستارتها الغامقة ليمتلئ فراغ الحجرة بضوء الشمس الباهت. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها وهي تطل على فناء الروضة الأهلية المجاورة للمبنى. التفتت إلى ''أَسعَد'': "لن تفتقد صغارك إذا أقمتَ مع دكتور ''يوسف''..."

لا أتذكر بالضبط كيف أصبحتَ أنتَ و''ماهر'' موضوعا لحديثنا المتشعب. كل ما يحضرني هو تلك الجملة التي جاءت على لسان ''هاجَر'' وهي تعنيك: "صديقكما شخص غامض." وهذا ما دفع ''أَسعَد'' لأن ينبري في الدفاع عنك بطريقته الخاصة: "لـ''جليل'' طبقتان جلديتان: الخارجية مصنوعة من الخيش والداخلية من حرير،" تمتم صاحبك وهو يملأ صدره بنفَس عميق من دخان سيكارته، "لذلك على أصدقائه أن يحفروا بحذر للوصول إلى طبقة الحرير... عند ذلك سيشعرون كأنهم كسبوا كنزاً..."

لا بد أن ''أَسعَد'' قرأ في عينيها مزيجاً من الحيرة المغلفة بالسخرية ما دفعه للغوص أكثر فأكثر في التجريد: "من يصل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

إلى تلك الطبقة سيشعر بالقداسة... أو يشعر بأنه أرقى مما هو عليه في الواقع..."

لست واثقاً ما إذا كانت ''هاجَر'' فهمت هذيان صديقك المقرَّب، مع ذلك لم تجد حرجاً أن تسأله ثانية: "وماذا عن ''ماهر''؟"

أخرج ''أَسعَد'' من جيب معطفه الملقى بجواره زجاجة كونياك صغيرة، وسكبها فوق ما تبقى من الشاي في كأسه، قبل أن ينطق أخيراً وسط صمتنا الثقيل: "''ماهر'' على عكس ''جليل'': طبقته الجلدية الخارجية مصنوعة من حرير والداخلية من خيش..." ردد وهو يرتشف جرعة من كأسه: "معه ينتقل الشعور بالقوة لجليسه... لكن من الأفضل تجنب طبقة الخيش المخفية عن الأبصار..."

أطلق ''أَسعَد'' ضحكة هادرة قبل أن ينهي استطراداته بصيغة معدلة عما سمعتها منه سابقاً: "في كل الأحوال هما إلهان أرضيان، يتجنب كل منهما الاحتكاك بالآخر..."

(7)

لستُ متأكداً إن كنتَ تابعتَ اجتماع جنيف الشهير.

أتذكر أني شاهدتُ المؤتمر الصحافي الذي أعقبه على شاشة التلفزيون في شَقّة ''أَسعَد'' و''مريم''.

ظل العالم حابساً أنفاسه مدة ست ساعات ونصف، بانتظار ما سيتمخض عنه ذلك اللقاء التاريخي الذي جمع وزيرنا بوزير الخارجية الأمريكي.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وحال انتهائه، ظهر ''جيمس بيكر'' في الساعة الثامنة إلا ربعاً مساءً، أمام المراسلين المحتشدين في قاعة فندق "إنتر كونتيننتال" ليبلغهم بكلمات مقتضبة وصوت بارد أن هدف اللقاء الذي جمعه بنظيره العراقي هو التواصل وليس التفاوض، ثم أعلن، وسط ذهول الحاضرين الذين ملؤوا قاعة الفندق الأنيقة، عن فشل "المشاورات" بين الطرفين، وقبل اختتام خطابه القصير، أضاف بنبرة حزينة، مخففة جداً، كأنه كان يتكلم عن فشل اتفاق تجاري ما: "نحن الآن على شفا حرب..."

قال ''أَسعَد'' ساخراً: "يبدو أن صاحبنا فشل في إقناع ''بيكر'' بمنح سيده ورقة التوت اللازمة للانسحاب من الكويت..."

أتذكر أني ردّدتُ شيئا كهذا: "الرفض جاء من سيد البيت الأبيض الذي اتصل وزير خارجيته به بعد انتهاء جلسة الاجتماع الأولى..."

تمتمت ''مريم'' متسائلة: "يعني الحرب "رَحْ" تشتعل بعد أسبوع؟"

قال ''أَسعَد'': "لا تخافي، سيخرج صاحبنا من الكويت قبل انتهاء المهلة بساعات..."

جاء رنين جرس الهاتف المركون بجانب باب الغرفة، ليخرجني من حالة الإحباط التي تملكتني آنذاك، بعد الوهم الذي زرعه ''بوش''، قبل يومين فقط، بأن إدارته ستسير ميلاً إضافياً، لتجنب الحرب، ولا بد أن ''سَدَم'' ابتلع الطعم فأرسل وزير خارجيته إلى جنيف على وجه السرعة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

علت ابتسامة عريضة وجه ’’أَسعَد‘‘، قبل أن يردد: "’’ماهر‘‘ يدعونا للذهاب عنده الآن، ما رأيك؟"

وحين أجبته بالإيجاب. قال مضيفي: "لنتحضّر...هو سيأتي لأخذنا بسيارته بعد دقائق..."

(8)

وأنا أكتب لك الآن، حضرني هذا السؤال: بمَ ظلت ’’لورا‘‘ تبرر عزوفي عن فراش الزوجية لأكثر من ثلاثة أشهر؟ هل اعتبرته رد فعل متأخراً مني عما قامت به حين انجذبت إلى مديرها ’’كريس‘‘: الركون إلى الكنبة، وادعاء الإصابة بصداع مزمن؟ أم أنها سلّمت بانطفاء شغفي الجارف بها فراحت تنتظر خطوتي اللاحقة بكل صبر وتأنٍ؟ لا بد أنها أدركت فجأة انتماءنا إلى مجرتين جدّ متباعدتين وأن الكيمياء التي صهرت جسدينا معاً لسنوات لم تمسّ أبداً روحينا.

لم يتغير أي شيء في شَقَّة ’’ماهر‘‘. أتذكر أن ’’نيرو‘‘، حال جلوسنا، ظل يحدق في وجهي، كأنه كان ينتظر دعوتي له. قال ’’ماهر‘‘ ضاحكاً: "يبدو أنه تعلق بك من المرة السابقة، وهذا تصرف نادر له..."

وكأنّ القط خمّن أنه موضوع الحديث، حينما تقدم نحوي، ليقفز إلى حضني، فيستكنّ فيه ويمضي مقرقراً.

اختفى ’’أَسعَد‘‘ دقائق قبل أن يعود حاملاً صينية صغيرة، تحتوي على زجاجة نبيذ وثلاث كؤوس.

بدا لي صاحبك كأنه هو المضيف لنا. وكم كان جذلاً آنذاك.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أتذكر كيف طفح البِشْر على وجهه إلى الحدّ الذي غاصت عيناه في محجريهما، وراحت أنفاسه تتسارع وهو يرتب طاولة القهوة لجلستنا.

قال ’’ماهر‘‘، بتفاخر خفيّ، مؤشراً بإصبعه صوب الزجاجة: "اشترت لي زميلة دزينة من نفس الماركة، خلال سفرتها إلى فرنسا..."

قال ’’أَسعَد‘‘ بعد أن تشمم كأسه، وتلمّظ بجرعة منه: "لم أشرب في حياتي مثله..."

لعل الصمت الذي ران بيننا كان وراء اقتراح صديقك على ’’ماهر‘‘ أن يعزف لنا قطعاً موسيقية كلاسيكية.

بعد تلكؤ واعتذار متكرر نهض مضيفنا إلى آلته المرصوفة في زاوية الغرفة، وبعد رفع مزهرية الورد عن سقف البيانو، جلس على مقعد صغير أمامه، ثم راحت أصابعه تضرب على المفاتيح بينما عيناه تتابعان بدقة صفحات النوطة الموسيقية.

قد أكون قاسياً إذا قلت لك إن ما سمعته كان متقناً، لكن الموسيقى المنبثة من أصابع ’’ماهر‘‘ ظلت عاجزة عن هز مشاعري، على عكس ’’أَسعَد‘‘ الذي اتقدت عيناه بالدهشة، وراح رأسه يتمايل طرباً بحركة تتماثل مع إيقاع القطع المعزوفة.

هل كان انطباعي ذاك ناجماً عن غيرة خفية منه؟ إذ كيف تفسر ذلك الضيق في صدري كلما حضرتني فكرة وجود ’’هاجَر‘‘ في هذه الشَقّة الدافئة بملابس مشبعة تماماً بماء مثلَّج!

"هذه سوناتا لبيتهوفن أهداها لامرأة مجهولة، فعنونَها هكذا: إلى إيزا،" قال ’’ماهر‘‘ قبل أن يبدأ بعزفها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لعل ما أثار حفيظتي آنذاك هو نجاحه في صياغة حياة متحررة من الجاذبية، ومحكومة بمبدأ اللذة المحض، حيث لا مكان فيها لإغراءات القلب. هنا يكرس العقل كل نشاطه للعبة الصيد، التي تعبّر الشبكة المعلقة فوق رؤوسنا، والبيانو، والملابس الأنيقة عن بعض خصائصها.

التفت مضيفنا إلى ''أَسعَد'' لحظة تهيُّئِنا للخروج من مسكنه: "أنا سأسافر غداً صباحاً إلى مانشستر..." وحين لمح ابتسامة ماكرة على وجه صديقك أضاف مبرراً: "عليّ أن أحضر دورة تدريبية قصيرة لاستخدام أجهزة عمل جديدة... ثلاثة أيام فقط..."

(9)

ما زالت تلك الصورة الفوتوغرافية، المنشورة في أبرز صحف بريطانيا، مطبوعة في ذاكرتي، لوزيرَي الخارجية وهما يتصافحان عبر طرفي الطاولة المستطيلة، بينما توجهت أعينهما صوب الكاميرا. وإذا كان عبوس وجه ''بيكر'' عبَّر عن خيبة أمل مصطنعة، فإن عيني ''عزيز'' رسمتا ابتسامة لاعب فاز للتو بمباراة شطرنج مهمة. لكأنه أراد أن يبعث، عبر الصورة، برسالة إلى سيده في بغداد مفادها: "لقد رفضتُ أخذ رسالة ''بوش'' لك بعد قراءتها لأن لغتها تخلو من اللياقة... أقسم لك سيدي بأني كنت لسان حالك الوفي..."

وأنا أتابع مقابلته مع المراسلين بعد مغادرة ''بيكر'' المنصة، تشكلت لدي قناعة بإن ''عزيز'' كان حريصاً على إرضاء ''سَدَم''، أقصى ما يمكن، أكثر من اهتمامه بمنع اشتعال

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الحرب، فمثلَ وكيل مبيعات بارع، يعرف كيف يحجب العيوب عن بضاعة تنتجها شركة سيئة السمعة، حذف وزير خارجيتنا كلمتي "الاحتلال" و"الانسحاب" تماماً من خطابه، ليعطي انطباعاً بأن هدف ذلك الاجتماع التاريخي هو لمناقشة مسألة مختلفة عنهما: "تحقيق السلام في الشرق الأوسط"!

(10)

استيقظتُ صباح اليوم اللاحق لذلك الاجتماع المشؤوم، على صداع نصفي حادّ، فكان عليّ مهاتفة الجامعة لإلغاء محاضرتي التي تبدأ الساعة العاشرة صباحاً.

مرت ساعات الليل المنصرم عليّ كأني في قاعة سينما سحرية، ولم تكن شاشتها سوى نقطة مخفية في إحدى تجاويف رأسي، وهناك ظل أفراد عائلتي الكبيرة يتناوبون الظهور والاختفاء، حيث يختلط الأحياء منهم بالأموات. لا أتذكر من شريط الأحلام المتقطع إلا واحداً: ها أنذا أمام باب جدي القديم، في زقاق ضيق بدا خالياً من السكان، تساورني قناعة مطلقة بأنْ لا أحد يقيم في ذلك البيت، مع ذلك رحتُ أقرع المطرقة الصغيرة المثبتة على قمة الباب بإصرار. فجأة راحت حافته تنفرج ببطء ليواجهني أبي المتوفى قبل عشر سنوات. أتبعه عبر المَجاز المعتم بخطوات مرتبكة إلى الحوش الواسع، الذي كانت تنتصب وسطه سدرة، لكن حل محلها الآن قفص كبير مشبَّك بقضبان فضية. تلمح عيناي مصطبة داخله مغطاة بشرشف أخضر، وتحيطها شموع مشتعلة، فيقشعر بدني، وقبل أن أسأل أبي عن هذا الضريح، يمضي دون أن يلتفت إليّ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

صـوب حجـرة بابهـا مفتـوح علـى ظلمـة مطبقـة، فيـدخل فيهـا ويختفي أثره.

حضـرتني بين النـوم واليقظـة، مقـاطع مـن حـديثنا أمـس عنـد ’’ماهر‘‘. ولا أستبعد أنني كنت المبادر في ذكر ’’جنكيز خـان‘‘ كنمــوذج عــن أولئــك الــذين أسســوا عبــر الغــزو أوســع الامبراطوريـات بـزمن قصير. قـال ’’أَسعَد‘‘: "بفضـلـه صـارت إبـادة سكان المـدن تقليداً لأحفـاده إذا رفض حكامهـا الاستسلام له..."

أتذكر أنـي علَّقتُ بعبارة كهذه: "مع ذلك فهو لم يتـرك أي أثـر وراءه...لا أحد يعرف حتى أين قبره..."

التفـتُّ صـدفة إلـى مضـيفنا لسـماع رأيـه، ففاجـأتني ابتسـامة غامضـة طفحـت علـى عينيـه وشـفتيه ."لا أتفـق تمامـاً معـك..." أجـاب ’’مـاهر‘‘. أضـاف بعـد لحظـات مـن الصـمت: "’’جنكيـز خان‘‘ حقق خلوداً له لا يجاريه أحد في التاريخ..."

لا بد أن سكوتنا حرضـه ليمضـي فـي شـرح مـا عنـاه: "كانـت "أشـنات الخلـق" فـي ترسـانته طوفانـاً لا يهـدأ... سـت زوجـات وألـف محظيـة بيـنهن أميـرات وملكـات... واليـوم ذريتـه تقـدَّر بخمسة عشر مليون رجل... بين كل مائتي رجل في العالم هناك على الأقل حفيد واحد له..."

لا أستبعد أن يكون المغولي الفتاك موضوع اهتمام متواصل لماهر، إذ كيف تفسر انطلاقـه علـى غيـر عادتـه مستطرداً، بعد ارتشاف جرعتين من كأسه: "ما حققه ’’جنكيز خان‘‘ هـو رغبـة جينات كل المخلوقات الحية بالانتشار أقصـى مـا يمكن... يمكن تسميتها إرادة الخلود..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

سـأله ''أَسـعَد'' بفضـول تلميـذ نجيـب: "هـل ينطبـق هـذا علـى الإنسان أيضاً؟"

"بالطبع..." قال ''ماهر'' بنبرة قاطعة، "وهذا يتضـاعف حـين تعيش في مجتمع لا جذور لك فيه... أرض بكر لجيناتك..."

(11)

لا بـدّ أن الوقـت تجـاوز منتصـف النهـار حـين نهضـتُ مـن سـريري. وكمـا تعـرف فـإن الشـمس تغيـب فـي وقـت مبكـر هـذا الشهر، فيهبط الظلام سريعاً على لندن.

كان عليّ أن أسرع في شراء الصحيفة قبل نفادها من محل غير بعيد عن شقتي.

أتذكر كيف رحتُ أقلّب صفحاتها بفضول شديد، حتـى وأنـا أمشـي علـى الرصـيف المـزدحم بالمشـاة وأتعثـر بـاثنين أو ثلاثـة منـهم.

وكم كانت الحصيلة ضئيلة!

قـرأتُ فـي الجريـدة عـن قبـول ''بـوش'' بإرسـال الأمـين العـام للأمم المتحدة إلى بغداد كآخر محاولة لمنع الحرب، ورفض أي مساعٍ أخرى لتغيير مسار النجم المتجه إلى "أرض السواد".

سـيحمل ''بيريـز ديكويـار'' معـه الرسـالة التـي بقيـت علـى طاولـة المفاوضـات بعـد رفـض وزيـر خارجيتنـا أخـذها إلـى ''سَدَم''. غير أن الدبلوماسي العريق، صاحب العينين شديدتي الحـزن والخجـل قـال لزملائـه فـي الأمـم المتحـدة، حسـب كاتـب المقالـة، إنـه يشـك فـي قدرتـه علـى إقنـاع الـرئيس العراقـي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بالانسحاب من الكويت قبل حلول منتصف يناير.

جذبني خبران صغيران آخران: أرسل مكتبا المندوب السامي للاجئين والكوارث في الأمم المتحدة كوادر إلى الأردن وتركيا وإيران وسوريا لإعداد مخيمات مسبقاً للاجئين، والآخر عن خروج موظفي السفارة الأميركية بالكامل من العراق السبت المقبل.

عدتُ إلى الكتاب الذي اشتريته قبل يومين. ولعلك ستستغرب إذا ذكرتُ لك عنوانه: "النبوءات الكاملة لنُستراداموس". كأني كنت أحاول عبثاً حرف ذلك الكويكب عن مساره قليلاً، فهل يستطيع ذلك العراف الأسطوري ابن القرن السادس عشر مساعدتي في هذه المهمة الأسطورية؟

ما صدمني أن تلك النبوءات المصوغة برباعيات شعرية، كانت مكتوبة بلغة مشفَّرة هي الأخرى تحتاج إلى سلسلة من العرافين المضطلعين بلغة التنجيم لتفسيرها بشكل مختلف من حقبة إلى أخرى. توقفتُ عند هذه السطور المضحكة:

"من الجزيرة العربية السعيدة

سيولد قائد مسلم كبير

يهزم إسبانيا ويحتل غرناطة

وبالإضافة إليها إيطاليا من البحر."

كم بدا لي ''نُسْترادامُوس'' على خطأ في نبوءته هذه، كأنه نصب هوائياته صوب الماضي بدلاً من المستقبل.

غير أني كنت محظوظاً حين وقعت عيناايَ على هذه الرباعية الغامضة التي يعتبرها بعض المنجمين المعاصرين إشارة إلى الشرير الثالث بعد ''نابليون'' و''هتلر'':

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"سيموت ’’مابص‘‘ قريباً، ثم يأتي

ذبْحٌ رهيب للناس والحيوانات

وحالما ينكشف الانتقام بقدومه من مائة حَمْل

عطش وجوع يقعان حين يمرّ المذنَّب."

قلبتُ الاسم ’’مابص‘‘ مفترضا أن قراءة الأسماء القادمة من المستقبل البعيد تكون على سطح كالمرآة، ففاجأني اسم "صُبام"، ولعل ضعف بصر المتنبئ الفرنسي العتيد وراء تحويل الدال إلى باء.

هل ستقع الحرب إذن ويُقتَل ’’سَدَم‘‘ فيها؟

غير أن آخر سطرين يتحولان إلى هذيان، قابلين للتأويل بعد وقوع الكارثة لا قبلها، فكأن المستقبل يتشكل وسط فوضى الكلمات المتقلبة ما بين المعنى واللامعنى.

جاء رنين جرس الباب ليُخرجني من دوامة الألغاز وكوابيس ’’نُسْتراداموس‘‘.

وكم فرحتُ حين ظهر ’’أَسعَد‘‘ أمامي. كأن حضوره المفاجئ منح اللحظة المعيشة صلابتها وتماسكها، ولا أستبعد أنه استغرب من شدة الحفاوة التي استقبلته بها.

(12)

لم نبق طويلاً في شقتي. اقترح صديقك عليّ مرافقته في الذهاب إلى مسكن ’’ماهر‘‘ الذي سافر صباحاً إلى "مانشستر"، وترك مهمة إطعام ’’نيرو‘‘ عليه.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"سيفرح القط كثيراً برؤيتك،" قال ''أَسعَد'' مازحاً، "وبعد ذلك، نلتقي بجليل..."

لا أذكر كم استغرقت رحلتنا إلى شَقّة ''ماهر''، فقد ظل صديقك، طوال وجودنا في الباص الأحمر، يتنقل مستطرداً من موضوع إلى آخر، ما جعل الوقت يمر سريعاً. لعل ما بقي عالقاً في ذهني حديثه عن ''هاجَر'' ."هل تعرف أن تأشيرتها ستنتهي بعد أسبوع واحد؟" تمتم ''أَسعَد''، محفزاً إيايّ على تقديم نصيحة ما، وحين وجدني صامتاً كـ''أبي الهول''، انتقل إلى دوري كرة القدم الإنجليزي، قبل عروجه على آخر سباق للكلاب ربح فيه، بعد رهانه على سلوقي لونه مائل للحمرة اسمه ''ميك''...

ارتفع مواء خافت من خلف الباب، راح يتصاعد كلما تقدم ''أَسعَد'' في تدوير المفتاح بقفله. بدا ''نيرو'' وكأنه معتاد عليه فعيناه الغاضبتان كانتا موجهتين صوبه.

بعد إغلاق الباب وراءنا، وقفتُ في مدخل الشَقّة، أراقب صديقك وهو يمشي صوب المطبخ متبوعاً بالقط الذي بدا شديد الجوع، كشفت عنه خطواته العجلى ومواؤه الصاخب، للحصول على وجبة طعامه.

من مكاني استطعت تقدير انطلاق ''نيرو'' بالتهام محتويات العلبة التي أفرغها له ''أَسعَد'' في صحن معدني بفضل الطقطقة الناجمة عن تماس رأس القط بحافته.

عاد مرافقي أخيراً، وهو يحمل كأسين صغيرين مترعين بالشراب. كان وجهه يوشي برضاً كبير على النفس بعد إنجاز مهمة كبيرة ."ما رأيك... نجلس قليلاً قبل الخروج؟" قال ''طاهر'': "هذا الويسكي سيعيننا على برد الطريق..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فـي غرفـة الجلـوس، ارتفـع فجـأة صـوت ’’جـورج مايكـل‘‘ الرخيم بأغنيتـه الشـهيرة "همسـة متهـورة" حـال إشـعال ’’أَسـعَد‘‘ جهاز التسجيل الفخم، لتتلاءم مع الإضاءة الخافتة التـي تحيطنـا، ومـع تحديقـة ’’آفـا غـاردنر‘‘ المكهرِبـة مـن وراء زجـاج الإطـار الذهبيّ.

لا بـد أن صـديقك انتبـه إلـى عينـيّ تتسـللان، مـن وقـت إلـى آخر، صوب حجرة النوم، وإلّا كيف تفسر جملته القصيرة التـي أطلقهـا، لحظـة تهيئنـا للمغـادرة: "’’مـاهر‘‘ يقفلـه دائمـاً كلمـا سـافر..." ولإثبـات مصـداقية كلامـه أمسـك بمقبضـه متوقعـاً أن يقـاوم حركـة معصـمه إلـى أسـفل، لكنـه فـوجئ هـذه المـرة بارتخائـه، وحـال دفـع البـاب قلـيلاً سـمعتُ حفيفـاً خفيفـاً لتمـاس حافته السفلى بالسجاد السميك.

تجمَّدت اللحظة التي بقينا خلالها نتبادل النظرات.

كـم بَـدَونـا آنـذاك وكأننـا لصّـان موشـكان علـى دخـول بنـك لسرقته، لكن الخوف الغريزي تغلغل فجأة فيهما بقوة.

أستطيع الآن فقط إدراك ثقل المهمة التي وُضعت على كاهل ’’أَسعَد‘‘ آنذاك: أن يكـون هـو المسؤول الوحيد عما يجب فعلـه: إغـلاق البـاب ثانيـة والخـروج مـن الشَـقّة بهـدوء أم الانصـياع لشيطان الفضول الذي راح يوغل مخالبه في رأسينا معاً؟

وكأن حافزاً آخر سكنه بعد لحظـة، منح عينيـه فجـأة صـرامة وتصميماً غير معهودين لديه من قبل، فراح يفتح الباب بثبات.

تسللنا إلى الغرفة الواسعة. كان الضوء المتسرب من الممر كافيا لرؤية محتوياتها القليلة: سرير خشبي عريض، ومصباح طاولة، وخزانة ملابس تتناصف مع نافذة جداراً بأكمله.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كـان علـى صـديقك أن يضـغط أربـع مـرات علـى المفتـاح الكهربائي ليتدرج في الانتقال من إضاءة جد خافتـة إلـى سـاطعة تماماً.

ها نحن أخيراً أمام الغرفة التـي ظلـت ’’شـهرزاد‘‘ تحـذر مـن فتحـها!

ومثلمـا هـو الحـال فـي حكاياتهـا تبـدو هذه الغرفـة المطلسـمة عادية في البدء: إلـى يميننـا كانـت هنـاك خزانـة خشـبية مشـدودة إلـــى الجـــدار ذات أربعـــة أدراج، وفـــوق رؤوســـنا ثريـــا مـــن الكريستال مصابيحها على هيئة شموع.

أتـذكر أنـي شـعرت بضـيق مـا، وأنـا أتخيـل ’’هـاجَر‘‘ عاريـة تحت غطاء السرير الزهري اللـون، بينمـا نشـرت ثيابهـا المبللـة على المدفأة.

كأن هذا السؤال ظل يجـول فـي رأسـي مثـل ذبابـة لجـوج: أيّ مشـاعر انتابتهـا وهـي تجـد نفسـها وسـط تلـك الألـوان شـديدة التناسق: الأصفر والأخضر والأزرق، وبين فـازات تتـألق منهـا أزهار البنفسج والزنبق والإقحوان والسوسن؟

أعترف لك بأن شعوراً غريباً من السكينة غمرني خـلال تلـك اللحظات: شعورَ من يعيش حلماً يود لو استمر طوال حياته.

خرجنا من الغرفة صامتَين. كان ’’نيـرو‘‘ واقفـاً يراقبنـا وسـط الممر. انحنى ’’أَسعَد‘‘ صوبه وراح يلامس ظهره مـا دفـع القـط إلى فرك رأسه بساقَي صديقك مرفوقا بقرقرة ناعمة.

في تلك اللحظة بالذات، التفت مرافقـي إلـيّ: "دعنـا نسـتكشـف أكثـر..." ولـم أعـرف مـا عنـاه إلا بعـد فـتح بـاب غرفـة النـوم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وإشعال المصابيح على أعلى درجة ثم المضي صوب خزانة الجرارات.

كان العرق ينضح من جبيني بغزارة وأنا أخطو وراءه، على الرغم من برودة المكان، ولعله نوع من التعبير عن حالة استياء لا شعورية من مشاركتي في التلصص، بدلا من إيقاف الآخر عن المضي أبعد في غيّه.

كان الجرّار الأعلى شبه فارغ، إذا استثينا وجود عدة مقصات فيه، تتراوح ألوانها ما بين الذهبي والفضي، مع علبتين أو ثلاث من المراهم.

كذلك هو الحال مع الجرار الثاني: بطاقات تهنئة بأعياد الميلاد ورأس السنة، ورسائل بريدية ما زالت داخل مظاريفها.

غير أن المفاجأة جاءت في الجرار الثالث: أربعة ألبومات مفروشة بانتظام على سطحه الخشبي. فتح ''أَسعَد'' أحدها. كانت هناك صور أطفال بأعمار مختلفة، وتحت كل منها أسماؤهم وأعمارهم.

تساءل صديقك بأسلوب هزلي: "هل تظن أنهم جميعا أطفاله؟"

أعدنا ترتيب الألبومات، على قدر الإمكان، كما كانت من قبل، وكدت أطلب من ''أَسعَد'' التوقف عند هذا الحد، لكن يده امتدت في تلك اللحظة نحو الجرار الأسفل الذي تطلّب الوصول إليه أن يبرك على كلتا ركبتيه.

"شوف... ماذا لقيت؟" قال ''أَسعَد''، فاضطررتُ للقرفصة بجانبه.

برزت أمامي صناديق ملونة صغيرة تشبه تلك التي

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أستعملُها لخزن بطاقات الاقتباسات حين أُعدّ بحثا ما.

رفع مرافقي واحداً منها بكلتا يديه، فساعدْتُه على فتح غطائه بحذر شديد.

واجهتنا مظاريف بلاستيكية مصفوفة بالتسلسل حسب الحروف الأبجدية.

تبادلنا نظرات حيرى أمام المظروف الأول: وراء واجهته الشفافة كان بإمكاننا رؤية صورة امرأة تعطي انطباعا بأنها تجاوزت الثلاثين، مكبوسة في أعلى ورق من المقوى وتحتها الاسم وتواريخ غامضة، وفي قاع المظروف عيّنة صغيرة جداً من شعر مغضَّن مشدود بخيط مطاطي.

لا بد أن هاجساً ما مس "أَسعَد" آنذاك، إذ كيف تفسر جلوسه على السجاد، والشروع الحثيث في فتح الصناديق واحدة بعد الأخرى، حتى توقفه عند الحرف M؟

شعرتُ في تلك اللحظة بضرورة الخروج من الغرفة وانتظاره وراء بابها.

كم بدت تلك الدقائق التي فصلتنا عن بعض طويلة ولزجة، ولا أستطيع إنكار ما اعتراني من خوف وقلق شديدين عليه وعلى أسرته، غير أن بروزه أخيراً منفرج الأسارير هدَّأ كثيراً من روعي.

كم كنا على شفا هوة لا قاع لها في حجرة "شهرزاد" تلك!

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الثاني والعشرون

مدينة مسحورة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

(15 يناير 1991)

لا بدّ أنها ’’مريم‘‘ التي شبَّهت ’’بوش‘‘ بالممثل ’’جون وَين‘‘، حين كنا جالسين أمام التلفزيون نشاهد إعادةً للمؤتمر الصحافي الذي عقده في البيت الأبيض بعد انتهاء اجتماع ’’بيكر‘‘ و’’عزيز‘‘. أتذكر أن تقاطيع وجهه ظلت تتنقل بين ابتسامة مفتعلة وغضب داخلي كان عليه أن يبذل جهودا كبيرة لاحتوائه، خصوصا حين سأله أحد المراسلين عن سبب رفضه اقتراح الرئيس الفرنسي ميتران، (إذا كان ذلك سيمنع الحرب،) بمنح ’’سَدَم‘‘ ورقة التوت الخالية من دون أي التزام مستقبلي بها: عقد مؤتمر لمناقشة القضية الفلسطينية.

خرقت مضيفتنا الصمت السائد في غرفة الجلوس ثانية، ما جعل الإصغاء إلى الرئيس الأمريكي شبه مستحيل: "كان إخوتي الكبار يأخذونني معهم إلى السينما في الأعياد..."

غير أنها بعد أقل من دقيقة، وقبل أن نسمع جواب ’’بوش‘‘ عن سؤال أحد المراسلين، راحت تسترجع مشهداً من فيلم يقتل البطل ’’جون وَين‘‘ فيه الهنود الحمر بالجملة خلال هجومهم على عربات المستوطنين، دون أن يصاب بأي أذى.

استشعرت ’’مريم‘‘ فجأة أن أبصارنا كانت مثبتة على شاشة التلفزيون، بعيداً عن استطرادتها، ولعلها لمحت غضباً خفياً على وجهك جعلها تكف عن الكلام.

يحضرني سؤال أحد الحاضرين الذي دفع سيد البيت الأبيض إلى حالة من الارتباك دون أن نتمكن من سماع كلماته: "إذا وقعت الحرب هل سيُقتَل ’’صدّام‘‘؟"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لعلك تذكر كيف ظلت سبابة ''بوش'' ترتفع في الهواء مهددة كلما استفزه سؤال ما: "هل ستخوض الحرب إذا لم تحصل على تأييد أغلبية أعضاء الكونغرس؟" فما كان عليه إلا تجنب الإجابة بالنفي أو الإيجاب، مكتفياً بالتذكير: "للرئيس حق دستوري باتخاذ قرار كهذا، دون الرجوع إلى الكونغرس..."

قال ''أَسعَد'' مخففاً من جو الغرفة الثقيل: "لا تقلقوا... صاحبنا سيسحب الجيش من الكويت قبل ساعة من حلول الأجل النهائي..."

* * *

في الطريق إلى شقّتي، سكنني هاجسٌ مفاجئ بأني مريض: فقدان القدرة على التركيز، إنهاك شديد، ورغبة جامحة بالاستلقاء على ظهري.

خلال انتظاري قدوم الباص، بقيتُ أقلّب في رأسي برنامج ''بوش'' المكثف الذي أعلن عنه خلال مؤتمره الصحافي: غداً الجمعة تصويت مجلسَي الشيوخ والنواب على قرار الحرب، ويومَ السبت إرسال الأمين العام للأمم المتحدة، ''بيريز ديكويار''، إلى بغداد في آخر مسعى لإقناع ''سَدَم''، بالخروج من الكويت قبل حلول الأربعاء المقبل.

وعند صعودي فيه تسللت قشعريرة غريبة إلى جسدي، رغم المعطف والشال والقبعة التي تغلفني، ولا أستبعد أن السائق انتبه إلى شحوبٍ ما اعترى وجهي ليسألني، بعد أن أريته بطاقة النقل الأسبوعية، "هل أنت بخير؟"

لا بد أن أضواء الباص الخافتة، وصَمْتَ ركابه القلائل، وراء ذلك الشعور بالوحشة الذي غمرني، فدفعني لأثبِّت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بصري على صفوف المباني التي راحت أمام عينيّ المغبشتين تتحرك القهقرى: بيوت وحانات ودكاكين تشع بمصابيحها الملونة؛ ومن وقت إلى آخر تبرز شرائط النشرات الضوئية المتبقية من تزيينات كريسماس، فأتذكر أن الاحتفال بالعام الجديد ما زال قائماً في هذه المدينة، إذ لم تمض سوى عشرة أيام على حلوله؛ عشرة أيام بدت لي أعواماً، وأنا أراقب خلالها تقدم ذلك الكويكب صوب هدفه بدأب شديد. هل هو الضوء المنبعث منه وراء تلك الهالة التي تلبستها لندن، فجعل عينيّ تريان جدرانها وأرصفتها وفضائها أكثر سطوعاً من قبل؟ أم هي الحمّى المتغلغلة أكثر فأكثر في خلايا جسدي دافعة إياها للتنافر فيما بينها؟ بدت لي كأنها تسعى إلى التفكك عن بعضها البعض، تاركة خلفها فراغاً متحرراً من الجاذبية الأرضية.

بين العرق الناضح بغزارة، في لحظة، ومعاودة طقطقة أسناني من برد جامح؛ بين تفكك أشعة الضوء فوق عينيّ، وضجيج يصم أذنيّ، راحت ذاكرتي تتأرجح كآلة تصوير أوتوماتيكية بين وجوه تشتعل وتنطفئ على شاشة خفية في نقطة ما داخل رأسي :"لورا" وأمي، "منى" وأبي، إخوتي الأربعة وأخواتك، "أَسعَد" و"مريم"، وفي لحظة بروز "هاجَر" أمامي... أفقتُ من غفوتي، تحت وطأة فزع من عبور الباص نقطة توقفه القريبة من مبنى شقتي.

وبالفعل، كان استيقاظي في اللحظة المناسبة.

قوة غريبة تجتاحني: خليط من تماسك جسديّ كافٍ لأصل بفضله إلى مسكني بعد دقائق قليلة، وفرحة غريبة بحدسي الذي لم يخذلني وسط اختلال حواسِّيَ الخمس.

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قد تستغرب إذا أخبرتك بزيارة ’’هاجَر‘‘ المفاجئة لي.

ولعل قدومها في أوج إصابتي بالإنفلونزا نوع من سوء الطالع!

أتذكر كيف تغلغل صوت الجرس إلى غرفة الجلوس، حيث بقيتُ فيها طوال الليل مستلقياً على الكنبة، تتناوب عليّ موجات الحمّى تاركةً جسدي يختض من البرد، على الرغم من دفء المكان، متبوعاً بانفراج قصير يسمح لي بإغفاءة قصيرة، تكفي لأغرق ثانية بعرق جارف.

لا بد أن المصافحة التي جمعت كفَّينا ثوانيَ قليلة أمام باب الشَقّة كشفت لها حالتي ."كأنك قضيتَ الليل داخل فرن خبز،" قالت ضاحكة، لكنها تداركت نفسها حين بقيتُ صامتاً: "كان عليك أن تهاتفنا..."

وأمام مشهد الفوضى في غرفة الجلوس حيث تكدست الأغطية على الكنبة، وتبعثرت فردتا حذائي ومعطفي وقبعتي على أرضيتها، وضعت راحة يدها على جبهتي، بنفس الطريقة التي كانت أمي تفعل في طفولتي كلما التهبت لوزتاي وارتفعت حرارة جسدي معاً، كأنها أرادت التأكد من حقيقة مرضي.

سألتني ’’هاجَر‘‘ بحمية: "عندك حبوب لتخفيض الحرارة؟" وحين أجبتها بالنفي، انتفض جسدها. قالت بنبرة قاطعة قبل خروجها من شَقّتي: "دقيقة واحدة وأكون معك..."

* * *

ما الذي يجعل الذاكرة تتشبث بأحداث محددة من الماضي، بينما ترمي آلافاً أخرى إلى نهر النسيان؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

لكأن تلك الأحداث على الرغم من ضآلة أهميتها تحفر لها مكانا في عجينة أدمغتنا متحررةً من مساعي الزمن الحثيثة بجرفها معه.

لا بد أني غفوتُ قليلاً، إذ كيف يمكنك تفسير انقطاع ''هاجَر'' المفاجئ عن مجرى أفكاري. بدلا عنها وجدتُ نفسي في غرفة أنيقة واسعة تنتشر فيها فيترينات بجوار جدرانها الأربعة ووسطها. كان برفقتي امرأة تتقدمني قليلاً ما جعلني عاجزاً عن رؤية وجهها. ها هي تقودني لأشاهد ما وراء الواجهات الزجاجية. أكتشف أنها ملابس نسائية داخلية من شتى الموضات. أتعقب خطوات مرافقتي التي تأخذني إلى غرفة أخرى مجاورة للأولى فتنشدّ عيناي إلى أنواع باذخة من فساتين وتنورات معلقة في خزانات مفتوحة. تتحرك المرأة المجهولة التي لا أرى منها سوى قذالها وشعرها القصير صوب منفذ يؤول إلى غرفة ثالثة... صحوتُ آنذاك، تحت وطأة شعور بأني واقع في فخ لا نهاية له، أو بشكل أدق في كابوس شديد النعومة.

فغمت أنفي رائحة طعام غريبة وأليفة معاً، جعلتني للحظة أشك بحقيقتها، لولا طقطقة الطناجر الخافتة التي تسربت إلى سمعي.

كم مضى عليّ وأنا في فراشي؟

ولدهشتي، رأيتُ عبر فرجة ستارة النافذة سماءً معتمة، ذكّرتني بأن رقادي امتد ساعات لا دقائق فقط.

حضرني سريعاً شريط الأحداث منذ عودة ''هاجَر'' إلى الشَقّة. رددت وهي ترى علامات الاحتجاج على عينيّ: "اشتريتُ أشياء قليلة لك مع الدواء..." وحالما وضعت الكيس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

البلاستيكي على الأرضية، أضافت مؤنبةً: "إذا كان هذا يضايقك، ادفع لي المصاريف... الوصل موجود في الكيس..."

جاءت نوبة سعال حادة لتخرجني من ذلك المأزق. ارتميتُ على الكنبة متهالكاً بينما وضعتُ ساعدي الأيمن على فمي، وحال فتح عينيّ بعد خفوت الأزمة، رأيتها راكعة على سجاد الأرضية، تحمل كأس ماء، "خذ حبتين الآن، واذهب إلى فراشك،" قالت ''هاجَر''، "رَح أعمل لك شوربة رُزّ بالعظام..."

وكأن آخر جملة قالتها حفزت ذاكرتي لاسترجاع ما كانت أمي تطبخ حين يمرض أبي أو أيٌّ من أولادها الأربعة.

وها هي الرائحة تعود إلى شقّتي مختزِلةً، دفعةً واحدة، عقوداً فاصلة بيننا.

* * *

قبل مكالمتك بدقائق غادرتني ''هاجَر''.

قالت معتذرةً: "وَعَدْتُ خالتي ''عالية'' بالرجوع في ساعة مبكرة..." وحين واجهت صمتاً من جانبي، وربما استياءً على وجهي، أضافت متضرعةً، بعد أن تطلعت في ساعتها: "لن أصل إلى بيتها قبل العاشرة..."

أظن أنك أدركتَ عبر صوتي المحتقن فقط حالتي الصحية، ما جعلك تخفف عني بعبارتَي تعاطف أو ثلاث: "الإصابات بالانفلونزا كثيرة هذه الأيام كأنها وباء..." أو "الراحة التامة والمسكنات والليمون أفضل علاج لها..."

وحين حل الصمت بيننا وأوشكتَ على إغلاق سماعة هاتفك، تذكرتَ سبب اتصالك بي: "غداً، هناك مظاهرة احتجاج

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ضد الحرب..." غير أنّك استدركتَ مضيفاً: "كنت أريد أن أدعوك للخروج معنا فيها... لكن من الأفضل، وأنت في هذه الحال، أن تبقى في البيت..."

في المقابل، لم أجد مع صعوبة التنفس، ونوبة السعال الموشكة على الانفجار، خياراً سوى التماسك وتجنب الكلام، حتى عاد صوتكَ بنبرة أرقّ مما أنت معتاد عليه: "أمرّ عليك غداً بعد المظاهرة... اعتنِ بنفسك..."

وأنا أتبادل الحديث معك عبر الهاتف، ظلت عيناي تتعقبان آثار ''هاجَر'' التي تركتْها خلال ساعات هذا النهار في شَقَّتي: اختفاء الفوضى عن غرفة الجلوس والمطبخ؛ كأن زائرتي الغامضة التي ساعدتني على ارتداء ملابس البيت، والاغتسال، وأخذي إلى غرفة النوم، استغلت ساعات رقادي، لتمضي في تنظيف كل شيء وقعت عيناها عليه، وترتيبه أحسن ترتيب. هل تصدق إذا قلتُ لك إنها لم تنسَ حتى سقي أُصص النباتات المنتشرة في زوايا مسكني، وحافات نوافذه.

قالت وهي تقرأ الدهشة على وجهي بنبرة اعتذار: "هذه عادة متأصلة في طبعي منذ الصغر... ربما لعنايتي الشديدة بإخوتي آنذاك..."

لا بد أنها كانت تعني أبناء خالتها ''منيرة'' الذين وِلدوا تباعاً خلال سنوات طفولتها.

أضافت ''هاجَر'' ساخرةً: "كان على الدكتورة ''عالية'' أن تسميني ''مفيدة'' لأني بقيتُ دائماً هكذا..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لـم تزرنــي كمـا وعـدتَ عصـرَ اليـوم اللاحـق، فكـان علـيّ الاعتمـاد علـى التلفزيـون (بـدلا عنـك) لمعرفـة أخبـار المظـاهرة المعادية للحرب.

غيـر أن القنـوات تجاهلَتْهـا تمامـاً باسـتثناء محطـة واحـدة كرست دقائق قليلة لتغطية كل المظاهرات التي نُظّمت في مدن إنجلترا الكبرى احتجاجاً على قبول البرلمـان البريطـاني بشن الحـرب ضـد العـراق فـي حالـة عـدم سـحب ’’سَـدَم‘‘ قواتـه مـن الكويت قبل حلول الأربعاء المقبل.

أتـذكر أن المـذيع أعطـى رقمـين علـى عـدد المشـاركين فـي مظـاهرة لنـدن: مـائتي ألـف شـخص حسـب منظميهـا، و40 ألـف حسب مصـادر الشـرطة، التـي أكـدت أنهـا كانـت منظَّمـة جـداً، وهــذا يعنــي عــدم وقــوع صِــدام بــين عناصــرها وبعــض المتظاهرين.

لكن الشريط الإخباري اهتم أكثر بالحدث الذي تـلا المظـاهرة وغطى تفاصيله بدقة، ولعل أفضل تسمية يمكن منح ذلك الفيلم الوثــائقي الخــاص بــه: "علــى أبــواب قيامــة مصــغرة". أمــامي ظهـرت أعـداد كبيـرة مـن المـدنيين البريطـانيين المقيمـين فـي البحرين: رجالاً ونساءً وأطفالاً محشورين داخل صالة، خـلال تلقيهم تدريباً حول كيفية استخدام الأقنعة الواقيـة مـن الغـازات المميتـة التـي سـتطلق لا محالـة ضـدهم. هنـاك دروس يقـدمها عسكريون للأطفال الذين يجب أن يرتدوا هم أيضـاً أقنعـة لكـن بمقاييس أصغر من تلك المخصصة لذويهم.

لم يذكر المذيع اسم ’’سَدَم‘‘ لكنـه كـان حاضـراً فـي كـل ثانيـة مـن الفـيلم، باعتبـاره الشـرير الثالـث الـذي أشـار إليـه العـراف

«AlfYaa منشورات «ألف ياء

’’نُستراداموس‘‘ باسم مقلوب مشَّوه قليلاً قبل عدة قرون : ’’صُبام‘‘.

جاء جرس الباب في تلك اللحظة ليخرجني من هذياني ويعيدني إلى أرض الواقع.

هل ستصدقني إذا قلتُ لك من كان وراء الباب؟

* * *

قد يصلح إطلاق اِسم فيلم "حُمّى ليلة السبت" على حالي حين فتحتُ باب الشَقّة.

أمامي برزت ’’هاجَر‘‘، وعلى بعد نصف متر وراءها، وقف، جانبياً، رجل وسيم وأنيق، نجحت ذاكرتي في مسحه من سجلاتها للحظة واحدة.

سمعتُ صوتي المتحشرج الثقيل بفعل المرض يحتفي بحضورهما المفاجئ، فيما كانت أنفاسي القصيرة تتسارع لتعويض الهواء الناقص في رئتيَّ لحظة رؤيتهما معاً.

قال ’’ماهر‘‘ بنبرة اعتذارية وهو يقدم لي باقة الورد التي ظل حريصاً على مسكها بتأنٍ بين يديه: "’’هاجَر‘‘ أخبرتني بمرضك..." فأكملت مرافقته: "تصور، جاء من مانشستر مباشرةً إلينا مع هذه الباقة الفخمة..." وحال جلوسهما، جنباً إلى جنب، على الكنبة، أضافت ساخرة: "ما إن علم بحالتك حتى اقترح عليّ زيارتك... وطبعاً استرجع هديته!"

ارتسمت ابتسامة على وجه ’’ماهر‘‘ وهو يتطلع مسحوراً في بروفيلها، قبل أن يلتفت إليّ، مكتفياً بهز رأسه، كأنه أراد بإيماءته تلك تكذيب جملتها الأخيرة، مع إبقائي تحت حمى

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفضول مما هو خفيٌّ في علاقتهما ."ذهبتُ إلى بيت الدكتورة ’’عالية‘‘ لأنه على الطريق من مانشستر، قال ضيفي، "وما توقعتُ أن تكوني هناك..."

قالت ’’هاجَر‘‘ مناكِدةً: "يعني جئت لرؤية خالتي!"

لا بد أن ’’ماهر‘‘ أُسقِط بيده، ما جعل وجهه يكتسي حمرة خفيفة، بينما راح يُمسّد لا شعورياً طرفي شعره الممشَّط بعناية بكلتا راحتَي كفّيه، غير أنه تمكن من استعادة تماسكه سريعاً: "كنتُ سأدعو طبيبتنا الرائعة لزيارتكَ لولا شعوري بأنها تعبانة،" ثم أدار دفة الحديث صوب رحلته القصيرة إلى مانشستر: المستشفى القديم الذي نظم الدورة المكثفة؛ كيف انقضت ساعات النهار بين المحاضرات والتطبيقات والنقاشات؛ وكيف أمضى أمسيتي الخميس والجمعة بين الفندق والپَب المجاور له فقط، بسبب ضراوة البرد خارجهما.

التفتت ’’هاجَر‘‘ صوبي، بعد أن تبادلت نظرات مع مرافقها داعيةً إياه بالمغادرة: "نسيتُ أن أعطيك الجريدة التي اشتريتها لك..." أضافت وهي تفتح حقيبتها الكتفية: "أردتُ تجنيبك الخروج في هذا الجوّ... أنتَ اليوم أحسن."

جاءت جملتها الأخيرة، نوعاً من إشارة لماهر بأنها زارتني خلال غيابه، لكنها في الوقت نفسه، كانت خالية من الحميمية التي أظهرتها لي قبل أقل من أربع وعشرين ساعة.

"كيف ستقضيان الأمسية؟" تمتمتُ قبل خروجهما من شقّتي، بطريقة سعيتُ فيها أن يبدو السؤال عرضياً ولا مبالياً تماماً، رغم الحمّى التي راحت تتصاعد بدأب في عروقي.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بدت لي ضيفتي وكأنها فوجئت بسؤالي فالتزمت الصمت، بينما ثبّتت عينيها على عيني مرافقها.

قال ''ماهر'' بعد ثوان من الصمت: "أنا دعوتُ ''هاجَر'' إلى مطعم فرنسي... كان بودي أن تكون معنا..."

* * *

نحن لا نفهم النساء إلا بعد فوات الأوان، بينما هنَّ يفهمننا عبر حاسة أخرى غير قابلة للتعريف.

أو بصيغة أخرى، هنّ يكتشفن جوانب جذابة أو ممقوتة فينا دون أن ننتبه إليها يوماً، وهذا ما يجعلنا نسير معهن غالباً في متاهة ظاهرها عكس باطنها.

قد تكون خراقتنا أو توحشنا أو خجلنا سبباً لقدح شرارة الحب في قلوبهن لنا، لا ما نستعرضه أمامهن من خصال نعتبرها نقاط قوة فينا مثل سرعة البديهة أو روح الدعابة أو أي موهبة تميزنا عن غيرنا.

سكنتني بعد انصرافهما كآبة غير قابلة على التحديد: خليط من صعوبة في إطلاق الزفير من الصدر ودوار خفيف جعل الأشياء حولي تفقد تماسكها، بينما راحت مخيلتي تتعقبهما: يدها بيده وهما يمشيان صوب سيارته؛ هل هي نفس اليد التي امتدت أمس لتلمَسَ بحنوّ لا مثيل له جبهتي؛ وهي نفسها التي ساعدتني على تبديل ملابسي، وتناول دوائي، واقتيادي إلى سريري؟

وها هي تمتد لتقدم لي الجريدة.

لا بد أني مُسِستُ بنوبة من جنون حين مزّقتُ صفحات الجريدة ورميتها أرضاً، إذ كيف يمكنك تفسير هيجاني ذاك؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

هل هو سعي لا إرادي للتحرر من سطوة عاطفة تسللت إلى شراييني عبر سلسلة من مصادفات عشوائية أم تخلصاً من بصمات أصابع ''هاجَر'' عليها؟

غير أني، (وبعد تناول آخر ما تبقى من شوربة الرزّ بالعظام،) عدتُ إلى قصاصات الأوراق المبعثرة على سجاد الغرفة بحثاً عن أي خيط أمل يبعد هذا الكويكب المتسارع عن هدفه المنشود.

عثرتُ على جزء من خبر بجانب الكنبة: "صحيفة القادسية: العراق يمتلك سلاحاً مفاجئاً سيلحق بالقوات الأمريكية هزيمة شنعاء..."

خبر آخر: البارون ''هيرد'' (المفضَّل لدى أطفال ''أَسعَد'') و''بيكر'' يجولان، كلاً على حدة، بين بلدان عربية، لاستنهاض همم زعمائها، منعاً لبروز تردد ما لدى بعضهم في المشاركة الرمزية بالحرب. قرأتُ في مكان آخر جزءاً من تصريح وزير خارجية بريطانيا في البحرين: "التحالف المتعدد الجنسيات سيتحرك على جناح السرعة لإخراج العراق من الكويت إذا بقي بعد الأجل النهائي يوم الثلاثاء القادم..." لا بد أنه ضيّق عينيه أكثر وراء نظارته السميكة، ورفع من نبرة صوته النشاز، قبل أن يطلق قنبلته الصوتية الأخيرة التي أضاع الشق من وسطها كلمة أو كلمتين: "لا أظن أن هناك أي شخص يفكر بمرور وقت طويل جدا على... بعد ذلك التاريخ..."

* * *

حتى مع جهلي بالفنون التشكيلية، ظلت لوحاتك التي تركتها في عهدتي تستثير فيّ شعوراً غريباً: كأن مبدعها يفتح عينيه

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لأول مـرة فـي حياتـه، فتصـدمه عناصـر المنظـر الـذي ينـوي رسـمه، بتقاربهـا الشـديد مـن بعضـها الـبعض، بتنـوع حجومهـا المفرطـة فـي الكبـر أو الصـغر، بينمـا يتلـبس المكـان خصـائص تعـارض قـوانين الطبيعـة: جـدران مائلـة إلـى حـد غيـر معقـول، طرق محدبة لا نهاية لها، جسور محلقة في الفضاء...

أكتشف الآن كم تتشابه الأمـاكن التـي تـدور أحلامـي فيهـا مـع رسـومك الزيتيـة. وكـم كـان بـودي أن أسـألك عمـا إذا كنـتَ تستنسخها من أحلامك.

وإذا كان الأمر كذلك، هل فقد كلانا الآصرة بالمكان: ماضياً وحاضراً؟

وأنـا مستلقٍ علـى سريري، حضـرتني تلـك الصـور المتخيلـة التـي صـارت فـي تلـك الليلـة نوعـاً مـن الوسـواس القسـري، المتكرر، مثل نغمة محبوسة على اسطوانة مشخوطة :"هاجَر" و"مـاهر" معـاً، منـذ لحظـة مغادرتهمـا مسـكني، وحتـى هـذه اللحظة: كأني أراهما وجهاً لوجه رغم العتمـة المطبقـة حـولي، ورغم السعال الحـاد الـذي اعترانـي طـوال سـاعات الليل. لا بـدّ أنهمـا الآن فـي غرفـة "شـهريار" الباذخـة علـى بعـد متـرين أو ثلاثـة عـن خزانـة الأدراج الأربعـة، مستلقيان فـي ذلـك الفـراش الوثير، تحت نثار ضـوء خافت، بينمـا راح القط "نيـرو" يمـوء متوسلاً وراء الباب المغلق لإدخاله معهما.

* * *

استيقظتُ على ضربات ناقوس الكنيسة المحليـة، فتذكرتُ أنّ اليومَ هو الأحد.

كم بـدت المدينـة غريبـة لـي عبـر نافـذة الغرفـة، ولعـل نثيث

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المطر المتساقط بدأب، والضباب الشفيف الذي غلفها، شاركا في منح بناياتها وأشجارها وأعمدتها الكهربائية غلالة من الغموض، عمّقها إحساس زائف بأني نمتُ طويلاً لا لفترات جدّ قصيرة ظلت تقاطعها بانتظام نوبات من سعالٍ جافٍ وحادٍّ.

لا بدّ أن قوة الفيروسات في جسدي خبت أخيراً، بعد صراع مُنهِك معها لثلاثة أيام. وكأن خلاياي تحتفل بعودة التئامها أخيراً، فتبثّ في شراييني طاقة حياة إضافية.

قد تستغرب إذا قلتُ لكَ إن مرضي ينطبق عليه المثل القائل: رُبَّ ضارة نافعة.

إذ لولاه لقضيتُ أيامي الثلاثة الأخيرة موزعاً بين مشاعر الذنب لإهمالي أسرتي الصغيرة في لندن، وأهلي في بغداد...

أما كان ممكناً دعوة أمي مثلما دعا ''أَسعَد'' والديه والدكتورة ''عالية'' ابنتها ''هاجَر''؟

فهل هناك تفسير لامتناعي عن ذلك سوى موت الماضي: كأني هبطتُ بالمظلة من لا مكان إلى هذه الجزيرة بذاكرة خاوية تماماً؛ أم هو ربما خجل من استرجاع ماضيّ أمام ''لورا'' وبنتيَّ مجسَّداً بأمّي؟

وها هي ''هاجَر'' تعيدني إلى المربع الأول، أو إلى ما تَركَ وراءه من آثار: أراها تتقمص أختكَ ''سعاد''، بصوتها، بلهجتها، برائحتها، مختزلةً، بلحظة، فجوة زمنية كبيرة.

لكأن حضورها أمامي، في أوجّ مرضي، فجَّرَ بركاناً ظل منطفئاً قروناً عديدة.

كم نحن نُشفق على أنفسنا حين تخذلنا أجسادنا أمام

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الأمراض، فنصبح كائنات هشةً لأيّ راحة كفٍّ حنونٍ تمس وجوهنا.

أسترجع الآن صورة ''هاجَر'' وهي تغمس منديلها المعطّر في إناء زجاجي مملوء بماء بارد، ثم تصففه بعناية قبل وضعه على جبهتي.

ولا أستبعد أنْ صدرت مني آهة خطأً، مثلما كنتُ أفعل في صغري مع أمي، حين تقوم بنفس هذا الطقس لدى إصابتي بالحمّى.

* * *

عند وصولك مع ''أَسعَد'' إلى شقتي كنتُ قرأتُ أهم الأخبار في صحيفة الأحد :''ديكويار'' في بغداد منذ أمس حيث استقبله ''عزيز'' في المطار، وأجرى معه محادثات أولية، واليوم صباحاً يكون قد التقى ''سَدَم''، ولعله الآن في طريق عودته إلى مقر الأمم المتحدة، ليقدم إلى مجلس الأمن الدولي تقريره عن موقف بغداد الأخير.

استوقفتني، في الصحيفة، رسالة ''بوش'' التي كان من المفترض أن يسلمها الأمين العام لرئيسنا اليوم، بعد رفض ''عزيز'' قبولها من ''بيكر'' خلال لقائهما في جنيف.

ما زالت ذاكرتي تحفظ تهديده في حالة استخدام العراق أسلحة كيمياوية أو بيولوجية: "أنت وبلدك ستدفعان ثمناً رهيباً إذا أمرتَ بأعمال خرقاء من هذا النوع."

وهل هناك "ثمن رهيب" غير إلقاء قنابل على العراق كتلك

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

التي ألقيت على هيروشيما وناگازاكي بعد رفض اليابان الاستسلام؟

* * *

جلسنا صامتين أمام شاشة التلفزيون الصغيرة، ونحن نتابع حديث ''ديكويار'' المقتضب مع المراسلين من مطار بغداد الدولي: "الله يعلم هل سيكون هناك سلام أو حرب في الخليج..."

كأنه أراد أن يقول للعالم أجمع بطريقة دبلوماسية: "مهمتي فشلت..."

مع ذلك، ظل ''أَسعَد'' مصراً على شروع ''سَدَم'' بالانسحاب من الكويت قبل انقضاء المهلة الممنوحة له: "مثل طفل مشاكس لا ينفذ أمر أبيه إلا قبل هبوط العصا الغليظة على ظهره بثانية واحدة فقط..."

أتذكر أنك اقترحتَ تبديل القناة حين بدأ برنامج رياضي عن مباريات دوري كرة القدم الانجليزي خلال الأسبوع السابق، ولعلنا كنا محظوظين أن نلحق بآخِر جزء من فيلم وثائقي معنيّ بمناقشات مجلس الشيوخ الأمريكي التي جرت أول أمس، حيث كانت نتيجة الاقتراع، اثنين وخمسين صوتاً مع الحرب وسبعة وأربعين ضدها.

وكأن مونتير ذلك الفيلم تعمد إنهاءه بما قاله أحد أعضاء المجلس المعارضين للحرب في مداخلته القصيرة: عدد المنتحرين الذين شاركوا في حرب فيتنام 60 ألف، وهو أكثر من أولئك الذين قُتلوا فيها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

هل هو نوع من التخاطر بيننا أم محض صدفة حين سألتَ عن عدد ضحايا هيروشيما؟

غير أنَّ ’’أَسعَد‘‘ استبق خوضنا في هذا الموضوع ليعلن بنبرة قاطعة: "تواعدتُ مع ’’ماهر‘‘ على اللقاء الساعة السادسة، في پَب "نهاية العالم"... علينا أن نذهب الآن إذا أحببتما..."

اعتذرتُ عن الخروج متعذراً بالمرض، لكن صديقك الحميم أسقط حجتي بضربة واحدة: "كأس صغير من الكونياك سيقتل لك كل الجراثيم،" قال ’’أَسعَد‘‘، "عليك أن تمشي في الهواء الطلق إذا أردت الشفاء تماماً..."

أما أنت فتحجَّجتَ بالعمل لتتجنب ملاقاة نقيضك الأبدي: "عندي ثلاث لوحات يجب الانتهاء منها هذه الليلة،" قلتَ بنبرة قاطعة، "عليّ أن أسلمها غداً صباحاً لصاحب الغاليري..."

* * *

لا بد أنك تتذكر ما كنا نشاهده على شاشات التلفزيون كل يوم تقريباً منذ العام الماضي: حاملات الطائرات العملاقة وهي تتمركز في البحار والمحيطات، ضاربةً طوقاً حول تلك النقطة التي ما فتئت تضيئها الأقمار الصناعية، كأنها سُرّة العالم.

هل هي المرة الأولى التي يستعرض فيها أحد الطرفين المتخاصمَين استعداداته للحرب بهذه التفاصيل: نوع الأسلحة التي سيستخدمها ومواقع جنوده؛ أنواع اللقاحات، وأنواع الملابس الواقية من الأسلحة الكيمياوية والجرثومية والنووية؛ مواقع المستشفيات الطارئة والمشارح المعدَّة على عجل لاستقبال مئات الجنود القتلى كل أسبوع؟

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

أو هل من الضروري أن يعرف الخصم أيضاً عدد الأفراد الذين أُستدعوا لأداء خدمة الاحتياط في قطاع الخدمات الطبية؟ وطبيعة الواجبات التي ستُناط إليهم؟

بل حتى التدريبات على نقل جثامين الجنود في صحارى مجهولة أصبحت موضع إمتاع وترويع بصريين لجمهور واسع على طرفي الأطلسي، وبالطبع أُستخدمت دمىً بحجوم وأوزان بشرية بديلاً عن الضحايا المفترضين.

أعثرُ الآن على قصاصات قديمة تعود لتلك الأيام: "تجنيد كتيبة الاحتياط 630 التي بدأت بالتدرب على كيفية التعامل مع الجثث في الحرب... هناك خمسة فرق قادرة على التعامل مع 70 جثة في اليوم وذلك بشحنها إلى قبورها... لكن إذا زاد العدد عن 2500 في الأسبوع وهذا ما يتهيأ الجيش الأميركي له فإنه بالإمكان دفن الموتى في الصحراء بمقابر ضحلة مؤقتة محاطة بأسلاك شائكة."

أقرأ في قصاصة أخرى مقطعاً من خطاب لبوش يبرر فيه خوض الحرب الوشيكة، وكم تبدو لي كلماته اليوم صدى لنبوءة ’’نُسْتراداموس‘‘ بظهور الشرير الثالث: "’’صدّام‘‘ أصبح يشكل خطراً على عواصم مصر والسعودية وتركيا وسوريا إضافة إلى رجالنا ونسائنا في منطقة الخليج."

كأنّ البشرية كانت تعيش كرنفالاً حياً، عبر شاشات التلفزيون في شتى أنحاء العالم، استعداداً لكرنفال أكبر وأجمل.

* * *

على غير عادتها في أيام الأحد، كانت حانة "نهاية العالم" غاصة بالزبائن والضوضاء. قال ’’ماهر‘‘ مبرراً: "أكثر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الحاضرين هم من الشمال، جاءوا ليشجعوا فريقهم،" وحين سأله ‘‘أَسعَد‘‘ كيف عرف، أجاب مبتسماً: "إذا نظرتَ إلى رايات الفريق وأوشحته الصوفية حول رقابهم ستكتشف من أين هم قادمون..."

كان على ‘‘ماهر‘‘ أن يرفع صوته طبقتين أعلى كي نسمعه: "سيغادرون الپَب بعد قليل... فريقهم لعب اليوم ظهراً وخسر كما قال لي أحدهم... وهم سيأخذون قطار الساعة التاسعة للعودة إلى مدينتهم..."

وفعلاً، بدأ عدد أولئك المحتشدين وسط الحانة بالتناقص بعد دقائق، وحين أشار عقربا الساعة الجدارية أمامي إلى الثامنة، كانت "نهاية العالم" قد استرجعت صخبها الناعم الذي تشاركت في صنعه عشرات الألسن، تقطعه، بين لحظة وأخرى، وشوشة الجعة الباردة خلال هبوطها في الكؤوس.

بدا ‘‘ماهر‘‘ مختلفاً عما ألفته من ملابس رسمية؛ بدلاً عن ذلك، ظهر أمامي لأول مرة بملابس كاجوال: سروال جينز ممزق عند الركبتين وبلوفر صوف سميك وحذاء رياضي. غير أن الابتسامة الساخرة المحمَّلة على عينيه ذكّرتني بوصف ‘‘أَسعَد‘‘ لجلده الداخلي المصنوع من الخيش.

تبادلتُ النظرات مع صديقك، كأننا نحاول سبر ما إذا كان ‘‘ماهر‘‘ قد اكتشف تسللنا إلى حجرة نومه وفضّ أقدس أسراره، وفي هذه الحال كيف سيكون رد فعله معنا.

لا بدّ أننا تنفسنا الصعداء حين عرض علينا كأسَي شراب، وكم منحنا الوقت القصير، بين ذهابه إلى الكاونتر وعودته بثلاث كؤوس، فرصة لتجميع أفكارنا.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تلمستُ في خطوات مضيفنا قدراً من التأرجح يوحي بأنه استهلك قبل وصولنا إلى "نهاية العالم" كؤوساً عدة من الجعة، ولعل احمراراً خفيفاً في عينيه وزوغانهما قليلاً رسَّخا في نفسي هذه القناعة، لكنهما خلقا نوعاً من الاضطراب لدى ''أَسعَد''.

كأن ظهور إلهه الأرضي بهذا الشكل الخالي من الأبهة زعزع عالمه الذي تُشكِّلُ أنت و''ماهر'' عموديه الأساسيين.

وقد يكون ذلك الاضطراب ناجماً عن شعور عميق بالذنب، مثلما أصاب ''آدم'' حين أكل في لحظة طيش من فاكهة الشجرة المحرمة.

أخيراً كشف ''ماهر'' عما في سريرته: "الانسان ليس ما يظهر منه للآخرين، بل ما هو مخفيّ عنهم... بصحتكما..."

ارتشفتُ جرعة صغيرة من كأس الكونياك الصغير أمامي، بينما كرع الآخران قدراً أكبر مما في كأسيهما الكبيرين.

بدا الضجيج الخافت المنتظم داخل ''اليَب'' كأنه خلفية موسيقية تهيئ الجو لعودة صوت المغني الأول ."في كل الأحوال، ما عثرتما عليه في الأدراج ليس سوى طبقة من السر..." دمدم ''ماهر'' بصوت متخلخل، "كان عليكما أن تقرآ دفتر اليوميات الموضوع على الكومودينو بجانب السرير..."

* * *

حتى مع نبرته الساخرة لم يكن ''ماهر'' عدوانياً معنا، بل ظل مرحاً طوال السهرة في حانة "نهاية العالم"، وظل يتنقل من موضوع إلى آخر حتى بغياب رابط ما بينهما: حين سألته ما إذا كان يظن أن الحرب ستندلع خلال يومين أو ثلاثة، اندفع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

يتحدث عن موضوع آخر: عادات فصائل النمل: كيف أنها الوحيدة التي تشبه البشر في ولعها بالحروب؛ ملايين منها تهاجم مستوطنة نمل أخرى، وعادةً توضع النملات الضعيفة والمريضة والمسنة في الخطوط الأمامية، لإنهاك الخصم حتى لو أن أغلبها يفنى خلال الهجوم، أما النمل المقاتل حِرَفياً، ذلك الذي يتمتع أفراده بعضلات قوية في الرأس، كافية لأن تقضم بسهولة أحشاء الخصوم، فإنه يدخل المعركة لاحقاً.

"هل سمعتما عن جيش يتكون من ألف أسد يقاتل جيشاً نظيراً آخر من الأسود؟" سأل ''ماهر'' ضاحكاً، قبل أن يعود إلى حكايته، "هل تتصوران أن النمل المهاجم يتَّبع استراتيجية حربية محددة؟ الجواب نعم... انه يقلد الاستراتيجية التي سادت في الحرب العالمية الأولى: الهجوم بأعداد أكبر مما في حوزة الخصم... وهي التي يتَّبعها ''صاحبنا'' اليوم في الكويت..."

التفت ''ماهر'' إليّ أولاً: "هل عندك أخ يؤدي الخدمة الإلزامية الآن؟" وحين أجبته بالنفي التفتَ إلى صديقك المقرَّب.

قال ''أَسعَد'': "نعم أخي الأصغر ''زياد''..."

"هناك نصف مليون من جنودنا مثل ''زياد'' على الخطوط الأمامية يعرفون بالكاد كيف يُمسكون بندقية..." قال ''ماهر''، "هؤلاء بضاعة فاسدة يمكن الاستغناء عنها بسهولة... الهدف من تحشيدهم هو لعرقلة العدو أياماً قليلة فقط..."

* * *

لم يتبادر إلى ذهني قط أن تتصل ''هاجَر'' بي هاتفياً بعد كل ما سمعتُ من ''ماهر'' عن تطور علاقته بها.

كان الوقت صباحاً.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

أكثر من عشر ساعات مضت منذ افتراقنا أمام حانة "نهاية العالم": صديقك الأثير ذهب مع ''ماهر'' في سيارته، وأنا رفضتُ عرض الأخير بإيصالي إلى شقتي: "أفضّل أن أمشي قليلاً... شكراً..."

أضفتُ وأنا أصافحه: "نلتقي قريباً،" رغم أن رغبتي الحقيقية كانت في التمكن من حذف وجوده تماماً من ذاكرتي.

وكم كنتُ فاشلاً في مسعاي لمنع ظهوره أمامي، وقطع صدى صوته عن سمعي.

هل هي حمّى لا تصيب الّا الروح تلك التي لازمتني في الفراش، طوال ليلة أمس؟ كأني سمكة سحبتها صنارة قسراً من بركة ساكنة، فجعلتها تتلبط اختناقاً في الهواء. أسمع صوت ''ماهر'' بوضوح أشد مما كان عليه في "نهاية العالم": "إنها المرة الأولى التي أعشق حقاً فيها،" وحين قرأ في أعيننا استغراباً يلامس عدم التصديق راح يبرر ما فعله: "كل النساء قبل ''هاجَر'' كنّ ألغازاً تختفي آثارهن من الذاكرة في اليوم اللاحق."

قال ''أَسعَد'' ضاحكاً: "يعني مثل الروبوتات..."

"سَمِّهِنَّ ما شئتَ،" ردد ''ماهر''، "في كل الأحوال، كنت أريد تأكيداً قاطعاً على أن ما عشته أمس (مع هذه أو تلك) حقيقة وليس حلماً..." ثم أضاف، بعد أن كرع جرعة من كأسه، "ما جعلني أواصل حياتي هنا ذلك الأمل بحدوث شيء خارق فيها... وكانت المعجزة ظهور ''هاجَر''..."

حضرتني صورة المقصات الأنيقة التي شاهدتها في غرفة نومه، وكدتُ أسأله عنها، لولا عودة صوته هذه المرة أقوى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

وأكثر تماسكاً: "معها شعرتُ باستيقاظ الشخص الذي كنته حين وصلتُ إلى لندن قبل أكثر من ربع قرن..."

* * *

"هلو... هلو..."

جاءني صوتها واضحاً كأنها كانت تناديني من المطبخ.

أردتُ أن أجيبها، لكن الكلمات تيبست في فمي، بينما اندفع القلب بنبض منفلت، جعل ذراع الهاتف يفلت من بين أصابعي، فأقبض عليه بكلتا يديّ.

انقطع صوت ’’هاجَر‘‘ وحل محله الرنين الخفيف علامةً على إغلاقها الخط الهاتفي.

غير أن الهاتف عاد يرنّ ثانية، بعد دقائق قليلة، وفي هذه المرة اتخذتُ موقفاً قاطعاً: لن أردّ عليها.

لا بدّ أنك تستطيع تصور حالي وأنا أقاوم تلك اللهفة لسماع صوتها فقط.

بدا الرنين، الذي تعالى في محاولة ’’هاجَر‘‘ الثالثة، أقوى وأطول من سابقَيه، ولعل ذلك يعود لانحباس الهواء في صدري، وتصدع قوة الإرادة أمام اندفاع جسدي لا إراديّاً صوبه.

وقبل رفْع ذراع الهاتف عن قاعدته بثانية واحدة انقطع الرنين تماماً، فانتابني شعوران متعارضان: فرح بنجاح مقاومتي للرد عليها، وامتعاض من تضييع فرصة ذهبية كهذه.

غادرتُ شقتي هرباً من حالة الحصار التي لازمتني منذ عودتي من "نهاية العالم". وفي الحديقة العامة المحلية كانت

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

هنـاك طبقـة خفيفـة مـن جليـد شـفاف تغطـي مسـاحات العشـب الأخضر الواسعة، رحت أمشي فوقها مستمتعاً بهسيس تَكَسُّر رقاقاتها تحت حذائي، بينما ظلت عيناي تتابعان سرباً من الحمام لحظة هبوطه على أحد دروب الحديقة الاسمنتية.

مع ذلك، ظل صوت ''ماهر'' اللجوج يتسلل إلى رأسي بإصرار عجيب، أسمعه وهو يمزح بابتذال: "بعد ثلاثمائة سنة حين يزول الوطن عن الأنظار، سيكتشف العلماء حقيقة وجوده في الماضي بفضل جيناتي..." ثم أضاف بعد لحظة صمت، أعقبها بضحكة متهتكة: "ألا تجدان أني أقدم خدمة كبيرة لشعبي... جيناتي ستكون مثل المتحجرات التي تركتها الديناصورات وراءها..."

ما أثار حنقي أكثر من أيّ شيء، ابتسامة الدهشة التي ملأت وجه ''أَسعَد'' إعجاباً بهذيان الآخر.

غير أن ''ماهر'' تدارك ما ذكره للتو ليشملنا جميعاً: "أفضل شيء نفعله هنا هو إنجاب أكبر عدد من الأطفال... هم العلامة الوحيدة على مرورنا العابر بهذه الديار..."

وكأنه أراد في كل استطراداته تلك أن يوجه ضربة قاضية لي: "اتفقنا أنا و''هاجَر'' على إنجاب أربعة أطفال..." أضاف مبتسماً لحظة التفاته صوبَ ''أَسعَد'': "أقلّ مما أنجبتَه أنتَ و''مريم'' بواحد..."

هربتُ من البرد إلى مقهى على الطريق، وحالَ خلع معطفي، فرشتُ الجريدة على طاولتي الصغيرة. واجهني عنوان بارز في الصفحة الأولى :''ديكويار'' يسلِّم عصا القيادة لـ''ميتران''." تنقلّت عيناي بسرعة بين السطور المكتوبة في ساعة متأخرة من الليلة السابقة. فهمتُ منها أن الرئيس الفرنسي

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يكـون قـد التقـى ''ديكويـار'' هـذا الصـباح، قبـل توجهـه إلـى نيويـورك، وأن وفـداً يضـم وزراء خارجيـة دول "المجموعـة الأوروبية"، اشترك في ذلك الاجتماع.

بدا لي، وكأن الرئيس الفرنسي ما زال متفائلاً بإمكانية تلافـي الحرب الوشيكة، فطائرة الكونكورد مـا زالـت جـاهزة لنقلـه إلـى بغداد، ومـا زال يلوّح بعقد مؤتمر معنـيّ بالقضية الفلسطينية، الذي وضعه ''سَدَم'' شرطاً لانسحابه من الكويت.

ولعل كفة المناهضين للحرب تعادلت مع كفة المسـاندين لهـا، خلال الثماني والأربعين ساعة الأخيرة، بفضل ملايين الحنـاجر التي صرخت معاً فـي مدن العـالم الكبرى: "لا حـربَ أخـرى"، جنباً إلى جنـب، مع مبادرة ''ميتـران'' التـي دعمتهـا أغلـب دول العالم، فكيف تفسر تصريح الناطق باسم البيت الأبيض الأخير الذي عثرتُ عليه في صفحة أخرى من الجريدة: "بالتأكيد هنـاك فرص بعدَ حل أزمة الخليج، لانعقاد مؤتمر كهذا؟"

ألا تجدها إشارة إلى أن ''بوش'' قَبِلَ، على مضض، بإعطـاء ''سَدَم'' ورقة التوت، خوفاً من نعته بـ"مُشعِل حروب"؟

فـي المقابل، صرّح رئيسنا أمس أن الكويت ستكون سـاحة "أم المعـارك" بـين المـؤمنين والكفـار..." وعلـى نفس المنـوال نقلـت الصـحيفة عبـارة صـدرت فـي جريـدة عراقيـة بـارزة: "العراق قادر على إلحاق هزيمة قاسية بالمعتدين وأذنابهم..."

كانت مصابيح المدينة مشتعلة حين عدتُ إلى شقتي. قررتُ بعد تجاوز بوابة المبنى وولوج مدخله شبه المعتم ارتقاء سلّمه الحلزوني على قدميَّ بدلاً من أخذ المصعد الكهربائي.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

هل ستصدقني إذا قلت لك إني بقيتُ مع كل سلّمة تطأها قدمايَ أخاطب ’’سَدَم‘‘ لا إرادياً:

"أتضرع إليك: أعطِ وعداً فقط بالانسحاب من الكويت، تقلب الطاولة على ’’بوش‘‘ وضباطه الكبار، وتنقذ بلدك ورعاياك من الدمار..."

لم يبق سوى طابق واحد وأصل إلى شقتي حين ظهر شبح، على بعد عشر سلالم مني، جالس على آخر سلَّمة تُوصل إلى الطابق الثالث. كانت ذراعاه تلتفان حول ركبتيه المتلاصقتين، بينما استند حنكه الأسفل عليهما.

مَن يكون ذلك الشبح، باعتقادكَ، إن لم يكن ’’هاجَر‘‘ لا غيرها؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الثالث والعشرون

للحياة وقت

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ساد الصمت بيننا طويلاً، لكننا بقينا خلاله نتواصل بطريقة أخرى: في عينيها الحانقتين، الغاضبتين، أقرأ رسائل عتاب واستفسار عما دفعني لإغلاق الهاتف في وجهها، بينما هي تقرأ في عينيّ مزيجاً من حيرة وانكسار واضطراب.

جاء صوتها أخيراً، على غير العادة، غليظاً متحشرجاً: "بِتُّ أمس في شَقّة ‘‘مريم‘‘ و‘‘أَسعَد‘‘... الأطفال ظلوا يلحون علي بالبقاء، فما أردتُ أنْ أكسر بخاطرهم..."

وكأنها كانت تقرأ السؤال الذي دار في رأسي: "طبعاً نمتُ على نفس الصوفا التي نمتَ عليها..." انفرجت عيناها عن ابتسامة آسرة خففت من ضيق أنفاسي، "أخبرتني ‘‘مريم‘‘ أنك قضيتَ ليلة في بيتهم... ولا بد أني تغطيت بنفس الشراشف والبطانية..." أضافت بعد أن أخذت نفَساً عميقاً من سيجارتها: "المسكينة ‘‘مريم‘‘ لا تكف عن غسلها وتجفيفها كلما جاء زوجها بصديق في ساعة متأخرة من الليل..."

قد تضحك إذا قلتُ لك إني شعرتُ، في تلك اللحظة، بعرفان عميق بالجميل لصديقك الأثير، إذ بفضله تذكرت ‘‘هاجَر‘‘ آنذاك حكايات أخرى أكثر طرافة تدور حوله، روتها ‘‘مريم‘‘ لها ليلة أمس، فراحت تقصّها لي، واحدةً بعد الأخرى: كيف أنه أحضر إلى شقتهما، ذات مرة، معه متشرداً طرده النادل من الحانة، وفي الصباح تقاسم معه ما كان في جيبه من جنيهات قليلة، في المقابل لم يترك الغريب وراءه سوى عدد كبير من القمل احتاجت ‘‘مريم‘‘ إلى عدة أيام للتخلص منه، عدا عن تلك الرائحة العطنة التي ظل ‘‘أَسعَد‘‘ ينكر وجودها في غرفة الجلوس.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ومثلما تُغير السماء لونها هنا خلال دقائق بين الأزرق الصافي والرمادي الكامد، كانت عينا ’’هاجَر‘‘ وكلماتها تتغيران دون انقطاع: من حزن عميق إلى ابتهاج كاسح؛ من سخرية لاذعة بطعم العلقم إلى تعاطف أمومي بطعم الشهد؛ من غضب ملموس كطفح الجلد إلى سكينة بركان ميت.

وأنا أراقب تحولاتها، تسلل هذا السؤال إلى رأسي: مَن يستطيع العيش فعلاً معها؟

لا بد أن سعيد الحظ ذاك سيظل يتنقل كل يوم ما بين أدنى طبقات الأرض وأعلى طبقات السماء.

كان الوقت يمشي بنا دون أن نشعر بوجوده.

لا أتذكر متى انقطع خيط تواصلنا فجأة، راحت عيناها تحدقان بعينيّ كأنها كانت تحاول قراءة ما يدور في رأسي آنذاك: "أخبرني ’’أَسعَد‘‘ هذا الصباح عن حكاية الأربعة أطفال، وربما صدَّقتَ بها..."

أفزعتني جملتها، ولا أستبعد أن شحوباً لاح على وجهي، جعلها تتيقن من صحة حدسها بما يشغلني في تلك اللحظة بالذات.

"كنا نمزح فقط عن شروط العائلة السعيدة: أربعة أطفال أو خمسة أحسن؟" قالت ’’هاجَر‘‘ ضاحكة، "ثم اتفقنا على الرقم أربعة... وطبعاً هو أراد أن يثير غيرتك!"

مضيتُ في خطاب مفكك، تتكرر جمله مثل حبات المسبحة، ناكراً وجود أي عاطفة تجاهها.

"أنا سأهنئكما من كل قلبي إذا قررتما الارتباط..." قلتُ بنبرة مهزوزة، رغم الابتسامة المنتصرة التي رسمتها على شفتيّ،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"لا تنسي أني متزوج وسعيد مع زوجتي وأطفالي، و، و، و..."

قالت ’’هاجَر‘‘ بعد صمت بدا لي أبدياً: "أنت و’’جليل‘‘ تحملان ضغينة عميقة لماهر... رغم أنه يبذل كل الجهود لإرضائكما..."

غير أنها لم تعطني فرصة للدفاع عن نفسي، كأنها أرادت أن تنزع عني، هذه المرة، الألغام قبل انفجارها: "هل تعرف أنه راقص تانغو ممتاز؟"

* * *

لا أتذكر متى حضرتَ في سياق حديثنا. على الأغلب، كان ذلك حين قارنت ’’هاجَر‘‘ بينك وبين ’’ماهر‘‘، ما جعلني واثقاً بأنكما التقيتما مراراً.

ما أثار استغرابي كثيراً، هو تجنبها ذكر اسمك، مفضِّلةً استخدام ضمير الغائب :’’هوَ‘‘.

كأنها بهذه الطريقة ضمنت لا شعورياً تحررها من سطوتك الروحية كما أفهمها الآن، بعد مرور مياه كثيرة تحت الجسر.

"’’هو‘‘ يختلف كثيراً عن ’’ماهر‘‘،" قالت ’’هاجَر‘‘ بصوت أقرب للهمس منه إلى الجهر، "حتى مع الفوضى الشديدة في شقته ’’هو‘‘ يراها مرتبة جداً، ولا يهمه إذا ظل زواره يتعثرون بأشيائها في كل مكان..."

أسمع حتى الآن ضحكتها تترجع على الجدران، ’’ماهر‘‘ "حريص" جداً على المتع الحسية، أما ’’هو‘‘ فحريص على الاحتفاظ بسلطنة متحررة من قيود الزمن،" رددت زائرتي، بينما حملت عيناها قدراً من حيرة مُلغزة، "من يلتقِ به تُصِبه

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عدوى هذه الحالة من دون أن يبذل ’’هو‘‘ أي جهد في ذلك..."

بعد دقيقة صمت، تخللها هدير طائرة، عَبَر زجاج النافذة السميك، برزت ابتسامة ماكرة على محيا زائرتي: "المسكين ’’ماهر‘‘ يبذل كل الألعاب البهلوانية لجذب المرأة إليه، بينما ’’هو‘‘ يجذبها إليه كأنه منوِّم مغناطيسي محترف..."

* * *

وهي تتحدث عنك، أيقظت ’’هاجَر‘‘، دون أن تدري، مشاعري القديمة تجاهك، بعد أن نَبَذْتَني في المدرسة، وها نحن نقف مرة أخرى، دون اختيارنا، في مواجهة جديدة أخرى.

"’’هو‘‘ أهداني البورتريه الذي رسمه لي..." قالت ’’هاجَر‘‘، قبل أن تعقبها بابتسامة ماكرة: "خالتي ’’عالية‘‘ لم تنطق بكلمة عندما رأت اللوحة.. أنتَ تعرف... هي تعبده..."

غير أنها، في لحظة ما، بدّلت مسار حديثها: "صديقك رسمني كما يراني هو لا كما أنا في الواقع ...’’هو‘‘ جعلني أقرب لنساء الأيقونات المقدسات،" قالت ’’هاجَر‘‘، وعلى وجهها طفح خوف غامض، "ماذا لو اكتشفَ أني دون أولئك النساء بطبقات... بعيدة جداً عن مَثَله الأعلى؟"

كأن جملتها الأخيرة فتحت حجيرة أخرى في قلبها: "’’هو‘‘ حالما يقتنع بوقوع المرأة في شباكه يكشف عن جانب آخر في شخصيته،" قالت ’’هاجَر‘‘، "بدلا من انغلاقه المعهود ’’هو‘‘ يُفصح لها بالكامل عن كل همومه..."

لعل صمتي شجعها، على المضيّ أكثر في كشف ما بقيتَ حريصاً دائماً على عدم إشراكي فيه: أخبار أسرتك، وخصوصاً ما يتعلق بأمك.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

من ''هاجَر'' عرفتُ أنها تزوجَّت بعد وفاة والدك المسنّ، من رجل يصغرها بعشر سنوات. كان ذلك بعد خروجك من العراق بخمس أو ست سنوات، وبعد زواج آخر أخواتك، ومغادرتها بيت الأسرة.

هل آلمك أن يكون زوج أمك أقل مكانة من أبيك، لتقطع علاقتك بها تماماً؟ أن يكون مجرد عامل بناء موسمي؟

ما أثار دهشة ''هاجَر''، إصرارك على رفضها، على الرغم من إصابتها بمرض القلب: ضيق في أحد صماماته، وكان بإمكانك دعوتها بعد انتهاء الحرب مع إيران، لمعالجتها في لندن.

أوقفَ رنين جرس الهاتف زائرتي عن الكلام، ولعل شعوراً بالذنب راودها عكسته تلك التقاطيع الخفيفة فوق جبهتها العريضة، لهتكها سراً أنت حريص على ألّا أعرفه أنا بالخصوص.

كانت الساعة المنضدية المجاورة للهاتف تشير إلى العاشرة والربع، وهذا ما أثار استغرابي أن تتصل بي في هذا الوقت.

جاء صوتك مضطرباً قليلاً: "هل شاهدتَ الأخبار في التلفزيون؟"

وحين أجبتك بالنفي، رحتَ على غير عادتك، تنقل بالتفصيل ما سمعته عبر الراديو :''ديكويار'' وصل إلى نيويورك، وأخبر مجلس الأمن الدولي برفض ''سَدَم'' الانسحاب من الكويت.

أتذكّر أنك قلتَ شيئاً كهذا: "''بوش'' منع علناً الرئيس الفرنسي من القيام بأي مبادرة أخرى..."

"متى؟"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"قبل ساعة... خلال مؤتمر صحفي طارئ بالبيت الأبيض..."

أضَفتَ وسط سعلات متقطعة وأنفاس ثقيلة، ناجمة (على الأغلب) عن تدخين متواصل: "يبقى الأمل بتجنب الحرب بيد ''صاحبنا''... كل ما يجب أن يفعله هو الإعلان عن بدء الانسحاب..."

وكأنك كنتَ تقرأ ما يدور في رأسي حين أنهيتَ المكالمة: "عندها، حتى الكونغرس سيقف ضد ''بوش''... ويتبخر الائتلاف الذي شكّله للحرب..."

* * *

أيقظني المنبه عند الثامنة، لكني أغلقته فوراً، مفضلاً البقاء تحت الغطاء السميك؛ متناسياً قدر الإمكان محاضرتي التي ستبدأ بعد ساعتين.

هل يخامرك في أول لحظات صحوك الصباحية هاجس غريب بأنك ما زلتَ في بيت العائلة ببغداد؟ أو تَمُسُّكَ لأقل من ثانية حيرة ذلك الطفل الذي غادر لأول مرة مهده، زاحفاً على أربع، حتى بلوغ حافة عالمه المستكشَف: باب حجرته الصغيرة؟

باغتني خوف من طلابي: كيف سيكون رد فعلهم وهم يرون آثار السهر الطويل على وجهي؟ لا بد أن بياض عينيَّ اصطبغ بلون قرمزي مفزع، مما سيجعلني أشبه بذلك المتشرد الذي اصطحبه ''أَسعَد'' إلى بيته.

كان الوقت تجاوز الرابعة قليلاً، حين هبط صمت ثقيل بيننا، كأنه يعلن أخيراً عن وقوفنا على ضفتين متقابلتين يفصلهما نهر واسع. قالت ''هاجَر'' بنبرة حازمة: "سأنام في السرير الضيق...

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

عندك منامة إضافية؟" وقبل أن تدخل حجرة النوم الصغيرة وتغلق بابها، رددت بجفاء تحية المساء، كأنها لا تنتظر رداً ما مني: "تصبح على خير..."

صباحاً، عند مروري بغرفتها في طريقي إلى الحمام، سعيتُ ألا تترك قدماي أيّ لمسة صوت على سجّاد الأرضية خوفاً من إيقاظها، لكني فوجئت بانفتاح بابها تماماً.

مددتُ رأسي بحذر في الغرفة، فبدا كل شيء فيها مرتباً كما كان بالأمس، وعلى السرير شاهدتُ منامتي المقلّمة مصففةً بعناية فائقة... كم كان المكان يشبه لوحة لطبيعة ميتة.

راودني، للحظة، شك بأن تكون ''هاجَر'' قد باتت حقاً في شقتي.

* * *

في الطريق إلى الجامعة بقيتُ منشغلاً بما سأعطيه لطلابي، خصوصاً وأني لم أحضّر أمس أي شيء للمحاضرة.

خلال تلك الرحلة بالباص، ظلت تفاصيل الحديث الذي دار بيني وبين ''هاجَر'' تتقافز كأسماك في بركة بينما تقلّب أصابعي صفحات الكتاب المدرسي.

"التانغو: كل ما تحتاجه إتقان ثماني خطوات.. وعثْلَتَين خفيفتين هكذا،" تقول هاجَر ضاحكةً، "ما رأيك لو تجربها معي؟"

أسمع صوتي المبحوح يخرج من فمي مستكيناً، مرتعشاً: "هل رقصْتِها مع ''ماهر''؟"

"نعم... هو بارع جداً فيها، وعلمني قواعدها الأولية..."

«منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تجيب زائرتي بنبرة قاطعة، "أنت طبعاً لا تراه أكثر من زير نساء، ولن تصدق إذا قلتُ لك إنه شديد التحفظ واللياقة معي..."

تَفلتُ كلمات مضطربة مني: "ربما لأنه يحبكِ..."

"هو بالتأكيد يحبني، وأنا أحبه أيضاً..."

عاودت ''هاجَر'' خيط الحديث بعد فترة صمت نشف خلالها الريق في فمي: "مع ذلك، أشعر بأنه غير مناسب لي..."

أعترف لك بأن كلماتها الأخيرة تشبه حبل نجاة يُرمى لي وسط لجة بحر هائج، على الرغم من جهودي الكبيرة لإظهار عكس ما أشعر به: "ليش؟" أسأل متوجفاً.

"لأنه يوقظ فيّ الشخصية الساخرة الهجّاءة سليطة اللسان،" تجيب ''هاجَر'' وهي تعبّ صدرها بدخان سيجارتها بينما تطلق أكثر من سعلة، "ومعه ستكون حياتي تافهة بلا معنى..."

لا أتذكر كيف عدتَ ثانية في حديث ضيفتي.

كل ما يحضرني تلك الجملة التي قارنتْ بينك وبين ''ماهر'' : "''هو'' يريدني أن أكون كل شيء في حياته: أمه وأخته وحبيبته وأمينة أسراره،" تُردِّد ''هاجَر'' وهي تحدق في عينيّ: "يعني أن أكون ملاكه المتفرغ له تماماً..."

توقعتُ آنذاك أن تطلب نصيحتي فيمَن يجب أن تختار: أنتَ أم ماهر؟

"ربما أستطيع أن أكون المرأة التي يحلمان بها... ولكن إلى حين،" تهمس زائرتي آخر كلماتها كأنها تحدّث نفسها فقط، "أنت الوحيد الذي أجد نفسي معه كما أنا..." ارتسمت ابتسامة غامضة فوق عينيها قبل أن تضيف ضاحكة: "أتمنى لو كنتَ أعزب..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

غير أنها استدركت، حين رأت توقاً مفرطاً يطفح فوق عينيّ، ولعلها خشيت أن أكسر المسافة الفاصلة بيننا، حتى تلك اللحظة، تحتَ جموح العاطفة: "أنا أمزح فقط،" قالت ''هاجَر''، وراحت تُشغل نفسها بإشعال سيجارة أخرى لها، بينما تلبست تقاطيع وجهها غضباً ما غير قابل للتفسير.

جاءني صوتها محشرَجاً، حاسماً، بعد صمت طويل: "''جليل'' و''ماهر'' أقرب إليّ منك... هما لم يتغيرا أبداً... أما أنتَ..."

وكأنها قرأت آثار الصدمة على وجهي، فسعت لتغيير مسار الحديث.

رفعت الصورة المرتكزة على طاولة التلفاز: "زوجتك فاتنة... ما اسمها؟"

وحين أجبتها، ظلت عيناها ملتصقتين بالفوتوغراف المؤطّر الصغير: "الصبيتان هما ابنتاك طبعاً؟ ما شاء الله، كم هما جميلتان..."

التفتت ''هاجَر'' إليّ بعد أن أرجعت الصورة إلى مكانها: "لو عدتَ إلى البلد لظنك الناس ''أجنبي'' جاء للسياحة... بينما لو عاد صديقك و''ماهر'' ما عرف أي شخص أنهما عاشا في أوروبا، حتى ولو ليوم واحد..."

أتذكر أني قلتُ شيئاً كهذا: "أنا مثل السبّاح الذي قطع نصف النهر، وفقد القدرة على الوصول إلى الضفة الأخرى..."

قالت زائرتي ضاحكة: "خِلَص... أنت مشيت بطريق و"لازم" تكملة... عودتك تأخرت جداً..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بعد المحاضرة هرعتُ إلى أقرب كشك لشراء الجريدة، وفي الباص ظلت عيناي تتابعان بصعوبة سطور الصفحة الأولى فيها، تحت سطوة نعاس جارف راح يسري في قمة رأسي. جذبني عنوان التقرير الأساسي عليها: "ميتران في آخر محاولة لإحياء الآمال بتسوية سلمية لأزمة الخليج: فرنسا تطلق مبادرة للأمم المتحدة بأربع نقاط."

قلّبتُ الصفحات بحثاً عن أخبار أخرى. توقفتُ عند مستطيل صغير، يغطي ما قاله ’’ديكويار‘‘ حال نزوله من طائرة الكونكورد في مطار "كينيدي" بنيويورك. أتذكر كلماته تلك حتى الآن بعد أن عبّر عن تشاؤمه من حل الأزمة سلمياً: "أنتم بحاجة إلى شخصين لرقصة التانغو... في بغداد أردتُ أن أرقص لكني لم أجد سيدة لطيفة للرقص معها." أضاف بعد لحظة صمت: "’’صدّام‘‘ لم يعبّر عن رغبته في الانسحاب من الكويت..."

وأنا أقرأ استعارة الأمين العام للأمم المتحدة، لرقصة التانغو، استرجعت ذاكرتي صورة ’’هاجَر‘‘ وهي تتحرك أمامي، حيث راحت قدماها تؤديان الخطوات الثماني، بخفة ورشاقة متناهيتين. تسترجع أذنايَ نبرتها الطفولية الجريئة، كأنها تدعوني لمشاركتها: "يجب أن تحتضن ذراعك اليمنى ظهر شريكتك بالكامل، وتشد يدك اليسرى على راحة يدها اليمنى بقوة ونعومة معاً..." رددت حين شاهدت عزوفي عن النهوض والالتصاق أكثر بمقعدي: "أنتم الإنجليز خجولون ومحافظون جداً، لكن الرغبات بأعماقكم مثل حريق يأكلكم من الداخل..."

حال وصولي إلى الشَقّة استلقيتُ مباشرةً على الكنبة. جرني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الكرى إلى أحضانه سريعاً، بعيداً عن هواجسي المعشعشة في رأسي كضيف ثقيل.

بدلاً عن ذلك شاهدتُ حلماً غريباً: أختك الكبرى ''سعاد'' ما زالت كما رأيتها في زيارتي الأخيرة لبيتكم قبل ثلاثين سنة، ها هي تستقبلني عند بابه الخشبي الضخم، ثم تقفله ورائي بإحكام. تعلو وجهها ابتسامة مشرقة، تجعل ذلك النفق المعتم (عادةً) غارقاً بضوء وهمي صادر عنها، ثم تقودني فيه، يدها بيدي، خطواتها تتوافق مع خطواتي، حتى نصل إلى الحوش. كل شيء ما زال في مكانه: أصص الورود موزعة بانتظام بجانب الجدران؛ ومربع السماء الزرقاء ساكن ببهاء فوق درابزون السطح الأعلى. تتسلل عيناي إلى الإيوان المفتوح على الحوش، فألمح ماكنة الخياطة اليدوية التي اعتدتُ رؤية أمك جالسة وراءها كلما زرتكم، لكن المكان بدا هذه المرة مقفراً، خالياً تماماً من أهله. ألتفتُ إلى يميني فاكتشف اختفاء ''سعاد'' أيضاً، ولا بدّ أن خوفاً تغلغل في دمائي من وقوعي بفخ لا مخرج منه.

استيقظتُ على رنين الهاتف الملحاح. كان ''أَسعَد'' على الطرف الآخر من الخط. قال بعد اعتذاره المتكرر على قطع قيلولتي: "اليوم نلتقي في مقهى "رويال هول" الساعة السادسة..."

"مَن سيحضر؟" سألته على مضض.

"نفس العصابة،" قال صديقك بحماس، "وربما تحضر دكتورة ''عالية'' لاحقاً."

كأن صديقك قرأ ما دار في خلدي آنذاك حينما ردد عبارته بتمهل متعمد: "آه...''هاجَر'' لن تأتي معها..." وأمام صمتي المتعمد، أضاف: "هي في طريقها إلى شقّتنا... ستبقى مع

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

’’مريم‘‘ والصغار هذه الليلة... أنت تعرف انتهاء تأشيرة دخولها الى بريطانيا اليوم؟"

قاومتُ بقوة سؤالاً حضرني بإطباق راحة كفي اليمنى على فمي: "لماذا لا تمدد لها الدكتورة ’’عالية‘‘ فترة إقامتها طالما هي أمها الحقيقية؟"

توقعتُ أن يغلق ’’أَسعَد‘‘ الهاتف بعد هبوط الصمت بيننا، لكن صوته عاد ثانيةً في هيئة همسٍ، خشية من تسربه إلى آذان آخرين غيري: "هي طلبت مني أن أُبلّغ ’’جليل‘‘ و’’ماهر‘‘ بقرارها."

توقع صديقك أن يثير فضولي، لكني بقيتُ ملتزماً بالصمت، رغم تسارع نبضات قلبي واحتباس الهواء في صدري.

"أنت تعرف أنهما طلبا يدها.. كلاً على حدة طبعاً."

"لا.. ما أخبرني أحد،" أجبته بنفاد صبر واضح.

أطلق ’’أَسعَد‘‘ جملته أخيراً بنبرة مضطربة قليلاً: "قرارها بالرفض..."

* * *

لم تكن الطاولة التي جمعتنا بعيدة عن تلك التي جلستُ حولها، لأول مرة، مع ’’هاجَر‘‘ و’’أَسعَد‘‘، لكن ذلك اللقاء بدا لي بعيداً جداً، لا مجرد أربعة أشهر ونصف.

حين وصلتُ إلى صالة المقهى الواسعة بهرتني، للحظة، أضواؤها الساطعة المنبثة من السقف على الطاولات، وحركة روادها الدؤوب، ما جعلني أطيل النظر حولي بحثاً عنكم،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ولعل انعكاس الأشعة على الجدار الزجاجي المجاور لكم ساهم في بلبلة رؤيتي للحظة.

عند وصولي إلى طاولتكم، وجدتكم في خضم نقاش ساخن حول ما إذا كانت الحرب ستبدأ غداً؟ أتذكر أنك كنت متفقاً مع ''ماهر'' على ذلك، بينما ظل ''أَسعَد'' والدكتورة ''عالية'' يعارضانكما.

قال ''أَسعَد'': "ستسمعون هذه الليلة بياناً يعلن فيه ''صدّام'' انسحاب الجيش في الكويت."

قالت الدكتورة ''عالية'': "وطبعاً يقلب بهذه الطريقة الطاولة على ''بوش''."

قال ''ماهر'': "إذا خرج صاحبنا من دون ورقة توت سيبدأ فوراً العدّ التنازلي لسقوطه المدوّي."

أضاف بعد ارتشاف جرعة صغيرة من كأسه: "سيتحمل مسؤولية كل ما فعله جنوده من قتل وتعذيب لمن قاومهم في الكويت.. كل ما نهبوه.. كل ما لحق الرهائن من آلام جسدية ونفسية بما فيها الصداع والاكتئاب..."

وكأنه مايسترو يوجه لفرقته الموسيقية آخِر ضربة في سيمفونية كلاسيكية ردد بصوت خافت وبارد: "الحرب هي التي تنقذه من مصير أسود.. بدلا من أن يكون في وضع مخزٍ: مجرم حرب تتعقبه المحاكم الدولية، سيصبح بطلاً قومياً لمواجهته 40 دولة بما فيها القوة العظمى الوحيدة اليوم..."

كانت الدكتورة ''عالية'' تتطلع بإمعان في وجه ''ماهر''، خلال مداخلته الطويلة. تحضرني تلك القسمات التي عكست قلقاً راح يتعمق على قسمات وجهها، مع أنفاس متسارعة على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

صدرها. سألَتْه أخيراً: "عندك أقارب في العراق؟"

"نعم عندي..." أجابها ’’ماهر‘‘ "ولكن تقريباً لا أعرفهم..."

لعلك تتذكر سؤال طبيبتنا الطيبة المعبر عن استغرابها: "كيف؟"

"هذه قصة طويلة دكتورة،" قال محاورها، "كانت أمي هي الخيط الرابط لي بالعراق..."

"إذن ما عندك قلق عليهم..."

"لا، طبعاً عندي.. قلق على الناس بشكل عام..."

* * *

حتى بغيابها كانت ’’هاجَر‘‘ حاضرة معنا، كلاً على حدة، تكشف عنها فترات الوجوم التي ظلت تخيم فوقنا من وقت إلى آخر، وشرود الأعين التي تستدير صوب الجدار الزجاجي والمدى المظلم الممتد وراءه حتى الضفة الأخرى من نهر ’’التيمس‘‘ حيث تتكسر الأضواء على سطح مياهه المجاورة لشاطئها.

كل شيء بدا لي طبيعياً هنا مثل كل يوم: أعداد الجالسين حولنا نفسها مثل كل مرة، وما زالت الموسيقى الكلاسيكية، تصدح في الطابق الأعلى، وفق البرنامج السنوي لها، فيصلنا بين الفينة والأخرى، خيط واهٍ منها، مذكراً إيانا بأن أخبار الحرب الموشكة على الاندلاع بعد ساعات قليلة محصورة بين شاشات التلفزيون والصحف، ولا تثير أي قلق هنا.

من التماع بؤبؤي عينيك قدّرتُ أن ’’أَسعَد‘‘ لم يخبرك بعد بقرار معشوقتك القاسي، لكني مع ذلك لمحتُ فيهما ذلك

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الاضطراب الذي تجيد عادةً إخفاءه عن الآخرين.

تذكرتُ خلال تلك اللحظات، سراً آخر كنتَ كشفْتَه لهاجَر فقط، فأخبرَتْني به ظناً منها أني أعرفه مسبقاً: أنت ما زلتَ تتواصل هاتفياً مع أختك الصغرى ''وداد'' المقيمة في عمّان، وعن طريقها علمتَ بتدهور صحة والدتك في بغداد. مع ذلك كانت وصيتها لك دائماً: "اِبقَ بعيداً بأمان ولا تفكر أبداً بالعودة.. نحن بخير."

لا بدّ أن ''أَسعَد'' بلغ الدرجة المطلوبة من الثمالة ليتحرر من سلطتكما المعهودة، أنت و''ماهر'' وإلا فكيف تفسر خرقها بعد عودته الميمونة من الكاونتر، محملاً بكؤوس الشراب في صينية بلاستيكية، ليطرح سؤالاً بعيداً عن سياق دردشتنا آنذاك: "ما هو أهم شرط لديمومة الزواج؟"

طفحت ابتسامة على وجه الدكتورة ''عالية''، جعلتني أخمن بأنها كانت تنتظر هذه البادرة من صديقك الحميم لنكف لحظة واحدة عن جدلنا حول احتمالات الحرب، وما سيترتب عنها من خراب.

"الأطفال،" قالت الدكتورة ''عالية'' ضاحكة، لكن ''أَسعَد'' أنكر صحة جوابها بهز رأسه يميناً ويساراً.

أتذكر أن كلاً منا أعطى جواباً لم يلقَ إلا نفياً منه بنفس الطريقة.

"إنه الشعور بالذنب،" قال صديقك. وحين قرأ الدهشة على وجوهنا، أو بالأحرى قناعتنا بوصوله مرحلة البوح الطلق في مسار سكره، راح يجرع الجعّة من كأسه بتأنٍ، قبل عودة صوته هذه المرة أكثر رزانة وعمقاً: "إذا تمكن أحد الزوجين

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

من خلق شعور مستدام بالذنب في نفس شريكه فإنه سيضمن بقاءهما معاً حتى الموت..."

ما زالت ضحكة ’’أَسعَد‘‘ التي أعقبت تصريحه ذاك ترنّ في رأسي.

أتذكر كيف تبادلتَ نظرات محملة بالسخرية مع الدكتورة ’’عالية‘‘، كأنك كنتَ تستنكر صحة هذا الرأي وأنت تستحضر في ذهنك إخلاص مَثَليكَ الأعليين المزعوم: ماركس ولينين لزوجتيهما.

سأله ’’ماهر‘‘ متهكماً: "وماذا لو زرع الزوجان هذا الشعور أحدهما بالآخر؟"

"في هذه الحالة سينفي أحدهما الآخر، وينهار الزواج... وفق قوانين الديالكتيك..."

ارتفعت قهقهة صديقك عالياً، ما دفع بعض الجالسين حولنا للاستدارة صوبه.

مع ذلك عاد ’’أَسعَد‘‘ إلى الفكرة المتسلطة آنذاك على رأسه: "أخطر شيء على زواج ناجح من هذا النوع حلول شعور أقوى بالذنب من الخارج..."

لا بد أننا كنا محظوظين حين سمعنا تنبيهاً عبر مكبر صوت في القاعة يعلن عن حلول وقت الإغلاق خلال عشر دقائق، فبدأنا مثل رواد المقهى الآخرين بالاستعداد للمغادرة، ما أجبر ’’أَسعَد‘‘ على الصمت أخيراً.

هل تتذكر كيف علت وجهه طبقة خفيفة من الأسى، بينما كان يكتب على ظهر وَصْل صغير بالشراب الأخير الذي جلبه لنا.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وفي لحظة تبادلكم عبارات الوداع، مد لي الورقة الصغيرة خفية.

أظنك لن تصدق ما كتب صديقك عليها: "ممكن، أبيت عندك هذه الليلة؟"

«AlfYaa منشورات «ألف ياء

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف الرابع والعشرون

ألعاب ناريّة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

لا أستطيع الآن البتّ في ما إذا كانت قناعة ’’أَسعَد‘‘ المطلقة بإعلان ’’سَدَم‘‘ عن بدء انسحاب جيشه من الكويت قد تبخرت صباحاً حين استيقظ في حدود العاشرة.

كان الأجل النهائي لتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي انتهى قبل ساعتين تقريباً.

قال صديقك مازحاً حين رآى عينيَّ معلقتين بشاشة التلفاز: "لقد مَنَحَنا الرفيق ’’بوش‘‘ يوماً آخر."

غير أني لمحتُ وراء انفراج عضلات وجهه، خوفاً مخفياً بعناية في نقطة ما من رأسه.

"هل أنت متأكد؟" أضفتُ، بعد لحظات صمت ثقيلة: "نحن ما زلنا في بداية يوم 16 يناير حسب توقيت نيويورك... الآن هي الثانية ليلاً هناك."

قال ’’أَسعَد‘‘ بصوت مرتعش قليلاً: "إذن علينا أن ننتظر حتى يصحو من نومه فيقرر..."

ولعلي تمتمتُ بكلمات يائسة كهذه: "هذه آخر فرصة أمام ’’صاحبنا‘‘ ليعلن عن بدء الخروج من الكويت..."

"وماذا عن مبادرة ميتران؟"

"دُفِنَت أمس في مهدها قبل أن تصل إلى مجلس الأمن الدولي..."

طفح الغضب على وجه ضيفي، وارتفع صوته أكثر من طبقة: "لكنها لا تختلف بشيء عن مبادرة ’’ديكويار‘‘، التي أيدها ’’بوش‘‘،" صاح ’’أَسعَد‘‘ في وجهي.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أعترف لك أني ارتكبتُ، آنذاك، حماقةً مع صديقك: بدلاً من تخفيف التوتر عنه رحتُ أقرأ له ما نقلته الصحيفة أمس عن المتحدث باسم البيت الأبيض، ''مارلِن فيتزواتر''، وبقيت منقوشة في ذاكرتي حتى هذه اللحظة: "أناشد الشعب الأمريكي أن يصلّي من أجل بلدنا، أن يصلّي من أجل أفراد قواتنا الموجودين هناك، ونحن سننتظر ونأمل تحقق الأفضل..."

أطلق ''أَسعَد'' ضحكة هستيرية صاخبة: "لا بد أن بلدنا أصبح دولة عظمى خلال سنوات غيابنا عنه،" قال ساخراً بمرارة، "من عربات ''الرَّبَل'' العتيقة، إلى صواريخ عابرة للقارات..."

تماشيتُ معه لأُخرجه من دوامته: "كل الصحف ظلت تؤكد أن موقع جيشنا من حيث القوة والعدد هو الرابع في العالم..."

"إذن، صلاة الشعب الأمريكي هي التي ستحمي أبناءه منا..."

"أخشى ما أخشاه أن يصدقها قائدنا..."

غير أن ''أَسعَد'' راوده، للحظة، شك بصحة قناعاتنا: "ربما كلام كل هؤلاء الخبراء صحيح... نحن خارج البلد "مِن" سنين..." وحالما ملأ صدره تماماً بدخان سيجارته، أضاف وهو يرفع ذراعيه قليلاً إلى أعلى: "''صدّام'' هدد الأمريكان قبل أيام: جنودهم سيسبحون في دمائهم إذا تورطوا..."

* * *

قد تستغرب إذا أخبرتك عما دار بيننا قبل مكالمتك.

الآن أدرك أن كلاً منا مزود بـ "ثرموسْتات" شبيه بذلك الذي

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يتحكم في درجات حرارة سخّانات التدفئة منعاً لانفجارها.

هل صادفك وأنت في لحظة مشاهدتك دفن شخص عزيز جداً عليك، بروز طُرفة قديمة في رأسك، فجّرت فيك رغبة مجنونة بالضحك؟

كذلك هو حالنا حين كنا جالسَين حول مائدة المطبخ الصغيرة، نشرب القهوة الفورية، وفوقنا تسكن غيمة شفافة من دخان سجائرنا، بينما كانت آذاننا تلتقط ما يبثه التلفزيون في غرفة الجلوس من أصوات بشرية لم يخترقها بعد أزيز الطائرات ودويّ انفجار القنابل.

"تعرف..''هاجَر'' قررت العودة إلى بغداد؟" قال ''أَسعَد'' هامساً كأنه يخشى أن يسمعه أحد غيري. وعندما اكتفيتُ بهز رأسي نافياً، مضى في حديثه، مبعداً عني (دون قصد منه) ذلك الشعور المتصاعد في نفسي بالضآلة والعجز، "هي انتقلت عندنا كخطوة أولى قبل سفرها..."

ولم أنتظر طويلاً قبل أن يسرد لي صديقك الأقرب تفاصيل أكثر عن علاقة ''هاجَر'' بمضيفتها. كيف أن الدكتورة ''عالية'' لم تجرؤ حتى الآن على إخبار ابنتها بطبيعة علاقتها بالزائرة القادمة من بلد والديها الأصلي.

"''سارة'' صعبة المراس... وهي نقطة ضعفها الوحيدة،" تمتم ''أَسعَد''، "طبيبتنا الرائعة لا تفعل شيئاً من دون موافقتها... ولا أستبعد أنها أمرتها بعدم تمديد فترة بقاء ''هاجَر'' معنا..."

قال صديقك، بعد دقيقة صمت، كأنه يستدرك موضوعاً ظل يشغله: "هل بالإمكان المبيت عندك يومين أو ثلاثة؟"

وحين عبّرتُ عن ترحيبي الشديد به اغرورقت عيناه

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بالدمع، فراح يشرح لي سبب طلبه: "أريد أن تشعر ''هاجَر'' بالراحة الكاملة في بيتنا حتى..."

وبالطبع، تساءلتُ مع نفسي في وقتها، عما جعله يفضل البقاء عندي بدلاً عنكما، أنتَ و''ماهر''(رغم ضعف الآصرة التي تجمعنا).

هل هو نوع من تجنب الحرج الذي سيشعر به معكما إن هو نقل رسالة ''هاجَر'' لكما أم رغبة في التحرر من سطوتكما؟

* * *

جاء رنين هاتفك ليقطع حديث ''أَسعَد'' المتدفق، المتنقل من موضوع إلى آخر ."أنتظركما في ساحة الطرف الأغرّ بعد ساعة،" قلتَ لي بصوت متحشرج، "هناك وقفة احتجاجية أمام السفارة الأمريكية..."

لم يبق في ذاكرتي سوى القليل من استطرادات صديقك في ذلك الصباح الغائم.

هل سبق أن قص عليك حلمه المشؤوم ذاك؟

أمام متنزه مسوَّر رأى ''أَسعَد'' نفسه واقفاً في طابور ينتظر دوره للدخول إليه. كل شيء بدا حوله يدفع إلى الطمأنينة: هدوء المصطفّين أمامه ووراءه، وإطلال الأشجار العالية برؤوسها من فوق السور الحجري، وزرقة السماء الغامقة التي تشير إلى وقت الغروب.

غير أن البوابة الحديدية المشبّكة كشفت له أن ما وراءها هو مقبرة، وأن من يدخلها لا رجاء له بالخروج منها...

حضرني هذا الكابوس خلال وقوفنا أمام المبنى الفخم الذي

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يرفرف، عند قمةِ واجهتِهِ، العلم الأمريكي، وأمامه اصطف رجال الشرطة العمالقة بملابسهم وخوذهم السوداء. كان عددهم يفوق تقريباً عدد المحتجين المتفرقين، الذين حمل بعضهم لافتات صغيرة أبرزها: "No War"، وآخرون ظلوا يرددون مقطعاً من أغنية جون لينون الشهيرة: "كل ما نقوله، أعطوا السلام فرصة ..."

لا استبعد أن يكون بعضهم شارك في تلك الاعتصامات أمام السفارة خلال سنوات الحرب الفيتنامية قبل عشرين سنة، وها هم يُخرجون مرة أخرى لافتاتهم التي دفنوها تحت أسرّة أحفادهم ليعودوا إلى المبنى نفسه.

لعلك ما زلت تذكر ذلك الكهل الأنيق الذي رفع ورقة مقوى بنّية اللون، مكتوب عليها بخط اليد: "العالم يخاف بوش أكثر من صدّام".

هبطت الظلمة سريعاً، فصاح آمر الشرطة بنبرة محايدة جداً: "الوقت انتهى.. رجاءً غادروا المكان..."

* * *

خلت شوارع لندن من مشاتها، مع اقتراب درجة الحرارة من الصفر، وهبوب ريح باردة ظلت حريصة على دفعنا من الشارع كأوراق خريفية يابسة.

لا بدّ أن جميع الذين شاركونا في الوقوف أمام السفارة الأمريكية توزعوا على الحانات القريبة منها، وعند حلول الساعة الحادية عشرة مساءً سيغادرونها إلى مساكنهم آمنين، فالبلاد الملعونة التي طوقها ربّ الجنود كالسوار حول المعصم، هم أبعد عنها من أن يسمعوا، بعد قليل، استغاثات

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أبنائهـا، أو يـروا حرائقهـا، أو يشـموا رائحـة البـارود المتفشـي فيها.

هل تذكر كيف كنـا مصرين علـى ذرع أرصفة هذه المدينـة الوديعـة التـي تبدت لنـا فجأة حيوانـاً خرافياً مفترسـاً راح يشـحذ أنيابه، فـي زاويـة مـا، قبل الانقضـاض علـى فريسته؟ كأننـا كنـا نحاول لا شعورياً تجنب العودة إلـى بيوتنـا وسماع خبر نشوب الحرب عن طريق التلفاز.

ولكسر الصمت الجاثم بيننا، لحظة قطعنا "جسر بـرج لنـدن" العريـق، تمتمـتُ بمـا قرأتُـه أول أمـس فـي الصـحيفة: "قـال ''ديكويـار'' فـي محادثتـه الهاتفيـة مـع رئـيس وزراء بريطانيـا : ''صدّام'' بدا ''هادئاً'' جداً خلال اجتماعهما في بغداد، ومستسلماً تماماً لفكرة أن الحرب ''قدر'' لا فكاك منه..."

من وراء واجهات المطاعم والحانات الزجاجية الممتدة علـى ضفة ''التيمس'' الجنوبية، كان بإمكاننا رؤيـة جُلاّسـها منغمـرين حـول طاولاتهـا بالحـديث والضـحكات مـع بعضـهم الـبعض، ولعلك فكرتَ مثلي، لحظة تجاوزهم، بـأن أخبـار الحـرب (التـي قد تكون بدأت الآن) لم تصلهم بعد.

نعبـر النهـر، ثانيـة، عائـدين إلـى ضـفته الشـمالية، علـى جسـر ضـيق مخصـص للمشـاة. البـرد يشـتد علينـا؛ إلـى يسـارنا يمـرق قطار باتجاه معاكس لحركتنا، وإلـى اليمين تمخر تحتنـا زوارق ويخـوت مشعشـعة بالضـوء، بينمـا تـنعكس، مثـل كـل مسـاء، مصـابيح الضـفة الأخـرى مـن النهـر علـى سـطحه فتترجـرج صـورتها فوقه ."كم يشبه "التيمز" دجلـة عند مرورها ببغداد!" قـالَ ''أسـعَد'' وهـو يتطلـع، بعيـداً، إلـى الأفـق المحـاذي للنهـر، "تصوروا لو كنا الآن هناك.. واقفِين على أحد جسورها..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ندور دون هدف حول ساحة الطرف الأغرّ، تتسلق أبصارنا العمّود الحجري الفارع الطول الذي ينتهي بتمثال الأدميرال ’’نيلسون‘‘، تحت سماء قرمزية متجهمة.

أصوات الموسيقى الكلاسيكية تتسلل ناعمة من كاتدرائية "سانت مارتن".

لا بدّ أن قاعتها غاصة كالعادة بالجمهور.

فجأة، (لكأنك مللتَ رفقتنا،) أعلنتَ من دون سابق إشعار: "أنا ذاهب الآن إلى البيت." وحتى من دون انتظار توديعنا لك، انفصلتَ عنّا بغتةً، ورحتَ تسرع الخُطا صوبَ شارع "تشَيرِنْغ كْروس".

* * *

هل غادَرْتَنا لتتجنب المفاجآت التي كانت تنتظرنا في شقتي، خصوصاً وأن سكنك خالٍ من أي تلفاز، فلا مكان فيها إلا لعالم اللوحات الساكن، وروائح التَربنتين والأصباغ؟

ها نحن ملتصقان جنباً إلى جنب على الكنبة، تتابع أعيننا مشهداً، لم تعشه البشرية من قبل: حرباً تُنقَل حيةً عبر شاشات التلفزيون في كل مكان، لكننا لم نكن نرى جنوداً يتقاتلون أو يُقتَلون، ولم يتلطخ إطار الصور المتحركة أمامنا بأي قطرة دم حمراء، لم نرَ حرائق تلتهم عمارات سكنية بمن فيها. كل شيء بدا نظيفاً وخلاباً للبصر: على خلفية تكتسي لوناً باهت الخضرة، شبحياً، تسبح أمامها أفقياً من اليسار إلى اليمين، سلاسل لا متناهية من جسيمات ضوئية ملتمعة، تذكّر بأفلام الخيال العلمي، حين تتعرض الأرض إلى غزو عدد لا متناه من كائنات فضائية تستقل صحوناً طائرة، في مثلث برمودا.

«AlfYaa منشورات «ألف ياء»

فـي المقابـل، راحـت نقـاط ملتمعـة تتـدفق مـن الأرض إلـى أعلى، بعشوائية، كأنها تحاول، دون جدوى، إيقاف مسار تقدم الكريات الزجاجية الساطعة الضوء.

وسط صمت مطلق، كنا نشاهد، بين ثانية وأخرى، ومضات مرتعشة شديدة الإشعاع، على أرضية اللوحة.

كم بـدا لـي كأننـا نتـابع لعبـة فيـديو، خاليـة مـن أيّ موسـيقى تصـويرية، لكنهـا بـاهرة للبصـر: شـبكة مـن جسـيمات فاقعـة الضـوء، تسـير فـي خطـوط مسـتقيمة ومنحنيـة، بعضـها هـابط صـوب قـاع اللوحـة وبعضـها الآخـر صـاعد منهـا نحـو فـراغ مظلم، وكلها تسبح في ضباب شفيف، باهت الخضرة.

لعبة تتشارك كل عناصرها في تقديم رقصة بطيئة الحركة، لا تحمـل أي معنـى، ولا هـدف لهـا سـوى إمتـاع المتـابعين المذهولين أمامها.

أتذكر الآن أنفاس صديقك الثقيلة، بينما ظلت أصابعه منشغلة بإيلاع سيجارة قبل انطفاء سابقتها ."ماذا يحدث يا إلهي؟" تمتم مع نفسه بصوت عالٍ.

ظهر ’’بوش‘‘ أخيراً، فشرح لنا ما كنا نراه من ألعاب نارية لم يشهدها أحد من قبل على شاشات التلفاز: إنها الحرب.

غير أن صوته الهادئ، الرخيم الذي ذكّرني بصوت الممثل ’’كلينـت إيسـتوود‘‘ قبـل إطـلاق نيـران مسدسـه الدقيقـة علـى خصـومه، ظـل محافظـاً علـى طبقتـه طـوال إلقـاء خطبتـه العصماء، وإذا كانت هناك تغييرات ما فهي تطفح على وجهه فقط: ابتسامة خفيفة تلوح على عينيه وشفتيه في لحظة، وفي لحظـة أخرى تجهم خفيف، وبين الاثنين شريط من الكلمات

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بنأمة واحدة خالية من أي عاطفة.

ما زال إعلانه يرن في رأسي حتى الآن: "الهجمات الجوية بدأت منذ ساعتين ضد الأهداف العسكرية في العراق."

وكم تعمق الشحوب على وجه صديقك ودفع شفتيه إلى الارتعاش لا إرادياً حين قال ''بوش'' ما معناه: "نحن مصممون على قطع دابر قدرة صدّام في صنع القنبلة النووية؛ ونحن سندمر أيضاً مرافق أسلحته الكيمياوية..."

أسترجع في هذه اللحظة كيف أن عينه اليمنى كانت أصغر من الأخرى، بفضل ترهل جفنها الأعلى وهبوطه قليلاً فوقها.

لا بد أن الرئيس الأمريكي كان يقرأ السطور التي كتبها له فريق من خبراء اللغة على شاشة مخفية عن أعين المشاهدين، بينما ظل جالساً برصانة وراء مكتبه الأنيق في البيت الأبيض.

خلال كلمته التي لم يتجاوز أمدها أكثر من عشر دقائق، كرر ''بوش'' اسم ''سَدَم'' أكثر من ثلاثين مرة؛ أحيانا باسمه الأول، وأحيانا بالديكتاتور "الذي حان الوقت لإخراجه من الكويت، بعد كل ما اقترفته يداه من "اغتصاب وسلب ونهب لبلد صغير لا يشكل خطراً لبلده".

لا بد أن ذاكرتي شطت للحظة فاسترجعت مسلسل أفلام الويسترن التي شاهدتها خلال سنوات الصبا، أيام عيدَي الفطر والأضحى، مع بعض من أصدقاء الحارة.

كان أغلبها يدور حول ذلك الشرير الذي يتحكم في بلدة آمنة، فيعيث فيها فساداً، يقتل وينهب ويذل سكانها الطيبين المسالمين، بينما يتقدم البطل المنقذ ببطء على حصانه قادماً من مكان ناءٍ، متجاوزاً بنجاح عواصف ثلجية وهنوداً حمراً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وضواريَ وأنهاراً هائجة، حتى يكاد صبرنا أن ينفد.

حال بلوغه البلدة تنفجر قاعة السينما بالتصفيق له، ولن يخرج روادها منها قبل قتله الشرير المقيت، في مبارزة عادلة، ولا شيء يقف إلى جانب بطلنا سوى شجاعته وبراعته في سرعة إطلاق النار ودقة إصابة الهدف، وبالطبع العدالة السماوية من بعيد.

* * *

بين النوم واليقظة، وصلني رنين الهاتف، فتجاهلته، لكنه في المرة الثانية كان أكثر إلحاحاً، فأجبرني على مغادرة الفراش.

كان ‘‘ماهر‘‘ على الخط: "هناك تجمّع اليوم ضد الحرب في هايد بارك..."

"متى؟"

"الحادية عشرة..."

أتذكر أني هاتفتك بعد دقائق لأدعوك، حتى قبل ايقاظ ‘‘أَسعَد‘‘.

لعلي غفوتُ بعد خطاب ‘‘بوش‘‘ ساعة أو ساعتين، ولا أستبعد أني شاهدتُ خلالها حلماً مُطَمْئِناً: كل تلك الجسيمات المضيئة التي شاهدناها على شاشة التلفزيون الصغيرة تحولت إلى أسماك وضفادع وديدان تسبح في بركة مستطيلة الشكل ماؤها زلال.

كان علينا أن نمشي، عشر دقائق، على الرصيف المجاور لسياج المتنزه، قبل بلوغ المدخل المؤدي إلى مكان التجمع.

كم بدت الأشياء باهتة الألوان حولي: إلى يميني تزحف

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

السيارات واحدة بعد الأخرى في اتجاهين متعاكسين، ووراءها على الطرف الآخر من الشارع، يمتد صف من المباني الأنيقة تعود للقرن التاسع عشر، بينما تمتد إلى يساري الخضرة المتماسكة خلف السور المشبك بقضبان حديدية.

ها أنذا أنتبه إلى أشخاص حولي يمشون كأنهم مسرنَمون بشعورهم المنفوشة وملابسهم المجعلكة وعيونهم الواسعة المحدقة في الفراغ.

لكأنهم بُعثوا تواً لقيامة مبكرة.

استرجعت ذاكرتي وجوه بعضهم، رغم تبدل قسماتها كثيراً، بفعل أصابع الزمن الذي مر عليها منذ أيام المظاهرات ضد الحرب في فيتنام.

لا بدّ أن بعضهم من "رفاقك" القدامى.

لعلك تذكر تلك المنصة المنصوبة أمام مرج مغطى بالحشيش، وتلك اليافطات المرفوعة إلى أعلى بالأيدي، بشعاراتها ورسومها المعادية للحرب، وحينما بدأ الخطباء بإلقاء كلماتهم أمام عدة مئات من الحاضرين، انتشرت سريعاً بيننا كالنار في حقل شعير جاف تماماً، شائعة تلقفتها الآذان دون روية: بغداد ضُربت بقنبلة نووية، وهناك أكثر من مليون قتيل فيها.

أتلفَّتُ حولي. أراك محاطاً بعدد من معارفك، على بعد أمتار مني.

لا أستبعد الآن أن أعراض الصدمة التي ظهرت عليّ انتقلت إليك وإلى أبناء الوطن الآخرين: جفاف في الفم، تسارع في نبضات القلب، خوار الركبتين، عجز في التنفس...

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

جلست أمامي امرأة على العشب المبلل، وراحت تنتحب بصوت هستيري، ظل يتقاطع مع ما كانت مكبرات الصوت تجلبه من كلمات منددة بالحرب.

غير أن رأسي ظل يبحث، دون إرادتي، وسط فوضى الحواس، عن أسباب الفاجعة: هل لأن ''سَدَم'' لم يلتزم بتحذير ''بوش'' له: "لا تستعمل السلاح الكيمياوي"، أو أنه استخدم عدداً من الطيارين في عمليات انتحارية ضد حاملات الطائرات الرابضة وسط الخليج؟

هل بقي أحد من عائلتي أو عائلتك حياً؟ أيّ أثر من تلك المدرسة التي جمعتنا سنوات أو من تلك الأزقة الضيقة التي كنا نذرعها في طفولتنا؟ من تلك الوجوه التي ظلت تطاردنا حتى في الأحلام، لتؤكد لنا بأننا ولدنا وانغرزنا سنوات في أعماق تلك التربة المشؤومة؟

* * *

عُدتُ وحيداً إلى سكني: بعد مغادرتنا المقهى الشرقي القريب من متنزه "هايد بارك"، غَيَّرَ ''أَسعَد'' دون سابق إنذار وجهته: بدلاً من مرافقتي والمبيت عندي، قرَّرَ الذهاب معك. ولعلنا كلينا لم نعط انطباعاً لـ''ماهر'' بأنه سيكون مرحَّباً به في شقتينا.

حين أدرتُ المفتاح بقفل الباب ملأني شعور غريب غير قابل للاستبطان: ربما هو شعور شخص عاد للتو من المقبرة بعد دفن أبيه فيها: شعور معذِّب بنكران الجميل له، ورغبة عارمة بالتعرف أكثر عليه: كم فاتته فرص للتعبير عن حبه له، فرص أخرى لمعرفة طفولته، وصباه، وشبابه؛ أيّ مصادفات

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

جمعته بالمرأة التي غدت زوجته وأم أولاده.

طمأنتني تقارير المراسلين المقيمين في "فندق الرشيد" من أن "بغداد" لم تلق مصير ‘‘سدوم‘‘ و‘‘عمّورة‘‘ حين ضربهما الإله ‘‘يهوه‘‘ بالكبريت فقط، مع ذلك فأن الإشعاعات المنبعثة منهما كانت كافية لتحويل امرأة النبي ‘‘لوط‘‘ (التي كانت على مشارف الخروج من المدينة المغضوب عليها)، إلى حجر، لحظةَ التفاتها خطأً صوبهما.

غير أن أحدهم لم يُخفِ انفعاله وهو يصف لحظة مماثلة، حين شاهد سماء بغداد تنبجس فجأة بضوء طبشوري غامر، بفضل اشتعال ملايين المصابيح النيونية الملونة التي راحت شراراتها تقدح في الفضاء وسط ظلام الليل الدامس وسكينته.

أتذكر كيف قارن ذلك الصحفي الجالس في طابق الفندق التاسع، ما رآه قبل ساعات قليلة، بمشهد الاحتفال بعيد الاستقلال في واشنطن: كيف أن السماء تشتعل عادةً بنفس الطريقة هناك، كل سنة، في ليلة الرابع من تموز، على الرغم من امتداد المسافة الفاصلة بين المدينتين لعشرة آلاف كيلومتر.

في المقابل، وصف طيار ساهم في الهجوم الليلي، عند انتقال الكاميرا إليه في لحظة، جانباً آخر من المشهد: كيف تحولت أرض بغداد إلى شجرة "كريسماس" عملاقة متقدة بآلاف النيران التي بدت له كأنها شرائط مصابيح زاهية تزين تلك الشجرة المباركة.

في الفيلم القصير، الذي عُرض خلال "أخبار الساعة السادسة"، شاهدتُ، (ولأقل من دقيقة)، فيلماً وثائقياً صامتاً يجسد هاتين الصورتين المجازيتين على أرض الواقع: ها أنذا أرى نهر دجلة مضاءً بفضل سلسلة متواصلة من النيازك

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الهابطة على ضفته الأخرى التي نقلتها الكاميرا، تاركة وراءها حرائق ناعمة كالومضات، بينما ظلت خلفية اللوحة المعتمة تمتص الدخان والركام المتطاير بجزع من أحجار وإسمنت وحديد وزجاج، لتقدم لعينَي المشاهد متعة بصرية خالصة.

قدم لنا قارئ الأخبار الشهير ''بيتر سيسونز''، بوجهه الخالي من الانفعالات، ونبرة صوته المحايدة، تفاصيل ما حدث خلال أول اثنتي عشرة ساعة من بدء الحرب: أكثر من ألف طلعة جوية ظلت تتناوب دون توقف منذ الساعة الثانية والنصف ليلاً، شاركت فيها مئات الطائرات الحربية، كاسرةً بذلك رقماً قياسياً في تاريخ عدد الهجمات الجوية خلال الحروب السابقة.

وكسراً للرتابة، اشتركت بضع سفن حربية في الخليج، بإطلاق مائة صاروخ كروز فقط على مواقع بغداد، وشاركتها بالعزف سفن أخرى تعوم في البحر الأحمر، على نفس النقطة.

كانت الحصيلة على لسان المذيع ''سيسونز'' مُرضية للقادة العسكريين الأمريكيين في أول يوم من "عاصفة الصحراء": تدمير برج الاتصالات الدولي ومصافي النفط ومحطات الكهرباء والقصر الرئاسي والقواعد الجوية بما فيها من طائرات ومدارج إقلاعها ومخازن أسلحة.

في المقابل، لم تلق مئات القاذفات المُغيرة، التي ظلت تقلد أسراب الجراد في هجومها على حقول القمح، سوى مقاومة ضئيلة من "العدو" تسببت في سقوط طائرتين، إحداهما بريطانية والأخرى أمريكية.

ولمنح المتابعين بالملايين احساساً سمعياً ملموساً سجل أحد الصحفيين المقيمين آنذاك في فندق الرشيد، ما كان يحدث وراء شرفة غرفته لأقل من دقيقة: دويّ متواصل بطبقات صوتية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

مختلفة، خففت من نأمته سماكة الحواجز الفاصلة ما بين الداخل والخارج.

قد تضحك إذا قلتُ لك إن تلك الأصوات الملحاحة أثارت في رأسي طرطقة ماكنة الخياطة التي ظلت قدما أمي تطبطبان بتعاقب على دواستها حتى مغادرتي بغداد.

ظهر المتحدث باسم البيت الأبيض أخيراً، ليبشرنا بأن آلاف القنابل والصواريخ الثقيلة التي أُطلِقت على ''صدّام'' كانت دقيقة في إصابة أهدافها وأن الضحايا بين المدنيين ضئيلة جداً، وحين سأله أحد الصحفيين عما إذا كان القصف الجوي سيستمر أجاب: "نعم، حتى يستسلم ''صدّام''..."

* * *

لا أظن أن سكان ''سدوم'' و''عمّورة'' انشغلوا بأي شيء، خلال ضرب مدينتيهما بالكبريت، عدا الالتزام الدؤوب بدفن موتاهم، فلم يكن القصف الإلهي، حسب التوراة، متقطعاً لمنح الأحياء فرصة عدّ قتلاهم، الحزن عليهم، أو تشييعهم بطريقة لائقة، بل متواصلاً كزخات مطر استوائي. مع ذلك فإن الخشية من تفشي رائحة جثامينهم العطنة في الهواء، ظلت هاجس الأحياء، الأول والأخير، ودفعتهم لطمرها داخل بيوتهم.

غير أن الأمور لم تصل إلى هذه الدرجة من السوء في العراق. ولعلك تذكر ذلك التقرير القصير الذي نشرته صحيفة "محايدة تجاه الحرب" من عمّان.

تحدثت امرأة فلسطينية غامرت بالهروب مع أفراد أسرتها عن ثلاث شاحنات شاهدتها قادمة من الجنوب محملة بتوابيت كبيرة وصغيرة، وامرأة أخرى أشارت إلى أن منطقة سَكَنِها في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

بغداد ظلت تُقصَف بمعدل ثلاث مرات في اليوم، وتردد بين سكانها أن حافلة مملوءة بالراكبين ضُربت خطأً (أو كما يسميها الإعلام الحربي الأمريكي، للتخفيف من وقع حوادث كهذه على المشاهدين، بـ "الأضرار الجانبية").

وعدا عن تلك التقارير الاستثنائية التي لم تكن تُنشَر إلّا لماماً، ظلت شاشات التلفزيون حريصة على إمتاع جمهورها المتزايد يوماً بعد يوم، ما دفع فضائيات أمريكية، كانت تغطي مسار الحرب، إلى وضع فترات استراحة قصيرة بين العرض المتواصل ليلاً ونهاراً، لتقدم فيها إعلانات تجارية مربحة.

* * *

لم تحضر إلى المسيرة المعادية للحرب صباحَ أول سبت بعد اندلاعها.

أتذكر صفوف المشاركين فيها براياتهم الحمراء ولافتاتهم المتنوعة الألوان والأحجام. كان الشارع الجانبي المخصص لحركتهم ضيقاً وقصيراً، ما يمنح البصر انطباعاً كاذباً بضخامة عددهم.

لعلك تستغرب إذا قلت لك إن إحدى لوحاتك التي رسمتَها مؤخراً ظلت حاضرة في خاطري خلال وقت المسيرة الذي لم يزد عن ساعتين: تلك الشجرة الجافة الموشكة على السقوط، وفاكهتها الملقاة على الأرض، في هيئة كرات بدت لي كأنها رؤوس بشرية. سؤال راودني مرفقاً بصورة المقصلة التي ابتكرتها الثورة الفرنسية: أي شعور يطغى على الرأس بعد انتزاع الجسد عنه فوراً: فرح عاصف بالتحرر منه، أم ألم شديد بخذله؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كأن محطات التلفزيون ظلت، حتى هذا الصباح، حريصة على نقل عملية اغتصاب متواصلة: عملاق شبق لا يكف عن اقتحام امرأة مغمى عليها، وهذا الرجل الشديد العزم والقوة يتخذ وجوهاً عديدة: مَدافع عملاقة على متن سفن حربية تقذف بصواريخها، واحدةً بعد الأخرى، فترتفع الصرخات الفرحة من جمهور مخفي عن الأنظار؛ مؤتمرات صحفية لقادة عسكريين منتفخي الأوداج، يقدمون أفلام فيديو حية عن دقة إصابة أهداف "العدو" فيهتاج الحاضرون طرباً؛ تصريحات طيارين ساهموا في غارات جوية متلاحقة وعادوا سالمين إلى قواعدهم دون أن يكون هناك أي رد فعل من "العدو".

حال بلوغ المسيرة نهاية الشارع، أشار رجال الشرطة المرافقون لها بالعودة إلى نقطة انطلاقها.

كانت مشاهدة الدكتورة ''عالية''، في تلك المسيرة، مفاجأة لنا نحن الثلاثة.

اقترح ''ماهر'' حال انفضاضها الذهاب إلى مقهى "رويال هول" على ضفة نهر ''التيمس'' الأخرى.

* * *

تحلقنا حول الطاولة نفسها.

شعرتُ كأن لقاءنا الأخير مضى عليه سنوات لا ثلاثة أيام، وأحاديثنا المضطربة، لا تعكس إلا ما كان يدور في رؤوسنا، بلا هدف للتواصل.

قال ''ماهر'': "الحرب انتهت بعد أول 24 ساعة منها."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘: "لا أحد يتكلم عن أحوال الناس في بغداد.. كأنهم أشباح لا بشر..."

قال ’’أَسعَد‘‘: "الأسلحة المستخدمة ذكية...لا تصيب إلا الأهداف العسكرية بدقة شديدة..."

وأتذكر أني تمتمتُ دون أن يصغي أحد إليّ: "كثير من الأهداف المدنية اعتبروها جزءاً من قدرة البلد الحربية..."

أضاف ’’ماهر‘‘: "هذه الحرب مجرد مناورة عسكرية كبيرة..."العدو" المزعوم فقد بصره من أول ضربة، فراح يتخبط..."

وكأن ’’أَسعَد‘‘ ما زال مقتنعاً بأن ’’بوش‘‘ لن يخذله: "بالتأكيد هم لن يستهدفوا الجنود المكلفين... كلهم سيستسلمون في أول مواجهة..."

أظن أن صديقك الحميم تذكر في تلك اللحظه أخاه الأصغر، ’’زياد‘‘ الذي تركه وراءه حين كان في سن الحادية عشرة فقط، والآن هو يؤدي الخدمة الإلزامية، بعد تخرجه من الجامعة قبل أقل من سنة، محشوراً في أحد خنادق الجبهة الأمامية.

لعلك لن تستغرب إذا قلتُ لك إن شخصاً واحداً ظل حاضراً بقوة في جلستنا حتى دون أن يتجرأ أي منا على نطق اسمه أو الإشارة إليه :’’هاجَر‘‘!

لا أستبعد أن الدكتورة ’’عالية‘‘ شعرت بارتباك وهي تنقّل بصرها بين أعيننا المحملة بنفس السؤال: كيف تخليتِ عن ابنتك البكر؟

وكأنها أرادت أن تحرف تيار أفكارنا، بعد حلول صمت طويل بيننا، حين رددت بصوت مختنق، متذبذب: "قرأتُ عن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وكالة أنباء تركية: عدد القتلى والجرحى بلغ 150 ألف..."

"هذا فقط في الكويت،" قال ''ماهر'' مؤيداً، "تصوري كم سيكون العدد الإجمالي إذا أضفتِ كل العراق..."

بدا ''أَسعَد'' وكأنه يقاوم ارتعاشاً انتقل إلى أصابع يده لحظة رشف قهوته. جاءني صوته شاحباً متقطعاً كملامح وجهه: "إعلام بغداد يؤكد مقتل 23 فقط..."

* * *

قبل انفراط لمَّتنا، دعتنا الدكتورة ''عالية'' لبيتها، "سيارتي رصفتُها في زاوية قريبة من هنا،" قالت مشجعة إيانا على مرافقتها.

هز ''ماهر'' رأسه موافقاً، وبالطبع كان قبول صديقك الأقرب بالدعوة أمراً مسلَّماً به.

اعتذرتُ عن الذهاب معهم، متحججاً بالعمل.

ها أنذا أراهم يختفون تدريجياً عن ناظري، فينتابني شعور بالندم على عدم الانضمام إليهم، أو بصيغة أدق: نفور عميق من العودة إلى شقتي؛ بالبقاء كالأبله وحدي مسمراً أمام شاشة تلفازي؛ عاجزاً عن إطفائه أو رميه من الشرفة: كأني أمام كابوس ملحاح تدور أحداثه على امتداد هذا الكوكب: مسؤولون كبار بملابس مدنية أنيقة يظهرون في "البيت الأبيض" وأمام "داوننغ ستريت" لأقل من دقيقة فيُعلموننا بنبرة ناعمة عن آخر مواقفهم من الحرب الجارية، وفي أقل من طرفة عين، ينقلني الكابوس آلاف الأميال ليريني قادة عسكريين يغلون غضباً، وفي أيديهم عصياً يلوّحون بها على خريطة البلد المعنيّ، وهم يشرحون لجمهور صغير من المراسلين ما تحقق حتى الآن من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

تدمير لـه، ولكسر الملل الذي قد تتسبب بـه تصريحات هؤلاء الكهول البدينين في نفس الحـالم، يمتلـئ الفراغ أمامـه بطـائرات حربية من شتى الأنواع، كل منها متخصص في نوع محدد من المهارات الضرورية لتقطيع جسد هذا الكائن الخرافي.

بين المقهى ومسكني، فاصلة زمنية تزيد قليلاً عن ساعة من المشي السريع.

يعج النهر تحتـي بيخـوت وزوارق بخاريـة، وأمـامي، علـى خط الأفق، تنتصب أبراج مختلفة الألـوان والارتفاعات، بدت لي كأنها ديكور مسرح عملاق سقفه السماء المعتمة وأرضيته سطح التيمز المتدفق.

ها أنذا مرة أخرى أجدني في ساحة "الطرف الأغر": تمثـال الأميـرال ’’نيلسـون‘‘ الغـارق بضـوء سـاطع، يتطلـع مـن أعلـى مسلته الشاهقة بالعابرين الفانين، ليذكّرهم بامبراطوريـة لم تكن الشمس تغيب عنها، وبدوره في توسيعها عبر خوضـه معارك بحريـة كبـرى آخرهـا تلـك التي انتصـر فيهـا علـى ’’بونـابرت‘‘ رغم إصابته وموته خلالها.

حضر ’’تشارلي‘‘ في خاطري: لـو كـان ’’أَسعَد‘‘ معي لذهبنا إلى مطعمه.

وأنا أغذ السير صوب شقتي، ظلت عيناي ترصدان المطـاعم والحانات التي بدت عبر زجـاج واجهاتهـا عـامرة بروادهـا مثل كل سبت، على الرغم من هبوط درجـات الحـرارة خارجهـا إلـى الصـفر. مـع ذلـك كـان هنـاك كثيـر مـن العشـاق يتهـادون علـى الأرصفة، وكأن البرد القارس منحهم مبرراً إضـافياً للالتصـاق ببعضهم البعض تخفيفاً لضراوته.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

كم بدا مدخل العمارة دافئاً حال إغلاقي بوابتها ورائي، وبدلاً من دفع قدميّ على السلالم الموصلة إلى شقتي، رأيتني أمضي إلى المصعد الكهربائي.

في ذلك القفص الشاحب الضوء، المتأرجح قليلاً وهو يقاوم الجاذبية الأرضية خلال ارتفاعه البطيء، انبثق شيء غامض من مكان ما جعل أنفاسي تتسارع، وقلبي يضاعف خفقانه: هل هو عطر ما سبق أن ملأ أنفاسي ذات يوم ثم غفا في خلايا ذاكرتي؟

وحال توقف المصعد، رأيت عبر زجاج بابه المغبَّش شبحاً واقفاً، أمام شقتي، بينما استقرت بجانبه على الأرضية المغطاة بالموزائيك، ما يشبه بحقيبة سفر لم تسمح الإضاءة الباهتة من تحديد لونها الحقيقي.

هل تصدق إذا قلتُ لك إنها ''هاجَر''؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المظروف الخامس والعشرون

قيامة مصغَّرة

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(1)

في كتابه "مسخ الكائنات" يفسر لنا الشاعر ’’أوفيد‘‘، لِمَ عاقبت ’’أثينا‘‘، أبرع نساجة عرفتها الجزر الإغريقية في العصر القديم.

بعد الشهرة الواسعة التي كسبتها، ’’أراخني‘‘ في نسجيّاتها حتى خارج محيط قريتها، أصبحت تردد علناً أمام المعجبين الكثار بأعمالها الخلابة، عن استعدادها لمواجهة ربة المهارات اليدوية في مسابقة علنية معها. فهي بدلاً من شكر ابنة ’’زيوس‘‘ على تعليمها حرفتي الغزل والنسج، وتقديم الأضاحي لها عرفانا بالجميل، راحت تتباهى بأنها أفضل منها، ما أجبر الأخيرة على الهبوط من علياء الأوليمبس، متنكرة في صورة عجوز، وَخَطَ الشيب خصلاتها المستعارة المدلاة على صدغها، لردع هذه النسّاجة الخرقاء عن غيها: "احذري أن تتعدَّي حدودك فتقارني نفسك بإحدى الآلهات، بل عليك أن تتوسلي إليها لتغفر لك تطاولك عليها..."

غير أنها لم تلقَ من ’’أراخني‘‘ إلا صدّاً وإهانة: "لمَ لا تقدمي نصائحك هذه إلى بناتك وزوجات أبنائك، أيتها العجوز الخرفة... إذا كانت ’’أثينا‘‘ لا تخاف من الهزيمة فلتنزل وتتبارَ معي..."

كم يبدو تصرف ’’سَدَم‘‘ في احتلاله الكويت تقليداً لما فعله كبير الآلهة الأرضي ’’بوش‘‘، حين غزت جيوشه بَنَما، قبل أكثر من عام قليلاً، وتسببت (حسب بعض التقديرات) في مقتل ثلاثة آلاف مدنيّ.

وفي هذه المباراة، كان ’’سَدَم‘‘ أبرع من ’’بوش‘‘: ففي زمن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قياسي تمكنت وحدات من قواته الخاصة من احتلال البلد الجار الصغير بأكمله، بخسائر أقل نسبياً من تلك التي وقعت في بَنَما.

بعد تطاول ''أراخني'' على ولية نعمتها، ظهرت الربة ''أثينا'' أمامها بصورتها الحقيقية، لخوض المباراة. وكما يصف الشاعر الروماني ''أوفيد'': "أخذت كل منهما مكانها في أحد أركان الغرفة، وبسطت كل منهما السدى في النول بعد إسناد إطاره إلى عوارض السقف، وأخذتا تقذفان المكوك المدبب بأنامل سريعة سرعة الطير المحلق في الهواء وتنسجان به خيوط اللحمة عبر خيوط السدى."

في نسجيّتها، صوَّرت الإلهة ''أثينا'' نماذج قليلة من أولئك الفانين الذين عاقبتهم آلهة الأوليمبس بعد أن جرؤوا على منافستهم، فتحول أحدهم إلى جبل وثانٍ إلى كُركيّ وثالث إلى لقلق.

أما ''أراخني'' فقد صوَّرت أبرز موبقات كبير الآلهة ''زيوس'' مثل خداعه للأميرة الفينيقية، ''أوروبا''، حين ظهر لها متخفياً في هيئة ثور، وخداعه للفاتنة ''ليديا'' (أم ''هيلين'')، بتنكره في شكل بجعة ذكر، وقع بين ذراعيها حماية لنفسه من نسر محلق.

لم تستطع ''أثينا'' اكتشاف أي عيب في نسجيّة ''أراخني''، فتملكها غضب عارم، دفعها إلى تمزيقها، ثم أمسكت بالمكوك الخشبي الثقيل وهوت به ثلاث مرات على جبهة غريمتها.

تحت شعور عميق بالضيق من الإهانة التي لحقت بها، شدت ''أراخني'' حبلاً حول رقبتها وشنقت نفسها به، وقبل أن تلفظ آخِر نَفَس فيها، أشفقت الإلهة ''أثينا'' عليها: "لتدومي حية، ولكن معلقة دائماً في الهواء إلى الأبد..." ثم نثرت عليها

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عصـــارة عشـــب مقـــدس، فتســـاقط فـــوراً شـــعرها وضـــمر أنفهـــا وأذناهــا ورأســها وبقيــة أطرافهــا، وبــرزت أصـــابع دقيقــة علــى جانبيها بدلاً من سيقانها، ولـم يبـق منهـا إلا بطنهـا الـذي ينسـاب الخيط منها... ها هـي ‘‘أراخنـي‘‘ تعـود إلـى نسـج خيوطهـا مثلمـا كانت تفعل دائماً من قبل... وها هي أخيراً تُمسَخ عنكبوتاً كاملاً.

(2)

لـم يفعـل ‘‘بـوش‘‘ إلا مـا فعلتـه الربـة ‘‘أثينـا‘‘ بـأبرع نسـاجات العصر القديم، بعد ارتكابها إثماً لا تغفره آلهة الأوليمبس أبداً: مساعي البشر الفانين تقليد الآلهة في أفعالهم والتفوق عليهم.

وإذا كانـت راعيـة الفنـون والحِـرَف حولـت ‘‘أراخنـي‘‘ إلـى عنكبـوت بثـوانٍ، فـإن ‘‘بـوش‘‘ فضَّـل اتبـاع طريـق آخـر: إطالـة عملية تقطيع ذراعي ‘‘سَدَم‘‘ ورجليه، أي قضـم جيشـه العرمـرم المكشـوف فـي الصـحارى لقمـةً لقمـةً، بعـد تـدمير نظـام دفاعـه الجوي تماماً، من رادارات ومراكز توجيه إلى مدارج ومخـابئ طائرات.

خـلال فتـرة مكـوث ‘‘هــاجَر‘‘ القصـيرة فـي شـقتي ظلـت "الحـرب" ثالثتنـا، عبـر شاشـة التلفزيـون المفتـوح ليـل نهـار: طـائرات تقلـع، وأخـرى تهـبط، هـدف فـي هيئـة جسـيم صـغير بالأسود والأبـيض، يوضـع فـي مركـز إحـداثيَّي مـدفع محمـول جـواً، قبـل انطـلاق صـاروخ لا نـرى منـه شيئاً، إلا أثـره حـين ينبجس للحظـة بريق حـاد فـي موقعـه، حـاملات طـائرات تمخـر مياه الخليج والبحر الأحمر، وسفن مزودة بمدافع عملاقـة تُطلِـق من آن إلى آخر صـواريخ ذكيـة، فتجـنح قلـيلا فـي الجـو، قبـل أن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تتماسك وتنطلق عالياً، لتحط على بناية ما داخل مركز بغداد أو في ضواحيها، حيث تتعقب كاميرا أخرى ما تبقى منها من هشيم ونيران ودخان.

قد تستغرب إذا قلت لك، إننا مثل كل أولئك المحظوظين الذين يقيمون بعيداً عن ''سدوم'' و''عمّورة''، بقينا، نأكل ونشرب ونتحادث ونغضب ونضحك، ونتابع من وقت إلى آخر برامج ترفيهية أخرى: تمثيليات هزلية وحفلات جاز وأفلام ويسترن... مع ذلك، كنا ندور في حلقة مفرغة تبدأ بشاشة التلفزيون وتنتهي به.

شيء واحد لم أشارك ''هاجَر'' به: نوبات البكاء الحادة التي تعقبها نوبات ضحك هستيري، أو عزل نفسها في الحجرة الصغيرة ساعات أظل خلالها مسكوناً بهواجس مجنونة: ماذا تفعل وراء ذلك الباب المغلق؟

ظلت تراودني من وقت إلى آخر شكوك بسلامة قواها العقلية، وأنا أتابع تقلبات مزاجها الرهيبة، لكنها فجأة تتحول إلى امرأة أخرى: هادئة، ورقيقة، وهشة. تختفي في المطبخ ساعتين، ثم تدعوني إلى مأدبة أنيقة صغيرة رُتِّبت فيها صحون أكلات ساخنة متعددة الألوان والنكهات.

(3)

أمام الشاشة نتسمر أحيانا صامتَين، نراقب جسوراً ثابتة للحظة، ثم في لحظة أخرى ينفلق ضوء حاد فوقها، فتختفي إلى الأبد عن أبصارنا.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لم أسأل ’’هاجَر‘‘ ما إذا كانت عبرت على أي منها قبل سفرها إلى لندن.

في المقابل، أيقظ تدمير تلك الجسور ومصفاة النفط وأبراج المواصلات ببغداد عالماً ظننتُ أنه تلاشى من ذاكرتي إلى الأبد.

صوت غاضب يطنّ في رأسي فجأة: "أُنظرْ إلى ذلك الجسر قبل اختفائه إلى الأبد: كم مرة داست قدماك أحجار رصيفيه ذهاباً وإياباً، وكم مرة جذبك غروب الشمس لحظة غرقها في النهر المتهادي الواسع، فوقفتَ عند أعلى قوسه متكئاً على حاجزه الحديدي المطلي باللون الأخضر، تراقب ذلك المشهد الآسر الذي تتخلله نيران المصفاة المتصاعدة دائماً من مدخنتها، بلونها القرمزي الساطع..."

كأن المدينة تنكرت بثياب عشيقة مهجورة فقررت الانتقام مني بطريقتها الخاصة: "أُنظرْ إليّ وأنا أتقطع أمام عينيك إرباً إرباً..."

يحضرني هذيان ’’عمّو‘‘ بنسخة معدَّلة قليلاً: ما نشهده على هذا الكوكب ليس سوى صورة لحياة جرت في كون موازٍ لكوننا، وما نراه على شاشة التلفزيون الآن ليس سوى صورة لصورة حرب تدور على امتداد آلاف الأميال، يستمتع طرف بمشاهدتها كأنها لعبة فيديو، ويعيش طرف آخر عذاباتها.

بين المفترس والفريسة خيط فاصل يحدده تعبيران: متعة القضم وألم الأنياب الناشبة في اللحم الطري.

سؤال ينغرس في رأسي فجأة: هل يتساوى الألم والمتعة في درجتهما؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

(4)

انقضت ساعات ونحن جالسان، جنباً إلى جنب، أمام شاشة التلفزيون. كأننا موجودان هكذا معاً منذ الازل، على الكنبة نفسها، برفقة هذه الحرب التي مُنحت اسماً يصلح عنوانا لقصيدة حب: "عاصفة الصحراء".

كان ذلك قبل قدومك بيوم أو يومين.

لا بد أن ’’هاجَر‘‘ شعرت بما كان يدور في خلدي فسعت إلى قطع الطريق على أحلام يقظتي: "لا تنسَ أني على وشك السفر إلى بغداد،" ثم غرزت ظفر سبابتها في لحم كتفي بعد عبوره أعلى رُدْنِ القميص الذي كنت أرتديه، "بقائي معك لا يعني أني متعلقة بك..." أضافت وهي تنهض من مكانها لتجلس على كرسيّ جانبيّ.

حتى مع كلماتها الزاجرة، ترك وشمها اللاذع على ذراعي رغبة عارمة بضمها إلى صدري، ولا بد أنها من موقعها استشعرت ما كان يدور في رأسي فاتّبعت طريقة أخرى لصدّي: "أيّ شيء تقوله لزوجتك إذا حضرت الآن ورأتني في شقتك؟"

"سأعترف لها بأني متعلق بكِ..."

وكأن إجابتي الصريحة فاجأت ’’هاجَر‘‘، فانعكست بتضرج وجنتيها: "إلى هذه الدرجة؟" تمتمت بصوت خافت لم يكن كافياً لإخفاء سخريته المبطنة.

حل الصمت بيننا مصحوباً بنقر حبات المطر الدؤوب على زجاج النافذة، مختلطاً بأزيز طائرات وزعيق صافرات إنذار ظل جهاز التلفزيون الصغير يوشوش بهما.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

قد لا تصدق إذا قلت لك إن "جرأتي" التي لم تتوقعها ضيفتي دفعتني خطوة أبعد حين سمعتُ صوتي يردد دون تلكؤ: "تنزعجين إذا سألتكِ عن طبيعة علاقتك بـ''ماهر''؟"

(5)

ظلت تلك اللحظة التي جمعتنا مسمرة في ذاكرتي كأنها حدثت للتو.

أصارحك القول إن خجلاً ساورني خلالها وأنا أسترجع السببين اللذين أجبرا ''هاجَر'' على البقاء في شقتي: شعورها ببرود مفاجئ في تعامل ''مريم'' معها، وانقطاع النقل الجوي المؤقت بين لندن وعمّان بسبب الحرب.

جاء صوتها متخلخلاً، متقطعاً كأنه قادم من وراء الجدران على الرغم من قصر المسافة التي تفصل بيننا: "حتى لو كانت هناك علاقة... فهي عابرة..."

تمتمتُ بصوت خافت: "وماذا عن..."

وقبل أن أذكر اسمكَ قاطعتني بنبرة أرقّ: "أعرف أنه... وأنا أكثر..."

لعلها قرأت على عينيّ آنذاك إحباطاً ما وأنا أسترجع، في ثوانٍ، شريط المسرات التي جمعتنا خلال إقامتها القصيرة معي: كم كنا متشابكَين في توارد أفكارنا، صريحَين تماماً في التعبير عن خواطرنا، نتبادل النوادر، نتراشق المناكدات، نتخاصم، نتشارك في الطبخ وجلي الصحون والتسوق وترتيب

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الشَقّة؛ كل ذلك على خلفية إعصار ماحق ظلت أحداقنا مشدودة إليه عبر شاشة التلفزيون الصغيرة ليل نهار.

كأني بها تسمع ذلك السؤال المعلق على طرف لساني: "وأنا...؟"

"لو خُيِّرتُ بينكم لاختارك عقلي... معك ستكون الحياة أضمن وأهدأ..."

قالت جملتها الأخيرة بينما انفرجت غمازتيها عن ابتسامة دافئة: "لكني لا أتبع عقلي دائماً..."

وحين قرأت انكساراً ما في عينيَّ نهضت من كرسيها، واندفعت نحوي بخطاً أنيقة وخفيفة.

لفّت ذراعيها حول رقبتي، ثم طبعت قبلة على جبهتي: "أنت عشتَ حياة سعيدة ومرتبة مع أسرتك الجميلة... ما الذي يدفعك لتخريبها من أجل... امرأة مجنونة مثلي؟"

رددت جملتها الأخيرة وهي تسحب ذراعيها مني، وتشدهما على صدرها.

كم بدت ''هاجَر'' بعيدة عني رغم قصر المسافة الفاصلة بيننا.

جاء سؤالي نوعاً من التشبث بسارية زورق موشك على الغرق: "مَن تفضّلين مِنهما؟"

"عقلي يقودني إليك،" قالت هاجَر. وحينما بقيتُ معتصماً بالصمت عاد صوتها بنأمة متحشرجة كأنها تهمس في أذني بسر خطير: "جسدي يقودني إلى ماهر.. وقلبي إلى جليل..."

وحين لمحت شرراً يتطاير من عينيّ، ارتفع صوتها مؤنباً،

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

مستفزاً: "ثم ماذا؟ نحن لا نصبح جاريات لكم إذا تجاوزنا الحدود معكم مرة أو مرتين!"

(6)

أفقتُ على وشوشة غريبة، فظننتُ أنها قادمة من صنبور مفتوح في الحمّام أو المطبخ. كان نثار الضوء المنبعث من غرفة الجلوس كافياً لسلك الطريق نحوهما دون الحاجة إلى إشعال مصباح السقف في حجرة نومي.

كم بدا الوقت بطيئاً منذ انفضاض كل منا إلى حجرته.

لعلك تستطيع تخيل حالي، وأنا أتقلب في الفراش. لكأن كل سنوات حياتي تناثرت شظايا وقطعاً صغيرة في كل الاتجاهات، بنفس الطريقة التي ظلت الجسور والمباني والأقبية تتناثر فيها عبر الشاشات الصغيرة.

قد تجدني مغالياً إذا قلت لك إن شكّاً انتابني، للحظة واحدة، بحقيقة وجود ابنتين وزوجة في حياتي. كأني خلال الأشهر الخمسة السابقة هدّمتُ، دون قصد، حياة مرسوماً خطها البياني بعناية فائقة لأجدني بعيداً عن ضفتَي نهر جارف.

مع ذلك، كانت هناك، في نقطة ما داخل رأسي، دمدمة خفيفة، تردد بإصرار غريب: "أنت تعيش قيامتك الخاصة. أُشكُرْ ''بوش'' و''سَدَم'' على دورهما في إيقاظك، واشكُرْ ''جليل'' على اصطحابك إلى بيت الدكتورة ''عالية'' أول مرة: كم تشبه حالك حال ذلك الجِنّي لحظة خروجه من القمقم الذي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حبسه النبي سليمان فيه منذ آلاف السنوات: وسط الخراب تكمن بذرة شجرة الحياة..."

وأنا أمشي صوب المطبخ، اتضح لأذنيّ أن الوشوشة لم تكن سوى نشيج خافت يأتي من غرفة الجلوس.. وهناك وجدتها متربعة فوق الكنبة.

تقدمتُ خطوات متباطئة صوبها. ولا أستبعد أن شكاً ساورني بحقيقة ما كنت أراه: عينين محمرتين تماماً، بوجه شاحب وشفتين مرتعشتين، بينما تشبثت أصابع يديها بطرفي دثار صوفي لفَّعت جسدها به.

(7)

حتى مع اكتسابها اللون الأصفر الكالح، بقيتُ حتى اليوم محتفظاً بقصاصات الصحف المعنية بأخبار الحرب. من بين الركام المبعثر دون انتظام في جرّار كومودينو مهمل أسحب عفو الخاطر إحداها لأنقل لك خلاصة ما تحتويه: " قال الصحفيّون الذين طُردوا من العراق إن المدنيين، الذين بقوا في بغداد، مختبئون أغلب الوقت وحسب قدرتهم في ملاجئ تحت الأرض. الطعام أصبح نادراً، والماء انقطع مع الكهرباء ونظام الهواتف..." ومن محطة "آي تي أن" أضاف ''برنت سادلر'' أنّ شروط الحياة ستصبح بدائية لسكان المدن قريباً على هذا المعدل..."

أتذكر أني قرأتُ هذه السطور على ''هاجَر'' أكثر من مرة، لردعها، دون جدوى، عن العودة إلى بغداد.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

في جلستنا الأخيرة على الكنبة، بقينا صامتَين يحدق أحدنا بالآخر، بينما فرشت الإضاءة شديدة الخفوت، القادمة من مدخل الشَقّة، ظلينا على أسفل الستارة وأعلى الكنبة.

مع ذلك بدت عينا ''هاجَر'' لي قطعتي فوسفور تملآن الفسحة الفاصلة بيننا بشعاع لا أرضي غير قابل للتعريف.

كانت الثواني تتكّ بتثاقل، متنقلةً ما بين شعورين متصادمين تجاهها: مقتٍ عميق لها وهوسٍ جنونيّ بها.

حتى ذراعاي أصيبتا بشلل منعهما من مد كفّي لها.

لا أتذكر كم مضى من الوقت قبل انفراج عقدة لسانها.

طوفان من الكلمات تقطعها نوبات من البكاء والمرح وزفرات مشبعة بدخان السجائر.

كأنها في لحظة ما قررت أن تفتح لي صندوق حياتها الأسود ببغداد.

خيوط تتداخل بأخرى: حالما تشرع في استحضار حادثة من طفولتها، تنتقل إلى أخرى وقعت قبل ثلاث أو أربع سنوات، ثم تقفز إلى حدث جلل قلب مسار حياتها رأساً على عقب.

الفجر يفاجئنا: ضوء خافت يتسرب عبر فتحات الستارة الضيقة: أسحب طرفاً منها فتفاجئني سماء يتدرج اللون القرمزي فوقها مختلطا بالبنفسجي الفاتح، حتى تلك الغيوم المبعثرة ساهمت في صناعة مدينة مبهرة للبصر لكنها ما لبثت أن تفككت بفعل غزو غيوم رمادية كثيفة من الغرب عليها.

لم تجد ''هاجَر'' حرجاً في كشف عمرها: إحدى وثلاثين سنة!

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ولم يكن ذلك الرقم مختلفاً عن تخميني: كانت سنة ميلادها هي ذات السنة التي أقصيْتَني فيها عنك وعن أسرتك، لتتركني أسيراً منذ ذلك الوقت لأحلام يقظتي.

انسحبت ''هاجَر'' دون أن تنبس بحرف، تاركة إياي وسط دوّامة لا قاع لها. ها أنذا أسمع صفْق باب حجرتها.

كأن النعاس تغلب أخيراً على حواسها المتوفزة المشتتة.

في تلك اللحظة فقط تشكلت في رأسي قناعة قاطعة بصواب قرارها في العودة السريعة إلى بغداد: مسرح حياتها الحقيقي هناك، أما هنا فهو ليس سوى مسرح عرائس وهمي.

أسحب قصاصة أخرى: "خلال الخمسة أيام الأولى من الحرب جرت سبعة آلاف غارة جوية ضد العراق، وكانت خسائر "الحلفاء" أربع طائرات "تورنيدو" بما فيها الرابعة التي تعطلت في الجو داخل السعودية، وتمكن أفراد طاقمها من قذف أنفسهم منها..."

(8)

كانت السماء عند وصولكما شاشة معتمة وصامتة على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز السادسة مساء بعد. أتذكر كيف ظلت عينايَ تتابعان تلك الطائرة وهي تقطع الفراغ الملاصق للنافذة المفتوحة الستائر: ذؤابة سيجارة تطوف تائهةً وسط ظلام دامس.

كان الضوء الخافت المتسرب من مدخل الشَقّة كافياً لتمييز الأشياء المتناثرة حولي.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ما زال التلفزيون مصراً على مواصلة نقل ما كان يجري هناك، بالرغم من إصرار ‘‘هاجَر’’ "أمس" على "تحييد" صوته.

أتذكر كم كان الجنرال ‘‘شوارزكوف’’، قائد القوات الأمريكية في الخليج، مولعاً بكلمات بديلة عن "الإبادة" التي ظلت تلحق بالحرس الجمهوري: "تحييده"؛ "تحجيمه"، "تجميده"، "تقليصه"... إنه هنا كائن خرافي واحد يشبه الهايدرا ذات الرؤوس السبعة التي تمكن البطل الأسطوري هرقل من قتلها، لا مجرد تشكيل عسكري يضم بشراً عاديين، ينزفون دماً أحمر إذا تشققت بشراتهم؛ يتألمون إذا تهشمت عظامهم، وتتنتن سريعا جثثهم إذا قتلوا.

يوقظني جرس الباب من متاهتي.

تدخل أنت أولاً، ثم يلحقك ‘‘أَسعَد’’، تاركاً مسافة فاصلة بينه وبينك. كان الشحوب بارزاً على وجهه، فبدا لي كأنه علامة على نذير ما، بينما عكس وجهك غضباً لم أشهد مثيلاً له من قبل.

يشدنا الصمت بعضاً ببعض دقائق بدت دهراً.

يأتيني صوتك، على غير عادته، مرتعشاً، متردداً وأنت تخاطب ‘‘هاجَر’’: "سمعتُ أنكِ تريدين العودة إلى بغداد..."

"نعم..."

"في هذه الظروف؟"

"الظروف صعبة دائما عندنا،"، أجابت ‘‘هاجَر’’ بنبرة برمة، "نحن تعودنا عليها..."

أتذكر نظراتك المصوَّبة عليها، كأنها تستحثها للإجابة عن سؤال واحد: "ما الذي يدفعكِ للمغادرة؟" فيما ظلت شفتاكَ على

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غير عهدهما ترتعشان قليلاً، وذراعاكَ تتنقلان ما بين الالتفاف أحدهما على الآخر فوق صدركَ إلى سقوطهما فوق فخذيك. هل تتفق معي إذا زعمتُ أنك كنت تقاوم رغبة جارفة في البكاء، حررك من سطوتها قرع لجوج متعاقب لجرس الباب؟

قال ''أَسعَد'' بصوت مختنق متقطع: "لا بد أنه ''ماهر''..."

(9)

حسب الأساطير القديمة، لم يأت تفوق ''زيوس'' على كل الآلهة المحليين والبشر الفانين إلا لسببين: الأول، لأنه يقيم في السماء ما يمنحه اليد الطولى على الآخرين، والثاني، سلاح "الصاعقة" الذي يجعلهم بفضله خاضعين لإرادته.

وكم يشبه ''بوش'' كبير الآلهة الإغريقية في جبروته: فأمريكا بثرائها وسعتها تعادل سماء ''زيوس'' والتحكم بالإلكترون مماثل لتحكم الأخير بالصاعقة.

السماء الفسيحة بطبقاتها ومداها تحت سطوة ''بوش'' المطلقة: طائراته الحربية ظلت ليل نهار تُسقط من الأعالي قنابل وصواريخ بنفس معدل سقوط الأمطار الناجمة عن إعصار أهوج يدور فوق ولاية فلوريدا.

أتذكر شكوى بعض الطيارين من أنهم لم يتركوا هدفاً من دون قصفه أكثر من مرة إلى الحد الذي لم يبق هناك ما يضربونه فراحوا يدمرون الطرق البرية أو السفن الحربية الخاوية من عناصرها تخلصاً مما في حوزتهم من ذخيرة فائضة عن الحاجة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لا بد أن قدوم ''ماهر'' إلى شقتي أثار منذ اللحظة الأولى توتراً خفياً فينا جميعاً، على الرغم من احتفاء ''أَسعَد'' الظاهري به. ولعل اندهاشاً ما تسرب إلى خاطري، وأنا أرى ''هاجَر'' متجاهلة إياه تقريباً، على الرغم من ذلك التوق الشديد الذي طفح على عينيه لها، لحظة دخوله غرفة الجلوس.

هل تذكر رائحة العطر الذي ضمَّخ وجهه به، كيف ملأ عبقه أنفاسنا؟

ها نحن نجلس أربعتنا صامتين حولها، بينما راحت أصابعها تسحق أعقاب السجائر بانفعال ظاهر في النفاضة الموضوعة على طبلة القهوة أمامها، حتى وهي لم تكمل تدخين نصف سيجارة منها، لتعاود ثانيةً إيلاع أخرى جديدة.

وأنا أتطلع في وجه ''أَسعَد'' الذي بدا على غير عادته كأنه يرتدي قناعاً من شمع خالص لا حياة فيه، حضرني سؤال غريب: أي جزء من ''هاجَر'' ستمنحه إياه، خصوصاً إذا أقصينا الجسد والقلب والعقل الذي توزع بيننا نحن الثلاثة الآخرين؟ لا بد أن حصته هي روحها.

على ضوء ما سمعته منها طوال آخر ساعات الليلة السابقة، اكتشفتُ في تلك اللحظة كم هما متشابهان بعطائهما ونزقهما وفوضاهما، وكم هما مختلفان أيضاً بخاصية جوهرية واحدة: انعدام النرجسية تقريباً لدى ''أَسعَد'' وتضخمها لدى ''هاجَر''. ولعل هذا ما يجعل تقاربهما خارج عالم الأرواح (إن كان حقا موجوداً) مستحيلاً.

ماذا كان يدور في رأس صديقكَ المفضل آنذاك؟

بقيت أعيننا تتلفت من وقت إلى آخر صوب شاشة التلفاز،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تتابع مشاهد عرض الأسرى الطيارين في بغداد. أتذكر: كانوا بريطانيَّين اثنين وخمسة أمريكيين. قال أحدهم دون أن ينظر إلى الكاميرا شيئاً كهذا: "أظن أن هذه الحرب يجب أن تتوقف لكي نعود إلى بلدنا... أنا لا أتفق مع هذه الحرب..."

فجأةً، جاء صوت ''ماهر''، مُرعِداً بينما هو يحدق في ''هاجَر'': "هل نسيتِ وعودكِ؟" وحين التزمت الصمت، متجنبة الالتفات إليه، عاد صوته بنبرة أعلى قليلاً، بينما راحت عيناه تتنقلان بيننا طالبةً دعمه: "هل أخبرَتْكُم بتفاصيل علاقتنا؟"

لا بد أن دقيقتي صمت أو ثلاثاً مضت ونحن مجمَّدون على مقاعدنا، ومن ورائنا ظل أزيز الطائرات يتسرب إلينا عبر الشاشة مختلطاً بأصوات بشرية.

لكأن ''ماهر'' قرر خلال ذلك الوقت القصير تغيير أسلوبه مع ''هاجَر''.

قال بنبرة رقيقة خافتة: "إذا كنتِ قلقة بسبب ''الفيزا'' يمكننا إجراء عقد الزواج غداً في البلدية، وتنتهي مشكلة إقامتك تماماً..."

لعلك تذكر كيف مضى غريمك في تقديم وعود عسلية لها: "سأشتري بيتاً كبيراً يكفي لإقامة ''أمك'' وأسرتها معنا... ستكون لأطفالنا حديقة واسعة..."

"ألم نتفق على أربعة؟" ردد جملته الأخيرة وهو يرسم على عينيه ابتسامة متضرعة.

هل تتذكر كيف كان رد فعلك في لحظة الصمت تلك؟

يرن في سمعي صوتك النحاسي القاطع، رغم مرور سنوات

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

على تلك المشادة: "لا بدّ أنك كرّرتَ كل هذه الوعود من قبل على الكثيرات..."

جاءت كلماتك نصلاً حاداً غير متوقع ينفذ سريعاً في خاصرة ’’ماهر‘‘، جعلته يندفع، لا إرادياً، في تمرير راحتي كفيه على طرفي شعره الممَشَّط بعناية، قبل أن يلقي نظرة غاضبة على أمين أسراره، ’’أَسعَد‘‘.

استدار نحوكَ أخيراً، شخصاً آخر ذكّرني بأولئك المتنمرين الذين بقيت أحميكَ منهم أشهراً عديدة بعد انتقالك إلى مدرستي الابتدائية.

"مَن طلب رأيكَ أيها الفنان الكبير؟" صاح ’’ماهر‘‘ ساخراً، "قبل أن تفكر في الاقتران بها دبِّر لك سكناً حقيقياً لا مجرد كهف..."

مضى يتحدث عن دقائق شقتك رغم أنه لم يزرك يوماً، ما جعل طَرْفَك يزوغ لحظةً صوب ’’أَسعَد‘‘ الذي بدا كأنه يسعى إلى الاختفاء عن الأنظار عبر تصغير جسده أقصى ما يمكنه، وارتسام ابتسامة جامدة على وجهه جعلته يبدو أقرب إلى تمثال شمعيّ منه إلى انسان حيّ.

لا أستبعد أن تكون ’’هاجَر‘‘ كشفت لـ’’ماهر‘‘، ذات يوم، مشاعرها تجاهك، إذ كيف تفسر مسعاه لتقويض صورتك أمامها حتى لو تطلّب الأمر تغلبه عليك عبر قبضتيه؟

"أنت تعتاش على فنانين كبار لأن رسومك لا أحد يشتريها... كيف تجرؤ على مقارنة نفسك بي؟ أنا أستطيع توفير حياة كريمة لها لا حياة شحاذين..."

حتى الآن، لا أستطيع تفسير كيف أنه اعتبر وقوفك على

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قدميك دعوةً لصراع جسدي محض معه، بينما هو لم يكن، كما أخبرْتَني لاحقاً، سوى رغبة في مغادرة شقتي.

يحضرني ذلك المشهد مراراً، كأنه لقطة من فيلم رديء: كلمات تتطاير من فم ’’ماهر‘‘، كأنها الرغاء، ورغوة لعاب بيضاء تجمعت على طرفيه.

في لحظة نهوضه من مقعده، قدَّرتُ أنه سيتقدم صوبك، فاستيقظ ذلك الحافز القديم في دمائي للدفاع عنك.

ها نحن واقفان وجهاً لوجه، يتفحص كل منا نقاط قوة وضعف الآخر، ولعل تدريبات إخوتي الكبار لي على رفع الأثقال سنوات عدة، ما زالت بارزة على ذراعيّ وصدري، إذ كيف تفسر تردده في التقدم خطوة أخرى، والاكتفاء بتهديدك وشتمك من مكانه.

ارتفع صوت نسائي حاد كالنصل: "كافي..."

انتابني شك للحظة أن تكون ’’هاجَر‘‘ وراء تلك الصرخة التي لا أستبعد بلوغها آذان الجيران الساكنين في الطابقين الأعلى والأسفل.

حل صمت عميق بيننا.

وحين التفتُّ صوبها، كانت تقف على قدميها بثبات، وقامة مستقيمة كقصبة. كم بدت شخصاً آخر موشكاً على تنفيذ قرار حاسم في حياته، يمكنك أن تقرأه في عينيها المحمرتين المتقدتين كجمرتين بعزيمة لا تقاوَم.

ما زالت تلك الصورة محفورة بعمق في قرنية عينيّ : ’’هاجَر‘‘ تمشي بخيلاء بيننا كأننا غرباء عنها تماماً وعلى كتفها اليمنى تدلت حقيبتها الصغيرة، وقبل أن تخرج من غرفة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الجلوس أطلقت عبارة باهتة نكررها عادة كلما ودعنا أحداً لفترة قصيرة: "مع السلامة."

كأن صفْق ''هاجَر'' لباب الشَقّة وراءها نوع من إكسير تسرب في عروقنا فأيقظنا من كابوس لا فكاك منه، ليجد كل منا قبضتيه مزمومتين استعداداً لعراك دموي.

هل هو الخجل الذي أصابنا وراء عودة كل منا إلى مقعده، والاحتماء بصمت عميق، استدارت خلالها رؤوسنا صوب شاشة التلفزيون لتتابع شريطاً وثائقياً، يعاد عرضه عن ''سَدَم''، بعد مرور يوم عن بدء القصف الجوي المكثف، وهو يمشي خطوات في شارع شبه مقفر صوب حشد صغير من السكان الذي راحوا يصفقون له، رغم الذهول والحيرة التي سكنت على وجوههم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

«AlfYaa منشورات «ألف ياء

المظروف السادس والعشرون

العود الأبديّ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

«AlfYaa منشورات «ألف ياء

قد تتفق معي، إذا زعمتُ أن المؤرخين يعتاشون على الإشاعات، وإلّا كيف تفسر تلك الحكاية الملفقة التي ظلت متداولة قروناً عن شروع ''نيرون'' في العزف على قيثارته وهو يشاهد الحرائق تلتهم بنهم أحياء روما.

أشار المؤرخ أسِتَس، إلى أن الامبراطور الروماني المشهور بقسوته المفرطة، ظل ينشد عالياً مقاطع من "الإلياذة"، من شرفة قصره الملكي، نادباً عاصمة العالم القديم، بينما ظلت أصابع يديه الماهرة تلامس برقة أوتار آلته الموسيقية.

هل استحضرَ ''نيرون'' آنذاك طيف الملكة الأسطورية ''هكيوبا'' لحظة مشاهدة حلمها القديم، المروّع، يتحقق على أرض الواقع: شعلةً حقيقيةً أخفى الظلام الدامس حاملها فبدت، عبر نافذة غرفتها الوثيرة، كأنها تتحرك وحدها من بيت إلى آخر، مخلفةً وراءها حرائق متعاقبة؟

لعلها أدركت لحظة كسر الأعداء باب الغرفة السميك اقتراب تحقق النبوءة بالكامل: ها هو زوجها الملك ''بريام'' يتلقى طعنتين في بطنه. يصلها أنينه الخافت المتكبر قبل أن يرفعه مقاتلان شابان من ذراعيه وساقيه ويرمياه، (مثلما حدث في رؤياها) من الشرفة العريضة. تصلها دمدمة ارتطام جسده بأرضية الباحة العامة، قريباً من الحصان الخشبي الذي خدعهم الإغريق به.

هل سلّمت ملكة ''طروادة'' بما قضاه ''زيوس'' ونفذته أيدي البشر؟ أمام عينيها رأت أصابع الربة ''أثينا'' تحمي الوحش الإغريقي ''أخيل'' حين رمى ''هكتور'' رمحه عليه، لكنه لم يخرق بأعجوبة درع عدوه المقيت. في المقابل، جعلت ابنة ''زيوس'' المفضَّلة رمح محميها يسير بدقة نحو تلك النقطة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المكشوفة من عنق ابنها البارّ، ورجل الملمات الطروادي، لتصرعه تحت أنظار والديه وزوجته وجنوده.

على العكس من ’’طروادة‘‘ و’’روما‘‘ أطفأ المطر، الذي تساقط ليومين متتالين، حرائق بغداد، لكنه لم يتمكن من إزالة تلك الرائحة الغريبة التي ظلت عالقة في هواء المدينة الرطب: مزيج من شياط وأسن وعفن يزكم الأنف، أو ذلك اللون الأحمر الباهت الذي غطى واجهات المباني السليمة من قصف جوي لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب الكبرى.

أتخيل ’’سَدَم‘‘ ماشياً بتمهل في شارع قريب من قصره الرئاسي المهدَّم جزئياً.

إنها المرة الأولى التي يخرج فيها إلى العلن بعد أربعين يوماً، ظل خلالها يتنقل متنكراً من من بيت إلى آخر، برفقة حارسين فقط. أحياناً تنتابه هواجس ما: يسمع صوتاً داخلياً يأمره بقضاء الليل داخل سيارته القديمة المموّهة، فيرضخ له.

كم هو مدين لهذا الصوت الذي لازمه طوال حياته، موجِّهاً ومصوّباً خطواته.

حتى قبل يومين، من بدء الهجوم البري، جاءه بنبرة آمرة: "أرفُضْ عرض ’’بوش‘‘ بسحب قواتك من الكويت بلا شرط أو قيد خلال أسبوع واحد..."

من تجربته مع رفاقه الطامحين بالسلطة، تعلم مبدأ أساسياً ظل يتَّبعه في كل فخ ينصبه لأي منهم: يجب معرفة ما سيفعله "المنتقى" حال وقوعه فيه، وعلى ضوء ذلك يقوم بتصميمه.

وكأن ’’بوش‘‘ تعلم منه هذا التكتيك، فمنذ اجتياحه الكويت والآخر يضيف شروطاً جديدة كلما نوى الخروج منها؛ كأنه

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يقول له: ستطاردك المحاكم الدولية عن كل أذى ألحقه جنودك بالمدنيين العزّل (مهما كان ضئيلاً) أو بممتلكاتهم؛ ستلاحقك العقوبات الاقتصادية من كل صوب أو حدب، فلا يبقى هناك من امتيازات تستطيع تقديمها لأتباعك الخلّص.

ترن كلمات السفيرة ''أبريل'' في رأسه للمرة الألف: "نحن ليس لنا رأي حول الخلافات العربية ـ العربية مثل خلافكم على الحدود مع الكويت..."

أمام عرض ''بوش''، الهادف إلى إذلاله، ودفعه عارياً أمام رعيته، وضع هو سبعة شروط تعجيزية لانسحاب جيشه من الكويت، خصوصاً بالنسبة إلى طرفٍ خسر الحرب منذ أول ساعاتها كانسحاب اسرائيل الفوري من الضفة الغربية، ومغادرة جميع قوات التحالف الغربي منطقة الخليج فورا...

إنه الموقف الصائب الوحيد للفريسة: الامتناع عن الحركة داخل فخ محكم، فأي خطوة تخطوها ستدفعها نحو الهلاك.

* * *

لا أستبعد أن تتعمق غضون جبهتك الثلاثة، إذا زعمتُ أن ''ستالين'' كان مَثَل ''سَدَم'' الأعلى. كأني أراه يعود من جولته القصيرة على القدمين إلى مكتبه المفضل. ها هو يحدق في الخراب الذي لحقه جراء القصف المتكرر لقصره. مع ذلك، ظلت صورة ''يوسف جوغاشفيلي'' بملابسه العسكرية ثابتة على الجدار الوحيد الذي لم تمسَّه قنابل وصواريخ الطائرات المغيرة.

خلال سنوات إقامته الثلاث في القاهرة، أهداه ''كريم'' كتاباً عن سيرة ''ستالين''.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"اِعرفْ عدوك،" قال صديقه الأقرب آنذاك.

ظل الكره العميق المترسخ في أعماقه لـ''الحُمر'' عائقاً بينه وبين الكتاب السميك أياماً عديدة، لكن لحظة ضجر عميق انتابته كانت وراء فتحه عشوائياً.

وكأن القدر كان رابضاً وراء تلك الصفحة التي وقعت عيناه عليها أولاً: هل هي مجرد مصادفة أن تكون طفولة ابن الاسكافي ذاك شبيهة بطفولته إلى هذا الحد؟

مثلما هو الحال مع زوج أمه، كان ''فيسارْيون'' هو الآخر مدمناً على ضرب ابنه الوحيد بقسوة.

وإذا كانت أمه ''يكاترينا'' التي فقدت طفلين على التوالي قبل ولادة ''يوسف'' مصرة على تعليمه، فإن الطريق الوحيد أمامه هو الحصول على مقعد في المدرسة الكهنوتية ببلدتها ليصبح قساً، ولأنها مواظبة على الذهاب إلى الكنيسة كل يوم أحد، وتحضر كل القداسات، مع طفلها النابه المطيع استطاعت أن تستميل القساوسة لقبوله في المدرسة الدينية.

غير أن الرياح لا تسير دائماً كما تشتهي السفن، فوالده الذي أغلق محله في بلدته ''غوري''، بعد كساد حرفته، وانتقل إلى مدينة ''تبليسي'' للعمل أجيراً في أحد معاملها الكبيرة، قرر ذات يوم، انتزاعه من مقاعد الدراسة وتشغيله معه في نفس المعمل.

كان على ''يوسف'' أن يقيم مع والده السكير، في غرفة بائسة صغيرة، بعيداً عن أمه، أشهراً، لكنها لم تستسلم بسهولة لإرادة زوجها، فراحت تتضرع إلى أبرز القساوسة في بلدتها الصغيرة ليجبروا الأب الحجري القلب على السماح لابنهما بالعودة إلى مدرسته.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

وكــأن الضــغط المتواصــل الــذي مارســه الآبــاء علــى ’’فيسـاريون‘‘ المتقلب المـزاج كـان كافيـاً ليرضـخ أخيـراً لإرادة ’’يكاترينـا‘‘ بإعـادة ابنهمـا الوحيـد إلـى المدرسـة الدينيـة فـي ’’غوري‘‘.

كيف سيكون شكل القرن العشرين لو أن ’’يوسف‘‘ بقي في معمل الأحذية عشرين سنة أخرى؟

كـم يتشـابه ’’فيسـاريون‘‘ وزوج أمـه فـي ولعهمـا بالضـرب المبرح للصغار. وإذا كان الأول ينفق ما يكسبه من مشغله على الكحول فإن الثاني يفضّل قضاء وقته في مقهى القرية الصغير ودفْع الطفل اليتيم لرعي خرافه صباحاً وبيع الفاكهة عصراً لراكبي القطار القادم من الموصل إلى بغداد.

جـاءه الصـوت الغريـب، أول مـرة، صـاخباً ملحـاحاً: "أُتـركْ أمك وزوجها..."

ولو بقي خاله الوحيد في السجن خمس سنوات أخرى، لما كان هناك ملاذ آخر يلتجئ إليه.

كلاهما أفلتا من قدر رسمه وليّـا أمرهمـا بإصـرار: أن يصـبح ’’جوغاشفيلي‘‘ حذّاءً بارعاً وهو راعيَ غنمٍ ناجحاً.

لا بد أن قدراً آخر كانت تخطه قوة خفية ما لمَثَلـه الأعلـى، إذ كيف يمكن تفسير نجاتـه (وهـو مـا زال طفلا) من الجُدَري، ثـم نجاته من حصان جامح هَشَّم ذراعـه اليسرى بينمـا كـان يمشـي على الرصيف.

ولم تتضح العبرة من الإعاقة الجسدية الجزئية التي لحقت بيوسـف فـي صـغره إلا حـين أُعفـي بسـببها مـن أداء الخدمـة الإلزاميــة خــلال الحــرب العالميــة الأولــى. ففــي المواجهــة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المتواصلة الساخنة بين الجيشين الروسي والألماني كان مقتله شبه مؤكد.

* * *

هل كان ''كريم'' سيعطيه ذلك الكتاب الذي أصبح دليله لو حضره أي هاجس بأن "أخاه الذي لم تلده أمه" سيبعث له، بعد عشرين سنة، فريقا لقتله في الشارع، حتى بعد اعتزاله السياسة وتفرغه لأسرته؟

لا استبعد أن يكون ''سَدَم'' مقتنعاً بأن وصول الكتاب إليه هو جزء من قدَره، ولو لم يقم ''شقيق الروح'' بذلك لوصله عن طريق آخر.

على الرغم من التشابه الغريب في مسار حياتيهما فإن طفولة ''يوسف جوغاشفيلي'' (على الرغم من قساوة أبيه المفرطة معه) أرحم من طفولته.

إنه امتياز لم يعرفه يوماً في حياته: أنْ تكون لزعيم العالم الأبرز أمٌّ قاتلت بضراوة من أجل تعليمه، وعملت غسالة في بيوت الآخرين لتوفير ما يحتاج إليه، وجعله يتفوق على تلاميذ مدرسته الميسورين.

وفي الشارع كان أبناء الحي يتصرفون مع ''يوسف'' نداً لهم: يشركونه في ألعابهم، يتشاجرون معه، يذعنون له قائداً عليهم، أو يتمردون ضده.

أما هو فظل منبوذاً من صبيان القرية الذين لم يكفوا يوماً عن مناكفته والسخرية به: إن كان لك حقاً أب متوفى فأين قبره؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يراقبهم عن كثب وهم يتهامسون ويضحكون، بينما تزوغ، من وقت إلى آخر، أبصارهم صوبه، وفي البيت يواجهه وجوم أمه الأبدي ونفور زوجها العميق منه، فيسعى إلى الاختفاء عن ناظريه بالركون وراء ''نجمة'' في حظيرتها الصغيرة.

من تلك النقطة، العطنة، المغطاة ببقايا التبن يصيخ السمع إليهما. هل هناك عقاب ينتظره اليوم من زوج أمه؟ هل هو راضٍ عما كسبه له اليوم؟

لعل قناعة كهذه تشكلت في رأسه الصغير آنذاك: على كل اليتامى أن يكدّوا ليل نهار اعترافا بالجميل لأزواج الامهات على حمايتهم بدلا من طردهم إلى البراري.

لكن ظهور خاله المفاجئ في بيتهم قلب هذه القناعة رأساً على عقب.

* * *

كان من المفترض أن يقضي الخال عشر سنوات في السجن بعد اشتراكه في انتفاضة عام 1941 ضد النظام الملكي المدعوم بريطانيّاً، لكن أجواء الانفراج السياسي التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية، ساعدت على تقليص الحكم إلى النصف.

أخبرته أمه عن بحبوحة السنوات التي عاشها في كنف أخيها قبل القبض عليه: كم كان ''سَدَم'' موضع عناية كنتها وأختها الكبرى التي تسكن في البلدة نفسها، بينما كانت هي تزوره مرة واحدة كل أسبوع.

فجأة تغير كل شيء: زوجة خاله قررت بعد صدور الحكم عليه العودة إلى أهلها في بغداد، وأخذ طفليها معها، فما كان

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أمامها خيار غير استرجاعه.

في غمرة الركض اليومي بين رعي خرافه صباحاً وبيع فاكهته عصراً مسحت ذاكرته صورة الخال تماماً ليتحول في مخيلته كائنا أسطورياً، مختلفاً تماما عن الكائن البدين المهذار الذي يراه أمامه الآن.

لا بد أن الزائر لمح في عيني ابن أخته الواسعتين تلك الشرارة الطافحة بغضب مكتوم، ولعله اعتبر ذلك علامة على بلوغ مبكر لسن الرجولة، خلال فترة غيابه.

* * *

ما زالت تلك اللحظة مسمَّرة في ذاكرته كأنها حدثت أمس: ها هو ابن خاله، الذي لا تتجاوز قمة رأسه الصغير خاصرته، ينقش بقصبة يابسة على تراب الحوش رسماً غامضاً، وحين يسأله عما خطّ يجيبه مفتخراً: "هذا هو اسمك..."

كأن تلك الحادثة العابرة نصلٌ اخترق بلعومه فأفقده القدرة على الكلام.

بعد مغادرة الخال وابنه ظل ''سَدَم'' مسكوناً بالدهشة: أن يكون هناك عالم آخر خالٍ من الشقاء، يرتدي الأطفال والكبار فيه أحذية وملابس حضرية وبشراتهم ناعمة، والأكثر من ذلك أن تكون لكل الكلمات التي يرطن بها أشكال، ولكل العمليات الحسابية قواعد يمكن اتباعها في الذهن بدلا من استخدام أصابع اليدين.

كيف سيكون مسار حياته لو أن خاله لم يُسجن؟

لا أستبعد أن يثير سؤال كهذا ضيقاً في صدره، إن حضره

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الآن. هل يستطيع أن ينكر أنّ البصمات التي تركها زوج أمه على كينونته كانت وراء نجاحه السريع في الاستيلاء على الحكم؟

خلال الخمس سنوات التي قضاها معه كسب سمات حميدة يقضي الناس كل حياتهم من دون أن يحققوا نصفها...

هل ينكر كيف أن الخوف من عصا زوج أمه تلاشى شيئاً فشيئاً، إلى الحد الذي ما عاد له وجود في نفسه أمام أي خطر محتمل. بل قد يكون العكس هو الصحيح: أصبح حضوره الشخصي مصدر خوف الآخرين.

بفضل غياب هذا القيد، وغياب أي شخص حريص حقاً على سلامته، تعمقت رغبته باختبار ذلك الكائن الغامض المتعدد الشخصيات: في مياه النهر الجارفة، في حقول القمح والبساتين النائية، في عواء الذئاب المتصاعد وسط الليل.

أصبح ذلك الكائن الذي ينعته الناس باسم "الموت" صديقاً حميماً له يدعوه دائما للالتحاق به، ولعل تلك الألفة المبكرة معه تعبير لا شعوري عن رغبة دفينة بالاختفاء تماماً عن وجوه الكبار غير المرحِّبة به كائنا حياً يعيش بينهم.

في فصل الصيف الطويل يراقب الصبيان، وهم يتعلمون السباحة في نهر دجلة، على أيدي آبائهم أو إخوتهم الكبار، تأتيه أصواتهم: "اِمسكْ يدي بقوة وحركْ ساقيك؛" "اِرفعْ رأسك إلى الأعلى؛" "تنفسْ بعمق؛" "اِضربْ الماء أسرع بكفيك..."

لا بد أنهم يتمنون نزوله إلى النهر حيث القاع عميق فيه هنا، وتيار مائه جارف.

كم سيكون غرقه حدثاً مفرحاً للقرية. لعل أمه وزوجها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

سيبتهجان هما أيضاً حتى لو كان مصدر رزقهما.

ها هو يخلع دشداشته المتهرئة، يصففها بعناية ويضعها فوق شتلات العاقول الشوكية، تستدير صوبه الأعين باندهاش.

تقشعر مسامات جلده حال ملامسة دفقات الماء البارد ساقيه، تحتبس أنفاسه، تنتابه رغبة قوية بالخروج من النهر، تحضره موجة الضحك العاصفة التي سيثيرها انسحابه بين أقرانه فيكزّ على أسنانه بعناد، يمضي خطوة خطوتين ثلاثاً، فينزلق جسده فجأة بالكامل تحت سطح الماء، تجذبه سوّيرة أكثر فأكثر بعيداً عن الجرف رغم مقاومته لها، يتسرب الماء عبر فمه ومنخاريه، يخبط بذراعيه الهواء من دون جدوى.

في تلك اللحظة حضره سؤال غريب: "هل ستذرف أمه دمعة أو دمعتين على فقدانه؟"

جاءته لحظة الإنقاذ حين اتقدت ذاكرته بنصيحه أحد الآباء لابنه: "لا تصارع النهر، اِعتبرْهُ صديقك..."

كأن استسلامه الكامل لموجات الماء شجعت سُوَّيرة أخرى معاكسة لسابقتها كي تدفعه بقوة إلى الجرف.

كان قرص الشمس البرتقالي موشكاً هو الآخر على الغطس في الطرف الآخر من العالم، بينما تكسرت أشعته الذهبية على تجاعيد صفحة النهر المترقرقة. حضرت ''سَدَم'' هذه القناعة وهو موشك على التوجه إلى بيته: لم يتعلم اليوم السباحة ولكنه تعلم كيف ألا يغرق...

* * *

حتى الرعي الذي أجبره زوج الأم عليه، تعلم منه الكثير عن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

البشر: كيف أن الخراف هي الأخرى تبحث عن كبش يقودها نحو العشب الصالح للاجترار بدلاً من سيدها إنْ وجدته متراخياً معها. كان عليه أن يضرب المنافس مراراً بعصاه المعدنية على إليته وبطنه من دون أن يكسر عظمة فيه، إلى أن يكف عن المشي متباهياً أمام القطيع.

وكم كان هذا المبدأ صالحاً مع رفاق حزبه أيضاً: كلما برز شخص يتفوق عليه في مجال ما ويجذب البعض إليه، أصبح لزاماً عليه قطع دابره من الجذور، حتى لو كان من أشد أنصاره.

استغرب ''سَدَم'' من سؤال ابن خاله كثيراً: "ماذا تتمنى أن تصير عندما تكبر؟" كأن الصغار في الأماكن الأخرى يستطيعون تحديد أقدارهم ."ما أدري،" بدلا مما كان على طرف لسانه: "راعي غنم يملك ألف ألف رأس..." ردد قريبه ابن السبع سنوات: "أنا رحْ أصير ضابط كبير..."

* * *

اِضطربَ نومه منذ زيارة الخال وابنه.

كانت الإغفاءة تأخذه وسط ظلام الحجرة، ليشاهد كوابيس لم يعتد أن يراها من قبل: في أحدها، يحاصره غرباء من كل جانب، يصرخون فيه غضباً، وفي أيديهم عصي غليظة، فيستيقظ فزعاً.

في حلم آخر، شاهد نفسه جالساً بجانب كومة تراب، وهو يشكو ويعول بحرقة. يكتشف في لحظة أن ما يراه ليس سوى قبر شخص قريب جداً له.

يصحو على صرخات زوج الأم وشتائمه المعهودة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لا بد أنه كان يهذي عالياً.

استغرب أن يجد حافة مخدته الصلبة مبللة بالدموع.

سمع أمه تحاول التخفيف من غضب زوجها: "هو حزين على ''نجمة''... هسة ينام..."

وكأن ذكر اسم الفرس فجّر حنقاً جارفاً من الأخير الذي ظل حريصاً على إكرائها للآخرين مقابل دراهم ضئيلة، حتى جاء اليوم الذي كسر فيها أحدهم ساقها بعد دفعها لتقفز فوق سور حجري عالٍ.

لا أستبعد أنّ سيد البيت كان سعيداً وهو يراقب ابن امرأته منكفئاً في الحظيرة بجانب ''نجمة'' طوال النهار حتى قدوم الأشخاص المكلفين بإراحتها إلى الأبد.

* * *

يتطلع منبهراً إلى بورتريه ''ستالين'' المنقول عن لوحة أصلية شاهدها خلال سفرته إلى "موسكو": عينان مائلتان قليلاً إلى اليمين، تتطلعان بلا مبالاة في الفضاء، وشاربان كثيفان كأنهما جناحا نسر، بينما اصطفت الأوسمة على صدره، والنجوم الذهبية على كتفيه، على الرغم من أنه لم يخدم أو يدرس يوماً واحداً في الجيش.

في قراءة سيرته أول مرة، صُدِمَ ''سَدَم'' بحقيقة أن يكون زعيم أكبر وأقوى دولة على الأرض بلا أي شهادة دراسية، أو أي خبرة مهنية عدا خبرة النضال السري ضد النظام القيصري.

لا بد أن ما كسبه من دهاء في التعامل مع ''فيساريون''

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الفظّ، الدمويّ المزاج، خلال سنوات طفولته، ونجاحه في النجاة حياً من يديه الغليظتين، القاسيتين، ساعده على شق طريقه في احتراف النضال السري، بتشكيل عصابة، تساعده على تنظيم الاضرابات والتظاهرات؛ بنشر الفوضى والسطو على البنوك وابتزاز الأغنياء، ثم إرسال ما يكسبه إلى قيادة حزبه في سويسرا لمواصلة نشاطها الآمن في تأجيج روح الثورة داخل روسيا القيصرية.

على الرغم من تماثل بعض نشاطات ''يوسف جوغاشفيلي'' مع أعمال المجرمين العاديين، كان جهاز "الأوكرانا" المخصص لمطاردة الناشطين السريين، "يحترمهم" بشكل ما.

لقد ظلت الأحكام ضد الشاب الجيورجي المتمرد تكتفي بنفيه إلى مناطق نائية أغلبها في سيبيريا: هناك كان يقيم كل مرة مع عائلة ما، وهناك كان ينشغل بالقراءة وإقامة علاقة عاطفية مع امرأة ما، وإعادة خيوط الاتصال بمنظمته، حتى توفُّر الفرصة أمامه للهرب والعودة من جديد إلى العالم ما تحت الأرضي.

لعل تلك التجربة المتكررة أقنعت سليل الأقنان عند قبضه على مقاليد السلطة بضرورة ابتكار أسلوب معاكس مع معارضيه الذين ينجون من عقوبة الإعدام: أنْ يُسكنهم في معسكرات لا مجال أبداً للهرب منها، ليستثمرهم طويلاً في مشاريع الإعمار العملاقة من دون مقابل، عدا ما يكفيهم من طعام يضمن بقاءهم على قيد الحياة، تحت شعاره المحبَّب: "من لا يعملْ لا يأكلْ."

* * *

كيف تتصور أول ليلة قضاها ''سَدَم'' بعد توقيع وزير دفاعه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

على اتفاق "السلام" مع الجنرال ''شوارزكوف'' قائد الجيش الأمريكي؟

أتخيله الآن يحدق عبر زجاج نافذة تطل من قصره على مدينته الغارقة في الظلام والسكون، فيغمره فرح عاصف بالانتصار، يجرف معه إلى صندوق النسيان ما كان عليه قبل 24 ساعة فقط من قنوط وانكسار عميقين، حين بلغته أنباء عن تطويق القوات الأمريكية وحلفائها آخر خط دفاعي داخل بلده، ولم يبق أمامها سوى مسافة قصيرة لتدخل بغداد بعد أن تبيد العمّود الفقري لجيشه: فرق "الحرس الجمهوري" المحاصرة. فتجعله فريسة مطاردة، ينتظرها مصير أسوأ مما لحق برئيس بنما، ''أورتيغا''، حال وقوعه بيدها.

آنذاك انتابه شك بذلك الصوت الذي ظل يوسوس في أذنه برفض آخر عرض قدمه له ''بوش'' قبل أسبوع واحد: اِسحب قواتك من الكويت خلال أسبوع، واقبل بكل العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة عليك.

كأن الصوت كان يلمّح له بالإشارات: حال موافقتك على العرض سيطلب خصمك خروج كل جنودك على أقدامهم تاركين وراءهم كل أسلحتهم، وحال موافقتك سيطلب نزع ثيابهم بالكامل.

سيأتي ضباطك الصغار والكبار إليك متوجين بالعار فيحاسبونك على ما لحق بهم بسببك.

ستفقد أهم سلاح مكنك من الهيمنة طوال عقدين: "الهيبة"، وبغيابها ستختفي الرهبة منك، ولن يمضي وقت طويل قبل بروز ضابط مغامر يطيح بك.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لم يمض سوى يومين على عرض ”بوش“ حتى بدأ الهجوم البري الشامل. مع ذلك ظل الأخير يقدم نداء بعد الآخر مطالبا إياك أن تعلن رسمياً بقبول شروطه لإيقاف دمار آلتك العسكرية من دبابات ومدرعات بمن فيها من عسكريين أنفقتَ الكثير على تدريبهم، لكن الصوت ظل صامتاً في داخلك.

أخيراً، صدر عنك، بناءً على الصوت الذي سمعته، بيان في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، لكنه من دون توقيع أي جهة رسمية، يطلب من الوحدات المحاصرة في الكويت الانسحاب.

وكأنه من دون أن يدري سيضع قوات العدو أمام أحد خيارين: إما ترك عساكره تنسحب، بكبرياء، وسط جيوش العدو المحاصِرة، من دون إعلان عن استسلامها، أو إبادتها بالكامل.

يستحضر ”سَدَم“ تلك الصور الصاعقة التي بثتها الفضائيات وأعقبت نشرها الصحف في شتى أنحاء العالم عن حفلة "اصطياد الديكة الرومية" التي انغمر فيها مئات الطيارين، لترسم لوحة قاتمة لمئات العربات المتناثرة وآلاف المتفحمين داخلها، بل حتى أولئك الذين نزلوا منها ورفعوا ثياباً بيضاء لم يوقفوا شهية القتل التي انفتحت إلى أقصى مداها لدى مطارديهم الجويين، فراحوا يتلقون أشرطة نيران خافتة الصوت تحت ضجيج حوامات "الأباتشي" القريبة من رؤوسهم.

وهنا وقعت المعجزة الإلهية: كأن ”بوش“ الذي كان يبشر بنظام عالمي جديد أفضل من سلفه (مثلما فعل ”زيوس“ عندما هزم سلفه الإله ”كرونوس“) خاف من تشويه صورته بأن يقارَن بـ ”سَدَم“ أو ”كاليغولا“ أو ”جنكيز خان“: إلهاً أرضياً

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

صاعداً يعشق القتل من أجل القتل، فأصدر في خطاب علني أمره للجنرال ’’شوارزكوف‘‘ قائد قواته في الخليج بإيقاف العمليات الحربية، وانتظار قدوم ممثلي ’’سَدَم‘‘ العسكريين ليوقعوا بالكامل على شروط إنهاء الحرب.

سمع صوته الداخلي هذه المرة واضحاً: "لقد أفلتَّ من الفخّ... اِبعثْ بوزير دفاعك للتوقيع على اتفاق إنهاء الحرب، وليوقّعْ على أي شروط يفرضها الخصم من دون أدنى اعتراض..."

كأن أولئك الجنود العزّل الذين قُتلوا خلال هروبهم أنقذوا من دون أن يدروا الوطن، إذ هل سيكون هناك وطن لو أنه قُتِل أو أسِر؟

نساء هذه الأرض ولّادات: لن تمضي سوى سنوات قليلة حتى يعوضن الأبناء القتلى بآخرين أقوى وأشجع وأكثر استعدادا لبطولات أخرى، أما هو فمن سيعوضه؟ هل هناك من يشك (بعد كل المخاطر التي واجهها في حياته) بوجود قدر مرسوم له كي يقود هذه الأمة إلى أعالي السماء؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المظروف السابع والعشرون

أضرار جانبية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لعلك تتذكر تلك اللحظة التي جمدت الكلمات فيها على ألسننا: من نقطة في أعالي السماء يهبط جسم غير مرئي، تتعقب أبصارنا حركته فقط عبر تعاقب أرقام الثواني، وعلى سطح الأرض هناك خيط واهٍ بلون رمادي مؤشَّر عليه بعلامة **+**.

فجأة تنفلق بصمت فوقه فقاعة، فتخلّف وراءها غمامة سوداء.

كنتَ برفقة ''أَسعَد''، وكنا نحن الثلاثة جالسين أمام تلفازي الصغير.

في إحاطته للصحفيين، واصل الجنرال ''شوارزكوف'' بنبرة منتصرة، متهيجة، عرْض الجسور التي دمرتها طائراته هذا اليوم، ثم توقف عند أحدها: "الآن سأريكم الشخص الأَسعَد حظاً في العراق..."

برزت على شاشة تلفزيون، موضوع أمام القائد العسكري الأعلى، دعسوقة بيضاء، تنزلق سريعاً على شريط ضيق، ولحظة عبورها حافته، اختفى ذلك الشريط عن الوجود مخلفاً وراءه سحابة سوداء تتراقص في الهواء على أصداء ضحكات الصحفيين الهادرة.

"والذي دخل الجسر في تلك اللحظة؟" ارتفع صوت ''أَسعَد'' مرحاً، "لا بد أنْ يكون الأسوأ حظاً في العالم..."

"لا أحد يتذكر سيئي الحظ..."، أجبتَ بنبرة باردة.

لعلك استحضرتَ في تلك اللحظة ''هاجَر'' التي مضى على رحيلها أياماً.

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لم يخطر ببالي صواب ما توقعه ''أَسعَد''، لحظة انفجار "الجسر المعلّق" أمام أبصارنا.

وحتى إذا كانت هناك سيارة، تزامن دخولها الجسر مع تحطمه، فإن ركابها أصبحوا الآن نسياً منسيا.

لا بد أن البقاء حياً في تلك البقعة أصبح رمية زهر محض.

وعلى العكس منا، لا أظن أن أحداً فيها يمتلك الآن الفرصة للتفكير بما حدث أمس.

أقصى ما يستطيع فعله: العيش في اللحظة، والسعي لإزالة مخلفات اللحظة السابقة قدر الإمكان، بما فيها دفن عاجل لموتاه.

* * *

قد تتفق معي إذا زعمتُ أنّ اهتمامنا بمتابعة أخبار الحرب خَفَّ كثيراً منذ رحيل ''هاجَر''.

كم كنتُ مقتنعاً، حين خرجتْ من شقتي، بحضوركم جميعاً، أنها ستعود إليها بعد ساعات قليلة، فحقيبتها ما زالت نصف مفتوحة: على سريرها الصغير، تبعثرت قطع من ثيابها وأدوات زينتها، وعلى أرضية الحجرة الصغيرة، التي احتلتها ثلاث ليالٍ، تباعدت فردتا حذائها العالي الكعب، إحداها عن الأخرى.

وكم كنتُ على صواب!

قضيتُ أول ليلة على اختفائها متنصتاً لجرس الباب: قد تكون ذهبت إلى نادٍ ليلي، بعد انغلاق الحانات، أو ركبت قطاراً أخذها إلى مدينة ساحلية نائية.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مع ’’هاجَر‘‘ كل شيء متوقع.

في اليوم اللاحق تناهبتني هواجس من نوع آخر: هل جالسها سفّاح مغتصب في مكان ما ثم وضع في كأسها مادة مخدرة؟ هل رمت نفسها في التَيْمز؟ أو قبضت عليها الشرطة لنفاد تأشيرة دخولها؟

في اليوم الثالث هاتفتُ الدكتورة ’’عالية‘‘، رغم قناعتي المطلقة بأنها هي الأخرى لا تعرف شيئاً عن ’’ابنتها‘‘ البكر.

لعلي أردت بتلك البادرة التخفيف من ثقل وساوسي المتنامية كالفطر في رأسي عما حدث لها.

"لا تقلق... هي أصلب وأدهى مما تظنّ..." رددت صديقتنا بنبرة مُطَمْئِنة، "ربما تكون سافرت إلى عمّان..."

سألتُ متحرزاً: "وأشياؤها التي تركتها في شقتي؟"

"قرارات ’’هاجَر‘‘ محكومة بمزاجها المتقلب..."

أضافت الدكتورة ’’عالية‘‘: "إذا كنتَ "متضايق" منها أمرّ عليك وآخذها..."

أكدتُ بنبرة قاطعة: "لا، أبداً..."

رددت محاوِرتي، بعد حلول صمت طويل بيننا، بصوت محتقن يقترب من الهمس: "سمعتُ بما حدث في شقتك بسببها... آسفة جداً..."

* * *

عاد الثلج غزيراً إلى لندن، وعادت معه مشاهد التزلج

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

البدائي على شاشة التلفاز، في نفس المتنزه الذي ذهبت إليه ''هاجر'' مع ''ماهر''.

هل أنكرُ تعمّق نفوري منه وأنا أتابع شباباً مبتهجاً ينزلق على ألواح خشبية بيتية من أعلى هضبة مغطاة بالجليد.

رنّ جرس الهاتف أخيراً، كاسراً حالة الانكماش التي تلبستني منذ اختفاء ''هاجَر''.

ظننتُ أنك هو المتكلم، فردَّدتُ اِسمكَ من دون قصد مرحّباً.

غير أن صمتاً امتد ثوانيَ جعلني أدرك خطئي، وقبل أن أعتذر، تسللت إلى أذني ضحكة نسائية مألوفة أيقظتني من سباتي.

"لا بدّ أنك نسيتني..."

راحت الكلمات تتكسر على لساني، بينما انحبس الهواء في صدري.

عاد صوتها هذه المرة ليعطي انطباعاً بأنها ما زالت تقيم في شقّتي: "كيف الطقس اليوم في الخارج؟"

"برد شديد،" قلتُ متلعثماً، "الثلج زارنا من جديد..."

"صِفْ لي ما تراه من النافذة،" رددت ''هاجَر'' بصوت مغرٍ شديد الحميمية.

* * *

دخلنا شهر فبراير والحرب ما زالت مستعرة.

أو هكذا ظل الجنرال ''شوارزكوف'' يسعى لإقناعنا عبر شاشات التلفاز: إحاطات يومية يقدمها لعدد محدود من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المراسلين في مسرح صغير عما تحقق فيها خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة: إسقاط سبع مقاتلات عراقية حاولت الهرب إلى إيران؛ تدمير زورقين حربيين خاليين من بحارتهما؛ تفجير جسور مدنية أخرى منعاً لاستخدامها حلقة وصل بقوات ''سَدَم'' داخل الكويت؛ أو قصف طائراته مصنعاً لإنتاج الحليب المجفف بعد أن ثبت للبنتاغون استخدامه في إنتاج أسلحة كيماوية.

ولكسر الملل في نفوس المشاهدين من متابعة وجه قائد "عاصفة الصحراء" العَبوس، الغاضب، كل يوم، ظلت الفيديوهات الحربية القصيرة تؤدي هذا الدور بتصويرها قاذفات أنيقة لحظة إلقائها قنابل على هيئة سكاكر من دون معرفة النقطة المستهدَفة؛ أو صواريخ تسبح بمرح كالدلافين في الهواء بعد إطلاقها من ظهر سفينة حربية صوب أهداف مجهولة.

* * *

وأنا أصغي إلى ''هاجَر''، كانت عيناي تتعقبان رقائق البَرَد المتساقطة من وراء النافذة. تراءت لي كأنها فراشات بيضاء تتطاير في فضاء شاحب ضبابي.

وكم استحثّ ذلك المشهد الغرائبي توقاً جارفاً لرؤيتها.

أخيراً هي في عمّان.

"أين أنتِ الآن؟" سألتها.

"في فندق... بعد غد أسافر إلى بغداد..."

حدست ''هاجَر'' ما وراء صمتي من مخاوف عليها، فراحت

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تُطَمْئنني بعبارات كهذه: "لو كانت هناك حوادث كثيرة ما ظلت سيارات الأجرة تنقل كل يوم غير العراقيين من بغداد إلى عمّان..."

أضافت ضاحكة: "لا تنسَ... أنا بسبعة أرواح..."

"وماذا عن...؟"

استبقتني كأنها كانت تقرأ ما يدور في رأسي: "اِعتبرْ أشيائي، بما فيها الحقيبة، هدية للذكرى... وإذا تضايقتَ منها تبرّعْ بها لجمعية خيرية..."

أذكر أني اتصلتُ بك، حال إغلاق ''هاجَر'' الهاتف، لأطمئنك عليها لكنك قاطعتني: "هي اتصلت بي..."

تيبست الكلمات في حنجرتي ثوانيَ قبل أن أتمكن من النطق ثانية: "متى؟"

"اليوم..." أجبتَ بنبرة متبرمة، قبل أن تلطّفها قليلاً، "هاتفها أيقظني قبل طلوع الشمس... حتى تلك اللحظة كنت أظنها في شقَّتك..."

* * *

عادت المياه إلى مجاريها بيننا جميعاً.

''ماهر'' كتب رسالَتي اعتذار: واحدة لك، وأخرى لي، بعثهما بيد ''أَسعَد''، وعلى وقع مجزرة ملجأ "العامرية"، التقينا أخيراً في حانة "نهاية العالم" بحضوره.

راقبتك وأنت تصافحه بودّ كأنك تتعرف تواً عليه.

قد تتضايق إذا قلت لك إنكما ذكّرتماني بحديث ''أَسعَد'' عن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الوعول المكسورة القرون، رغم أن ’’هاجَر‘‘ عادت إلى بغداد من أجل نصف وعل فقط...

كم بدوتما خاليين من تلك "المهابة" التي تتمتع بها الآلهة الأرضية، أو بصيغة أدق: كنتما تشبهاننا نحن البشر العاديين الذين ألفوا الفشل مراراً في تحقيق ما يرومون، مع شحوب ملموس في وجهيكما ناجم عن ليالي أرق عديدة.

كأن تصديق رفضها ما زال عسيراً عليكما.

وفي ذلك اللقاء كنتما، لأول مرة، متضامنَين معاً، من دون كلمات، إذ اكتفيتما بتبادل نظرات عزاء أحدكما للآخر.

كان عليّ آنذاك كشْف السر الذي ظلت ’’هاجَر‘‘ حريصة على كتمانه طوال فترة إقامتها في لندن، لكن ما شاهدته، على شاشة تلفازي، من صور عن ذلك الملجأ، شتت تفكيري تماماً، فأصبحت أحاديثكم، بالنسبة لأذني، مجرد أصواتٍ تخلو من أي معنى.

كم كنتَ محظوظاً أنك لم تُدخل التلفزيون يوماً إلى شقتك!

أتذكر الآن كيف ظل ’’أَسعَد‘‘ حريصاً على نقل تفاصيل ما رآه لك كأنه يحكي عن فيلم خيالي: "جدران الملجأ السميكة ظلت سليمة تماماً... الموت حدث فقط بسبب الحرارة الشديدة..."

أضاف بعد احتسائه جرعة كبيرة من كأسه شكلت على شاربيه خطاً خفيفاً من الرغوة البيضاء: "المسؤولون هناك يقولون إنهم وجدوا ...300 أما البقية فانصهروا وتبخروا..."

مضى ’’أَسعَد‘‘ يدافع عن تفسير وزير الدفاع الأمريكي لما

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

حدث: "الملجأ مركز قيادة عسكري ...''صدّام'' شجع المدنيين على قضاء الليل فيه..."

وأنا أتابع حديثه حضرني هذا السؤال الصامت كالصاعقة: هل كانت ''هاجَر'' هناك؟

وفي تلك اللحظة بالضبط، استفسر ''ماهر'' ما إذا كان أهل صديقك الأقرب يقيمون في "العامرية".

ألا تتفق معي أن سؤال "نقيضك الأبديّ" كان، بشكل ما، صدى لما ترجّع في أنفاسي، من هلع، على اختفاء ''هاجَر'' مع المائة الآخرين، الذين لم يتركوا أثراً وراءهم في ملجأ العامرية؟ ولعل ذبذباتنا وصلتك، لكنك آثرتَ، كعادتك، الصمت.

* * *

على عكس أول شهور حملها، تشعر المرأة بتباطؤ الزمن، كثيراً، في آخِر شوطه: كل يوم يعادل شهراً.

هل تتفق معي أننا كنا، بشكل ما، مثلها؟

لعلك تذكر كيف مر الوقت سريعاً علينا منذ احتلال ''سَدَم'' للكويت وحتى وقوع الحرب: كأننا كنا نتابع فيلماً ذا حبكة متقنة، ومملوءاً بالمفاجآت، تتصاعد فيه الآمال تدريجاً بالوصول إلى حل سلمي للأزمة، قبل تدخل ربات القدر الإغريقية الثلاث في آخر منعطف له، ليحرفنه قليلاً عن مساره، فيعود مرة أخرى إلى نقطة بدئه.

وها نحن نتابع "حرباً" ممتعة يستطيع حتى الأطفال أنْ يشاهدوها، فهي أقرب إلى ألعابهم الألكترونية، حيث تدمير

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الخصوم الأشرار لا يترك وراءه دماء أو جثثاً تعتاش عليها الجوارح.

غير أنها، كانت جد بطيئة علينا نحن القابعين هنا، في هذه البقعة الآمنة: كل صباح نصحو على أزيز الطائرات المقاتلة حين تقلع أو تهبط، وصور نقاط، بالأسود والأبيض، تنفلق أمامنا كالدمامل بفضل قصفها بقنابل دقيقة التهديف.

ولكسر الملل في نفوس المشاهدين بدأت التقارير العسكرية، منذ حلول فبراير، تتحدث بغزارة عن الحرب البرية القادمة، وإقناعهم بقوة الخصم وخطورته، إذ مَن سيتابع نزالاً بالملاكمة إذا كانت هزيمة أحد المتلاكمَين مؤكدة بالمطلق.

حدد الجنرال ’’شوارزكوف‘‘ تاريخ انطلاق هجومه البري بـ "عيد الحب" الذي سيحل في منتصف هذا الشهر، واعداً جمهوره الواسع المتشوق للنزال بأنه سيصبح هذه السنة "مجزرة عيد فالنتاين".

وما أن حل يوم "الحساب" حتى أعلن "الدبّ" (كما يطلق عليه جنوده) عن تأجيل حربه الموعودة.

في المقابل، منح الآمر العسكري الأعلى طياريه أسبوعَي "عمل" آخرَين كي يضمن تقليص قدرة "الحرس الجمهوري" الكامنة بنسبة تتراوح ما بين 30 و 50 في المائة، تجنباً لوقوع خسائر في صفوف جيشه الذي تجاوز عدده آنذاك النصف مليون عنصر.

أتذكر أنه برر قراره الجديد للأداء الجيد الذي أظهرته الوحدات العراقية العادية المتخندقة داخل الكويت، رغم أنها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

تشمل جنوداً مكلفين، وهذا ما جعله يفكر كيف ستكون صلابة "الحرس الجمهوري".

من جانبها، أقرت "مصادر" بريطانية بأن هزْم "الحرس الجمهوري" هدف أصعب مما ظُنَّ سابقاً... بل إن عسكرياً بريطانيا "كبيرا" (لم يكشف عن اسمه) صرح بهذه الجملة التي لا أستبعد أنها خلقت تشويقاً لمعركة متكافئة بين خصمين: "التاريخ يُظهر كيف أن قوات متخندقة بشكل جيد قادرة على تحمل القصف الجوي..."

ولرفع عنصر التشويق لدى المشاهدين درجة أو درجتين، أكد ضباط من المخابرات البريطانية أنهم متيقنون من استخدام العراقيين الأسلحة الكيماوية، المقذوفة بالمدافع، حال بدء الحرب البرية.

كم غريباً أن تجيء في اليوم نفسه، تلك المكالمة الغامضة التي بدت لنا كأنها أول إشارة عن وجود حياة ما في ذلك الكوكب المنبوذ؟

كان الوقت مساءً على ما أذكر.

بعد رنين ملحّ لجرس الهاتف رفعت ’’مريم‘‘ ذراعه.

كانت للتو قد عادت إلى شقتها، بعد نهار عمل طويل.

"هلو... نعم..."

وبدلاً من قدوم صوت بشري إلى أذنها، وصلتها، من مكان جدٌّ ناءٍ، وشوشة غريبة تتناوب في جرسها بين الهمس والصفير الناعم.

اجتاحها، في تلك اللحظة، (كما أخبرتني ’’مريم‘‘ لاحقاً)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

هاجس غريب بوقوع مصيبة ما... في مكان ما، جعل أنفاسها تحتبس في صدرها، ونبضات قلبها تتضاعف، فكادت تغلق الهاتف.

جاءها فجأة صوت متقطّع لجوج: "هلو... أنا محسن... أنا محسن... أنا..."

* * *

لم أنم أكثر من ساعتين حين رنَّ جرس الهاتف. كان عقربا المنبه المشعان يشيران إلى الخامسة صباحاً.

لا إراديا، أقحمتُ رأسي تحت الغطاء، مؤملاً النفس بانقطاعه بعد ثوانٍ قليلة، لكنه ظلّ يدق بإلحاح.

تراءى لي، للحظة، أن تكون ''هاجَر'' على الخطّ، لكني تذكرتُ، مستدركاً، ما لحق بكل مراكز الاتصالات الهاتفية من دمار في العراق، خلال أول الغارات الجوية عليه.

كان الصوت شبيهاً تماماً بصوتها لكنه أكثر استقراراً ورخامةً.

هل حزرتَ من يكون المهاتِف؟

وكأنها شعرت بحيرتي، فبادرت ساخرة من نفسها، لكنها كافية لأتعرف عليها فوراً: "بعد معاينة المرضى طوال النهار... تتقطع، عادةً، حبالي الصوتية في الليل..."

صمتت ثوانيَ بدت لي دهراً.

هُيِّئَ لي خلالها أنها كانت تبحث عن أنسب طريقة تخبرني فيها عما كنا جميعاً متخوفين من حدوثه في بغداد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هل سمعتْ خبراً سيئاً عن أهلي هناك؟

أخيراً نطقت الدكتورة ’’عالية‘‘: "هناك شخص هاتفَ ’’مريم‘‘ أمس... زعم أنه قريب زوجها..."

سألتُها ما إذا كان ’’أَسعَد‘‘ في البيت آنذاك.

"لا، طبعاً... هو خرج مباشرة بعد وصولها... أنت تعرف كم هو حريص على لقاء الأصدقاء المتقاعدين في ’’البَب‘‘..."

* * *

حال إغلاق الدكتورة ’’عالية‘‘ الهاتف، تسرب خدر ناعم في أطرافي وشعور غريب بالارتياح. هل لأن القنابل، التي تتساقط الآن بغزارة على بغداد، لم تُصِب، حتى الآن، أحداً من أفراد عائلتي الكبيرة؟

بدلا عن ذلك كانت المصيبة من حصة عائلة ’’أَسعَد‘‘.

فحسب شهادة ’’محسن‘‘ الذي استطاع الهرب بمعجزة إلى إيران، اختفى أثر والدَي ’’أَسعَد‘‘ في أول أسبوع من القصف الجوي المكثف.

وحين سألته ’’مريم‘‘ عما يمكن أن يكون حدث لهما، انتقل إلى موضوع آخر، لا صلة له بما سبقه: "سكان بغداد عادوا إلى حياة بدائية جدا..." قال ’’محسن‘‘، "لا مياه صالحة للشرب في الصنابير؛ لا كهرباء تشغّل براداتهم التي نتن فيها ما كدسوه من لحوم وأسماك ودجاج استعداداً للحرب... ومن تحت الأرض طفحت الشوارع بالأدران ممزوجة بالمياه العذبة بعد تدمير شبكات المجاري والأنابيب..."

انقطع صوت ’’محسن‘‘ وسط ضجيج يعلو وينخفض

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بانتظام، فراحت ’’مريم‘‘، دون جدوى، تستصرخه طالبة منه إيضاحاً أكثر عما حلّ بوالَدي زوجها.

"ما رأيك؟" سألت الدكتورة ’’عالية‘‘.

أتذكر أني حاولت التقليل من صحة ما زعمه ذلك ’’المحسن‘‘.

"لعله رجل مخابرات... يريد إقناع ’’أَسعَد‘‘ بالعودة..."

قالت طبيبتنا ضاحكة: "لا أعتقد... بالعكس، هو ربما يريد مساعدته حتى يصل إلى لندن..."

قبل توديعي وإنهاء المكالمة، ذكرتْكَ طبيبتنا: "ربما سمع ’’جليل‘‘ من ’’أَسعَد‘‘ باسم هذا الشخص..."

* * *

تحت وطأة قلق متنامٍ، لم تستطع ’’مريم‘‘ الاحتفاظ بسر"المكالمة" الغامضة، أكثر من يومين، توقعت خلالهما استئناف "القريب" المزعوم الاتصال ثانية، لكن الهاتف ظل صامتاً طوال الوقت.

"تعرف "شخص" اسمه ’’محسن‘‘؟" سألت زوجها لحظة انتهائهما من الفطور، وحين أجابها بالنفي، تنفست الصعداء، وقبل أن يستفسر عن سبب سؤالها قاطعته، وهي تتطلع في ساعتها اليدوية: ""رَحْ" أتأخر..."لازمْ" أَروح..."

وفي مكان عملها، مضى الوقت سريعاً عليها، حيث ظلت تتنقل من غرفة إلى أخرى في خدمة ساكنيها الميسورين، تساعد هذا الشيخ في استحمامه، وذاك في تبديل شراشف سريره، وثالثاً في حلاقة لحيته، ثم المشاركة في إعداد موائد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

الطعام، وإجلاس النزلاء حولها، وحال انتهائهم من تناول وجباتهم، أفراغ ما عليها من صحون وأدوات أكل، ومسحها، قبل إزالة كِسَر الطعام عن الأرضية المفروشة بالسجاد ثم كنسها بعناية...

لا أستبعد أن ''مريم'' راهنت، عند عودتها إلى البيت مساءً، على نسيان ''أَسعَد'' سؤالها، وطيّ صفحة ''محسن'' إلى الأبد، لكنها فوجئت به شخصاً آخر لا يمتّ بصلة لمن تعرفه منذ عشرين سنة. بدا لها كأنه مسكون بعفريت: وجه شديد الشحوب؛ عينان زائغتان؛ وشفتان ترتعشان لا إرادياً، بينما ظلت سيجارة مطفأة تتنقل لا إرادياً بين أصابع يديه.

غير أن أكثر ما أفزعها ذلك البكاء المتواصل، الصاخب، لابنتهما الصغرى التي لم تبلغ بعد السنتين.

هل نسي ''أَسعَد'' إطعامها، أو حتى إعطاءها رضّاعة الحليب الجاهزة، مثل كل يوم؟

* * *

صحوتُ على جرس الباب الخارجي: ثلاث دقات متعاقبة ثم صمت مطبق.

من يود زيارتي في هذا السبت غير "شهود يهوه"؟

من الفرجة بين ستارتي النافذة كنت أستطيع رؤية الغيوم الرمادية قريبة من سطوح البيوت المغطاة بالقرميد الأحمر، حيث تلاشت عنها طبقة الجليد تماماً، تاركة وراءها شعوراً بأنها مجرد حلم عابر عاشته هذه المدينة أياماً قليلة، خلال شتاء اعتبرته دائرة الأنواء الجوية أبرد فصل تعيشه هذه المدينة منذ عقود.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

رن الجرس ثانية، هذه المرة بإصرار أكبر.

ومن خلال عين الباب السحرية شاهدتُ رجلاً، بدا لي كأنه يسعى جاهداً إلى موازنة جسده، بالتشبث بحافة درابزون السلَّم.

هل تصدق إذا قلت لك إنه ''أَسعَد''؟

حال فتحي الباب تداعى مترنحاً صوبي، فكان علي أن أمسكه بقوة وأسحبه بتأنٍ إلى داخل الشَقّة.

بدا لي كأنه "مشرد" في طوره الأول، إذ ما زال يرتدي معطفاً لم تبلُ خيوطه تماماً، بينما لم تزل هيأته توحي بأنه لم يتّخذ، بعد، الشارع مسكناً ثابتاً له، على الرغم من طبقة السخام الخفيفة التي علت وجهه، والبقع الباهتة المنتشرة على ثيابه المجعلكة.

شيء واحد بقي حاضراً في ذاكرتي رغم مرور سنوات على زيارته الغريبة تلك: مزيج من عطن نادر ملأ هواء الشَقّة دون مشَقّة، تتخلله روائح متنافرة ناجمة عن كحول رديء وفضلات طعام وتبغ محروق وماريوانا حريفة وأمونيا مهيجة للعينين والمنخرين.

* * *

للأخبار السيئة أجنحة تمكنها من الطيران، حتى لو تقطعت خطوط الهواتف والبرقيات، وتهدمت الجسور والطرق، وتباعدت المسافات بين أفراد العائلة الواحدة.

هل ستغضب إذا كشفتُ لك أنّ ''هاجَر'' حدثتني عن حلمك المتكرر، حين هاتفَتْني من عمّان: أمك تحتضر وحيدةً في بيتكم القديم؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"الحلم قريب من التحقق، إذا لم تقع معجزة ما..."

لا بد أنك أسررتَ به لها خلال حديثكما الهاتفيّ، فلم تجد هي أيّ حرج في نقله لي.

مع ذلك، لم تسمح "ألوهيتك الأرضية" بإعطائها رقم هاتف أختك ‘‘وداد’’ المقيمة هناك مع أسرتها.

لعلهما كانتا ستدبران الحصول على الأدوية المخففة لأعراض مرض أمك، فتأخذها ‘‘هاجَر’’ معها إلى "بغداد".

لا أستبعد أن يكون حلمك ثمرة ما أخبرتك به أختك الصغرى عن تدهور صحتها، وانهيار شبه كامل للخدمات الصحية هناك: في المستشفيات، كما سمعت ‘‘هاجَر’’ من الهاربين غير العراقيين: الأطباء يبترون، تحت ضوء الشموع، الأطراف المهشمة من دون مخدر، والصيدليات أغلقت أبوابها... المرضى صاروا آخِر همّ لأفراد عوائلهم، طالما أن حفاري القبور ما زالوا يعملون بكل همة ونشاط.

الهمّ الأول والأخير لهم: البقاء على قيد الحياة يوماً آخر، تحت قصف جوي مكثف لم تشهد البشرية مثيلاً له كما أكد الجنرال ‘‘شوارزكوف’’: في أول عشرين يوماً من "الحرب" شن طياروه 41 ألف غارة جوية على عدوهم "الضرير": أي بمعدل غارتين تقريباً في كل دقيقة.

* * *

أفاق ‘‘أَسعَد’’ أخيراً، بعد رقاد طويل على السرير الضيق الذي ضم ‘‘هاجَر’’ قبله، ولا أستبعد أنه شمّ ما تبقى من نثيث رائحتها المبثوث بين الشراشف والوسادتين والأغطية السميكة،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وحين فتح عينيه شاهد بعضاً من ثيابها وحليها الاصطناعية المنثورة هنا وهناك في الحجرة الصغيرة.

هل حركت شيئاً ما في أعماقه؟

جلسنا في المطبخ، وجهاً لوجه، تفصلنا مائدة الإفطار الصغيرة، وكأن روائح الشاي والخبز المحمَّص والجبنة أشعرتني بأن سنين مرت على لقاءنا الأخير هنا، يوم بدء الحرب، لا مجرد شهر واحد.

قال ’’أَسعَد‘‘ بنبرة يغشاها الحياء والمزاح معاً: "كم ساعة نمتُ؟"

"كثيراً،" أجبته ضاحكاً، بينما راحت يداي تُعدّان له سندويشاً صغيراً.

للحظة، اِسترجع صديقك الأقرب روح الهزل المتأصلة في طبعه: "بالتأكيد، أكثر من أهل الكهف..."

حتى وهو يرتشف الشاي شديد الحلاوة، كانت عينا ’’أَسعَد‘‘ تتطلعان باستغراب إلى منامته التي ارتدتها ’’هاجَر‘‘ قبله.

"أرجو ألا أكون..."

قاطعتُه قبل أن يكمل جملته: "اليوم أحد.. والمدينة تكون ميتة عادة.. أنا استأنستُ بزيارتك..."

استرجعت عيناه فجأة تلك الدهشة الطفولية التي ظلت علامته الفارقة: "لا أتذكر كيف وصلتُ إلى شقتك... هل جئتُ وحدي؟"

كدتُ أستفسر منه إن كان يتذكر استلقاءه، أمس، في حوض الحمام المملوء بماء شبه ساخن، تطفو على سطحه رغوة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

سميكة من الصابون، بينما تفرك يداي فروة رأسه المتغضنة بالشامبو، لكني تداركتُ نفسي، فالتزمتُ الصمت.

* * *

ما زال اختيار ''أَسعَد'' شقتي، بالذات، لغزاً حتى اليوم.

ألم يكن أجدر بعقله الباطن أن يقوده إلى مسكن أحدكما أنتَ أو ''ماهر''؟

خلال ساعات النهار القصير، ظل ضيفي على غير عادته صامتاً، ساهياً رغم تغير قسمات وجهه بين دقيقة وأخرى: شحوب تعقبه حمرة؛ ابتسامة واسعة يليها تجهم شديد؛ أو إغماض لعينيه أكثر من دقيقة ثم فتحهما، فيمضي محدقاً في الفراغ من دون الانتباه لوجودي أمامه جالساً على بعد ذراعين عنه.

في ذلك الأحد كانت الكنيسة القريبة من شَقَّتي سخية في قرع ناقوسها، ولا أستبعد أن تكون هناك أكثر من مناسبة استدعت ذلك: الدعوة للصلاة أو الاحتفال بعقد زواج كنسي فيها أو ربما الإعلان عن بدء طقوس جنازة ما.

لعلك ستستغرب إذا قلت لك إن أذنَي ''أَسعَد'' الشديدتَي الفضول تجاهلتا تكرار ذلك الرنين الصاخب.

إنه هناك معلَّق وسط شَرَك نسجه عنكبوت حاذق.

"ما رأيك بزيارة ''پَب'' المحلة الصغير؟"

ولم تكن إجابة صديقك سوى ابتسامة منكسرة علامةً على قبوله بعرضي.

قلت، متداركاً لحظة نهوضه من الكرسي، بنبرة اعتذارية:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

"ملابسك المغسولة جفت على الراذْيَتَر..."

* * *

بدت المسافة بين شَقَّتي والحانة أطول مما كانت عليه في الواقع.

لعل ذلك بسبب الضباب الذي هبط بهدوء على المدينة، محولاً ضياء مصابيحها إلى سديم أصفر شفيف، والأشجار العارية الأوراق المصطفة على حافة الرصيف إلى كائنات خرافية عملاقة تمس بذرى أذرعها سماء شديدة القرب من الأرض: كأننا كنا أنا وصديقك الأقرب نشهد لحظة ولادة الحياة لأول مرة هنا على هذا الكوكب.

شيئاً فشيئاً حل الكحول عقدة لسانه.

كان أمامنا أقل من ساعتين قبل أن تغلق الحانة أبوابها.

آنذاك بلغ نديمي لحظة التحليق عالياً: "ألا يمكن أن يكونا سافرا إلى مدينة ديالى لزيارة أختي وأسرتها، أو إلى البصرة لاستطلاع أخبار أخي الأصغر ''زياد'' في الجبهة؟"

ولم يكن ''أَسعَد'' يعني أحداً سوى والديه.

"كيف تثبت أنهما قُتلا أثناء قصف جوي إذا لم يكن هناك أثر لهما؟"

"أنت على حق... علينا أن ننتظر حتى تنجلي الأمور..."

"وكيف تنجلي؟"

"أعني حتى تتوقف الحرب... الآن كل وسائل الاتصال مدمرة: الجسور والطرق والهواتف..."

«منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

قاطعني ''أَسعَد'' مؤيداً: "حتى مستودعات الوقود... السيارات لا تتحرك بدونها..."

غير أن عفريتاً غاضباً سكنه فجأة: "كان "ممكن" تأجيل سفرهما حتى انتهاء الحرب لولا ''مريم''... كل ليلة تقضي ساعات في الفراش متشكية من تدخلات أمي في حياتنا..."

مضى يعدد ما فعلته زوجته كي تنفّر والديه من البقاء فترة أطول معهم: فرْض قائمة ممنوعات على كل منهما، كمنْع أمه من إعداد الطعام بحجة أن الأطفال لا يحبون طبخها؛ أو منْع أبيه من الجلوس في المطبخ حين تكون هي هناك لأن المكان ضيق.

ومثلما هو الحال مع بندول الساعة عند انزياحه إلى أعلى نقطة، انقلب مسار حديثه رأساً على عقب؛ لكأن عفريتاً أقسى من سابقه، تسلم سوط العقاب فراح يجلده بعنف، ولا أستبعد أني اختفيت تماماً عن نطاق بصره: "كان بإمكانك منعها... أنت في نهاية المطاف ربّ الأسرة..."

كانت عينا ''أَسعَد'' المحمرتان مثبتتين على رغوة الجعة فوق كأسه، كأنه يرى انعكاس صورته عليها، بينما ارتفع صليل الكؤوس ووشوشة المشروب المسكوب فيها حال قرع جرس الحانة مذكراً بقرب التوقف عن خدمة الزبائن.

بدا لي كأن ''الآخَر'' يوسوس في أذنه موبخاً، فيردد هو كلامه بعبارات مفككة: "لو قضيتَ وقتاً... أطول معهما... ما تجرأتْ ''مريم'' على الإساءة إليهما... بدلاً عن ذلك... بقيتَ حريصاً أكثر على متقاعدي ''البجعة السوداء''..."

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عند عودتنا إلى شقّتي حدث ما لم يكن متوقَّعاً: تلبست ''أَسعَد'' سكينة غامضة: لحظة تصالح مع ذاته جعلته شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي جالسني في الحانة.

"هل تظنهما سيكونان سعيدين لو بقيا معنا؟"

وحين أجبته بالنفي، مثلما كان يتمنى، طفحت علامات العرفان بالجميل على عينيه الدامعتين، بينما انفرجت أسارير وجهه، وعلت بسمة باهتة شفتيه.

أسمعه، بعد لحظة صمت، يردد صوت عفريت آخر، ألطف وأرحم ممن سبقاه: "يجب أن نتقبل حقيقة انقطاع الأواصر بيننا وبين أهلنا... نحن مثل الموتى هنا بالنسبة لهم، لا تجمعهم بنا سوى الذكريات..."

حتى مع إغلاق النافذة الواسعة في غرفة الجلوس وانسدال الستارة تماماً أمامها، ظل هفيف المطر الناعم يتسلل بدأب إلى آذاننا: "ألا تجد أن بيتنا كان مثل السجن بالنسبة لهما... بين أحفاد ينفرون منهما دائماً، وأم تعمل في خدمة كبار السن بدلا من العناية بهما..."

أضاف ''أَسعَد'' بنبرة ساخرة: "وطبعاً، ابنهما البكر يخدم الأطفال في النهار... ويقضي مساءه مع المتقاعدين الأغراب بدلا عنهما..."

* * *

استيقظتُ عند الضحى.

كانت أصوات الأطفال وصرخاتهم من الروضة المجاورة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ترشح عبر زجاج النافذة المضعَّف، ناعمة بنعومة مطر ليلة أمس.

قبل ذهاب كل منا إلى فراشه ردد ”أَسعَد“ بمرح طاغ، مطلع معلقة عمرو بن كلثوم: "ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولًا تُبقي خمور الأندرينا..."

لا بد أن تذكُّره لذلك البيت جاء بعد نفاد آخر قطرة نبيذ موجودة في شقتي.

افترضتُ أن ضيفي ما زال غارقاً في نوم عميق.

ومثلما أفعل كل يوم، لتسلم جرعتي الصباحية من الحرب. فتحتُ لا إرادياً تلفازي المركون في إحدى زوايا غرفة الجلوس.

ظهرت أمامي طائرات حربية تهبط في مطار مجهول، بعد أداء مهامها، وسط ظلام دامس، بينما ظلت عيونها البراقة تومض بأكثر من لون.

وأنا جالس على الكنبة الكبيرة، التفتُّ صدفةً إلى طاولة القهوة الصغيرة الموضوعة أمامها. أثارت انتباهي وسط الأشياء المبعثرة على سطحها قصاصة ورق واقفةً بين زجاجتي نبيذ فارغتين.

هل تصدق إذا قلت لك إنها رسالة من ”أَسعَد“؟

أغرب ما فيها كان القلم التي كُتبت به: إنه أحد أقلام أحمر الشفاه الذي تركته ”هاجَر“ وراءها، فكأنه لم يجد وسيلة أخرى لنقش كلماته القليلة على الورقة المجعلكة التي استخرجها من سلة مهملات صغيرة في المطبخ: "شكراً على الضيافة... وداعاً..."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المظروف الأخير

أخبار متأخرة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

للحياة وقت...

لو كانت نظرية ''عمّو'' صائبة لضمنّا، في المستقبل البعيد، لقاء آخر يجمعنا على كوكب آخر، يسبح في كون متوازٍ آخر، بجاذبية أقل مما هي على كوكبنا الأرض.

سنكون آنذاك أخفّ مما نحن عليه هنا؛ أقل قسوةً وعاطفةً، وربما متحررين من أيّ شعور بالذنب.

أستمعُ إلى ''أسعَد'' وهو يحاور ''عمّو'' على الكاسيتات.

كل شيء يوحي بأنهما يتطارحان، للتوّ، أطراف الكلام، لا قبل سنوات.

ما زال ''عمّو'' جالساً على مصطبة تقابل الأدميرال ''نيلسون''، حين انقطع صوت ''كاثرين'' عنه.

ضباب شفيف يتلبس الساحة، فيوقظ للحظة شياطين الشكّ في رأسه: هل تسير البشرية فعلاً على عتبات متدرجة أعلى فأعلى صوب هدفها النهائي: زوال الطبقات وزوال الاستغلال إلى الأبد؟

ألا يعني سقوط جدار برلين خيانة العمال لممثليهم الحقيقيين: الارتماء في أحضان الرأسمالية ثانية بدلا من دفنها؟

تتلبسه قناعة غريبة فجأة، فيمضي بمجادلتها دون جدوى: لم تكن كل التضحيات التي قدمها منذ أكثر من نصف قرن سوى عبث محض.

لكأن هؤلاء الشباب المحتفلين بسقوط الجدار يوقظونه من وهْمٍ صاغ مجمل حياته.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تمتد يده صوب زجاجة "التربنتين"؟

روح غاضبة تسكنه.

ها هي أصابع يده اليمنى تسحبها بهدوء من جيبه.

تتعاون أصابع اليدين على فتحها.

تلتفّ قبضة يده اليسرى حولها، ثم بهدوء تبدأ بسكبها فوق رأسه.

رائحة السائل النفاذة تستنفر خياشيم أنفه، وتستفز بياض عينيه، فتسيل منها الدموع.

تفتشُ أصابعه، دون جدوى، عن قدّاحة أو علبة كبريت، في كل جيوبه.

يسأل أكثر من عابر عن أي منهما، فيأتيه الجواب بالنفي.

غير أن أحدهم حدق فيه طويلاً، وانفتح فمه عن استغراب شديد، بينما اتسعت حدقتا عينيه: "إنه يريد حرق نفسه هذا الشيخ المجنون،" صرخ بأعلى صوته.

يتحلق حشد من السابلة حوله، يتصاعد لغطهم، بينما تتعثر الكلمات في فمه.

ينطلق الكل أمامه بالدوران: الناس والكاتدرائية والنافورة ونصب ’’نيلسون‘‘ والاسدان الغرينيتيان. يسمع أحدهم محذراً: "ابتعدوا عنه... قد يُشعل نفسه وسطكم في أي لحظة..."

غير أن الجاذبية الأرضية كانت هي الأقوى، ومعها تباطأت حركة الأجسام حوله حتى توقفت أخيراً.

جسده مطَّرَح على بلاطات الساحة الباردة، ومن فوق تناوشته، لثوانٍ، أعين المارة وأصواتهم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

كم بدت له كأنها الأبدية.

* * *

يعود الخريف مرة أخرى إلى لندن، أهدأ من سابقه.

ومثلَ كل سنة، تختار كل شجرة يوماً محدداً، تقطع فيه نسغ الحياة عن نفسها، حتى إشعار آخَر.

غير أن أوراقها تقاوم قوة الجاذبية الأرضية، مفضلةً التشبث بها حتى تلفظ عروقها الرابطة بها آخر أنفاسها.

حينذاك، تكون هي نفسها اكتسبت لوناً آخر غير الأخضر يتدرج ما بين الأصفر الباهت، والقرمزي الغامق، فتُقبِل الشجرة على نشرها ببذخ ولا مبالاة مفرَطَين فوق الأرصفة والطرقات، إعلاناً عن احتفالها بقدوم الشتاء.

لم يأت لقائي بالدكتورة ''عالية'' و''ماهر'' إلا بمحض الصدفة.

كانت "الحرب" قد وضعت أوزارها منذ أشهر لم أرَ خلالها أياً منهما.

أذكر أنهما جاءا معاً لحضور مزاد فني، نُظِّم في كنيسة صغيرة، دعماً لأطفال العراق المرضى بسبب الحرب الأخيرة.

ولم يكن وجودي هناك إلا لأني تبرعتُ بعدد قليل من لوحاتكَ لصالح ذلك المشروع، مفترضاً أنك ستُسَرّ "عن بُعْدٍ" بمبادرتي.

هل ستستغرب إذا قلتُ لك إن ''ماهر'' اشترى كل لوحاتك المعروضة، أو هكذا بدا لي أولاً، إذ ظل وحده يزايد على أسعارها قبل توقف الآخرين عن التنافس معه؟ أما الدكتورة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

’’عالية‘‘ فقد ظلت عيناها قلقتين، متوجستين، من ضياع فرصة الحصول عليها جميعاً.

كم كنتُ ساذجاً حين افترضتُ أنها فوضت "غريمك الأزلي" أداء مهمة شراء أعمالك المعروضة على جدران الكنيسة، من دون وجود أي آصرة تجمعهما أكثر من الصداقة.

* * *

بعد انتهاء المزاد، ذهبتُ معهما إلى مقهى "كافيه روج" القريب من الكنيسة.

ولعل جلوسي أمام الدكتورة ’’عالية‘‘، حول الطاولة المستديرة التي جمعتنا، سمح لي باكتشاف التغييرات على ملامحها: تسريحة شعر شبابية مختلفة عما ألفنا رؤيته من قبلُ؛ وحول العينين تعمق الكحل بينما استطالت قليلاً رموشها السوداء.

كم بدت لي بشرة وجهها صفحة بيضاء ناعمة، تلاشت الغضون الخفيفة عنها.

ولعل ما شدني أكثر من أي شيء آخر فيها لون الحمرة الفاقع الذي غلف شفتيها، والوجنتان اللتان استعادتا شكلهما المغري كما في بورتريتها الذي شاهدته عند زيارتي الأولى لبيتها.

لا بدّ أنها لمحت دهشة ما في عينيّ، وأنا أحدق بالخاتم الذهبي في بنصرها الأيسر. طفحت حمرة إضافية على خديها، كأن شعوراً بالحرج خامرها لعدم إخباري، من قبلُ، بزواجهما. تبادلت نظرات صامتة مع ’’ماهر‘‘ حاثةً إياه على الكلام بالنيابة عنها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"ما عملنا حفلة أو أي شيء كهذا،" تمتم ''ماهر'' بنبرة لا مبالية، "بعد عقد القران في البلدية سافرنا في اليوم الثاني إلى فينيسيا... أنت تعرف... ظروف الحرب وما حدث لـِ... لم تسمح بأي احتفال..."

حتى من دون ذكر اِسميكما، تسللتما إلى طاولتنا.

ارتفعت غمامة خفيفة من الحزن على وجه الدكتورة ''عالية''، بينما انحرفت عيناها بعيداً عنا صوب أرضية المقهى المغطاة بالخشب اللماع، عادت التجاعيد الخفيفة إلى الظهور على جبينها، وهبط الصمت علينا، وسط الهمهمات والضحكات المتصاعدة من رواد المقهى حولنا.

لكأن شجرة السنديان الواقفة عبر الشارع، على حافة الرصيف، أرادت هي الأخرى أن تواسينا بطريقتها الخاصة، فراحت، (بفضل نفحة ريح خريفية)، تنفث بغزارة أوراقها الصفراء التي تطايرت في جميع الاتجاهات.

أتذكر كيف أن ''ماهر'' مد راحة يده ووضعها فوق كف الدكتورة ''عالية'' المستند إلى حافة الطاولة، وكيف أن عينيها المضببتين، من تحت نظارتها الأنيقة، التفتتا، لحظةً، صوبه بذهول، قبل أن تنفرجا عن ابتسامة عذبة.

لكأني قرأتُ في نظرتها الأولى تلك، استغراباً من أن يكون الجالس بجانبها هذا "الغريب" بالذات بدلاً عنكَ، حتى لو كانت تعرف أن عاطفتها نحوكَ حب خالص من طرف واحد، لا أمل في أن تستجيب يوماً له، على الرغم مما يجمعكما من آمال مشتركة لمستقبل البشرية.

مع ذلك كان وجودكَ معها في نفس المدينة يمنحها أحساساً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

شبيهاً بإحساس مدمن "اليانصيب" الذي يظل طوال حياته حالِماً بكسب الجائزة الكبرى، حتى لو بقي من عمره يوم واحد.

* * *

فتحتُ ذات يوم صندوق بريدي المثبَّت على الجدار مع صناديق الشقق الأخرى في مدخل البناية.

كان القصف الجوي آنذاك سائراً على قدم وساق، بينما بدأ الجنرال ’’شوارزكوف‘‘، يبشر مشاهدي شاشات التلفزيون، في شتى أنحاء العالم، باقتراب أجل الهجوم البري الشامل.

في المقابل، رفض ’’بوش‘‘ بقوة مشروعاً سوفياتياً لإنهاء الحرب، يَخرج العراق منها بلا أيّ عقوبات دولية، مقابل انسحاب فوري لقواته من الكويت.

لم يكن في الصندوق شيء سوى مفتاح شقَّتك، ورسالة مقتضبة: سطرين فقط، مع وكالة رسمية تخولني بتصريف أمورك المعلقة في لندن.

"حين تصلك هذه الرسالة نكون أنا و’’أَسعَد‘‘ قد غادرنا هذه الجزيرة... أترك كل لوحاتي معك تتصرف بها كما تشاء".

قد لا تتفق معي إذا قلتُ إن قراراتنا تتحدد، غالباً، في تلك اللحظة بالذات، حين تقفز إلى رؤوسنا يافطتان: "نعم" و"لا"، تجاه قرار مصيري طرحته ربات القدر علينا، وحال تبنّي واحدة منهما، نمضي بلا هوادة في تحقيق ذلك الخيار، أو الإحجام القطعي عنه، كأن شخصاً آخر يسوسنا، عن بعد، بينما نحن نكون خلالها مغمضي العيون.

«منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وإلّا كيف أستوعبُ قرارك بالعودة إلى العراق، من دون إخبار أي من أصدقائك في لندن؟

هل السبب رحيل ’’هاجَر‘‘ المفاجئ عنها؟

أو مرض أمك الخطير وتوقك لرؤيتها قبل فوات الأوان؟

وفي حال وفاتها، تحمُّل مسؤولية الاشراف على جنازتها باعتبارك رجل البيت؟

أو ربما كلا السببين؟

أو ما بينهما؟

ولعلك ظننتَ أنّ ’’سَدَم‘‘ سيغضّ النظر عنك، لرجوعك طوعيّاً إلى بغداد، وهي تحترق، بينما يهرب الكثير من أتباعه إلى دول الجوار طلباً للأمن والراحة.

* * *

استذكرنا خلال ذلك اللقاء ما حدث لأَسعَد بعد انسلاله من شَقَّتي صباح ذلك اليوم الغائم، الضبابي.

كنتُ مقتنعاً أنه رجع إلى أسرته.

كم بدا لي هادئاً، ومتصالحاً مع نفسه، حين ذهب كل منا إلى فراشه.

وكم كنت محقاً في تصوري!

قال ’’ماهر‘‘: "بقينا يومين نفتش عنه في كل الشوارع والمستشفيات ودور المشردين..."

قالت الدكتورة ’’عالية‘‘: "أخيراً وجدناه مع ثلاثة منهم بالقرب من محطة ’’يوستن‘‘..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لا بـد أن غُصـّـة انتابتهـا، جعلـت صـوتها يتحشـرج، فأخـذ ‘‘مـاهر’’ خيط الحديث منهـا: "أحـدهم كـان يسـتجدي، والثـاني أمامه كلب هزيل، والثالث ينام على فراش عفن..."

اسـترجعت طبيبتنـا قـدرتها علـى الكـلام: "رفـض ‘‘أَسـعَد’’ الرجوع إلى بيته..."

لمحتُ دمعتين على حافتي جفنيها السفليين، سعت فوراً إلـى مسـحهما بمنـديل ورقـي. قالـت بصـوت ضـعيف، مترقـرق: "وأَصَرَّ على الذهاب عنده..."

وبالطبع لم تكن تعني أحداً سواكَ.

* * *

قد لا تصدق أنهما تجنبا ذِكْر ‘‘هاجَر’’ طوال جلوسنا معاً فـي المقهى.

مع ذلك كانت حاضرة بيننا.

اسـتدركتُ كيـف أن الـدكتورة ‘‘عاليـة’’ كانـت تقلـد نبرتهـا، وحركـة يـديها، وعفويتهـا، ناهيك عـن استنسـاخ كزبـرة شـعرها ولونه، وارتداء ثياب فضفاضة كملابسها.

كم كنـتُ محظوظـاً أن أرى طيـف ‘‘هـاجَر’’ يحضـر ويغيـب بين لحظة وأخرى، في ملامح أمها المصطنعة: تلكما الغمازتـان المشـرقتان مـن وقـت إلـى آخـر، والعينـان المتقـدتان، بطرفيهمـا المنسلَّين قليلاً إلى أعلى، ما يمنحهما سحراً وبهاء نادرين.

غير أن ذبذبات الصوت القادمـة من حنجرة طبيبتنـا أوهمت ذاكرتي بأني أصغي لابنتهـا البكر فـي آخر ليلتهـا عنـدي، علـى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الرغم من الفارق في درجة الصفاء والرخامة الناجمة عن فارق العمر.

ألا تتفق مع رأي ''ماهر'' الذي ردده يوماً أمامنا: "الجينات عبارة عن جهاز استنساخ حريص على نقل أتفه التفاصيل للأبناء؟"

إذن أين هي حرية الاختيار؟

* * *

لا أستبعد أن ''ماهر'' لاحظ شرودي من دون أن يعرف السبب حين سألني: "هل سمعتَ بما حدث لجنودنا الذين كانوا في الخنادق الأمامية؟"

أجبته بالنفي، قبل أن أُتمتم: "منذ انتهاء الحرب لا أفتح الراديو أو التلفزيون إلا ما ندر..."

"المحطات تجنبت إثارة هذا الموضوع تماماً،" قال ''ماهر'' مستدركاً، "هنا، نشرت صحيفة أو صحيفتان فقط عن دفن الجنود وهم أحياء، قبل شهر واحد فقط..."

ولا بد أنه اعتبر سكوتي دليلاً على جهلي بتلك الأخبار، لأني امتنعت أيضاً عن شراء الصحف، مما دفعه للاستطراد في نقلها لي، بينما ظلت عينا الدكتورة ''عالية'' تَسقطان على عينيّ، من وقت إلى آخر، استكشافاً لتأثير ما كنت أسمعه عليّ.

* * *

لم يكن الشرود الذي ظل يُخرجني عن التواصل معهما

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

سوى سؤال ظل ينوس في رأسي كذبابة لحوح أمام صحن مملوء بالطعام.

لو أني أخبرتك منذ البدء عن سبب مغادرة ''هاجَر'' لندن، ألن يكون ذلك رادعاً كافياً يمنعك من العودة إلى بغداد؟

أُنصتُ إلى صوتها المتقطع ما بين النشيج والضحك والسعلات الجافة القصيرة، يأخذني بعيداً عن غرفة الجلوس، التي جمعتنا معاً للمرة الأخيرة، (بينما يلفظ الليل آخر أنفاسه،) إلى بغداد: إلى بعض أيام تلك الحرب* التي سجلت رقماً قياسياً في مدتها وعدد قتلاها: ثماني سنوات، ونصف مليون، في بلد لا يزيد عدد سكانه عن الاثني عشر مليون نسمة.

خلال تلك الفترة، (كما وصفت ''هاجَر'')، فقدَ الكثير من الناس القدرة على التمييز ما بين الأسى والسرور، فهم اعتادوا على تشييع قتيل في الصباح، وفي مساء اليوم نفسه، حضور عرس في مكان آخر؛ اعتادوا على مبادرة بعض الآباء بتسليم أبنائهم الهاربين من الخدمة الإجبارية في الجيش، تجنباً لأن تُعاقَب أسرهم بالكامل، ولن تمضي فترة طويلة قبل أن تُعاد فلذات أكبادهم إليهم في نعوش مغلقة، ملفوفة بالعار.

بالطبع، كنا جميعاً جاهلين بهذه الحقيقة :''هاجَر'' متزوجة منذ ما يقرب من عقد، ولها بنت في سن السادسة.

مع ذلك، لا بد لي أن أذكر أن زواجها المبكر، (رغم أنها ما زالت طالبة جامعية) لم يكن إلا وسيلة للتحرر من شعور ملازم لها، بأنها عبء على أسرة خالتها التي كانت تعاني من

* الحرب العراقية الإيرانية (1980-1988)

«AlfYaa» منشورات «ألف ياء»

ضيق الحال، في وقت تنعم أمها الحقيقية وأختها ’’سارة‘‘ بالرفاهية والأمان بعيداً عنها.

تعرّفت ’’هاجَر‘‘ على الطبيب ’’هاني‘‘، خلال حفل تخرّج نظمته كليتها. ولم يأتِ حضوره الّا لأن أخته ’’هند‘‘ كانت من متخرجي تلك السنة، وفي الوقت نفسه، كانت صديقتها الأقرب.

هل كان يحتاج هذا العاشق المولـه، حتى النخاع، لأكثر من ستة أشهر كي يقترن بها؟

* * *

ابتدأ ’’ماهر‘‘ حديثه عما قرأه قبل أسبوعين في إحدى صحف الأحد، وكعادته دائماً أطلق أولاً

"حكمة" مبتذلة كررتها المحطات مراراً من قبلُ: "إذا وقعت شجرة في غابة من دون أن تصورها كاميرا ويراها الناس على شاشاتهم فإنها ما زالت سليمة..."

قبل انطلاق الحرب البرية بيوم واحد، كان هناك أكثر من 8 آلاف جندي عراقي مقيمين قسراً في خنادق تمتد على الخط الحدودي الفاصل مع السعودية.

وبعد مضيّ يوم واحد عليها، ذُهل ’’ليون دانييل‘‘، مراسل "وكالة يونايتد بريس الدولية"، عند رؤيته اختفاء تلك الخنادق التي سوّيت تماماً مع ما يحيطها من أرض رملية، من دون مشاهدة أيّ أثر لساكنيها.

لقد سبق لدانييل أن غطى الحرب في فيتنام، واعتاد أن يشاهد، حال انتهاء أي معركة، جثث القتلى متراكمةً واحدةً

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

فوق الأخرى، مثل أخشاب الحطب، لكنه هنا في هذه الصحراء، وبعد هجوم ضارٍ ظل يسمع دوي انفجاراته عن بعدٍ، طوال ساعات اليوم السابق، لم يكن هناك أي أثر بشري: كل شيء بدا نظيفاً حيث لا أثر هناك حتى لروائح الفضلات واللحم العطن، ولا أي بقع دم.

سأل مراسل الـ "يونايتد بريس" أخيراً الضابط المسؤول عن العلاقات العامة: "أين الأجساد؟" أجابه الآخَر بامتعاض ملموس: "أيّ أجساد؟"

* * *

عاد الطبيب الجراح ''هاني'' إلى بيته أخيراً بنصف جسد أو أقل قليلاً.

مع ذلك استقبلته أمه وأخواته بالزغاريد ورمي السكاكر على رأسه، بينما ظل هو صامتاً على كرسيه المتحرك، تنفرج شفتاه بين لحظة وأخرى عن ابتسامة باهتة.

كانت الحرب في أوجها حين استُدعي زوج ''هاجَر'' لأداء خدمة الاحتياط.

مضت سنتان عليه وهو يعمل في مستشفى عسكري داخل العاصمة، وخلالهما عاش الزوجان حياة شبه طبيعية، تُوِّجت بولادة ابنتهما الوحيدة، ''سلوى''.

فعدا عن تلك الليالي التي تتطلب من الطبيب الشاب قضاءها في مكان عمله، حين يرتفع عدد الإصابات فجأة بعد حدوث معركة كبيرة، كان في أغلب الأحيان يبيت في منزله.

هل كانت وشاية أم حاجة حقيقية حين نُقِلَ الطبيب ''هاني''

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

إلى مركز طبي متنقل، قريب من خطوط القتال الأمامية؟

* * *

وأنا أستمع إلى ’’ماهر‘‘، حضرتني، ككابوس بغيض، يافطتَي"نعم" و"لا"، فانقطع صوته عن أذني لحظة أو لحظتين.

أمام تقدم صف الدبابات المزودة بالجرافات، نحو تلك الخنادق المشؤومة، كان على المقيمين فيها، أن يقرروا خلال ثانية واحدة، بينما هم يرون كثبان الرمل تندفع صوبهم، أمراً من اثنين: "نقفز من حُفَرنا مستسلمين أم لا نقفز؟"

ثانيةٌ واحدةٌ تفصل ما بين أن يُدفنوا أحياءً أو ينجوا!

ألتقطُ حديث جليسي ثانيةً. أتذكر أنه تحدث عن ضابط أمريكي، كان قد شاهد الخنادق قبل تسويتها تماماً، واستطاع كتمان السر ستة أشهر، لكنه لم يستطع تحمل ذلك المشهد الجاثم في رأسه، مثل خلية سرطانية، أكثر من ستة أشهر عن حدوثه: "ما رآه العقيد ’’أنتوني مورينو‘‘، كان مجموعة من الخنادق المدفونة بالرمل، مع أذرع وسيقان بارزة منها..."

أضاف ’’ماهر‘‘، قطعاً لذلك الصمت الثقيل الذي هبط علينا، وسط ضجيج رواد المقهى حولنا: "في الوقت الذي كان جنودنا مقطوعين تماماً عن العالم، ظلت فرقة أمريكية تتدرب مدة أسبوع، بالقرب منهم، على كيفية دفنهم أحياءً داخل خنادقهم..."

* * *

خلال حرب الثماني سنوات التي ابتدأها ضد إيران، تشكلت قناعة مطلقة لدى ’’سَدَم‘‘ بأن أفضل وسيلة لعرقلة تقدم العدو هي الخنادق، فهي تشبه الألغام المزروعة التي لا تستطيع

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

عيون الراصدين الواقفين على نفس السطح الأفقي رؤية ما في داخلها.

غير أنّ ''بوش''، بما في حوزته من أقمار صناعية تستطيع النظر عمّودياً إلى الأرض، حوّلَ خنادق ''سَدَم'' إلى "أخاديد"، فكشف عمن يقيم فيها، وعما كانوا يفعلون هناك.

كان الطبيب ''هاني'' يسكن ويعمل في مشفى داخل خندق محصّن، ومزوَّد بمولدات كهربائية.

فلذلك، تعددت الأقاويل عن كيفية إصابته.

الشيء الوحيد المتفق عليه هو أنه كان الناجي الوحيد (بمعجزة) من بين كل زملائه الذين اختلطت دماؤهم وعظامهم ولحومهم بعضها ببعض.

يحضرني صوت ''هاجَر'' الخفيض المتحسر: "لو أن الإصابة كانت تحت عشرة سنتمترات فقط لسلمت ركبتاه..."

إذ بغيابهما أصبح ''هاني''، حبيس الكرسي المتحرك طوال حياته.

ولعل أمه استشعرت حاجة ابنها إلى من يعينه طوال ساعات اليوم، فاقترحت عليه عودته إلى بيت "العائلة"، بينما سكنت ''هاجَر'' وابنتهما ''سلوى'' مع خالتها ''منيرة''.

لكأنه انفصال صامت مناسب للجميع.

* * *

لستُ متأكداً متى حضر ''عمّو'' في حديثنا.

لعلي كنت أتابع صورنا المتعددة التي انتشرت على الجدران

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المغطاة بالمرايا، حين راودني الاستفسار عنه.

"هو انتقل إلى دار لكبار السن،" تمتمت الدكتورة ’’عالية‘‘.

بدت للحظة مرتبكة.

أضافت رفيقتك: "هو بدأ ينسى كثيراً، وصار يحتاج إلى عناية أكثر..."

استدركت طبيبتنا منبهةً: "كنا محظوظين... حصلنا له على غرفة بنفس الدار التي تعمل ’’مريم‘‘ فيها..."

ارتسمت ابتسامة على وجهها: "الحمد لله، هو ما زال يعرفني..."

وكأن ذكر ’’مريم‘‘ جرني للسؤال عن أُسرة ’’أَسعَد‘‘.

"كانت الشهور الأولى صعبة عليهم..." قال ’’ماهر‘‘ بنبرة خافتة، حادة، كأنها تتضمن عتاباً ما على "تقصيري" تجاههم، غير أن الدكتورة ’’عالية‘‘ تدخَّلت معتذرةً ضمنياً: "في آخر المطاف، الحياة تفرض قواعدها وتستمر..."

مضت آنذاك بأسلوبها السَّمِح المتفائل، تتحدث عن تحسن أوضاعهم. كيف أنها أرسلت ’’جانيت‘‘ التي كانت تعتني بخالها إليهم، للعناية بأطفال ’’أَسعَد‘‘.

في المقابل، ضمنت هي اهتمام ’’مريم‘‘ الخاص بـ ’’عمّو‘‘ في دار كبار السن.

عاد صوتها مُطَمْئناً: "هل تصدق إذا قلت لك إن البنت البكر ’’أمل‘‘ حلت محل والدها تماماً في متابعة إخوتها الثلاثة وأختها الصغرى ’’زينة‘‘؟"

علق ’’ماهر‘‘ مقاطعاً: "بل وأحسن..."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ولعلي أردتُ، آنذاك، تغيير مجرى الحديث، حين سألتها عن ’’سارة‘‘ وصهرها ’’جوناثان‘‘.

أتذكر كيف حاولت طبيبتنا تقليص حديثها عن أسرة ابنتها أقصى ما يمكن: "هم الآن في كاليفورنيا..."

قال ’’ماهر‘‘: "زوجها حصل على عمل مغرٍ هناك..."

لكأنه أراد بإجابته الموجزة تلك، منعي من الاستفسار عن طبيعة ذلك "العمل المغري".

فجأة، سطعت مصابيح الثريات بشدة في المقهى الفرنسي، (مثل قاعات السينما عند انتهاء الفيلم،) تذكيراً لنا بحلول وقت إغلاقه. ولا بدّ أن المرايا الجدارية ساعدت على جعل المكان أكبر بكثير مما هو عليه في الواقع.

"لنشرب في صحة أحبائنا الأحياء،" قالت الدكتورة ’’عالية‘‘، وهي ترفع كأسها شبه الفارغ، "وللراحلين الذكر الحسن..."

لندن 21 كانون الثاني 2023

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

صدر للمؤلف

1. **"العبور إلى الضفة الأخرى"** (مجموعة قصصية)، عام 1992، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا
2. **"أحلام الفيديو"** (مجموعة قصصية)، عام 1996، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا
3. **"رمية زهر"** (مجموعة قصصية)، عام 1999، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا
4. **"خيانة الوصايا"** (ترجمة)، دراسات نقدية لميلان كونديرا، عام 2000، عن دار نينوى، دمشق ـ سوريا
5. **"مفكرة بغداد: يوميات العودة إلى مسقط الرأس"** (كتاب يوميات) ، عام 2004، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان
6. **"كوميديا الحب الإلهي"** (رواية)، عام 2008، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 "alfyaa.net
7. **"لعبة الأقنعة"** (مجموعة قصصية)، عام 2008، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
8. **"حين تغيرنا عتبات البيوت"** (مقالات)، عام 2021، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
9. **"جاذبية الصفر WEIGHTLESSNESS"** (رواية)، عام 2023، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 "alfyaa.net

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لؤي عبد الإله

- كاتب عراقي وُلد في 2كانون الثاني 1949في بغداد. قضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية متنقلاً مع أسرته بين قضاء الحويجة في محافظة كركوك، ومنطقتي أبو غريب والزعفرانية الأولى الزراعيتين، وذلك بسبب تنقل والده عبدالاله أحمد محمد الذي كان يعمل موظفاً في وزارة الزراعة.
- أهم هذه المحطات كانت تلك التي قضاها في الزعفرانية الأولى، على أطراف بغداد، وهي منطقة تقع على ضفاف نهر دجلة وتحيط بها من كل جانب بساتين النخل والحمضيات. وفي ثانوية جسر ديالى أنهى دراسته الثانوية، وكان الوصول إليها يتطلب ركوب الباص من وسط بغداد إلى منطقة المدائن.
- وقد تشكلت له خلال سنته الإعدادية مجموعة صداقات قائمة على القراءة في مختلف المجالات، وتبادل الكتب والمقالات، وكان للأستاذ الراحل محمود الريفي دور كبير في توجيهه نحو الأدب والفلسفة خلال عامَي 1964-1965.
- بعد أن أنهى دراسته الجامعية وحصوله على بكالوريوس

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

في الرياضيات من كلية العلوم / جامعة بغداد، خدم لعامٍ واحد في الجيش، ثم عُيّن مدرساً للرياضيات في ثانوية العطيفية حتى عام 1976، حيث سافر ضمن بعثة تعليمية عراقية إلى الجزائر، وكان من المقرر أن يعود إلى العراق في عام 1980بعد انتهاء إعارته، لكنه قرر البقاء في الجزائر والعمل بموجب عقد شخصي كمدرس للرياضيات في معهد للمعلمين بمدينة وهران.

- نشر أول قصة قصيرة له في مجلة **الآداب اللبنانية** عام 1983تحمل عنوان "**طيور السنونو**".
- انتقل **لؤي عبد الإله** إلى لندن عام 1985، حيث عمل في عدة مجالات منها التعليم والترجمة.
- ظل **لؤي عبد الإله** منذ وصوله إلى لندن عام 1985يعمل في مجالَي الترجمة وتدريس الرياضيات أولاً في معاهد مسائية مختلفة، ثم بدأ قبل حوالي عشرين سنة بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها في معهد **سواس** و**جامعة ويستمنستر** وجامعة **أغا خان**.
- منذ أواخر الثمانينيات وحتى الآن، نُشرت له مقالات أدبية وفكرية وقصص قصيرة في عدد من الصحف العربية مثل "**الحياة**"، و"**الشرق الأوسط**"، و"**العرب**"، و"**القدس العربي**"، كما نُشرت أعماله في مجلات أدبية متعددة مثل "**الآداب**"اللبنانية، و"**الكرمل**"، و"**الناقد**"التي كان يصدرها رياض الريس في لندن.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa